

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإنسانية - قسنطينة -

الرقم الترتيبي/.....

رقم التسجيل

الآية القرآنية

بين

الإعجاز اللغوي والعلمي

(دراسة وصفية وظيفية)

رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية

شعبة اللغة العربية والدراسات القرآنية

إشراف الأستاذ الدكتور:

رابح دوح

إعداد الطالب:

صالح غريبي

لجنة المناقشة

جامعة منتوري قسنطينة	أ. التعليم العالي	رئيسا	- أ.د حسن كاتب
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة	أ. التعليم العالي	مقررا	- أ.د. رابح دوح
جامعة منتوري قسنطينة	أ. محاضر	عضوا	- د. صالح خديش
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة	أ. محاضر	عضوا	- د. ذهبية بورويس
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة	أ. محاضر	عضوا	- د. ياديس لوغالي

نوقشت يوم الثلاثاء 11-07-2006م

السنة الجامعية

1426هـ - 1427هـ / 2005م - 2006م

المقدمة:	أ-ط.....
المدخل: النظام اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية.....	20-01.....
الباب الأول: مفهوم الآية في الدراسات اللغوية والقرآنية.....	174-21.....
الفصل الأول: الآية في الدراسات اللغوية.....	38-21.....
المبحث الأول: مفهوم الآية.....	28-21.....
المبحث الثاني: العلاقة بين المعنى اللغوي والقرآني.....	38-29.....
الفصل الثاني: الأنواع التركيبية للآية القرآنية.....	87-39.....
المبحث الأول: آيات الحروف المقطعة.....	68-39.....
المبحث الثاني: الآية المركبة.....	87-69.....
الفصل الثالث: الآية في الدراسات القرآنية.....	174-88.....
المبحث الأول: آية التحدي والإعجاز (السورة القرآنية).....	131-88.....
المبحث الثاني: الآية العظمى والمعجزة الكبرى (القرآن الكريم).....	174-132.....
الباب الثاني: الآية القرآنية بين ثبات اللفظ وتجدد حركة المحتوى.....	290-175.....
التمهيد:	186-175.....
الفصل الأول: نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية.....	216-187.....
المبحث الأول: الإعجاز اللغوي في بعض آيات المحكمات.....	203-187.....
المبحث الثاني: الإعجاز اللغوي في بعض آيات المتشابهات.....	216-204.....
الفصل الثاني: نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية.....	243-217.....
المبحث الأول: الإعجاز العلمي في بعض آيات المحكمات.....	230-217.....
المبحث الثاني: الإعجاز العلمي في بعض آيات المتشابهات.....	243-231.....
الفصل الثالث: نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية.....	290-244.....
المبحث الأول: الإعجاز اللغوي والعلمي في بعض آيات المحكمات.....	266-244.....
المبحث الثاني: الإعجاز اللغوي والعلمي في بعض آيات المتشابهات.....	290-267.....
الخاتمة:	292-291.....
قائمة المصادر والمراجع.....	307-293.....

المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر
العلوم الإسلامية

الحمد لله الذي جعل القرآن معجزة خالدة الى يوم الدين ، تشهد بصدق سيد المرسلين جاء بها الوحي الى سيد ولد عدنان لينقذ بها بني الانسان على مر العصور والأزمان قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾

وبين أن هذا الكتاب سبيل الهداية للعباد في شؤون دينهم ودنياهم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾، ونزه كتابه عن كل نقص وتحريف فقال عز وجل ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. وتحدى جميع خلقه على أن يأتوا بمثله فالتوت أعناهم صاغرين قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

والصلاة والسلام على البشير النذير الذي شهد له ربه بالنبوة والرسالة مع أميته فكان هذا أكبر برهان على نبوته قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

أما بعد:

فموضوع هذه الدراسة الآية القرآنية بين الإعجاز اللغوي والعلمي دراسة وصفية ووظيفية، وهو بحث جديد قدم وحقل خصب لم يتناوله الدارسون بشيء من التفصيل من قبل، وقد يفاجأ المهتمون بالدراسات الإعجازية حينما يدركون أن المكتبة العربية، قد تخلت من هذا النوع من الدراسة التي تسد فراغا كبيرا في إسهامات أصحاب الدراسات القرآنية في تأصيل الدرس الإعجازي للآية القرآنية، ومدى تطور دلالتها من مفهوم الإعجاز المقرون بالتحدي إلى الإعجاز بمعنى الدليل والبرهان القاطعين على كون القرآن من عند الله تعالى، بصرف النظر عن موضوع هذا الدليل لغويا كان أم علميا...؛ لأن جوهر الإعجاز القرآني يكمن في جانبين لغويين متلازمين هما:

- جانب اللفظ الثابت في شكله اللغوي العام الذي يهر الفصحاء فسجدوا لفصاحته وأرغم البلغاء من الأعداء فاعترفوا ببلاغته ومغايرته لما عرفوه من أضرب الكلام وأفانين أجناسه؛ لأن لغته كانت لب كلام العرب، وهو مع ذلك لم يخرج عن معهود العرب في لسانهم، فمن حروفه ركبت كلماته، ومن كلماتهم ألفت جملة، وآياته، وعلى مناهجهم في التأليف جاء تأليفه، وبهذا كان أدخل في الإعجاز، وأوضح في

قطع الأعدار، وأعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمهم، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، ومع ذلك فلفظه ثابت بنسب دقيقة تخير الله حروف ألفاظه وألفاظ جملة وآيات سوره في تناسق وإحكام ودقة وانسجام جعلت القرآن كله كالأية الواحدة ولا غرو فهو أفضل ما أخرجته العناية الأزلية لبني البشر.

- جانب المضمون المتحرك بحركة التاريخ والمعنى المتحدد بتحدد الحياة والعلم والمعرفة الصالح لكل زمان ومكان؛ لأن الإحاطة بمعاني كلام الله تعالى غير ممكنة وكل عالم يستكشف من أسراره ما يتناسب مع اختصاصه وتخصصه حسب خلفيته المعرفية كما قال عنه الزركشي: كل علم منتزع من القرآن وإلا فليس عليه برهان.

وباعتبار أن الإعجاز القرآني في عمومته هو أقصى ما نهدف إلى إظهاره وتجليته جميع الجهود التفسيرية على اختلاف أنواعها ومذاهبها أثناء شرحها وتنصيبها على مكان الروعة والخروج على المعتاد في نصوص الوحي.

وأما دوافع اختياري لهذا الموضوع فإنها ترجع إلى محاولة الوقوف على مدى تطور دلالة الآية القرآنية في شكلها اللغوي الثابت ومضمونها المتحرك بحركة التاريخ من خلال الربط بين الإعجاز اللغوي والعلمي، ومدى التحقق العملي للإعجاز القرآني المعترف بوجوده في الأصل وما يزال أمراً مشروعاً - إن لم يكن واجباً - في كل مرحلة تاريخية بالوسائل المتاحة وحسب مستويات المقدرة العلمية المتوفرة.

بالإضافة إلى تأكيد النظرة القائلة بأن القرآن معجز في كل آياته ومحكمات ومتشابهات لأن العرب والمسلمين قد تأخروا ونأوا عن لغتهم وفهم قرآتهم، وأن هناك أموراً قد استحدثت وقضايا قد استجدت فعلينا أن نفهم لغتنا في قرآنا فهما يسائر أحدث ما استجد من الحقائق العلمية الثابتة نسبياً.

ومن هذا المنطلق؛ فإنه يجب علينا أن ننظر إلى القرآن الكريم نظرة تدبر على أنه المادة المعرفية الجامعة للعلم بكل شيء والداعية إلى تعلم ذلك العلم، فهو سؤال كوني كبير وإجابة معرفية شاملة في وقت واحد، ولا بد لنشاطنا المعرفي من التعشق أو العلق بالأسؤال والإجابة في وقت واحد، فالذي يسأل ويحجب هو القرآن الكريم والذي يتعلم التساؤل والإجابة الإنسان؛ لأن العقل لا يقدم حلولاً وإنما يتبين الحلول كلها مما يعلم ومما لا يعلم وما تلك الحلول إلا المسطورة فيه منذ خلقه حتى قيام الساعة.

ولهذا سعينا إلى محاولة الربط بين بلاغة القرآن وحقيقته المعرفية.. من أجل الكشف والإيضاح والإظهار لما في الآفاق وما في الأنفس ممثلاً بالتبيين القرآني.

ومن ثم كان لزاماً علينا أن نتبع تطور دلالة الآية القرآنية منذ القرن الأول (عصر الإعجاز اللغوي)؛ لأنها كانت تتطور من قرن إلى قرن حتى عصر الإعجاز العلمي الذي هو توسيع مدلول الآية

القرآنية وتعميق معانيها في الوجدان والفكر الإنساني بالانتفاع بالكشوف العلمية المعاصرة في توسيع هذا المدلول وتعميق هذه المعاني عن طريق الاستئناس بالموافقات الدقيقة والمقارنات العميقة الملحوظة للعلماء المتخصصين والخبراء الباحثين في مجالات الكون والحياة في شتى علومها ومعارفها؛ لأن الحقيقة العلمية لا تعارض مع الحقيقة القرآنية المطلقة.

وقد كانت مسيرة هذا البحث صعبة جدا، تتطلب كثيرا من الصبر والتأني؛ لأن المادة العلمية لم تكن ميسورة وإنما تتطلب أيضا مجهودا جبارا للحصول عليها، ثم استخراجها من بطون الكتب قديمها وحديثها، وكل هذا جعلني أطيل البحث فيها وقد استغرق مني أكثر من ثلثي الوقت بالإضافة إلى القراءة والاقْتباس...

وقد كدت أتراخي لولا تشجيعات الأساتذة وعلى رأسهم أستاذي المشرف وقد كانت ثقتي بالله كبيرة خاصة وأنا أبحث في أقدس وأعز نص في الوجود وهو القرآن الكريم مما شد أزرعي وضاعف من عزيمتي وجعلني أتخطى الصعوبات والعوائق التي تعترض سبيل كل باحث طموح.

وقد تنوعت مصادر ومراجع هذه الدراسة فقد كان عمادها كتب التفسير والدراسات القرآنية وكتب الإعجاز القرآني اللغوي والعلمي التي استخرجت منها الإشارة البلاغية والحقائق العلمية المعرفية كما استعنت بالمعاجم وكتب الطبقات وكتب اللغة والبلاغة وغيرها مما يمت بصلة مباشرة وغير مباشرة بموضوع الدراسة وقد أثبتتها في نهاية هذا البحث.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن نتبع في دراستنا منهاجا وصفيا وظيفيا؛ لأنه يجمع بين وصف البنية اللغوية ووظيفتها الإبداعية في الوقت ذاته ضمن النظام لتعامل اللسان العربي المبين، لاستكشاف كل النتائج الممكنة في ضوء الدراسات القرآنية مع تأكيد العلاقة بين اللفظ الثابت، والمعنى المتحرك بحركة التاريخ في إطار النظام اللغوي القرآني في فهم تطور مضامين ودلالات الآية القرآنية في ضوء ما انبثق من خلاصات ونتائج أسفرت عنها المناهج والدراسات اللغوية واللسانية الحديثة والمعاصرة.

ولما كان لقضية إعجاز الآية القرآنية هذا الأثر البالغ في توجيه مسيرة التفسير العلمي فقد جاء هذا البحث مؤلفا من مدخل وبابين وخاتمة.

أما المدخل فقد خصصته للحديث عن النظام اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية وقد بينت من خلاله أن تاريخ أبحاث اللسان العربي المبين قد نشأت مرتبطة منذ البداية بالقرآن الكريم، ومرت بثلاث مراحل هي:

... مرحلة الدراسة الوصفية التحليلية الشاملة للمادة اللغوية للعربية وقد احتتمها سيويه بكتابه الذي اشتمل على قواعد العربية بصيغتها المكتملة واستخدم فيها العلماء منهاجا وصفا وظيفيا يصف البنية اللغوية ويبين وظيفتها الإبلاغية.

- مرحلة الدراسة النحوية المتخصصة التي بدأت مع تدريس كتاب سيويه وأدت إلى ظهور الخلاف النحوي بين مدرستي البصرة والكوفة حيث فصل بين علوم العربية إلى أن ظهر مع أبي علي الفارسي اتجاه جديد سمي بمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية (المدرسة البغدادية) سار هذا الاتجاه وبلوره ابن جني في "الخصائص" وعبد القاهر الجرجاني في "دلائل الإعجاز" في نظريتين لغويتين متتامتين.

- مرحلة تأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة عن طريق ربط البلاغة بالنحو وقد بدأ عبد القاهر الجرجاني في هذه المرحلة وبلور ملاحظها خاصة في كتابه "دلائل الإعجاز" ثم سار الرنخشري في هذا الاتجاه وعمقه خاصة في كتاب "المفصل في علم العربية" الذي اشتهر شرح ابن يعيش له وجاء السكاكي فتبنى هذا الاتجاه وطوره في كتابه "مفتاح العلوم"، كما عرضت بجانب كل ذلك لبعض جوانب نظرية اللساني الحديث ماتيزيوس في إطار دعم هذا المسار من العلم اللغوي الحديث حول نظرية التقسيم الوظيفي الإبلಾಗಿ للجملة الخبرية الذي يختلف عن تقسيم مارتينييه الوظيفي المنطقي لمكونات الجملة معزولة عن السياق الذي تدخل فيه ومن ثم لا تأخذ بالحسبان السياق حيث نعتبره من ضمن الظواهر غير اللسانية بينما يعنى التقسيم الوظيفي الإبلಾಗಿ للجملة العربية عند ماتيزيوس الوظيفة الإبلاغية للجملة الخبرية، وذلك حسب حال السامع ضمن السياق الذي تدخل الجملة فيه.

ثم ختمت هذا المدخل الذي بمثابة الخلفية المعرفية لهذه الدراسة القرآنية بطرح إشكالية البحث في شكل سؤال جوهرى رئيس.

أما الباب الأول فقد اختص بمفهوم الآية في الدراسات اللغوية والقرآنية وقد اشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول:

في الآية في الدراسات اللغوية وقد شرحت فيه مفهوم الآية لغة واصطلاحاً وآراء العلماء فيها.

وأهم ما عرضت له في هذا الفصل هو العلاقة بين المعنى اللغوي والقرآني لمصطلح "الآية" وقد تبين أن العلاقة بين المعنيين علاقة ترابط وتكامل؛ لأن الآية القرآنية معجزة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - لما تحمل من المعاني الدقيقة والأحكام المفضلة وقد شرف المعنى اللغوي بحمل هذه المعاني والأحكام لما لها من خصائص وميزات، خصه الله تعالى بها، والمناسبة بينهما واضحة؛ لأن الآية القرآنية

معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إليها وهي علامة على صدق من جاء بها وفيها عيرة وعظة لمن أراد أن يعتبر وهي دليل وبرهان على أن هذا القرآن من عند الله تعالى، وهي من الأمور العجيبة لسموها وبلاغتها وإعجازها وهي جماعة الحروف، فمعانيها في اللغة موجودة في معناها القرآني؛ لأن أي كلمة قرآنية تحمل معنى يدور في إطار المعنى الذي يحمله جذرها اللغوي ولا توجد كلمة قرآنية رديفة لأخرى بالمعنى المطلق الذي يتصوره بعض الدارسين.

وتناولت في الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

ذكرت في هذا الفصل أنواع الآيات القرآنية كما أوردها العلماء في مؤلفاتهم من حيث تأليف

حروفها وتركيبها اللغوي... حين قسموها إلى قسمين:

القسم الأول: آيات الحروف المقطعة (فواتح السور)

القسم الثاني: الآية المركبة

وقد عني العلماء عناية بالغة بآيات الحروف المقطعة خاصة وانقسموا حيالها إلى طائفتين:

طائفة اقتنعت بأنه لا سبيل إلى إدراك دلالتها وأخرى اجترأت على الخوض فيها فتباعدت الطرق بهم وأعطونا كثيرا من الدلالات التي لقي بعضها قبولا واسعا وبعضها قبولا ضيقا، ولم يلق بعضها القبول إلا من صاحبها، ومهما يكن من شيء فالأمر المؤكد أنه لم يقع بواحد مما قالوا من تأويلات إلى اليوم يقين يضمها كلها ويسكت المخالفين.

ولقد لقي القول بأن فواتح السور آية التحدي والإعجاز الرضا العام ويكاد يغطي على غيره من الأقوال المختلفة من حيث الآراء والمنطلقات والمناهج والغايات وزوايا الدراسة التي تمثل في مجملها مدى التفاعل والفهم الإنساني النسبي غير النهائي في كل عصر ومصر.

كما عقدت الحديث عن أصناف الآيات المركبة، ووجدت أن مصطلح الآية القرآنية شامل في دلالاته على كل مقدار من القرآن مركب تركيبا ظاهرا لفظا ومعنى أو مركب تقديرا وإلحاقا أقله حرفان كآيات الحروف المقطعة وهي المعنية بالإلحاق أو كلمة دالة على جزء من جملة وهي المركبة تركيبا مقدارا ككلمة (مدهامتان) وتسمى "بالآية الكلمة" كما تطلق على مختلف أصناف الجمل الإسمية كانت أو فعلية مهما كان أسلوبها وغرضها خبرية أو إنشائية وتسمى "بالآية الجملة".

ويطلق أخيرا على النص الكامل المستوفي للموضوع أو الغرض الذي تحدثت عنه الآية في آيتي

(محمد) و (المداينة) وتسمى بالآية النص وهي مركبات لفظا ومعنى.

واختص الفصل الثالث بالآية في الدراسات القرآنية

وقد شرحت فيه معنى السورة لغة واصطلاحاً، ومدى الصلة بين التعريفين ثم عرضت لفكرة التحدي والإعجاز بالسورة القرآنية مسترشداً بالقرآن نفسه في توضيح ذلك من خلال الفرق بين آيات التحدي، وقد بينت أن القرآن الكريم كله قليله وكثيره على حد سواء في الإعجاز فليس الاتيان بسورة أسهل من الاتيان بالقرآن كله فالتحدي بالكيف لا بالكم وبالنوع لا بالمقدار فلا يهم إذا أن يكون التحدي بسورة جاء قبل التحدي بعشر سور أو قبل التحدي بالقرآن الكريم كله.

ولذا فلا أثر للاختلاف في ترتيب آيات التحدي ما دام لا يترتب عليه أثر في قوة التحدي والعجز كان عن الاتيان بجنس القرآن لا عن مقداره.

ثم عرضت لأقوال الدارسين قدامئهم ومحدثهم في الكشف عن سر إعجازها "بعلم المناسبة" الذي يشهد بحق وصدق على إعجاز القرآن الكريم ويدل بأبلغ دلالة على مصدر القرآن الكريم وأنه كلام الله تعالى، كما ينبغي أن تتفرغ لهذا العلم جهود العلماء والمهتمين بالدراسات القرآنية؛ لأنه يعين على الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى وتحقيق مقاصده في نفوس المؤمنين.

كما ذكرت في هذا الفصل أيضاً أوجه الإعجاز المتعلقة بمحتوى الآية العظمى والمعجزة الكبرى (القرآن الكريم) كما أوردها العلماء في مؤلفاتهم، وقد وجدت في هذه الوجوه تداخلاً وتكراراً في بعضها، وحشر ما لا يصلح أن يعد وجهاً فيها، وهذه ما أخذ يكاد لا يخلو منها بحث في الإعجاز، فنبهت على جميع ذلك وقدمت ما اهتديت إليه - فيما اعتقد - محرراً من التداخل أو التكرار أو الحشو وعرضت لقضية التفسير العلمي للقرآن الكريم في أثناء حديثي عن الإعجاز العلمي وذكرت آراء المؤيدين والمعارضين... وأتبع ذلك برأي صائب في هذا الموضوع.

وخلاصة ما انتهيت إليه في هذا الفصل هو أن أوضح وجوه الإعجاز القرآني وأولاها بالقبول هو الإعجاز اللغوي بمفهومه الأوسع والأشمل، أما سائر الوجوه فلا تعدو أن تكون من دلائل وبراهين كون القرآن من عند الله وليس من كلام محمد - صلى الله عليه وسلم -.

أما الباب الثاني:

فقد تناول الآية القرآنية بين ثبات اللفظ وتجدد حركة المحتوى وقد صدرته بتمهيد عن الصلة بين الإعجاز اللغوي والعلمي وما أفادته الدراسات اللغوية والعلمية للقرآن الكريم من نظرية الإعجاز القرآني. وقد جاء هذا الباب في ثلاثة فصول أيضاً:

الفصل الأول:

تناولت فيه نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية في بعض آيات المحكمات والمتشابهات وانتهت الدراسة إلى أن الآيات المحكمات التي ظاهرها وجه تاريخي يخاطب الرسول -صلى الله عليه وسلم- إنما هي دلائل وبراهين مطلقة مجردة تخاطب كل نفس بشرية في كل زمان ومكان؛ لأن الآية القرآنية مطلقة لا يحيط بها تاريخ ولا زمان ولا مكان وتستمد إطلاقها من تعلقها بصفات الله تعالى التي هي فوق التاريخ والزمان والمكان.

كما بينت في الآيات المتشابهات كيف أن الكلمة القرآنية هي واحدة وصف وتسمية تصف المسائل وصفا مطلقا يتعلق بعلم الله تعالى المطلق بحقيقة هذه المسائل وهي روح تفيض بالحياة تعطي كل جيل في كل زمان ومكان صورة للمسألة التي تصفها وتسميها بما يناسب مدارك هذا الجيل؛ فالآية القرآنية تعطي كل جيل تصورا شاملا عن المسائل وذلك حسب إدراك هذا الجيل وحسب الزاوية التي ينظر منها إلى هذه المسائل ومن ثم تعطي تصورا يتطور مع تطور العلم والمعرفة يوازيه تطور في إدراك حقيقة ما تحمله الآية القرآنية لهذه الحقائق هو تبيان للبشر بأن القرآن الكريم حق وأنه فوق الزمان والمكان.

وفي الفصل الثاني:

تناولت نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية في بعض آيات المحكمات والمتشابهات وانتهت الدراسة إلى أن الإعجاز القرآني إذا كان في أحد معانيه الإخبار عن المستقبل فإن الإعجاز العلمي (الطبي) في الكتاب والسنة هو الإخبار عن أسرار الحلال والحرام في العبادات والمعاملات.. إن على سبيل التوجيه وبيان فوائدها الصحية أو على سبيل المنع والتحريم وبيان مضارها، وهذا ما شهد به وأقره الطب الحديث ويعتبره من الطب الوقائي في الإسلام... الخ.

وهذه قضية تعتبر من ضروريات مهمة الدعوة إلى الله تعالى بتحديد ما يتاح من إمكانات وسبل تخاطب العقل بالحجة والمنطق العلمي في زماننا الذي صار لا يعتد إلا بكل جديد يثبت العلم التحريبي ونظرياته المادية.

كما انتهت الدراسة إلى الإعجاز بالسبق وذلك في إشارة بنصوص القرآن الكريم إلى حقائق علمية ثبتت في العصر الحديث أو ما زال العلم يلهث وراء إثباتها.

وتناولت في الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي في بعض آيات المحكمات والمتشابهات.

وأوضحت أن أحكام الآية القرآنية متكاملة متعاضدة في وصف وتصوير المسائل ولا اختلاف ولا تصادم بينها، وهي كل لا يتجزأ وأن الحديث النبوي الشريف يبين معناها ويفهم ضمن إطارها، وأن ألفاظ دلالاتها تتطور مع مرور الزمن بتوسع كبير بحيث لا يكاد يحصيها دارس والدليل على ذلك أن كل ما يكشفه العلم من حقائق في أي عصر من العصور إلا ويجدونها مذكورة في الآية القرآنية أو السنة النبوية أو هما معا إما تفصيلا وتوضيحا وإما إشارة وتلميحاً مما يعد إعجازاً مطلقاً عظيماً.

وكذلك بالنسبة للآيات الكونية التي لم يصل العلم بعد إلى الكشف عن حقيقتها مما يدل على أن الإعجاز العلمي هو الآخر موقف من مواقف التحدي كإعجاز اللغوي، والمتحدى لا بد أن يكون واقفاً على أرضية صلبة ولذلك لا يجوز أن يوظف في الإعجاز العلمي إلا الحقائق العلمية المطابقة للحقيقة القرآنية كما أوضحنا في النماذج السابقة، كل ذلك شاهد على أمر نحد فيه كل يوم جديداً، ألا وهو الإعجاز المتحدد للقرآن العظيم.

وبعد: فإن الإحاطة بموضوع يتناول إعجاز القرآن أمر عسير، بل مستحيل تقف دونه قدرات البشر جميعاً، غير أن ما لا يدرك كله لا يترك جله لهذا تجرأت على الكتابة في هذا الموضوع من هذا المنطلق، وأنا موقن بأن ما يمكن أن تضيفه هذه الدراسة ليس إلا قطرة في بحر أو بمثابة أصبع تشير من على الشاطئ إلى المحيط المتلاطم الذي لا يستبين له حدود.

وعلى أي حال فإن المهم من دراسة الإعجاز القرآني أن يصل منها الدارس إلى ما يدرك معه أن صياغة هذا الكتاب العزيز ليست مما من شأنه أن يخضع للطاقة الإنسانية وأن معانيه ليست مما قد يأتي تشبه الفكر الإنساني...

وأحسب أنني قد أثبت من الحديث عن الآية القرآنية بين الإعجاز اللغوي والعلمي -على إيجازه- بما يعطي للقارئ هذا اليقين وهذه الحقيقة.

ومع ذلك فليست أزعم أنني أحطت بالموضوع من كل جوانبه فتلك دعوى لا تتفق مع العلم الذي نخلص له ونجعله، وإنما حسبي أن يكون هذا البحث خطوة على الطريق أرجو أن تتلوها خطوات تكمل ما فيه من نقص، وتقوم ما قد يكون فيه من عوج وحسبي أنني أخلصت النية وبذلت الجهد.

وفي الأخير لا يموتني أن أقدم شكري الحار للذين كان لهم الفضل في إخراج هذه الدراسة إلى الوجود وعلى رأسهم أستاذي الفاضل المشرف الدكتور "رابح دوب" الذي أعانني بتوجيهاته العلمية ونصائحه القيمة ورعايته الصادقة وطيبة نفسه وتواضعه في فترة كنت في أمس الحاجة إلى من يأخذ بيدي فكان خير عون لي وخير زاد في كل المراحل التي قطعتها، إذ كان يذل الصعاب أمامي بتوجيهاته السديدة ويحتمس للعمل كلما تراخيت ويبشري بقرب الانتهاء كلما يئست فجزاه الله عني خير الجزاء وأبقاه ذكراً لنا يستفيد طلاب العلم من منهله الغزير الصافي.

كما أوجه شكري إلى جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة وجامعة الشيخ العربي التبسي بتبسة اللتين وفرتا لي كل أسباب البحث وأعانتان في هذا المشوار الشاق، كما لا أنسى أن أشكر الأساتذة وغيرهم الذين قدموا لي يد العون بملاحظاتهم السديدة من أجل إخراج هذا البحث على أحسن وجه ممكن.

وعلى الرغم من هذا فإنني أردد مقولة العماد الأصفهاني:

"إنني رأيت أنه لا ينسب لإنسان أن يتوهمه إلا فقال في غيره:

لو غير هذا ثلثي (أحمد)، ولو زبد هذا ثلثي (بسم)،

ولو قدر هذا ثلثي (أفضل)، ولو فرغ هذا ثلثي (أعمل)،

وهذا من أخطر العبر زوئيل عني (استنزه)، أنتقص عني (مئة البئر)".

وإنه أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن يتقبل مني هذا العمل المتواضع وأن يجعله نورا يسمي بين يدي في الدنيا والآخرة، فهو عمل قصدت من ورائه خدمة كتاب الله تعالى ولغة أمي.

إنه نعم المولى ونعم النصير

صالح غويبي

تبسة في: 27-03-2006

يكشف المنهج التاريخي العلمي في دراسة اللغات الإنسانية⁽¹⁾ أنه كان يوجد تلازم بين اللغة والتفكير ووظيفة الإبلاغ منذ بداية نشأة الكلام الإنساني.

وأن اللغة الإنسانية كانت في نشأتها الأولى منطوقة وقد خضعت في تطورها لقانون صوتي عام نجم عنه تبلور الأصوات اللغوية في اللغات الإنسانية المختلفة، وأدى هذا التطور الصوتي إلى توسع اللغة الإنسانية في أداء وظيفة الإبلاغ (الاتصال) حتى صارت اللغة نظاما كاملا للإبلاغ من ناحية، كما أدى إلى توسع اللغة الإنسانية في التعبير عن التفكير حتى أصبحت اللغة نظاما كاملا للتعبير عن التفكير الإنساني ثانية⁽²⁾.

وقد امتلك الإنسان القدرة على التقطيع منذ ظهور الصيغة اللغوية الأولى في نطق (الكلمة الجملة) وتمحور التطور الصوتي للصيغة اللغوية الإنسانية حول تنويع التقطيع الصوتي لمكونات تلك الصيغة مما أدى إلى بلورة نظام الصوائت والصوامت، وحمل هذا التطور الصوتي في الوقت نفسه من الكلمة الجملة إلى الجملة المكونة من كلمات منفصلة بعضها عن بعض، وارتبط بذلك الانتقال من الكلمة ذات الصيغة الواحدة الثابتة التي لا تتغير (غير المتصرفة) إلى الكلمة ذات الصيغة المتعددة المتغيرة (المتصرفة) كما أن التطور الصوتي للصيغة اللغوية الإنسانية الأولى حمل معه كذلك الانتقال التدريجي من التعبير القائم بمعنى مفاهيم مشخصة جدا إلى التعبير القائم على مفاهيم مجردة⁽³⁾.

لقد أصبح التمايز بين اللغات الإنسانية واضحا بعد مرحلة الارتجال القائمة على المفاهيم المجردة، كما أصبحت طرق التعبير اللغوي عن الأفكار الإنسانية مختلفة باختلاف اللغات المتنوعة بتنوعها؛ لأنها تتحدد بالخصائص البنيوية للغة التي يتم بواسطتها التعبير عن تلك الأفكار، وأصبح بعد ذلك من غير الممكن استنباط قواعد منطقية لغوية عامة تصدق على جميع اللغات، "وقد تبينت اللسانيات الحديثة هذا الموقف حين رفضت المبدأ القديم القائل بضرورة دراسة مختلف اللغات وفق نموذج قواعد اللغة اليونانية أو اللاتينية الذي زعموا أنه يعبر عاما لجميع اللغات"⁽⁴⁾.

1- انظر استنبطه الدكتور جعفر ذك الباب، من اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية، الذي نوره ابن جني في (الخصائص)، وعند الشاعر الجرجاني في (دلائل الإعجاز)، في نظريتين لغويتين متتامتين، وتناه منذ سنة 1973م، في رسالة الدكتوراه التي عنوانها (مبادئ الدراسة المنقارية لترتيب الكلمات في اللغة العربية الفصحى واللغة الروسية الأدبية المعاصرة).

2- طريقة جديدة في دراسة تصريف الأفعال في العربية: جعفر ذك الباب، ص 21، ط 01، مطبعة الأهالي، دمشق، سوريا، 1991م.

3- المرجع نفسه: ص 22.

4- نحو نظرة جديدة في فقه اللغة: جعفر ذك الباب، ص 22، ط 01، مطبعة الأهالي، دمشق، سوريا، 1989م.

المدخل النظام اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية

إن تاريخ أبحاث اللسان العربي في ضوء الدراسات القرآنية تكشف أن دراسة اللسان العربي مرت

بثلاث مراحل أساسية هي:

1- مرحلة الدراسة الوصفية التحليلية الشاملة.

2- مرحلة الدراسة النحوية المتخصصة.

3- مرحلة الدراسة الوظيفية للغة.

1- مرحلة الدراسة الوصفية التحليلية الشاملة:

ويظهر من المسار التاريخي أن الدراسة التحليلية الشاملة للمادة اللغوية للعربية قد سبقت بلسورة مقولات لسانية عامة، ونتيجة لذلك عكست آراء اللسان العربي-منذ المرحلة الأولى- التي توجهها الخليل بن أحمد الفراهيدي⁽¹⁾ (ت 175 هـ).

واختتمها تلميذه سيبويه⁽²⁾ (ت 180 هـ) في (الكتاب) خصائص بنية العربية وكانت تحمل طابع الأصالة؛ لأنها لم تطرح نتيجة اقتباس آراء فلسفية أو لسانية أجنبية "لقد قام منهج البحث اللساني العربي على الدراسة الوصفية التحليلية الشاملة للمادة العربية بغية اكتشاف القوانين التي تحكم العربية على أنها نظام كامل، واستوجب ذلك قبل كل شيء الانطلاق من الوحدة التي لا تنقسم بين الشكل والمضمون، لأن البنية اللغوية لا تستقل عن وظيفة اللغة الاجتماعية لذا تميزت آراء اللسان العربي منذ بداية تبلورها بأنها لم تنطلق من منهج وصفي تحت يعتمد على وصف الشكل وتحديد البنية الخارجية لظواهر اللغة بل انطلقت من منهج وصفي وظيفي لا يكتفي بوصف البنية الظاهرية لمختلف الظواهر اللغوية، وإنما يكشف ويبين ارتباط خصائص البنية اللغوية بالوظائف التي تؤديها في الكلام"⁽³⁾.

1- نشير هنا إلى أن المسائل التي تكلم عليها الخليل في كتابه العين تشمل علوم العربية كلها من معجم وأصوات وفتح ولفظ ونحو وصرف وعروض وبلاغة وأدب ومعرفة بآداب العرب ولم يقتصر في إيراد المباحث اللغوية على مقدمة كتابه وحدها. ينظر العنصر للخليل، ج 01، ص 05، تحقيق عبد الحميد هندراوي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424 هـ / 2003 م، وينظر الفهرست لابن النديم، ص 68 - 69، تحقيق: محمد أحمد، المكتبة التوقيفية، مصر. وينظر المحكم في نطق المصاحف، أبو عمرو الناوي، ص 09، تحقيق: عزة حسن، ط 02، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1418 هـ-1997 م.

2- لم يؤلف الخليل في النحو كتابا وكانه اكتفى بخط تلاميذه وما ورثهم إياه منه وقد امتلأ كتاب تلميذه سيبويه الذي كان المبع تلاميذه وأحبه إليه بآراء الخليل حتى قال القدماء "عقد سيبويه أبواب كتابه بلفظة الخليل ولفظ الخليل وقالوا: عامة الحكاية في الكتاب عن الخليل وكلما قال سيبويه سأله أو قال من غير نسبة فهو يعني الخليل ومن قولهم في ذلك أيضا الأصول والمسائل في الكتاب للخليل" وغيرها من الأقوال. ينظر مراتب النحويين: لأبي الطيب اللغوي، ص 65، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة تحفة مصر، 1955م، وينظر أخبار النحويين البصريين، السراي، ص 31، تحقيق: الزبيبي وخفاجي، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، 1955م. وينظر الفهرست: ابن النديم، ص 79.

3- نحو نظرة جديدة في فقه اللغة: جعفر دك الباب، ص 28.

وبفضل اعتماد هذا المنهج الأصيل كانت قواعد العربية المستنبطة من مرحلة الدراسة التحليلية الوصفية الشاملة عامة وشاملة لجميع علوم العربية غير قاصرة على قواعد الصرف والنحو فحسب أو على مسائل نحوية أو قضايا لغوية جزئية "وبسبب اعتماد المنهج الوصفي الوظيفي كانت الضوابط والقواعد التي تمحضت عن الدراسة التحليلية الوصفية الشاملة للمادة اللغوية كالعربية عامة وشاملة لجميع جوانب النشاط اللغوي، فلم تقتصر على موضوعات الصرف والنحو بل تعدتها إلى الأصوات والقراءات والتجويد والعروض والبلاغة"⁽¹⁾.

وقد مثل هذه المرحلة كتاب سيويه⁽²⁾ خير تمثيل، إذ حين نعود إليه نجد فيه "إشارات كثيرة مما دخل فيما بعد تحت اسم البلاغة وإن كانت شهرة سيويه في النحو قد صرفت الناس عن البحث في الجوانب الأخرى من الكتاب على أن النحو الذي نعرفه اليوم لم يكن في عصر سيويه مستقلا عن سائر علوم العربية وإنما كان جزءا منها والكتاب ليس نحو فقط، وإنما هو كتاب في علوم العربية فيه اللغة والنصوص، وفيه النحو والصرف، وفيه البلاغة والعروض، وفيه القراءات والتجويد، كما أن النحو نفسه لم يكن عند سيويه وأمثاله مقصورا على الإعراب والبناء وعلى الجزئيات الفرعية التي نعني بها اليوم، وإنما كان علما سيؤدي إلى فهم كلام العرب، وعدم اللحن فيه والتأليف على سمته، لذلك فنحن نجد في الكتاب باب اللفظ للمعاني، وباب ما يكون في اللفظ من الأغراض، وباب الاستقامة من الكلام والإحالة"⁽³⁾.

وبهذا استطاع أن يكشف بنجاح الخصائص المميزة لبنية اللغة العربية، وأن يضع القواعد الملائمة لبنيتها المحسدة للمنهج الوصفي الوظيفي الذي يصف البنية النحوية ويبين الوظيفة الإبلاغية التي تؤديها مما يعكس بدقة خصائص بنية العربية لذلك أحدث كتاب سيويه منذ حياة صاحبه أوسع الأصداء وأقبل عليه المشتغلون باللغة في إكبار وتعظيم.

¹ - نحو نظرة جديدة في فقه اللغة: جعفر دك الباب، ص 29.

² - هو أبو عمرو ابن عثمان النحوي البصري وشهرته تفي عن التعريف به وفي سنة وفاته خلاف كبير بين المصادر التي ترجمت له والمنفرد عليه أنه توفي أواخر القرن الثاني الهجري ما بين سنة (161 - 194 هـ). ينظر وفيات الأعيان: أبو العباس خلكان، ج 03، ص 413، تحقيق: عمي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، وينظر البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري: رابع دوب، ص 74، ط 02، دار الفجر، القاهرة، 1999م.

³ - المرجع في تاريخ البلاغة: مازن المبارك، ص 50-51، دار الفكر، وينظر: الكتاب سيويه، تحقيق عبد السلام هارون، المطبعة الأميرية، بولاق، الخلي، 1316هـ/1973م.

إن عظمة الكتاب⁽¹⁾، وما أحيط به من هالة، أدت إلى استكانة بعض علماء العربية واكتفاءهم بشرحه وتبيان مقاصده وقناعتهم بما خلفه لهم إمام النحاة⁽²⁾ وانصبت لذلك جهود الكثير منهم على الشروح والتعليق والتخصيص الجزئي، وبرزت بذلك خلافات في وجهات نظر الباحثين اللغويين وأخذت تبلور ملامح مذاهب ومدارس نحوية فكانت لذلك بداية مرحلة ثانية من مراحل تاريخ دراسات اللسان العربي.

2- مرحلة الدراسات النحوية المتخصصة:

لقد ارتبط ظهورها بنشأة الخلاف النحوي في وجهات نظر الباحثين اللغويين فقد فتح الأخفش الأوسط⁽³⁾ (ت 215 هـ) أكبر أئمة البصريين بعد سيبويه أبواب الخلاف على أستاذه سيبويه في كثير من المسائل حملها عنه الكوفيون ومضوا يتوسعون في ذلك فتكونت مدرستهم بزعامة الكسائي الذي دفعه سعيه أن يفسح في العربية للغات الشاذة النادرة، إلى أن يقف موقفه من نحو سيبويه والتحليل ودعا إلى وجوب التوسع في قواعد النحو والصرف حتى تشمل القراءات جميعا باعتباره واحدا من القراء الذين أخذت عنهم القراءات السبع لذلك فقد توسع في الرواية والقياس مخالفا البصريين ولو أدى ذلك إلى آراء لا تسندها الشواهد اللغوية وبذلك مهد الطريق لتلميذه الفراء⁽⁴⁾ الذي بلور صورة النحو الكوفي النهائية⁽⁵⁾.

1- لقد وصف (الكتاب) بالبحر فقد كان المراد يقول لمن يريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه: هل ركبت البحر؟ تعظيما لما فيه واستصعابا لمسائله وألفاظه ومعانيه، فهو قد ضم كل ما يتصل بالعربية ودررها النفيسة التي تمتع الناظر فيه كل مرة بجديد وبمحبب، يقول المازني عنه: "ما أخلو في كل زمن من أعجوبة في كتاب سيبويه؛ لأنه يعتبر أول موسوعة عربية تجمع المعارف في شتى نواحيها وعمل لم يسبقه إلى مثله أحد قبله ولم يلحق به من بعده، لهذا بقي مادة الدارسين من بصريين وكوفيين" وكذا المتأخرين. ينظر الفهرست: ابن النديم، ص 80. وينظر أخبار النحويين البصريين: السراي، ص 48 - 50، وينظر خزائن الأدب: البغدادي، ج 01، ص 179، مطبعة بولاق، وينظر نزاهة الأبناء في طبقات الأدباء: لابن الأباري، ص 61 - 63، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم: مطبعة المدني، 1967م، وينظر مدرسة الكوفة: مهدي المخزومي، ص 103، إصدارات مجمع الثقافى، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1423 هـ/ 2003م.

2- تطور الفكر النحوي: حسن عون، ص 58، القاهرة، 1970.

3- هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة، مولى لبني مشاجع، ابن دارم من مشهري نحوي البصرة، أخذ عن سيبويه وهو أحد أصحابه، وكان الأخفش أسن منه ويقال توفي سنة 221 هـ، ينظر الفهرست: ابن النديم، ص 80.

4- هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الملقب بالفراء، ولد ونشأ بالكوفة ودرس اللغة والقرآن ومبادئ الاعتزال واستقر في بغداد واتخذ المأمون مودبا لولديه وله في النحو وفي البلاغة عدة مؤلفات وكانت وفاته عام 207 هـ، ينظر معجم الأدباء: باقرت الحموي، ج 06، ص 176، دار الفكر، بيروت. وينظر البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري: رابع دوب، ص 81، وينظر الدراسات اللغوية للقرآن الكريم في أوائل القرن الثالث الهجري: عيسى شحاتة، ص 137، دار قباء، القاهرة، 2001م.

5- المدارس النحوية: شوقي ضيف، ص 347-351، ط 03، دار المعارف، مصر، 1976م.

إن عظمة الكتاب⁽¹⁾، وما أحيط به من هالة، أدت إلى استكانة بعض علماء العربية واكتفاءهم بشرحه وتبيان مقاصده وقناعتهم بما خلفه لهم إمام النحاة⁽²⁾ وانصبت لذلك جهود الكثير منهم على الشروح والتعليق والتخصيص الجزئي، وبرزت بذلك خلافات في وجهات نظر الباحثين اللغويين وأخذت تبلور ملامح مذاهب ومدارس نحوية فكانت لذلك بداية مرحلة ثانية من مراحل تاريخ دراسات اللسان العربي.

2- مرحلة الدراسات النحوية المتخصصة:

لقد ارتبط ظهورها بنشأة الخلاف النحوي في وجهات نظر الباحثين اللغويين فقد فتح الأخصف الأوسط⁽³⁾ (ت 215 هـ) أكبر أئمة البصريين بعد سيبويه أبواب الخلاف على أستاذه سيبويه في كثير من المسائل حملها عنه الكوفيون ومضوا يتوسعون في ذلك فتكونت مدرستهم بزعامة الكسائي الذي دفعه سعيه أن يفسح في العربية للغات الشاذة النادرة، إلى أن يقف موقفه من نحو سيبويه والخليل ودعا إلى وجوب التوسع في قواعد النحو والصرف حتى تشمل القراءات جميعا باعتباره واحدا من القراء الذين أخذت عنهم القراءات السبع لذلك فقد توسع في الرواية والقياس مخالفا البصريين ولو أدى ذلك إلى آراء لا تسندها الشواهد اللغوية وبذلك مهد الطريق لتلميذه الفراء⁽⁴⁾ الذي بلور صورة النحو الكوفي النهائية⁽⁵⁾.

1- لقد وصف (الكتاب) بالبحر فقد كان المورد يقول لمن يريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه: هل ركبت البحر؟ تعظيما لما فيه واستصعابا لمسائله وألفاظه ومعانيه، فهو قد ضم كل ما يتصل بالعربية ودررها النفيسة التي تمتع الناظر فيه كل مرة بمجديد وبمعجب، يقول المازني عنه: "ما أخلو في كل زمن من أعجوبة في كتاب سيبويه؛ لأنه يعتبر أول موسوعة عربية تجمع المعارف في شتى نواحيها وعمل لم يسبقه إلى مثله أحد قبله ولم يلحق به من بعده، لهذا بقي مادة الدارسين من بصريين وكوفيين" وكذا المتأخرين. ينظر الفهرست: ابن النديم، ص 80. وينظر أخبار النحويين البصريين: السويدي، ص 48 - 50، وينظر خزائن الأدب: البغدادي، ج 01، ص 179، مطبعة بولاق، وينظر نزعة الأنبياء في طبقات الأدباء: لابن الأثير، ص 61 - 63، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم: مطبعة المدني، 1967م، وينظر مدرسة الكوفة: مهدي المخزومي، ص 103، إصدارات مجمع الثقافي، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1423 هـ / 2003م.

2- تطور الفكر النحوي: حسن عون، ص 58، القاهرة، 1970.

3- هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة، مولى لبني مشجع، ابن دارم من مشهري نحوي البصرة، أخذ عن سيبويه وهو أحد أصحابه، وكان الأخصف أسن منه ويقال توفي سنة 221 هـ، ينظر الفهرست: ابن النديم، ص 80.

4- هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الملقب بالفراء، ولد ونشأ بالكوفة ودرس اللغة والقرآن ومبادئ الاعتزال واستقر في بغداد واتخذ المأمون مؤدبا لولديه وله في النحو وفي البلاغة عدة مؤلفات وكانت وفاته عام 207 هـ ينظر معجم الأدباء: ياقوت الحموي، ج 06، ص 176، دار الفكر، بيروت. وينظر البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري: ربيع ديب، ص 81، وينظر الدراسات اللغوية للقرآن الكريم في أوائل القرن الثالث الهجري: عيسى شحاتة، ص 137، دار قباء، القاهرة، 2001م.

5- المدارس النحوية: شوقي ضيف، ص 347-351، ط 03، دار المعارف، مصر، 1976م.

وانعكس ذلك سلبيا على فهم العرب لخصائص بنية العربية، فأدى ذلك كله إلى بروز حاجة ماسة للخروج من الوضع الذي آلت إليه الدراسة النحوية المتخصصة فظهر السيرافي وأبو علي الفارسي وابن جني ثم الجرجاني (ت 471 هـ) الذي كان كتابه (دلائل الإعجاز) بداية مرحلة جديدة.

3- مرحلة الدراسة الوظيفية: وهي التي أكد فيها الجرجاني ضرورة التمسك بالمنهج الوصفي الوظيفي، والتقيد بقواعد النحو التي بلورها سيويه في الكتاب فاستند الجرجاني إليها في دراسته الوظيفية للعربية لأنه تم وضعها باعتماد المنهج الوصفي الوظيفي وقد عكست خصائص بنية العربية. ولقد أدت تلك الظروف الموضوعية إلى بروز حاجة ماسة للخروج من هذا الوضع الذي آلت إليه الدراسة النحوية المتخصصة، فعمد السيرافي إلى شرح "الكتاب" مؤكدا على جانب الوظيفة الإبلغية للغة. وظهر مع أبي علي الفارسي اتجاه جديد أخذ يستعرض الآراء في كل مسألة ويأخذ بما يراه صوابا من دون التقيد المسبق بآراء مدرسة معينة، وتابع تلميذه ابن جني هذا الخط وعمقه وشعر بن جني بأنه من أجل الخروج من هذا الوضع الذي وصلت إليه الدراسة النحوية المتخصصة يجب اكتشاف النظام العام للغة، وراح في سبيل ذلك يبحث في كتابه الخصائص عن الأصول العامة للنحو.

أما الإمام عبد القاهر الجرجاني فقد تابع السير في طريق اكتشاف النظام العام للغة، ودعا إلى عدم فصل البلاغة عن النحو فكان كتابه (دلائل الإعجاز) بداية مرحلة جديدة في تاريخ علوم اللغة العربية هي مرحلة تأكيد الوظيفة الإبلغية للغة عن طريق ربط النحو بالبلاغة⁽¹⁾.

استهل الجرجاني (دلائل الإعجاز) مشيدا بالعلم لأنه ما يميز الإنسان عن الحيوان حيث قال: "وبعد: فإننا إذا تصفحنا الفضائل لنعرف منازلها في الشرف وتبين مواقعها من العظم، ونعلم أيّ أحقّ منها بالتقدم، وأسبق في استيحاب التعظيم وجدنا العلم أولاها بذلك وأولها هنالك... لولاه لما بان الإنسان من سائر الحيوان"⁽²⁾.

ومن هذه النظرة الأساسية إلى الإنسان على أنه كائن عاقل يربط الجرجاني اللغة بالتفكير وبين دور التفكير في نشوء اللغة⁽³⁾ ثم يهاجم الجرجاني الدعوة إلى إهمال الشعر والانصراف عن النحو فيقول عن الطائفة التي تدعو إلى ذلك أنها لا تعلم الدقائق والأسرار لأن طريق العلم بها الروية والفكر ولطائف مستقاهما العقل، ولذلك لم تطلبها فصار لذلك بينها وبين العلم حجازا "وهو أن ساء اعتقادها في الشعر

1 - أسرار اللسان العربي: جعفر دك الباب، ص 773.

2 - دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص 20 - 21، شرح وتعليق: محمد التنحي ط03، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1420 هـ - 1999م. وينظر أسرار البلاغة: الجرجاني، ص02، تحقيق: محمد عبده، تعليق محمد رشيد رضا، مطبعة دار المعرفة بيروت، لبنان.

3 - المرجع في شرح دلائل الإعجاز: جعفر دك الباب، ص 29، ط01، دمشق، 1980م.

المدخل النظام اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية
الذي هو معدتها وفي علم الإعراب الذي هو لها كالتناسب الذي يميها إلى أصولها وبين فاضلها من
مفضولها... أما الشعر فخييل إليها أن ليس فيه كثير طائل... وأنه ليس بشيء تمس الحاجة إليه في صلاح
دين أو دنيا، وأما النحو فظننته ضربا من التكلف، وبابا من التعسف وشينا لا يستند إلى أصل ولا يعتمد
فيه على عقل، وأن ما زاد منه على معرفة الرفع والنصب، وما يتصل بذلك مما تجده في المبادئ فهو فضل
لا يجدي نفعاً ولا تحصل منه على فائدة" (1).

لهذا فقد تصدى لهذا التيار الذي اهتم باللفظ دون المعنى وأهمل الشعر وانصرف عن النحو؛ لأن
ذلك يؤدي إلى الصد عن أن تعرف حجة الله في إعجاز القرآن (2).

وعند حديثه عن مفردات اللغة من حيث سبب وضعها وحكمتها فيرى: "أن الألفاظ المفردة التي
هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما
بينها فوائد (3). والفائدة التامة التي يحسن السكوت عندها لا تحصل إلا من الكلام التام ومختصر كل
الأمر أنه لا يكون كلام من جزء واحد وأنه لا بد من مسند ومسند إليه" (4).

وهذا يعني أن اللغة نظام لربط الكلمات بعضها ببعض وفقاً لمقتضيات دلالاتها العقلية لكي تتمكن
من القيام بوظيفتها الأساسية كوسيلة لإتصال الناس ببعضهم؛ لأنه "ما يعلم ببدائه المعقول أن الناس إنما
يكلم بعضهم بعضاً ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده" (5). وتعرف المقاصد والأغراض بواسطة
نظم الكلم وهو نظم مميز ومختلف عن نظم الحروف في النغمة الواحدة ويتوجب على اللغوي إحكام
الفرق بين النظمين، وذلك لأن "نظم الحروف هو توالياً في النطق فقط وليس نظمها بمقتضى عن معنى
.... وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب
ترتيبها في النفس.... وليس هو النظم الذي معناه، ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق، والفائدة في
معرفة هذا الفرق، أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق بل أن
تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل" (6).

1- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص 24 - 25.

2- الموجز في شرح دلائل الإعجاز: جعفر ذك الباب، ص 29.

3- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص 347.

4- المصدر نفسه: ص 16.

5- المصدر نفسه: ص 385.

6- المصدر نفسه: ص 56.

المدخل النظام اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية
وبعد هذه الموازنة بين الحروف المنظومة في الألفاظ، والكلم المنظومة في الجمل، والتراكيب يحدد الجرجاني⁽¹⁾ العلاقة بين الألفاظ والمعاني؛ فيرى أن الألفاظ خدم للمعاني وأوعية لها فيقول: "وليت شعري هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني؟ وهل هي إلا خدم لها ومصرفة على حكامها.... فكيف يتصور أن تسبق المعاني وأن تتقدمها في تصور النفس؟ إن جاز ذلك أن تكون أسامي الأسماء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء وقبل أن كانت"⁽²⁾.

"إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها...؛ لأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"⁽³⁾.

وبين هذه الألفاظ من العلاقات والارتباط في نظم الكلم ما بين المعاني من ترابط إذ أنه "لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض. ويبني بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك... وإذا نظرنا في ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتحمله فاعلا لفعل أو مفعولا أو أن تعمد إلى اسمين فتجعل إحداهما خيرا عن الآخر أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة للأول أو تأكيدا له أو بدلا منه أو تحجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالا أو تمييزا أو تنوحي في كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفيًا أو استغهاما أو تنيا فتدخل عليه الحروف الموضوعه لذلك أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطا في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف"⁽⁴⁾.

وهذا يرتبط مفهوم النظم بالنحو ارتباطا صميميا وثيقا؛ لأنه يتبع الوضع الذي يقتضيه علم النحو ويخضع لقوانينه وأصوله يقول الجرجاني شارحا ذلك: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي فححت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تغل بشيء منها... هذا هو السبيل"⁽⁵⁾.

1 - كانت عناية عبد القاهر الجرجاني كبيرة، لهذا لقب بالنحوي وعده من أكابر النحويين ووصف بأن له فضيلة تامة في النحو يدل على ذلك كثرة مؤلفاته في النحو فقد شرح كتاب الإيضاح في النحو لأبي علي الفارسي النحوي في: شرح مبسوط في نحو ثلاثين مجلدا سماه المغني. ملخص للشرح سماه المقتصد في ثلاثة مجلدات، كتاب التكملة، الإيجاز اختصر فيه الإيضاح، كتاب الجمل في النحو. التلخيص وهو شرح لكتاب الجمل. العوامل المائة في النحو، دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص 07.

2 - دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص 308.

3 - المصدر نفسه: ص 58-59.

4 - المصدر نفسه: ص 60.

5 - المصدر نفسه: ص 77.

المدخل النظام اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية
"فلست بواحد شيئا يرجع صوابه أن يكون صوابا، وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده... إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد... إلى معاني النحو وأحكامه"⁽¹⁾. ذلك لأنه لا معنى للنظم لولا توخي معاني النحو فيما بين الكلم... "ذاك لأننا قد علمنا علم ضرورة، أنا لو بقينا الدهر الأطول نصعد ونصوب ونبحث ونقب ونبغى كلمة قد اتصلت بصاحبة لها وللفظة قد انتظمت مع أختها من غير أن نتوخي فيما بينهما معنى من معاني النحو طلبنا ممتعا"⁽²⁾. وهكذا يكرر الجرجاني ويعيد فكرته القائلة بأن لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو إذ أن النظم: "لا يكون شيئا غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم"⁽³⁾.

كما أن البيان نفسه بما فيه من استعارة وكناية وتمثيل وكل أصناف المجاز تعود إلى أحكام النحو في نهاية المطاف وعن ذلك يقول الجرجاني: "الاستعارة والكناية والتمثيل وسائل ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم وعنهما يحدث وبها يكون لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو"⁽⁴⁾.

بل إن الفكر لا يتصور أن يتعلق بمعاني الكلم أفرادا أو مجردة من معاني النحو، وهذا لا يعني أن الفكر لا يتصور تعلقه بمعاني الكلم المفردة أصلا بل يعني أنه لا يتعلق بها مجردة من معاني النحو يقول الجرجاني في هذا إنني لست أقول إن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة أصلا ولكني أقول: إنه لا يتعلق بها مجردة من النحو ومنطوقا بما على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو وتوحيها فيها"⁽⁵⁾.

هكذا راح الإمام الجرجاني يؤكد الوظيفة الإبداعية للغة رابطا في أثناء ذلك بين البلاغة والنحو مؤكدا أن الألفاظ المجردة والكلم المفردة لا تتفاضل إلا من حيث حسن ملائمة معنى اللفظة لمعاني

1- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص 78.

2- المصدر نفسه: ص 309.

3- المصدر نفسه: ص 273-293-300-304.

4- المصدر نفسه: ص 293.

5- المصدر نفسه: ص 303-304.

المدخل النظام اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية
جاراتها، ولا توصف بالفصاحة إلا لأنها أثبتت في اللغة وأجرى على مقاييس اللغة وقوانينها إلى غير ذلك
من جوانب التأكيد للعلاقة بين معاني النحو وصور النظم⁽¹⁾.

وقد تابع الزمخشري (ت538هـ) جهود عبد القاهر الجرجاني في تأكيد الوظيفة الإبلغية للغة
عن طريق ربط النحو بالبلاغة فكان كتابه (المفصل في علم العربية) الذي شرحه موفق الدين بن يعيش
خير نموذج لربط النحو بالبلاغة وتأكيد الوظيفة الإبلغية للغة حتى قيل: "إن الزمخشري متم لعمل
الجرجاني في البلاغة؛ لأنه سار على منهج الجرجاني في تحليلاته العقلية الذوقية وتطبيقاته البلاغية والحق
أن بين هذين الإمامين صلة واضحة وشبهها يتجلى في ثلاثة أمور:

أولهما: أن كلا من الجرجاني والزمخشري⁽²⁾ ذو نزعة عقلية وتفكير منطقي وأسلوب منهجي.

ثانيهما: أن كلا منهما أديب يتذوق الجمال ويحسه، يحاول عن طريق العقل والمنطق أن يجد المسوغ
المعقول لجمال ما يستحسن وقبح ما يستهجن.

وأما ثالثهما فهو أن البلاغة عند كل منهما لم تكن بلاغة جافة قائمة على الحدود والتعريفات بل
كانت بلاغة تطبيقية تحيا في النماذج البليغة وتلصق بالنصوص الأدبية⁽³⁾.

ولعلنا إذا قلنا إنه لم يأت بعد عصر الجرجاني والزمخشري من فهم البلاغة فهمهما إياها. وأن
الذين جاءوا من بعد إنما كان عملهم - في أغلب الأحيان - تلخيصا أو شرحا وأنهم لم يزيدوا في فهم
البلاغة وشرح فنونها شيئا ذا بال⁽⁴⁾؟

بل إن ما جاء بعدهما لا يعدو أن يكون شرحا لكتب الجرجاني أو تلخيصا لها شأن ما فعله
سابقوه مع كتاب سيبويه، فهذا الفخر الرازي (ت606هـ) صاحب كتاب "نهاية الإيجاز في دراسة
الإعجاز" لم يقم فيه بأكثر من تلخيص كتب الجرجاني تلخيصا أخذ يتعد بالبلاغة عن النصوص،
ويقترّب بها من الحدود والقوانين والأحكام والقواعد⁽⁵⁾.

¹ - ولئن شاء الشرح الكافي والتحليل الوافي في نظرية الجرجاني في ذلك فليعد إلى الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني للدكتور جعفر
دك الباب حيث يتأكد له بجلاء الوظيفة الإبلغية للغة عن طريق ربط النحو بالبلاغة.

² - ولد قبل أربع سنوات من وفاة الجرجاني، سنة 467هـ.

³ - الموجز في تاريخ البلاغة: مازن المبارك، ص 105-106. وينظر أسرار اللسان العربي: جعفر دك الباب، ص 774.

⁴ - ولئن شاء الشرح الكافي والتحليل الوافي للدرس البلاغي في ذلك فليعد إلى البلاغة عند المفسرين حتى لهابة القرن الرابع الهجري، للدكتور
رابع دوب حيث يتأكد له بجلاء الوظيفة الإبلغية للغة العربية واللغة القرآنية.

⁵ - الموجز في تاريخ البلاغة: مازن المبارك، ص 106-107.

كما أن بن الزملاكي (ت 651 هـ) قد تبين أراء الجرجاني التي تضمنها (دلائل الإعجاز)، وكررها نفسها في كتابه الذي سماه "التيان في علم البيان المطلاع على إعجاز القرآن"⁽¹⁾ يعود سبب اهتمام علماء العربية بكتب الجرجاني والاحتفاء والعناية بمفهومه للغة وعلومها إلى أنه سار فيها وفق المنهج العلمي لأبي علي الفارسي الذي عمقه - من جهة - أبو الفتح بن جني ببحثه عن الأصول العامة للنحو مستهدفا اكتشاف القوانين العامة للغة، مستعملا الوصف التطوري لبنية الكلمة الذي يأخذ بعين الاعتبار عامل الزمن، فجاء الجرجاني - من جهة ثانية - وعمق البحث في الجانب المتمم لنظرية الفارسي "حيث بحث في نظم الكلم وعمد إلى بيان ارتباط خصائص بنية الكلمة المفردة بالوظيفة التي تؤديها في الكلام انطلاقا من الوظيفة الأساسية للغة كوسيلة لاتصال الناس بعضهم ببعض وكان يرى أن اللغة نظام لربط الكلمات ولدى السعي لاكتشاف هذا النظام استعمل الجرجاني الوصف التزامني"⁽²⁾، وقد عمق البحث في هذا الجانب الزمخشري فكان متمما لعمل الجرجاني، واقتصر عمل كثير من المؤلفين بعدها على الشرح والتلخيص بل في أحسن الأحوال لم يتجاوز عمل من جاء بعدها استقصاء القواعد التي وضعها وتنظيم متفرقتها وضم منشورها "وهكذا.منهاج عبد القاهر وبطريقته التعليمية الواضحة وكذلك بتطبيق الزمخشري لأراء عبد القاهر البلاغية... وبالإضافات الجديدة التي استكمل بها قواعده بكل ذلك استطاع الرجلان أن يضعوا ويكملوا قواعد علم المعاني وعلم البيان وكل ما هنالك أنه بقي من يستقصي هذه القواعد البلاغية عندهما وينظمها في كتاب يجمع متفرقتها ويضم منشورها"⁽³⁾.

وذلك لانبهار العلماء الذين جاءوا بعد الجرجاني والزمخشري حيث ظنوا أن الجرجاني لم يترك زيادة لمستزيد عدا الشرح والتلخيص التي شاعت فيها - مع ذلك - الصيغ والتعابير الفلسفية والمنطقية المعقدة "والبلاغيين من بعد عبد القاهر قد وقفوا مبهرين أمام بلاغته ظنوا أنه لم يترك فيها موضعا لمستزيد ولهذا وقفوا أنفسهم على بلاغته يشرحونها أو يلخصونها أو يختصرونها في أساليب تشيع في أكثرها الصيغ والتعابير الفلسفة والمنطقية المعقدة... وبذلك أخذنا نرى البلاغة تفقد صلتها بالأدب شيئا فشيئا حتى صار بينهما كمال الإنقطاع كما رأيناها تتحول إلى قواعد جافة عميقة. قواعد مصبوبة في قوالب جافة من المنطق"⁽⁴⁾.

¹ - التيان في علم البيان المطلاع على إعجاز القرآن: ابن الزملاكي، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحدبني، مطبعة العاني، بغداد، 1964.

² - نحو نظرة جديدة في فقه اللغة: جعفر دك الباب، ص 39.

³ - في تاريخ البلاغة العربية: عبد العزيز عتيق، ص 265، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د.ت.

⁴ - المرجع نفسه: ص 268، وينظر أسرار اللسان العربي: جعفر دك الباب، ص 775.

المدخل النظام اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية

إلى أن جاء السكاكي (626هـ) "فسار في اتجاه تأكيد الوظيفة البلاغية للغة ورفض فصل النحو والبلاغة بعضهما عن بعض وجاء كتابه "مفتاح العلوم" تنويجا مبوبا لتأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة لكن التطور اللاحق لأراء اللسان العربي أخذ منحى تكريس فصل النحو والبلاغة بعضهما عن بعض، وابتداء ذلك مع القزويني (ت 739هـ) في كتابه "الإيضاح"⁽¹⁾ حيث تخلى فيه عن تعريف السكاكي لعلم المعاني الذي يقوم على ربط البلاغة بالنحو وقدم تعريفا بديلا لعلم المعاني يقوم على فصل البلاغة عن النحو⁽²⁾.

يعود سبب الفصل بين البلاغة والنحو إلى عدم إدراك المنهج الذي تبناه السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم" حيث يؤكد الدكتور جعفر دك الباب أن السكاكي "تبني المنهج العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية في صيغته الجرجانية وطوره بكشف خصائص النظام اللغوي للعربية في مستوياته المتدرجة: الأصوات أولا، والكلمات المفردة ثانيا، والتراكيب من حيث علاقتها النحوية ثالثا، والتراكيب من حيث علاقتها السياقية والمقامية رابعا"⁽³⁾.

لذلك كانت بنية الكتاب محكمة متدرجة العرض لأنظمة اللغة الصغرى ضمن النظام الشامل الذي لا يفصل فيه بين المستويات اللغوية والعلوم العربية إلا لتيسير الدراسة فقط. أما الذين لم يدركوا هذه البنية وذلك المنهج فلم يلتفتوا إلى كل الأقسام بل أقاموا شهرة السكاكي العلمية على القسم الأخير الذي أعطى فيه للمعاني والبيان والفصاحة والبلاغة والبديع الصيغة النهائية. "والسكاكي محدود من أعيان رجال البلاغة في القرن السابع وله مؤلفات شتى منها كتاب "مفتاح العلوم" الذي يعد أهم كتبه وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام رئيسية: خص الأول منها بعلم الصرف والإشتقاق بأنواعه، والثاني بعلم النحو، وخص القسم الثالث بعلم المعاني وعلم البيان وألحق بهما مبحثا عن البلاغة والفصاحة وآخر عن فنون البديع اللفظي والمعنوي".

وشهرة السكاكي⁽⁴⁾ العلمية ترجع في الواقع إلى هذا القسم من كتابه الذي أعطى فيه للمعاني

1 - الإيضاح: الخطيب القزويني ج 01، (في علم المعاني) مطبعة المنتهي بغداد، وينظر منهج البحث البلاغي: عائشة حسين فريد، ص 118 - 119، ط 01، دار قباء، القاهرة، 1977م.

2- أسرار اللسان العربي: جعفر دك الباب، ص 774.

3-- بحث الجملة في العربية: قدمه جعفر دك الباب، في ملحق الأدب العربي، تيزي وزو، 11-12 ماي 1992م.

4- هو يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي أبو يعقوب السكاكي مراح الدين السكاكي الخوارزمي، إمام في النحو والتصريف والمعاني والبيان والاستدلال والعروض والشعر، وله النصيب الوافر في علم الكلام وسائر الفنون وله كتاب مفتاح العلوم الذي يعد غرة مصنفاته. ينظر منهج البحث البلاغي: عائشة حسين فريد، ص 113-114.

المدخل النظام اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية والبيان والفصاحة والبلاغة والبدیع الصیغة النهائية⁽¹⁾.

وبالتركيز على هذا القسم وفصله عن غيره من الأقسام دخلت البلاغة ميدان المنطق المعقد الجاف واقتصر عمل من جاء بعد "مفتاح العلوم" على الشرح والتلخيص له لاستثارة باهتمامهم وعنايتهم في هذا المجال "وبهذا خرج بمباحث البيان في جو البلاغة الواضحة السمحة إلى ميدان المنطق المعقد الجاف. ومع ذلك فقد نال القسم الخاص بالبلاغة في كتابه شهرة فائقة لدى من جاء بعده من رجال البلاغة، فقد فتنوا به إلى الحد الذي جعلهم ينسون معه أنفسهم وينكرون ملكاتهم ولهذا ظلوا قرابة خمسة قرون متتالية ابتداء من أوائل القرن السابع الهجري عاكفين على دراسته وشرحه وتلخيصه وكأنه لم يؤلف في البلاغة العربية غير هذا الكتاب الذي استأثر باهتمامهم وعنايتهم⁽²⁾.

وليت الاهتمام والعناية كانت شاملة لكل أقسام الكتاب الثلاثة حيث يقول عنها المؤلف: "وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام: القسم الأول في علم الصرف والقسم الثاني في علم النحو والقسم الثالث في علمي المعاني والبيان"⁽³⁾.

وقد علل منذ المقدمة سبب هذا التدرج بين الأقسام لتوضيح بنية الكتاب ومنهجه فيه فقال: "وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب دون اللغة ما رأيته لا بد منه هي عادة أنواع متآخذه فأودعته علم الصرف بتمامه، وأنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع إلى أنواعه الثلاثة وقد كشفت عنها القناع وأوردت علم النحو بتمامه وتمامه بعلمي المعاني والبيان... ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحد والاستدلال لم أر بدا من التسمح بهما وحين كان التدرب في علمي المعاني والبيان موقوفا على ممارسة باب النظم وباب النثر، ورأيت صاحب النظم يفتقر إلى علمي العروض والقوافي ثبت عمان القلم إلى إيرادهما، وما ضمنت جميع ذلك كتابي هذا إلى بعد ما ميزت البعض عن البعض التمييز المناسب... ومهدت لكل من ذلك أصولا لائقة وأوردت حججا مناسبة"⁽⁴⁾.

فقد استهل السكاكي كتابه ممهدا للقسم الأول بالتنبيه على أنواع الحروف التسعة والعشرين ومخارجها وقدم رسما توضيحيا لها وبذلك اكتملت بنية النظام اللغوي الشامل بأنظمتها الصغرى المتدرجة ويتضح ذلك من عنوان الكتاب نفسه "مفتاح العلوم" حيث يشتمل على لفظة (المفتاح) في صيغة المفرد

1- في تاريخ البلاغة: عبد العزيز عتيق، ص 271-277.

2- المرجع نفسه: ص 278، وينظر أسرار اللسان العربي: جعفر ذك الباب، ص 775.

3- مفتاح العلوم: السكاكي (أبو يوسف بن بكر محمد بن علي)، ص 03، دار الكتب العلمية، بيروت.

4- أسرار اللسان العربي: جعفر ذك الباب، ص 777.

المدخل النظام اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية
ولفظة (العلوم) في صيغة الجمع؛ فصيغة المفرد (مفتاح) تؤكد على البنية الواحدة للكتاب التي لا تتجزأ
وصيغة الجمع (العلوم) تؤكد على المستويات المتميزة ضمن البنية الواحدة⁽¹⁾.
وقد ضمن السكاكي هذا المعنى مقدمته حيث يقول: "صنفت هذا وضمنت لمن أتقنه أن يفتح
عليه جميع المطالب العلمية"⁽²⁾ وقد ختم السكاكي كتابه بفصل رد فيه الطاعنين في القرآن ودفع
مطاعنهم من حيث اللفظ ومن حيث الإعراب ومن جهة المعنى بأحاء مختلفة ولذلك قال: "خاتمة مفتاح
العلوم في إرشاد الضلال بدفع ما يطعنون به في كلام رب العزة علت كلمته من جهالتهم"⁽³⁾.
بذلك المنطق وبهذه الغاية ولذلك الغرض كانت بنية كتاب "مفتاح العلوم" بأقسامه الثلاثة بنيسة
واحدة لا تتجزأ مع إمكانية التمييز ضمن هذه البنية الواحدة لمستويات متدرجة.
تبتدىء من البحث في الأصوات لتنتقل إلى البحث في الكلمة المفردة، ثم تتابع البحث في التراكيب
من حيث علاقتها النحوية المنطقية، ومن حيث علاقتها المرتبطة بالسياق الكلامي والمقام.
إن منهج السكاكي في "مفتاح العلوم" قد أدخل تطويراً هاماً في التأليف اللساني العربي حيث
جعل دراسة علم الصرف سابقة لعلم النحو وكذلك حين ربط -ربطاً محكماً- بين علوم العربية كالنحو
والمعاني الذي جعله دراسة تطبيقية تتجلى في كيفية ارتباط الإسناد بالإفادة عن طريق دراسة الجملة في
السياقات المختلفة. وهذا ما يتضح من تعريفه لعلم المعاني الذي هو "تتبع خواص تراكيب الكلام في
الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما
تقتضي الحال ذكره"⁽⁴⁾.

1- أسرار اللسان العربي: جعفر دك الباب، ص 777.

2- المرجع نفسه: ص 777.

3- مفتاح العلوم: السكاكي، (الخاتمة).

4- المصدر نفسه: ص 70.

المدخل النظام اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية
لكن الذين جاءوا بعد السكاكي أسقطوا من تعريف السكاكي لعلم المعاني الجانب التطبيقي
الذي أكده والمتمثل في "تبع كيفية ارتباط الإسناد بالإفادة"، فحتى القزويني الذي يعد من أبرز الذين
لخصوا مفتاح العلوم في كتابه "شرح المفتاح" ثم في كتابه الثاني "الإيضاح" وهو من أحسن ما صنف
التأخرون في البلاغة⁽¹⁾ قدم تعريفاً بديلاً لعلم المعاني أسقط منه الجانب المذكور حيث يقول: "علم
(علم المعاني) يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال"⁽²⁾ فساد هذا التعريف وتكرس
بسببه فصل النحو والبلاغة بعضهما عن بعض وقد ترتب على هذا الفصل التمييز في معنى الجملة بين
معنى نحوي أصلي يرتبط بصواب الجملة النحوي من ناحية وبصحة الأفكار فيها من ناحية ثانية ومعنى
بلاغي ثانوي للجملة يرتبط بعرض الأفكار التي تشتمل عليها بصورة فنية تلائم أذواق المخاطبين
وعقولهم ويستند هذا التمييز بين معنى أصلي للجملة ومعنى ثانوي إلى مقولة: "إن النحو يختص بصحة
العبارة في ذاتها بصرف النظر عن صلتها بالقراء أو السامعين في حين تختص البلاغة بعرض الأفكار
والمعلومات عرضاً ملائماً للمخاطبين"⁽³⁾.

وهذا التمييز بين معنيين (أصلي وثانوي) في الجملة المترتب على الفصل بين النحو والبلاغة
لراجع إلى قصور في تصور مفهوم النظام اللغوي الذي جعلهم يميزون في بنية الجملة بين معنى أصلي
يحمله الهيكل أو البناء النحوي ومعنى ثانوي تحمله الكسوة التزيينية التي تخلع على البناء النحوي للجملة.
إن مفهوم النظام اللغوي في ضوء المنهج العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية في صيغته
المتطورة السكاكية يشتمل على ثلاثة مستويات هي⁽⁴⁾:

1- المستوى الصوتي الذي لا يوجد إلا جسداً في البنية الصوتية للمفردات، ويختص علم الأصوات
اللغوية بدراسة مكونات تلك البنية الصوتية ويرتبط بالمستوى الصوتي نظام الكتابة الذي هو وسيلة
لتسجيل المستوى الصوتي.

2- المستوى الفردي للكلمات (مستوى الكلمات المفردة) وله جانبان متلازمان:

أ- البنية الصوتية للكلمة ويختص بدراسة أوزانها علم الصرف.

ب- البنية الدلالية للكلمة ويختص بدراستها علم المعجم.

1- شوخر في تاريخ البلاغة: مازن المبارك، ص 106.

2- الإيضاح: القزويني، ص 75.

3- الأسلوب: أحمد الشايب، الفصل الثالث في علوم البلاغة، ط 04، مطبعة النهضة المصرية، 1956.

4- ينظر تفصيل جعفر دك الباب في محاضرة (الجملة العربية)، ملتقى الأدب العربي، جامعة تيزي وزو، 12-15 ماي 1992م. وينظر حوليات
جامعة الجزائر، ص 205-206، العدد 07، 1993م.

المدخل النظام اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية

3- المستوى التركيبي للكلمات (مستوى التراكيب) وله جانبان:

أ- التراكيب غير الإسنادية ويختص بدراستها علم النحو في بعض أبوابه كباقي المجرورات والتوابع.

ب- التراكيب الإسنادية (الجملة) ويختص بدراستها كل من علم النحو وعلم المعاني ويعود السبب في

إشترك علمي النحو والمعاني في دراسة الجملة يرجع إلى أن للجملة جانبين متلازمين هما:

1- جانب المبني الذي يتمثل في مستوى البنية الصوتية للجملة ويتجلى في ظاهرتين متلازمين:

أ- ترتيب تسلسل الكلمات المكونة للجملة

ب- التنغيم وهو وسيلة لتمييز الأنواع المختلفة للجملة مثل الخبرية الإستفهامية والتعجبية.

2- جانب المعنى الذي يتمثل في مستوى البنية المعنوية للجملة وله مجالان متلازمان للدراسة هما:

أ- مجال الدراسة المنطقية للجملة وهو مجال ساكن لا يتغير حسب حال السامع لأن الجملة تدرس فيه

معزولة عن السياق الكلامي والمقام ويشترط في هذا المجال في الدراسة تسوافر الإسناد المنطقي بين

العنصرين المكونين للجملة وهما:

المسند والمسند إليه ويختص علم النحو بمجال الدراسة المنطقية للجملة

ب- مجال الدراسة الإبلاغية للجملة وهو مجال متغير حسب حال السامع؛ لأن الجملة تدرس فيه حسب

حال السامع ضمن السياق الكلامي والمقام يشترط في هذا المجال من الدراسة تسوافر الإفادة بالنسبة

للسامع ويختص علم المعاني بمجال الدراسة الإبلاغية للجملة عن طريق تتبع أحوال المسند والمسند إليه من

أجل بيان كيفية ارتباط الإسناد بالإفادة التي تحملها الجملة للمخاطب في السياقات الكلامية والمقامات

المختلفة⁽¹⁾.

يظهر في ضوء هذه المعطيات المنهجية لدراسة اللسان العربي خطأ القول بالتميز في معنى الجملة

بين معنى أصلي نحوي ومعنى ثانوي بلاغي كما تظهر أهمية الدعوة إلى توحيد اللغة العربية (الأصوات

والصرف والنحو والمعاني) من جهة وضرورة رفض فصل دراسة علم المعاني عن دراسة علم النحو

بمفهومه الواسع (صرف العربية ونحوها) الذي اصطلح على تسميته بعلم قواعد اللغة العربية⁽²⁾.

1- ينظر تفصيل ذلك في محاضرة (في الجملة العربية)، وينظر ملتقى الأدب العربي، جامعة تيزي وزو، 12-15 ماي 1992، وينظر حوليات جامعة الجزائر، ص 206-207.

2- ينظر مقالة ازدواجية اللغة العربية وكيفية الخروج منها- مجلة المعرفة السورية، العدد 222-223، دمشق 1980. وينظر حوليات جامعة الجزائر، ص 206-207.

المدخل النظام اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية
من جهة ثانية؛ ذلك لأن فصل علوم البلاغة عن صرف العربية ونحوها كان نتيجة لعدم فهم
الخصائص المميزة لبنية العربية الذي أدى إلى إعاقة قيام العربية الفصحى بوظيفة الاتصال في جميع مجالات
الحياة التي يفترض في أية لغة تؤديها.

كما أدى إلى الشكوى من الطرائق العقيمة في دراسة العربية النابعة عن المناهج الجزئية القاصرة
التي سادت منذ مرحلة الدراسات الجزئية المتخصصة التي تمثل بدء انحطاط اللسان في الدراسات اللغوية
للعربية مما حاد بها عن المنهج الوصفي الوظيفي الأصيل الذي اعتمده علماء العربية الأوائل منذ سيبويه
فكانت لذلك القواعد التي استخلصها في (الكتاب) عامة وشاملة لجميع جوانب النشاط اللغوي وأكدها
أبو علي الفارسي وعمق جانباً منها تلميذه بن جني واستند إليها الجرجاني في الدراسة الوظيفية وطبقها
الزمخشري خير تطبيق ووبلورها السكاكي بصورة كاملة في مفتاح العلوم واستخلصها الدكتور جعفر
دك الباب في كتبه ودراسات اللسان العربي على ضوء علم اللسان الحديث ولقب هذا المنهج باسم
(المنهج الوصفي الوظيفي)؛ لأنه يهتم بوصف البنية اللغوية ووظيفتها البلاغية وهو بهذا المفهوم تقف منه
في اللسانيات الحديثة المدرسة البنيوية الوظيفية⁽¹⁾. في صفتها الماتيزوسية⁽²⁾ غير بعيد؛ لأنها تدعو إلى
تحرير دراسة الجملة من الجانب الشكلي المنطقي المحض بتمييز تقسيم الجملة البنيوي الشكلي القواعدي
العام عن تقسيم الجملة الوظيفي الذي يعبر عن معنى مباشر محدد للجملة في السياق أو الموقف الكلامي
الراهن الذي يرتبط به.

إن العنصرين الأساسيين للتقسيم الشكلي للجملة هما: المسند والمسند إليه أما التقسيم الوظيفي
للجملة فيميز قبل كل شيء نقطة ابتداء الكلام أو أساس الكلام وينطلق منه ونوات الكلام وهكذا وتبعاً
لاختلاف المواقف والسياقات الكلامية المتعددة فإن التقسيم الوظيفي للجملة يمكن أن يكون متنوعاً يعبر
عن الاختلاف في معنى الجملة الواحدة بتغيير ترتيب الكلمات في الجملة يقول ماتيزوس: "إن هذا
التقسيم يوضح كيفية ربط الجملة بالموقف الكلامي الذي تنشأ الجملة على أساسه"⁽³⁾ أي أن التقسيم
الوظيفي للجملة: "هو تقسيم ثنائي إلى ما يعتبر فيها الموقف أو المقام الكلامي الراهن موضوعاً للكلام،

1- الموجز في شرح دلائل الإعجاز: جعفر دك الباب، ص 116-120.

2- فيلام ماتيزوس vilém mathesius (1882-1945) واحداً من أئمة العلماء ليس في اللسانيات فحسب بل في اللغة والأدب
الإنجليزي أيضاً وقد أسس جمعية معاونيه نادي براغ للسان، ثم شغل منصب أستاذ الإنجليزية بجامعة كارولين الأمريكية وفي سنة 1911 نشر
بداءه الأول منهج جديد غير تاريخي لدراسة اللغة بعنوان "حول كمنوية الظواهر اللغوية" ومن أهم الأبحاث التي قام بها استعمال الدراسة الوظيفية
للتمييز بين النحو والأسلوبية ومن إسهاماته التي نالت شهرة كبيرة في اللسانيات، حمزه بين مفهومي الموضوع والخبر وتطويره لمنظور الجملة
الوظيفي، وينظر اللسانيات النشأة والتطور: أحمد مومن، ص 139، ط 02، ديوان المطبوعات الجامعية، 2005م.

3- الموجز في شرح دلائل الإعجاز: جعفر دك الباب، ص 117.

وإلى ما يخبر به عن الموضوع وهو محمول الكلام والموضوع هو ذلك الجزء من الجملة الذي يعبر عن معلوم بالنسبة للسامع، ويكون هو ما ينطلق منه المتكلم، أما المحمول فهو ذلك الجزء من الجملة الذي يتم لدى الإخبار به عن الموضوع التعبير عن شيء جديد بالنسبة للسامع⁽¹⁾.

يتضح مما سبق أن التقسيم الوظيفي عند ماتيزيوس يقصد به الوظيفة الإبلاغية للجملة الخبرية وذلك حسب السامع ضمن السياق الذي تدخل فيه الجملة وبهذا يختلف مصطلح الوظيفة عند ماتيزيوس الذي هو الوظيفة الإبلاغية عن مصطلح الوظيفة عند مارتينييه⁽²⁾ الذي هو الوظيفة المنطقية لمكونات الجملة معزولة عن السياق الذي تدخل فيه، ومن ثم لا تأخذ بالحسبان السياق وكل ما تدعوه بالظواهر غير اللسانية.

إن المدرسة البنيوية الوظيفية في صيغتها الماتيزيوسية⁽³⁾ وفقا لمفهوم الوظيفة الإبلاغية للجملة الخبرية حسب حال السامع ضمن السياق تلتقي في هذا المفهوم مع البنيوية الوظيفية في الدراسة اللغوية للعربية فهي منهج في الدراسة اللغوية وصفي وظيفي: هو منهج وصفي، لأنه يصف البنية اللغوية، وهو منهج وظيفي في الوقت نفسه؛ لأنه يبين الوظيفة التي تؤديها البنية اللغوية وهو المنهج الذي نعتمده في هذه الدراسة نتيجة اختيار علمي معلن فرضته طبيعة الموضوع، ومادته وخصائصه، وصفاته العامة والخاصة باعتباره نابعا عن دراسة اللسان العربي المبين وأصيلا فيه غير صادر عن آراء فلسفية أو لسانية أجنبية ولا عن اختيار عشوائي بين المناهج العديدة المتاحة.

إن إختيار المنهج⁽⁴⁾ الوصفي الوظيفي في دراسة الآية القرآنية بين الإعجاز اللغوي والعلمي نابع من طبيعة الموضوع ومادته؛ لأنه الأقدر على النظرة الشاملة لاستكشاف كل النتائج الممكنة ضمن النظام الشامل للسان العربي في حركة مزدوجة جدلية متكاملة بين العام والخاص بين الخارج والداخل بين الشكل والمضمون بين اللفظ والمعنى بين البنية السطحية ووظيفتها الإبلاغية.

¹ - الموجز في شرح دلائل الإعجاز: جعفر دك الباب، ص 119.

² - ولد أندريه مارتينييه سنة 1908 في سان ألبان دي فيلار بمنطقة السافوا الفرنسية وهو يعتبر من ألمع علماء الألسنية المعاصرين ورائد المدرسة الألسنية الوظيفية، ومنذ العام 1938 ولغاية العام 1995 توجه أندريه مارتينييه لتدريس مادة الألسنية العامة في المعهد التطبيقي للدراسات العليا في باريس، ومن أشهر مؤلفاته "مبادئ الألسنية العامة" وكتاب آخر "وظيفة الألسن وديناميتها"، بنظر وظيفة الألسن وديناميتها، ترجمة نادر سراج، ط01، دار المنتخب، بيروت، لبنان، 1416هـ-1996م.

³ - بنظر اللسانيات النشأة والتطور: أحمد مومن، ص 140-141.

⁴ - لقد تبني هذا المنهج الدكتور جعفر دك الباب وتبعه فيه كثير من الدارسين منهم محمد شحرور في كتابه "الكتاب والقرآن (قراءة معاصرة)" تقدم جعفر دك الباب، وكذا محمد العيد رتيمة في دراسة لغوية لمفهوم الآية في القرآن الكريم، إشراف جعفر دك الباب، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 1993م، وهو منهج جدير بالدراسة والاهتمام.

المدخل النظام اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية
إن موضوع البحث الذي هو الآية القرآنية بين الإعجاز اللغوي والعلمي يعتبر مسن أهم
الموضوعات العلمية المعاصرة ولا خلاف فيه بين علماء الأمة على اختلاف مناهجهم واتجاهاتهم على أن
(الآية) هي الوحدة التوقيفية الصغرى التي يقوم عليها القرآن الكريم الذي أنزل بلسان عربي مبين وآياته
لم تنزل دفعة واحدة بل تلاحق تابع منها بفارط تتابعا توقيفيا خلال مدة الوحي ومع كل هذا التابع
التوقيفي للترول المنجم واختلاف أسبابه وحوادثه وأحداثه وأماكنه وأوقاته اختلفت الآية القرآنية نسقا
وأسلوبا ومضامين وقصرا وطولا إلى غير ذلك من أوجه الاختلافات إلا أنه مع اختلافها من هذه
الجوانب ظلت واحدة موحدة من حيث المصطلح (التسموي) الآية ومع تنوعها متكاملة إلى غير ذلك من
الجوانب التي يحاول هذا البحث الكشف عنها بتقديم مفهوم موحد لوحدة المصطلح في إطار النظام
اللغوي الشامل مستندا في ذلك إلى هذا المنهج الأصيل؛ لأنه المنهج العلمي الموضوعي القادر على
استكشاف النتائج ضمن القوانين اللغوية العامة للعربية. والذي يعيد للعربية أصالتها ونظارتها وفعاليتها
ويربطها بالحياة؛ لأنها لغة القرآن الكريم.

ومن أجل فهم أسرار الإعجاز اللغوي الذي يعتبر من أبرز وجوه الإعجاز وأظهرها لا بد من
التعمق في فهم المنهج اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية التي تؤكد على ازدواجية الوظيفة
الإبلاغية من جهة والتأثيرية من جهة أخرى للنظام اللغوي القرآني عن طريق ربط البلاغة بالحو على
غرار ما فعله علماء اللغة والدراسات القرآنية القدامى الذين يستحقون أن يوصفوا بحق بأنهم قداماء
معاصرون لسبقهم العلمي في مجالات كثيرة وهذا لا يعني أنهم قد قالوا القول الفصل في كل شيء بل
يعني الدعوة إلى المتابعة المستمرة لحركة تطور العلم والمعرفة والإفادة منهما في فهم عطاءات التراث⁽¹⁾
الإنساني جملة وبوجه أحص التراث العربي الإسلامي لاستخدامه إيجابيا في معالجة القضايا الراهنة
والمستقبلية ومن أجل فهم أسرار الإعجاز العلمي لا بد من التعمق في فهم المنهج التاريخي العلمي في
الدراسات القرآنية مع تأكيد العلاقة بين اللفظ الثابت والمعنى المتحرك في إطار النظام اللغوي القرآني في
فهم تطور مضامين ودلالات الآية القرآنية في ضوء ما انبثق من خلاصات ونتائج أسفرت عنها المناهج
والدراسات اللغوية واللسانية الحديثة والمعاصرة .

إذن فكل ما نستطيع إدراكه في الآية القرآنية من ملاحظات أو إشارات هو في حقيقته حكمة
إلهية مقصودة يحيط بها علم الله تعالى المطلق وليست مصادفة ومن ثم يمكن طرح السؤال التالي:

1- ينظر كيف نقرأ تراثنا البلاغي: محمد بركات حمدي أبو علي، ص 25، ط 01، دار وائل، 1999، 2000م.

المدخل النظام اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية
ترى ما الحكمة الكائنة الكامنة وراء جعل معجزة آخر الأنبياء وخاتمهم معجزة قول أو معجزة
كلمة؟ ثم لماذا تتخذ المعجزة من اللسان العربي معبرا لإعجازها المطلق والشامل ثم وبتخليط آخر للسون
الأصل واستنباطا للسؤال في السؤال: ترى هل نقدر أن نجعل من الظاهرة القرآنية بوصفها معجزة لسانية
مدخلا لقراءة الكون في الآفاق وفي الأنفس؟ أي بتعبير آخر هل نقدر أن نجعل من البلاغة القرآنية، بلاغة
(أحسن الحديث) مدخلا لقراءة بلاغة السماء، وبلاغة الأرض، وبلاغة الزرع والطير والبحر⁽¹⁾...؟
بجملة القول هل نقدر أن نصوغ من الفكر البلاغي العربي الذي سلك القرآن مسالكه في أرضه
نظرية معرفية؟ وهل نقدر أن نجعل منه مدخلا كونيا لقراءة الفعل الإلهي فعل الخلق، وذلك بعد توسيع
كفاءة ذلك الفكر ثم إسقاطه على الكائنات، فيزياء وكيمياء وأحياء ورياضة.. الخ.
هذا هو السؤال الرئيس الذي تتكون به هذه الدراسة محاولا من خلال مدخل وبابين، الإجابة
عنه إجابة تنحو بصاحبها منحى علميا قدر المستطاع، وهو يحاول الوقوف على إعجاز الآية القرآنية
اللغوي والعلمي، من خلال الارتباط التام للكلمات القرآنية بجذورها اللغوية انطلاقا من مدخل الوظيفة
الإبلاغية للغة القرآنية... لأن أي كلمة قرآنية تحمل معنى يدور في إطار المعنى الذي يحمله جذرها اللغوي
ولا توجد كلمة رديفة لأخرى بالمعنى المطلق الذي يتصوره بعض الدارسين، واقتران الكلمات القرآنية
مع بعضها بعضا هو انعكاس مطلق لارتباط المسائل والقضايا التي تصفها وتصورها هذه الكلمات؛ لأن
لغة القرآن الكريم فطرية موحاة اقتضتها مشيئة الله تعالى وحكمته، وهي ليست وضعية من اختيار البشر
والله أعلم.

1 - ينظر الإعجاز القرآني؛ عيسى أمير، ص 07-08، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

مفهوم الآية:

لقد اهتم أصحاب الدراسات القرآنية بدراسة الآية القرآنية باعتبارها المصطلح التوقيفي الأصغر موازنة لمصطلحي القرآن والسورة، وهي المصطلح الذي يمثل أساس النظم والتأليف القرآنيين، وهي أيضا الدليل والبرهان القاطع على أن هذا القرآن من عند الله تعالى بصرف النظر عن موضوع هذا الدليل بيانيا كان أم علميا أم تشريعيًا أم تاريخيًا... ومن ثم اكتسبت الآية القرآنية أهمية كبرى في مجال الدراسات المختلفة، وقبل أن نستيع مختلف تطور دلالات هذه الآية القرآنية المعجزة نحاول أن نقدم مفهومها.

الآية في اللغة والإصطلاح:

لقد تباينت آراء أصحاب المعاجم العربية في تحديد مفهوم "الآية" سواء على المستوى الأصلى الاشتقاقي أم على مستوى الدلالة المعجمية للفظ "الآية".

يرى بن فارس أن (أبي) الهمزة، والباء، والياء، أصل واحد وهو النظر بمعنى الإنتظار: يقال: تأيا؛ أي تمكث واستشهد على ذلك بقول الشاعر:

قف بالديار وقوف زائر ***** وتأي إنك غير صاغر

وفول لبيد: وتأيت عليه قافلا ***** وعلى الأرض غيابات الطفل

وعن بن الأعرابي: تأيت الأمر: انتظرت إمكانه⁽¹⁾.

وعلى هذا المعنى تكون الآية متصفة بضرورة الانتظار عندها والنظر فيها بالتمكث والتلبث عليهما لتمام لفظها أو معناها أو هما معا، فيقف قارئها عند نهايتها وقوفا واجبا بالتوقيف.

فالآية مكان مقام وتمكث كما تقول العرب هذه دار تئية⁽²⁾؛ أي مقام وبعد أن أقر بن فارس أن لأصل (أبي) أصل واحد يعود فيستدرك على كلامه السابق بأن يذكر أصلا آخر (لأبي) وهو التعمد، يقال تأيت على تفاعلت، وأصله تعمدت أيتها وشخصه ولذلك قال العرب: "الآية العلامة وهذه آية مآياة

كقولك علامة معلمة لتمييزها عن غيرها من العلامات فأياة الشمس ضوءها؛ لأنه كالعلامة لها".

أما الخليل فالآية عنده بمعنى الجماعة قال: خرج القوم بأيتهم أي بجماعتهم.

قال برج بن مسهر:

خرجنا من النقبين لاحي مثلنا ***** بأيتنا نرجي المطي المطافلا

1- المقاييس: أحمد بن فارس، ج 01، ص 167-168، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979م.

2- أسس البلاغة: الرمخشري، ص 13، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة بيروت، لبنان.

أما من حيث وزنها فيرى بن فارس: أن أصل آية آية بوزن أعيه مهموز همزتين فخففت الأخيرة فامتدت. قال سيبويه: موضع العين من الآية واو لأن ما كان موضع العين منه واو واللام ياء أكثر مما موضع العين واللام منه ياءان مثل شويت هو أكثر في الكلام من حيث⁽¹⁾.

أما الجوهري في الصحاح فلم يزد على ما أورده ابن فارس في المقاييس على الرغم من اختلاف الشواهد والأمثلة حيث قال: إن الآية من كتاب الله جماعة الحروف وقد خالف ابن فارس فيما أورده من أصل الآية لغة حيث قال: والأصل (أوية) بالتحريك مستشهدا بقول سيبويه أن موضع العين واو وقد نقل عن الفراء قوله أن الآية: هي من الفعل فاعلة، وإنما ذهبت منه اللام، ولو جاءت تامة لجاءت (أويه) ولكنها خففت⁽²⁾.

ونلاحظ من خلال هذا التعريف تركيز الجوهري على التفسير الديني ومدى ارتباطه بالتفسير اللغوي حيث حاول الجمع بين القولين وتجميع ما قيل في أصل الآية.

وأما ابن منظور فقد نقل عن الخليل أن وزن الآية "فعلة" بفتح العين محرّكة وعن غيره أن أصلها (أية) "فعلة" بسكون العين فقلبت الياء الساكنة ألفا لانفتاح ما قبلها، ويعقب على ذلك بقوله: وهذا قلب شاذ كما قلبوه في حاربي وطائي، إلا أن ذلك قليل غير مقبس عليه وهذا يؤكد على أن أصل (أية) (أوية) بفتح الواو وموضع العين واو.

أما من حيث دلالاتها المعجمية فيزيد على ما ورد عن ابن فارس والجوهري قول الزجاج: بأن الآيات بمعنى الآثار⁽³⁾.

وأما مرتضى الزبيدي في (التاج) فلم يزد على أقوال من سبقه عدا الإكثار من الأمثلة والاستشهادات ولكنه تفرد عنهم جميعا بجمع الأقوال وتصنيفها في وزن الآية وإعلالها وكان كثير التعقيب للجوهري فقد حصر الأقوال في ثلاثة أنواع:

1- قول الجوهري والرد عليه حيث أورد ما يلي: "قال الجوهري: قال سيبويه: موضع العين من الآية واو، لأن ما كان موضع العين منه واو واللام ياء أكثر مما موضع العين واللام منه ياءان ... قال ابن بري لم يذكر سيبويه أن عين آية واو كما ذكر الجوهري، وإنما قال أصله (أوية) فأبدلت الياء الساكنة ألفا.

1- المقاييس: أحمد بن فارس، ج01، ص 167-168.

2- تاج لغة وصحاح العربية: الجوهري، ج01، ص 2275، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1956م.

3- لسان العرب: ابن منظور، ج14، ص 61، دار صادر، بيروت، لبنان.

قال عن الخليل أنه أجاز في النسبة إلى الآية آيبّي، أيّي، وأوي، أما أووي فلم يقله أحد علمته غير الجوهري، وهذا دليل نقد وتمحيص وبحت جاد.

2- قول الفراء الذي نقله الجوهري أيضا حيث يرى أن: (الآية) هي من الفعل فاعلة وإنما ذهبت منه اللام ولو جاءت تامة لجاءت آية ولكنها خففت.

3- قول الكسائي: وهو أن "الذاهب من لفظ (آية) العين صيرت ياؤها الأولى ألفا كما فعل بحاجة وقامة، وأصلها حائجة وقائمة، وقد ردّ عليه الفراء ذلك فقال: "وهذا خطأ؛ لأن هذا لا يكون في أولاد الثلاثة ولو كان كما قال: لقليل في نواة وحياة، نائه وحائه، قال وهذا فاسد⁽¹⁾.

ومعنى هذا أن مرتضى الزبيدي قد أصل المعنى اللغوي للآية بتعقيبه على القول الأول وتأنيده للقولين السابقين وقبوله لما جاء فيهما.

ونستخلص مما سبق أن المعاجم اللغوية في العربية تكاد تجمع على أن الآية من حيث وزنها (فعلة) بفتح العين أو (فعلة) محرّكة أو فاعلة.

وجمعها آيات وآي وآياي وجمع الجمع آباء، وأصلها أوية بفتح الواو، وموضع العين واو والنسبة إليه أووي... وتأيا الشيء: تعمد آيته أي شخصه، وآية الرجل: شخصه وأيا آية: وضع علامة وقالوا أصلها (آية) تحركت الياء وانفتح ما قبلها فجاءت آية.

ولفظ (الآية)⁽²⁾ في كلام أهل الجاهلية الذين نزل عليهم القرآن كان له في شعرهم وكلامهم معان أخذ بعضها برفاق بعض:

1- فالأصل الأول الذي خرجت منه هذه المعاني هو أن (الآية) العلامة، وقد اقتصر أكثر شراح الشعر على تفسيرها حيث وقعت في شعر الشعراء بهذا المعنى وحده، دون تفصيل.

والمقصود هي العلامة التي ترى أو تسمع فتصبح دليلا يهتدى به إلى خفي أو غرض أو وجهة، فأية الطريق مثلا هي العلامة التي يراها المسافر في طريقه فيتحرى شطرها ويعمد إليها مهتديا بها.

2- ثم قالوا لآثار الديار ورسومها، أيام مقام أهلها بها، أو عقب رحيلهم عنها، وقبل أن تغيرها وتطمس بعض معالمها الرياح والأمطار؛ آيات الديار فمنه قول النابغة الذبياني:

توهمت آيات لها فعرفتها ***** لستة أعوام وذا العام سابع
رماد ككحل العين ما إن تبينه ***** ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع⁽³⁾

1- تاج العروس: الزبيدي مع 10، ص 26، دار لبيب للنشر والتوزيع، ابن غازي.

2- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج 01، ص 80، ط 01، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 1423 هـ-2002 م.

3- مداخل إعجاز القرآن: محمود محمد شاكر، ص 126، ط 01، مطبعة المدني، القاهرة، 1423 هـ، 2002.

منازل توهمها النابغة كما عهدها منذ ستة أعوام، فتغير الرماد على السنين، فصار كآثار كحل العين، وتغير النوى الذي كان يحجز الماء على خباء صاحبتة، فصار كبقية حوض تهدم، فهو متكسر لاطيئ بالأرض بعد شخوصه وبروزه.

3- ثم قالوا للبناء العالي الذي بني ليستدل به: (آية) وقد نعى هود عليه السلام على قومه عاد، أنهم كانوا يعتمدون إلى كل ربوة مشرفة بارزة، فينون عليها (آية) عالية، لا لغرض الهداية بل سفها وإسرافا وتحليدا لقوتهم وبطشهم، بهذا المعنى جاءت في آية واحدة من القرآن وهي قوله تعالى فيما اقتضه من أقوال هود لقومه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾⁽¹⁾.

4- ثم قالوا لشخص الرجل وجماعته الذي يرى من بعيد أو في ظلمة غير بين الملامح؛ وذلك لارتفاع شخصه وظهوره الدال على أنه إنسان: (آية) فمن ذلك قول عروة بن الورد العبسي يقوله لصاحبتة أم حسان، بعد أن حشمته ما حشمته من كيدها بمكان يقال له (غضور):

غفت بعدنا من أم حسان غضور ***** وفي الرجل منها آية لا تغير

والذي على الرجل هو شخصه يعني نفسه وقد لوحته الرّجل والأسفار⁽²⁾.

5- ثم قالوا لكل شيء تسمعه أو تراه، فيذكرك بشيء نسيت، أو غفلت عنه وهو (العبرة) من العبر المذكورة (آية)، ومنه قول زهير بن أبي سلمى المزني:

أراني إذا ما شئت لاقيت آية ***** تذكرني بعض الذي كنت ناسيا

أي لقيت عبرة من العبرات تذكرني ما نسيت، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّائِلِينَ﴾⁽³⁾.

6- ثم قالوا: لكل شيء يستدل به على أمر قد كان وحدث ولاشك عند سامعه في حدوثه، وأن المتحدث به صادق: (آية)، وأكثر ما تأتي بهذا المعنى مقترنة بباء الجر، فمنه قول الحصين بن الحمام المري:

ولكن خذوني أيّ يوم قدرتم ***** علي وجزوا الرأس أن أتكلّما

بآية أنني قد فجعت بفارس ***** إذا عردّ الأقوام أقدم معلما

وهي هنا بمعنى (الأمانة) التي تكون بين اثنين أو أكثر، تدل بمجرد رؤيتها أو سماعها على شيء

يعرفونه تمام المعرفة، اتفقوا عليه، أو كأنهم اتفقوا عليه.

1- سورة الشعراء: الأيتان، 128-129.

2- مداخل إعجاز القرآن: محمود محمد شاكر، ص 127.

3- سورة يوسف: الآية 07.

والأمرأة هي التي يقول فيها الشاعر المحسن الرقيق، يقول لصاحبه:

إذا طلعت شمس النهار، فإنها ***** أمانة تسليمي عليك، فسلمي

جعل طلوع كل شمس، في كل صباح، أمانة بينه وبينها على تسليمه عليها، وهي بهذا المعنى باقية إلى يوم في عاميتنا⁽¹⁾.

7- ثم قالوا: الجماعة القوم إذا رحلوا جميعا، لحرب أو في سفرة (آية) لأهم عندئذ بارزون في بساط الأرض ظاهرون يقولون (خرج القوم بأيهم) أي خرجوا جميعا. ومنه قول البرج بن مسهر الطائي⁽²⁾:

خرجنا من النقيين لآحيّ مثلنا ***** بآيتنا نرجي اللقاح المطافلا

هذه أيضا أكثر ما تأتي مقترنة بباء الجر كالتّي قبلها.

8- ثم سموا (الرسالة) التي يحملها رسول، فيبلغها إلى من يراد تبليغها إليه وهي رسالة ملفوظة على الأكثر، أو مكتوبة أحيانا: (آية) لأنها تدل على صاحبها، وعلى ما في نفسه، هو معنى عزيز أغفلته كتب اللغة، مع استفاضته في شعر عرب الجاهلية، قد نص عليه أبو جعفر الطبري في أول تفسيره ومنه قول النابغة الذبياني:

من مبلغ عمرو بن هند آية؟ ***** ومن النصيحة كثرة الإعذار

أي: من يبلغ رسالة منّي؟ في شعر كثير مثله ويفسر قدماء شراح الشعر (الآية) في مثل هذا الشعر بأحسا (العلامة) وهو تفسير لا يليق، وصواب تفسيرها هو ما قاله أبو جعفر (الرسالة).

9- وقد قال أبو جعفر الطبري في تفسيره: إن (الآية) أيضا القصة: فيكون معنى (آيات القرآن) (القصص، قصة تتلو قصة بفصول ووصول)، ولم نجد في شعر الجاهلية، ولا غيرهم ما يجوز معه أن يحمل معنى (الآية) على أنه (القصة)، فمن أجل ذلك نجد هذا الوجه ضعيفا، وهو تعبير غير مفيد في معنى (الآية) على أنه (القصة)، فمن أجل ذلك نجد هذا الوجه ضعيفات، وهو تعبير غير مفيد في معنى (الآية) ولا ندري كيف قاله أبو جعفر رحمه الله؟ فهذا المعنى التاسع لا نعتد به حتى تثبت صحته⁽³⁾.

ويبين أن هذه المجازي الثمانية التي يجري فيها لفظ (الآية) تتبع كلها من معنى العلامة الظاهرة البيّنة الدالة، التي تراها العين أو تسمعها الأذن أو يتوهمها القلب، أو يتفهمها العقل هادية على الطريق أحيانا

1- مداخل إعجاز القرآن: محمود محمد شاكر، ص 128-129.

2- برج بن مسهر بن الجلاس أحد بني جديلة أحد معمرى الجاهلية وكانت إقامته في ديار طوى، ينظر الدراسات اللغوية للقرآن الكريم في أوائل القرن الثالث الهجري، عيسى شحاتة، ص 66.

3- مداخل إعجاز القرآن: محمود محمد شاكر، ص 130.

الفصل الأول الآية في الدراسات اللغوية

وتكون دليلا على معنى يتطلب الدليل أحيانا أخرى، وتكون شاهدا على صدق الحدث والحديث تارة وبيانا صادقا أو أمانة مصدقة تارة أخرى.

فهي إذن في جميع مجاريها متعاقبة المعاني مسترسلة، سهلة التنقل من مجرى إلى مجرى بلا كد تلقاه على مجازها، وبلا توقف يحبس سامعها عن سهولة التنقل معها من معنى إلى آخر وهذه المجاري الثمانية للفظ (الآية) تقطع قطعا مفضيا إلى اليقين على أنها آية، وأمانة، ودليل صادق، وشاهد مبين، على أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد صدق في دعواه أن الله أرسله رسولا ونبيًا⁽¹⁾.

وأما كلمة آية في القرآن الكريم فقد وردت 365⁽²⁾ مرة وقد جاءت حسب سياقها بمعان عدة هي:

أولها: المعجزة ومنه قوله تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾⁽³⁾ أي معجزة واضحة.

ثانيها: العلامة ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾⁽⁴⁾. أي علامة ملكه.

ثالثها: العبرة ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾⁽⁵⁾.

رابعها: الأمر العجيب ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾⁽⁶⁾.

خامسها: البرهان والدليل ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَالِدَاتُ اللَّائِيَاتُ﴾⁽⁷⁾.

والمعنى أن من براهين وجود الله واقتداره واتصافه بالكمال، خلق عوالم السموات والأرض، واختلاف الألسنة والألوان، تلك كلها إطلاقات لغوية⁽⁸⁾.

أما تعريف الآية اصطلاحا فقد تعددت فيه الآراء واختلفت التحديدات لذلك باختلاف أصحاب التعريفات واختلاف وجهات النظر إلى الآية وأسلوب تناولها قال الجعيري: "حد الآية قرآن مركب من جمل ولو تقديرا ذو مبدأ ومقطع مندرج في سورة"⁽⁹⁾.

1 - مداخل إعجاز القرآن: محمود محمد شاكر، ص 131.

2 - معجم المفهرس لألفاظ القرآن: محمد فؤاد الباقلي، ص 103-108، دار الكتب المصرية، القاهرة.

3 - سورة البقرة: الآية 211.

4 - سورة البقرة: الآية 248.

5 - سورة البقرة: الآية 248.

6 - سورة المؤمنون: الآية 50.

7 - سورة الروم: الآية 22.

8 - مناهل العرفان عبد العظيم: الزرقاني، ج 01، ص 274، تحقيق: أحمد زمري، ط 04، دار الكتاب، بيروت، لبنان، 2002م.

9 - الإتقان: السيوطي، ج 01، ص 66، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، 1973م.

الفصل الأول الآية في الدراسات اللغوية

وقال غيره: "الآية طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها ليس بينها شبه بما سواها"⁽¹⁾.
وقيل هي الواحدة من المعدودات في السور؛ لأنها علامة انقطاع ما قبلها من الكلام وانقطاعها عما بعدها⁽²⁾.

وقال بعضهم: "الصحيح أنها الآية إنما تعلم بتوقيف من الشارع (الله عز وجل)، لا مجال للقياس فيه كمعرفة السورة فالآية طائفة حروف من القرآن علم بالتوقيف انقطاعها عن الكلام الذي بعدها في أول القرآن وعن الكلام الذي قبلها في آخر القرآن، وعن الكلام الذي قبلها والذي بعدها في غيرها غير مشتمل على مثل ذلك"⁽³⁾.

وقال الزمخشري: "الآيات علم توقيفي لا مجال للقياس فيه"⁽⁴⁾.

وقد أشار ابن منظور إلى المعنى الاصطلاحي بذكره قول كل من أبي بكر وابن حمزة حيث قال: قال أبو بكر: "سميت الآية من القرآن آية، لأنها علامة لانقطاع كلام من كلام، ويقال سميت الآية آية لأنها جماعة من حروف القرآن، وآيات الله عجائبه. أما ابن حمزة فقال: "الآية من القرآن كأنها العلامة التي يفضى منها إلى غيرها كأعلام الطريق المنصوبة للهداية"⁽⁵⁾.
وعنى هذا الأساس تكون الآيات عبر وعلامات لمن أراد الاعتبار والهداية.

أما أصحاب المنحد فلم يزيدوا على ما أوردناه عن المعاجم السابقة غير قولهم: "وآيات الكتاب كلام منه منفصل بفصل لفظي"⁽⁶⁾.

وحاول الشيخ أحمد رضا أن يجمع مختلف الدلالات المعجمية للآية حيث قال الآية: العلامة، الأمانة، الرسالة، الجماعة، البناء العالي... والآية القرآنية، كل جملة دالة على حكم آية كانت أو سورة أو فصلاً من سورة: كل منفصل بفصل لفظي: التي فيها حجة أو معجزة⁽⁷⁾.

1- الإيقان: السيوطي، ج 01، ص 67.

2- المصدر نفسه: ج 01، ص 267.

3- المصدر نفسه: ج 01، ص 267.

4- تفسير الكشاف: الزمخشري، ج 01، ص 41، ترتيب محمد عبد السلام شاهين، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1415هـ-1995م.

5- لسان العرب: ابن منظور، ج 14، ص 61.

6- اشجد في اللغة والأعلام: ص 22، دار المشرق، بيروت.

7- معجم من اللغة: الشيخ أحمد رضا، مع 01، ص 229، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1958م.

وهذا التعريف كان قد أشار إليه الراغب الأصفهاني حيث قال: "ولكل جملة من القرآن دالة على حكم آية سورة كانت أو فصلا من سورة وقد يقال لكل كلام منه منفصل بفصل لفظي آية وعلى هذا اعتبار آيات السور التي تعد بها السور"⁽¹⁾.

ولعل الملاحظة الهامة التي تقف عندها في هذا النص هي أن وجه الاختلاف بينهما يكمن في اختلاف إعراب لفظي (حكم وآية) عند الفصل والوصل بينهما، وأن كل آية تتضمن حكما ومعنى ناجزا تاما يحسن السكوت عنده وهذا ما لم يقله الراغب، وذلك كما قال البطليوسي: "قد نجد الآية الواحدة ربما استوفت الغرض المقصود بها، فلم تحوجك إلى غيرها، وربما وردت الآية غير مستوفية للغرض المراد، وورد تمام الغرض في آية أخرى"⁽²⁾.

وعلى هذا الأساس تكون الآية القرآنية معنى جديدا استحدثه القرآن الكريم ولم يكن للناس به علم من قبله وهو المعنى المقصود من كل تلك الأقوال السالفة الذكر. فالآية القرآنية هي إذا وحدة محددة شرعا من القرآن الكريم؛ لأنها علامة على صدق من أتى بها وعلى عجز المتحدى بها، لذلك علمت بتوقيف من الشارع الحكيم كمعرفة السورة.

وقد خصت في الاصطلاح: بأنها طائفة ذات مطع ومقطع متدرجة في سورة من القرآن، وهي تلك الآيات التي تناولت كل مظاهر الآفاق والأنفس بالوصف، مع أنها كثيرة في القرآن ومتعددة المشارب والموارد فمنها ما يتحدث عن الكون والطبيعة، ومنها ما يتحدث عن السماوات والأرض والليل والنهار... إلخ. أو ما تعرف بالآية الكونية؛ وهي ما بثه الله في الكون والوجود من مخلوقات تدل عليه وعلى وجوده ووحدانيته وذلك كما قال السيد سابق: "إن وجود الله حقيقة لا شك في أمرها ولا مجال لإنكارها وكل ما في الكون شاهد على هذا الوجود الإلهي ومواد الطبيعة وعناصرها تؤكد أن لها خالقا ومدبرا.. فالعالم العلوي وما فيه من شمس وأقمار ونجوم وكواكب، والعالم الأرضي وما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد، والترابط الوثيق والتوازن الدقيق الذي يؤلف بين هذه العوالم ويحكم أمرها ما هو إلا آية وجود الله ومظهر تفرده بالخلق"⁽³⁾.

1- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ص 33، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

2- الإنصاف: ابن السيد البطليوسي، ص 113-114، تحقيق: محمد رضا الداية، دار الفكر، 1983م.

3- العقائد الإسلامية: السيد سابق، ص 39، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

العلاقة بين المعنى اللغوي والقرآني للآية:

عرف اللسان العربي الآية كمصطلح لغوي قبل نزول الوحي على سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- بمعان مختلفة⁽¹⁾ منها العجب، العلامة، الشخص جماعة الحروف... إلخ.

وبقيت هذه المعاني مستعملة عندهم إلى ما بعد بعثة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- حيث روى البخاري عن أنس ابن مالك -رضي الله عنهما-: "أن أهل مكة سألوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما"⁽²⁾.

وعرفه كمصطلح قرآني توقيفي منذ مطلع الوحي وجسده الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي كان خلقه القرآن في سلوكه قولاً وعملاً تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾⁽³⁾.

من خلال هذا النص نلاحظ أن المعاني اللغوية هي الأصل في استعمال الألفاظ إلا أنه اصطلح على وضعها لمعان أخرى لها علاقة بالمعنى اللغوي ولهذا اتسع مفهوم هذه الكلمة (الآية) عبر العصور حتى أصبحت الآن تستعمل في معان مختلفة لا تخرج عن نطاق المعنى اللغوي⁽⁴⁾ حتى وإن كان مدلولها يتسع لأكثر من ذلك. لقد نقل عبد الوهاب النجار⁽⁵⁾ عن كليات أبي البقاء ستة معان لكلمة (آية) نوجز ما نقله مع بعض الإضافات كما يلي:

1- الآية بمعنى قطع من القرآن: هي طائفة حروف من القرآن عنم بالتوقيف انقطاع معناها عن الكلام الذي بعدها في أول القرآن، وعن الكلام الذي قبلها في آخره وعن الذي قبلها والذي بعدها في غيرهما غير مشتمل على مثل ذلك...

2- الآية بمعنى العلامة: وذلك كقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾⁽⁶⁾
﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَّإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةً﴾⁽⁷⁾. ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾⁽⁸⁾.

- 1- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 335، تقديم مصطفى عبد القادر، ط 01، دار الفكر، بيروت، 1408هـ-1988م.
- 2- إنجاز البيان في سور القرآن: محمد علي الصابوني، ص 221، مكتبة رحاب، الجزائر.
- 3- هدى الفرقان في علوم القرآن: غازي عنابة، ص 239، مكتبة الشهاب، باتنة، 1988م.
- 4- ينظر الحق المطلق نظرية قرآنية في الروح القرآنية: عدنان الرفاعي، ص 66، ط 01، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2000م.
- 5- قصص الأنبياء: عبد الوهاب النجار، ص 248، ط 02، دار الكتاب العربي.
- 6- سورة آل عمران: الآية 41.
- 7- سورة سبأ: الآية 15.
- 8- سورة العنكبوت: الآية 35.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾⁽¹⁾.

3- الآية بمعنى المعجزة: وذلك كقول الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالذَّمَ آيَاتٍ مَّفْصَلَاتٍ﴾⁽²⁾.

﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِن غَيْرِ سَوْءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾⁽³⁾.

والمعجزة هي الفعل الخارق للعادة، أي الذي تنحرم به السنن المعتادة الضابطة لظواهر وحوادث الكون، وتشير إلى هذا المعنى النصوص القرآنية الآتية:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾⁽⁴⁾.

﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ﴾⁽⁵⁾.

4- الآية بمعنى العبرة والموعظة:

أ- آية استقل بها الله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾⁽⁶⁾، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾⁽⁷⁾، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾⁽⁸⁾. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾⁽⁹⁾.

إن مدلول (آية) في كتاب الله تعالى قد يكون هو المظهر من مظاهر الخلق أو الشكل من أشكال آثار القدرة الإلهية في الخلق والتكوين في سائر الموجودات حية وغير حية وقد تكون لأخذ العبرة والدرس كما في قول الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰؤُلَاءِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِثَّةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِثَّةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾⁽¹⁰⁾.

1- سورة الفرقة: الآية 248.

2- سورة الأعراف: الآية 133.

3- سورة النمل: الآية 12.

4- سورة الرعد: الآية 07.

5- سورة الأنبياء: الآية 05.

6- سورة البقرة: الآية 164.

7- سورة النحل: الآية 12.

8- سورة الروم: الآية 20.

9- سورة فصلت: الآية 37.

10- سورة البقرة: الآية 259.

ب- آية أجراها الله على أيدي بعض من البشر: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآبَتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ﴾ (1)، ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ (2)، ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (3).

5- الآية بمعنى الحكم:

كقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (4)(5).

6- الآية بمعنى السلطان والبرهان:

كقول الله تعالى: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتَمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ (6).

وعموماً، فالآيات القرآنية هي الوحي المنزل على خاتم المرسلين سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- وهي علامات دالة على صدق الرسالة بما تنطوي عليه من الإعجاز، والآيات الكونية هي الكائنات المحلوقه في الآفاق، علويها وسفليها، أرضها وسماؤها، وهي علامات دالة على وحدانية الله وقدرته وعظمته وحكمته، وذلك بما تنطوي عليه من عجائب التكوين وروعة الخلق وإحكام النظام والإفاضة عليها مما به سر بقائها ونظامها.

والآيات التي وردت في القرآن حول هذه المعاني وغيرها جاءت مصحوبة بلفظ (آية) أو (آيات) تارة وجاءت تارة أخرى غير مصحوبة بلفظ (آية) اكتفاءً بأن القرآن ساقها في بعض المواضع مصحوبة بلفظ (آية) كقول الله تعالى في (آية): ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ (7).

فذكر الشمس والقمر على أنهما من آيات الله الكونية. وفي آية أخرى لم يذكر معها لفظ (آية) بل قال: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ (8).

ولكن ما هي آيات الله في الآفاق وفي الأنفس؟

1- سورة الروم: الآية 23.

2- سورة يس: الآية 41.

3- سورة فصلت: الآية 53.

4- سورة البقرة: الآية 187.

5- قصص الأنبياء: عبد الوهاب النجار، ص 249.

6- سورة القصص: الآية 35.

7- سورة فصلت: الآية 37.

8- سورة الرحمن: الآية 05.

يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ، سُنُّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾⁽¹⁾.

فآيات الله في آفاق الأرض والسماء تحمل معاني ثلاثة⁽²⁾.

الأول: المخلوقات التي خلقها الله في شتى آفاق الأرض والسماء مثل قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾⁽³⁾.

الثاني: آيات القرآن التي تخبر وتصف أنواع المخلوقات وهي آيات كثيرة.

الثالث: البيئات والمعجزات التي يظهرها الله تصديقا لرسوله -صلى الله عليه وسلم- في شتى آفاق الأرض والسماء برؤية مصداقها من حقائق الخلق حيناً بعد حين.

قال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: ﴿ سُنُّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ يعني سنريهم دلالات صدق القرآن وعلامة كونه من عند الله في الآفاق وفي أنفسهم⁽⁴⁾.

وقال ابن كثير في تفسيره للآية: أي سظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- بدلائل خارجية في الآفاق من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم، وسائر الأديان، ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه، وفيه، وعليه، من المواد والأخلاق والهيئات العجيبة...⁽⁵⁾.

وقال الزمخشري في تفسيره للآية: أي أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب، الذي هو على كل شيء شهيد، أي مطلع ومهيمن يستوي عنده غيبه وشهادته فيكفيهم ذلك دليلا على أنه حق وأنه من عنده⁽⁶⁾.

إذن لقد وردت كلمة آية في القرآن الكريم، لتصف معنى يدور داخل إطار الدليل والمعجزة والبرهان...

1- سورة فصلت: الآيات 52-53.

2- المعجزة العلمية للقرآن والسنة: الشيخ عبد الحميد الزنداني، نبوت الموعود العلمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، إسلام آباد، باكستان، 1408هـ-1987م.

3- سورة الشورى: الآية 29.

4- فتح الدين الشوكاني: ج 04، ص 653، تحقيق أحمد عبد السلام، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ-1994م.

5- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج 04، ص 2556.

6- الكشاف: الزمخشري، ج 04، ص 201.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ (1).

قوله تعالى: ﴿وَأَنْظِرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَ آيَةَ لِلنَّاسِ﴾ (2).

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنحِيكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةَ﴾ (3).

فالآية تشير إلى الدليل والبرهان الإعجازي الذي يدركه أصحاب العقول في موجودات هذا الكون سواء عالم الشهادة أم عالم الغيب.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (4).

وقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبِحُوا نَادِمِينَ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (5).

فكلمة آية في القرآن الكريم عندما تقرر بمسألة، تصف لنا ما تحمله هذه المسألة من برهان ودليل معجز يدل على قدرة الله تعالى، ولا تعني مجرد المسألة بعيدا عن إعجازها وبرهانها وأدلتها... إن كل ما في الوجود يحمل آية تدل على عظمة الموجد سبحانه وتعالى... وكلمة آية في القرآن الكريم، تأتي أحيانا لتصف برهاننا وحكما ودليلا تحمله كلمات الله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَّهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ (6).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا نُزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ نَبَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (7).

فكلمة آية هنا تعني برهاننا ودليلا وحكما تحمله كلمات الله تعالى في القرآن الكريم، يسخ ويبدل حكما وبرهاننا ودليلا سابقا كان معروفا قبل نزول القرآن الكريم.

1 - سورة البقرة: الآية 248.

2 - سورة البقرة: الآية 259.

3 - سورة بونس: الآية 92.

4 - سورة النحل: الآية 65، وينظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج 02، ص 1448-1637.

5 - سورة الشعراء: الآيتان 157-158، ينظر المصدر نفسه، ج 03، ص 2117.

6 - سورة البقرة: الآية 106، ينظر المصدر نفسه، ج 01، ص 275-276، وينظر الحق المطلق، عدنان الرفاعي، ص 155، ط 01، دار الفكر، دمشق، 2000م.

7 - سورة النحل: الآية 101، ينظر المصدر نفسه، ج 02، ص 1653.

فكلمات الله تعالى تحمل من البراهين والأدلة والمعجزات (الآيات) ما لا يستطيع مخلوق الإحاطة به لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (1).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (2).

وحيثما كان الكفار يطلبون من الرسول -صلى الله عليه وسلم- آية، إنما كان مرادهم برهاناً معجزاً ودليلاً حسيماً، وليس مجموعة كلمات قرآنية كالتى تنزل على الرسول -صلى الله عليه وسلم- فلم ينظروا إلى الإعجاز والبراهين والأدلة (الآيات) في كلمات الله، لأن على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقراً، فلا يرون الآيات في كلمات الله تعالى..

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (3).

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (4).

وقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَعْتُ أَحْلَامٍ بَلْ أُنْفَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ (5).

وكلمة (آيات) جمع آية بالإضافة إلى كونها تأتي وصفاً للبراهين والمعجزات والأدلة الكونية الدالة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وتأتي أيضاً وصفاً لما تحمله كلمات الله تعالى من براهين وأدلة ومعجزات ومعان وأحكام.

لقوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ آتِنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْتَظِرْ كَيْفَ نَبِّئُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْتَظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ (6).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ انْتَظِرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَفُونَ﴾ (7).

وقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (8).

1- سورة الكهف: الآية 109، ينظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج 03، ص 1805.

2- سورة لقمان: الآية 27، ينظر المصدر نفسه: ج 03، ص 2254.

3- سورة يونس: الآية 20، ينظر المصدر نفسه: ج 02، ص 1424.

4- سورة الرعد: الآية 07، ينظر المصدر نفسه: ج 02، ص 1540.

5- سورة الأنبياء: الآية 05، ينظر المصدر نفسه: ج 03، ص 1892، وينظر الحق المطلق: عدنان الرفاعي، ص 156.

6- سورة المائدة: الآية 75، ينظر المصدر نفسه: ج 02، ص 987.

7- سورة الأنعام: الآية 46، ينظر المصدر نفسه: ج 02، ص 1056.

8- سورة النور: الآية 01، ينظر المصدر نفسه: ج 03، ص 2008.

ولو نظرنا إلى الصورة القرآنية الأخيرة، لرأينا أن كلمة (آيات) تعني البراهين والأحكام والأدلة التي تحملها كلمات الله تعالى، ولا تعني مجرد الكلمات بعيدا عن هذه الأحكام والبراهين.. ولو كان المقصود بكلمة (آيات) الكلمات القرآنية، لما أتت ضمن العبارة القرآنية هذه الصيغة ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

وتأتي كلمة (آيات) في القرآن الكريم أحيانا صفة لجميع المعاني والدلالات والبراهين والأحكام التي تحملها كلمات الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾⁽¹⁾.
وقوله تعالى: ﴿طسَ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾⁽²⁾.

ولما كانت آيات الله تعالى (براهينه وأدلته الإعجازية) موجودة، في كل شيء من هذا الكون، ولما كانت كلمات الله تعالى في كتابه الكريم تصف وصفا مطلقا هذه الدلالات والبراهين، فإن رؤية آيات الله تعالى في هذا الكون، كما تصفها كلمات الله تعالى في القرآن الكريم هي برهان يتبين البشعر مس خلاله أن القرآن الكريم حق، ومن عند الله تعالى.

لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾⁽³⁾.

فآيات كتاب الله تعالى (براهينه وأدلته ومعجزاته ومعانيه) فصلت وعبر عنها غير كلمات الله تعالى باللغة العربية، ومن ثم فإن تفصيل الآيات التي يحملها كتاب الله تعالى -بالنسبة لنا- ناتج عن إدراكنا للغة العربية... ولو كان بلغة أخرى فلا نستطيع إدراك أحكامه وبراهينه ومعانيه لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾⁽⁵⁾.

وهكذا فكل كلمة (آية) أو (آيات) عندما تأتي مرتبطة بكلمات الله تعالى في القرآن الكريم، فإنها تعني مجموعة البراهين والأدلة والأحكام التي تحملها كلمات الله تعالى ولا يمكن تأطيرها بمجرد الكلمات

1- سورة البقرة: الآية 151، وينظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج1، ص 337.

2- سورة النمل: الآية 01، وينظر المصدر نفسه: ج3، ص 2133، وينظر الحق المطلق: عدنان الرفاعي، ص 157.

3- سورة فصلت: الآيات 52-53، وينظر المصدر نفسه: ج4، ص 2556.

4- سورة فصلت: الآية 03، وينظر المصدر نفسه: ج4، ص 2538.

5- سورة فصلت: الآية 44، وينظر المصدر نفسه: ج4، ص 2554.

القرآنية بعيدا عما تحمله من معان.. ولو كانت كلمة آية لا تعني إلا مجموعة كلمات قرآنية بين فاصلتين، لما طلب الكفار من الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن ينزل الله تعالى عليهم آيات من السماء، في الوقت الذي تنزل به كلمات الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَبَ الْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ، وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾⁽¹⁾.

فالعبارة القرآنية (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) تعني الدلائل الإعجازية والبراهين والأحكام والمعاني الموجودة في صدور الذين أوتوا العلم، مما يحمله القرآن الكريم من هذه البراهين والأحكام.

والقرآن الكريم كونه يتعلق بصفات الله تعالى، فإن ذلك يقتضي أن له عمقا من التأويل لا يعلمه إلا الله تعالى، فلا سبيل لمخلوق أن يحيط بصفة من صفات الله تعالى.. وكون القرآن الكريم يحمل منهج الهداية والعبادة للبشر، فإن ذلك يقتضي أن له معاني ظاهرة يستطيع البشر إدراكها والتفاعل معها..

وهكذا فالقرآن الكريم يرتبط -من جهة تأويله وإدراك معانيه والإحاطة به- بالله تعالى فقط، ويرتبط -من جهة حمله للمعاني والأحكام التي تبين المنهج المطلوب من البشر اتباعه- بالبشر وإدراكهم..

إن انتماءنا لعالم الخلق (الشهادة) وخضوعنا لقوانين المكان والزمان، وأسر أنفسنا داخل الجسد المادي، يحول بيننا وبين إدراك تأويل القرآن الكريم.. فلا يأتي تأويل القرآن الكريم -بالنسبة لنا- إلا في الآخرة لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَرُونَ﴾⁽²⁾.

والآية الكريمة التالية تلقي الضوء بشكل واضح على عمقي البراهين والأحكام والأدلة القرآنية.. العمق الظاهر الذي تدركه المخلوقات، وعمق التأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ

1- سورة العنكبوت: الآيات 48-51، وينظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج3، 03، 2210، وينظر الحق المطلق: عدنان الرفاعي، ص158.

2- سورة الأعراف: الآيات 52-53، وينظر المصدر نفسه: ج02، ص 1172-1173، وينظر الحق المطلق: عدنان الرفاعي، ص 159.

عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ⁽¹⁾.

إن كلمة (آيات) في هذه الآية الكريمة تعني الأدلة والبراهين والأحكام والمعاني التي تحملها كلمات الله تعالى في القرآن الكريم، ولا تعني كما تصور الكثيرون، مجرد الكلمات القرآنية الواقعة بين فاصلتين تتكون من نوعين هما المحكم والمتشابه.

وهي بالنسبة لإدراكنا لها وتصورنا لمعانيها، وإحاطتنا ببراهينها، تكون وفق عمقين عمق محكم ظاهر واضح، وعمق متشابه خفي يختلط علينا لا نستطيع إدراكه والإحاطة به.

فالعبرة القرآنية ﴿يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ تعني أنهم آمنوا بكليته سواء عمق المحكم الظاهر الذي يستطيعون إدراكه، أم عمق التأويل الذي لا سبيل لهم في إدراكه وهذا لا يمكن أن يرتبط بالذات الإلهية العالمة به علما مطلقا..

والعبرة القرآنية ﴿كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ تفيد الكلية في الإيمان والبحث بأي مسألة قرآنية وعدم التفريق بين كلمات الله تعالى التي تحمل الأحكام والبراهين والأدلة لجوانب هذه المسألة.. فكل صورة قرآنية تصور جانباً من جوانب المسألة، تحقق في الوقت ذاته جميع الصور والمعاني والأحكام والبراهين التي تحملها العبارات القرآنية التي تصور جوانبها الأخرى⁽²⁾.

فالعبرة القرآنية ﴿ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ﴾ ترسم لنا منهجاً سليماً للبحث في أحكام ومسائل القرآن الكريم.. واتباع هذا المنهج الكلي أثناء دراسة وتفسير القرآن الكريم هو التوازن الذي يزن به أولوا الأبواب حقيقة استنتاجاتهم وتفسيراتهم لكتاب الله تعالى وهو الحد الذي يفصلهم عن غيرهم ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾⁽³⁾.

وهكذا نرى أن كلمات الله تعالى في كتابه الكريم، كلها مطلقة ومتكاملة، ومتعاضدة في وصف وتصوير الأحكام والبراهين والأدلة والمعاني التي يريد الله تعالى منا أن ندركها ونؤمن ونعمل بها. إذن لقد استعمل أصحاب الدراسات القرآنية كلمة آية بمعنى العجب فكأن كل آية عجب في نظمها والمعاني المودعة فيها ومعنى العلامة لما فيها من معالم الحق والخير.

1- سورة آل عمران: الآية 07، وينظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج 01، ص 536-540، وينظر الحق المطلق: عدنان الرفاعي، ص 161.

2- الحق المطلق: عدنان الرفاعي، ص 167.

3- المرجع نفسه: ص 168.

الفصل الأول الآية في الدراسات اللغوية

والجمال؛ لأنها علامة على صدق من أتى بها وعلى عجز من تحدى بها وبمعنى الشخص، لأن معانيها المعجزة شواخص للذهن المتملى والبصر المدرك وبمعنى العبرة لما فيها من قصص وأمثال يتعظ بها المؤمن والمزدرج على حد سواء فهي جديرة بالنظر فيها والإنتظار والتمكث عندها والنظر في عجيب نظمها وحسن تأليفها وانسجامه.

والانتظار والتمكث لأخذ العبرة من مضمونها المتحرك المتحدد وذلك بعد التلبث عند رؤوسها لأن الوقف على رؤوس الآيات من أحسن وأوجب أصناف الوقوف تأسيًا بقراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- عملاً بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾⁽¹⁾.

وبمعنى جماعة الحروف؛ لأن الآية مؤلفة من حروف عرفها العرب ولكن تأليفها جاء على غير ما ألفوه فعز وصفه عليهم باعتبار الآية الواحدة من معدودات السور توقيفاً.

ونستنتج مما سبق أن العلاقة بين المعنى اللغوي والقرآني علاقة ترابط وتكامل؛ لأن الآية القرآنية معجزة نبينا -محمد صلى الله عليه وسلم- لما تحمل من المعاني الدقيقة والأحكام المفصلة وقد شرف المعنى اللغوي بحمل هذه المعاني والأحكام لما لها من خصائص وميزات خصه الله تعالى بها والمناسبة بينهما واضحة؛ لأن الآية القرآنية معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إليها، وهي علامة على صدق من جاء بها وفيها عبرة وعظة لمن أراد أن يعتبر وهي دليل وبرهان على أن هذا القرآن من عند الله تعالى، وهي من الأمور العجيبة لسموها وبلاغتها وإعجازها، وهي جماعة من الحروف فمعانيها في اللغة موجودة في معناها القرآني.

آيات الحروف المقطعة:

حين تلقى نظرة على كتب علوم القرآن، والتفاسير في تناولها لفاتحة سورة البقرة ﴿الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ﴾⁽¹⁾.

نجد أن أصحاب الدراسات القرآنية يخوضون في فهم المراد من هذه الحروف المقطعة التي تبدأ بها السورة "ألف، لام، ميم" وغيرها من الفواتح المحجائية التي بدئت بها سور أخرى مثل "المص، طس، طه..." إلخ؛ ويقدمون في ذلك آراء متعددة، يلتفتنا من بينها رأي متشدد جدا، يعارض الخوض في هذه الفواتح ويراهم سرا مغلقا لا يجوز لأحد أن يحوم حوله أو يطمع في فهم حقيقته ومن ثم انقسم العلماء في تأويل هذه الفواتح إلى مذهبين.

أحدهما: أن لهذه الفواتح علما مستورا وسرا محجوبا استأثر الله بعلمه ومن الروايات التي يحتج بها أصحاب هذا المذهب ما نسب إلى أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- أنه قال: "لله في كل كتاب سر، وسره في القرآن أوائل السور"⁽²⁾.

وقد أورد الطبري وغيره نص هذا القول أحيانا ومعناه أحيانا أخرى دون عزو إلى صاحبه⁽³⁾.

ويماثل قول أبي بكر ما حكاه أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا: "الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر".

واتفقوا أن عليا قال: إن لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي⁽⁴⁾.

وأنه أراد بذلك ما أراده أبو بكر، وإن كانت كلمته توحى إلى جانب ذلك بالامتياز والنقاء ولم يكتف الطبرسي بعلي، وأضاف إليه أئمة الشيعة، قال: هذا هو المروي عن أئمتنا⁽⁵⁾ ومن ثم حكم ابن عباس بأن العلماء عجزوا عن إدراكها⁽⁶⁾.

الإسلامية

1- سورة البقرة: الآيات 01-02.

2- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: الرازي، ج02، ص04، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1414هـ-1993م.

3- جامع البيان في تفسير القرآن: الطبري، ج01، ص68، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1400هـ-1980م.

4- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: الرازي، ج02، ص04.

5- مجمع البيان في تفسير القرآن: الضرسى، ج01، ص32، دار إحياء التراث العربي.

6- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود، ج01، ص32، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1419هـ-1999.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

وعاد الشعبي إلى مقولة الصديق وزادها تفصيلا، قال داود بن أبي هند: كنت أسأل الشعبي عن فسواتح السور فقال: يا داود إن لكل كتاب سرا وإن سر القرآن فواتح السور، فدعها وسل عن عما سوى ذلك⁽¹⁾ فهي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه فنحن نؤمن بظواهرها، ونكل العلم فيها إلى الله وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها⁽²⁾.

ونقل القرطبي عن الربيع بن خثيم ما يزيد كلام الشعبي وضوحا قال: "إن الله أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء وأطلعكم على ما شاء، فأما ما استأثر به لنفسه فليستم بنائية فلا تسألوا عنه وأما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه وتخبرون به وما بكل القرآن تعملون، ولا بكل ما تعلمون تعملون"⁽³⁾.

وعقب أبو بكر بن أبي طالب على هذا القول فقال: فهذا يوضح أن حروفا من القرآن سترت معانيها عن جميع العالم، اختبارا من الله وامتحانا، فمن آمن بها أئيب وسعد ومن كفر وشك أثم وبعد.. قال عبد الله: ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيث ثم قرأ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾⁽⁴⁾.

وأحمل الزركشي كلام الرازي في فقرات قلائل قال فيها: قال الإمام الرازي⁽⁶⁾ وقد أنكر المتكلمون هذا القول وقالوا: لا يجوز أن يرد في كتاب الله ما لا يفهمه الخلق، لأن الله أمر بتدبره والاستنباط منه، وذلك لا يمكن إلا مع الإحاطة بمعناه؛ ولأنه كما جاز التعبد بما لا يعقل معناه في الأفعال، فلم لا يجوز في الأقوال بأن يأمرنا الله تارة بأن نتكلم بما نقف على معناه، وتارة بما لا نقف على معناه، ويكون القصد منه ظهور الإنقياد والتسليم⁽⁷⁾، ونحو ذلك من الروايات⁽⁸⁾ ومما يحتجون به أيضا أن الحروف المقطعة من التشابه، والمتشابه لا يعلم تأويله إلا الله كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا...﴾⁽⁹⁾.

1- معالم التنزيل: الغوي، ج 01، ص 44، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

2- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 222.

3- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ج 01، ص 154، مطبعة دار الكتب المصرية، مصر.

4- سورة البقرة: الآية 03.

5- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ج 01، ص 154.

6- مفاتيح آيب أو التفسير الكبير: الرازي، ج 02، ص 05-06-07.

7- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 222.

8- الإنشاق في علوم القرآن: السيوطي، ج 02، ص 08-12.

9- سورة آل عمران: الآية 07.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

فهل الفواتح المحجائية بعد هذا الذي ذكرناه مما يدخل في دائرة الغيبات فلا يحق لنا أن نطمع في

معرفة المراد منها.. أم هي خارج هذه الدائرة؟

إن من العلماء والمفسرين الذين تعرضوا للآية المذكورة من سورة آل عمران، من كان يلحق هذه الفواتح بالأمور التي يستأثر الله تعالى بعلمها دون أن يقرر صراحة أنها من الغيبات، ومنهم من كان يقرر ذلك صراحة كبدر الدين الزركشي (ت794هـ) في قوله: "وأما ما لا يعلمه إلا الله تعالى فهو ما يجري مجرى الغيوب نحو الآي المتضمنة لقيام الساعة وتفسير الروح والحروف المقطعة"⁽¹⁾.

فهل الحروف المقطعة مما يجري فعلا مجرى الغيوب.. شأنها في ذلك شأن حقائق الذات والصفات

وأسرار القدر والروح والساعة.. ونحو ذلك؟

الحق إن القول بذلك فيه كثير من التجاوز والمبالغة، ذلك؛ لأن هذه الحروف من المبهم الذي قد يعرف ظاهرة ولكن العقل يتوقف في تصويره وتفصيله وإدراك حقيقته وأما التشابه فهو ما احتمل وجهين أو وجوها من المعنى دون وجود ما يعين واحدا منها تعينا ظاهرا أو قاطعا⁽²⁾.

فهذه الحروف مهما بلغت درجة إلتباسها على الأفهام فإنها لا تستعص على النظر والاجتهاد، بل

يمكن أن يؤدي الاجتهاد بشأنها إلى كثير من النتائج المحددة.

فالفواتح المحجائية بناء على كل ذلك ليست من أسرار القرآن التي تستوي مع أسرار عالم الغيب

أو توضع معها في كفة واحدة سواء بسواء.. لكنها من أسرار القرآن التي تكشف عن مكنونها لمتلقي هذا الكتاب وإن كان عبر مراحل متعددة شأنها في ذلك شأن كثير من آيات القرآن ومدلولاته.

وهذه هي الحقيقة التي انطلق منها مفسرو السلف الذين حاضوا في تأويلها وعرضوا مختلف

الأقوال والاجتهادات في المراد منها بالرغم من عرضهم لهذه الروايات التي مرت بنا من قبل وبالرغم من

أن فيهم من يعد من أئمة التفسير بالمأثور كابن جرير الطبري (ت310هـ) والخافظ ابن كثير (ت744هـ) ولهذا ظهر المذهب الثاني.

ثانيهما: أن لهذه الفواتح مرادا معلوما ومعنى يمكن الوصول إليه بالنظر والبحث وإلى هذا ذهب جمهور

الباحثين من علماء الكلام "العقيدة" والعربية وغيرهم وهو المروي عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب وجمع كبير من الصحابة رضوان الله عليهم⁽³⁾.

1- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 183.

2- من روائع القرآن: محمد سعيد رمضان البوطي، ص 109، دار الفرائي المعارف، دمشق، سوريا، 1422هـ-2002م.

3- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ج 01، ص 155.

ولأصحاب هذا المذهب الثاني تأويلات وتحليلات مختلفة وهي اجتهادات لا تكاد تحصى مما

جعلنا نقتصر على أهمها:

1- آية التحدي والإعجاز: نقل الطبري عن خصيف عن مجاهد قال: فواتح السور كلها، ق و ص وحم وآل وغيرها هجاء موضوع⁽¹⁾.

ونقل عن بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم، استغنى بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تمة الثمانية والعشرين حرفاً، كما استغنى المخير عن آخر عنه: إنه في حروف المعجم الثمانية والعشرين، بذكر أ، ب، ت، ث، عن ذكر بواقي حروفها⁽²⁾.

ونقل الفجر الرازي عن عبد العزيز بن يحيى: إن الله إنما ذكرها لأن في التقدير كأنه تعالى قال: إسمعوا مقطعة حتى إذا وردت عليكم مؤلفة كنتم قد عرفتموها قبل ذلك، كما أن الصبيان يتعلمون هذه الحروف أولاً مفردة ثم يتعلمون المركبات⁽³⁾.

ولعل هذا ما أراد الزركشي حين قال: ذكرت هذه الحروف لتدل على أن القرآن مؤلف من الحروف التي هي أ، ب، ت، ث، فجاء بعضها مقطعا وجاء تمامها مؤلفا ليدل القوم الذين نزل القرآن بلغتهم أنه بالحروف التي يعقلونها ويبنون كلامهم منها⁽⁴⁾.

ونقل ابن عطية عن قطرب وغيره: هي إشارة إلى حروف المعجم، كأنه يقول للعرب إنما تحديتكم بنظم من هذه الحروف التي عرفتم⁽⁵⁾.

ولعل (غيره) هو الفراء الذي ذكر بن الجوزي أنه وقطرباً صرحاً أن القرآن أشار بما ذكر من الحروف إلى سائرهما. والمعنى أنه لما كانت الحروف أصولاً للكلام المؤلف أخصراً بأن هذا القرآن إنما هو مؤلف من هذه الحروف.

واستطرد يقول: فإن قيل: فقد علموا أنه حروف فما الفائدة في إعلامهم بهذا؟

فالجواب أنه نبه بذلك على إعجازه فكأنه قال: هو من هذه الحروف التي تؤلفون منها كلامكم، فما بالكم تعجزون عن معارضته؟ فإذا عجزتم فاعلموا أنه ليس من قول محمد - صلى الله عليه وسلم -⁽⁶⁾.

1- جامع البيان في تفسير القرآن: الطبري، ج 01، ص 68.

2- معاني القرآن: الفراء، ج 01-368، ط 03، عالم الكتب، بيروت، 1403هـ-1983م. وينظر مجمع البيان في تفسير القرآن: الطبرسي، ج 33/01. وينظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج 01، ص 122.

3- مفاتيح الغيب: الرازي، ج 02، ص 08.

4- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 224.

5- زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي، ج 01، ص 02، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.

6- المصدر نفسه: ج 01، ص 21، وينظر معاني القرآن: الفراء، ج 01، ص 368، ج 02، ص 172.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

قد نفهم من كلامهم أن قطربا والقراء اقتصرا على الإشارة إلى أن الحروف المقطعة حروف هجاء، وأن بن الجوزي هو الذي امتد بكلامهما إلى أن وصل إلى مجال التحدي والإعجاز وذلك ما تدعمه أكثر المراجع.

وأورد الرازي قولاً مماثلاً نسبه إلى المبرد وذكر أن جمعا من المحققين اختاروه، قال: إن الله إنما ذكرها احتجاجاً على الكفار، وذلك أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن أو بعشر سور أو بسورة واحدة فعجزوا عنه، أنزلت هذه الحروف تنبيهاً على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف.

وأنتم قادرون عليها وعارفون بقوانين الفصاحة، فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن فلما عجزتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله لا من البشر⁽¹⁾.

ونسب بعض الكتاب ما يشبه أقوال قطرب والمبرد إلى الفراء والقاضي عبد الجبار وغيرهما⁽²⁾ وأورده بعضهم الآخر دون أن ينسبه إلى أحد⁽³⁾.

وقال الزمخشري في هذا الصدد: ورود هذه الحروف مسرودة على نمط التعديد كالإيقاظ وقصر العصا لمن تحدي بالقرآن وبغرابة نظمه وكالتحريك للنظر في أن هذا المثلو عليهم، وقد عجزوا عنه من آخرهم كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم تظهر معجزتهم عن أن يأتوا بمثله، بعد المراجعات المتطاولة وهم أمراء الكلام وزعماء الحوار وهم الحراص على التساجل في اقتضاب الخطب والمتهاكون على الافتنان في القصيد والرجز ولم ينبغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي بزت بلاغتهم كل ناطق وشقت غبار كل سابق ولم يتجاوز الحد الخارج عن قوى القصائد ولم يقع وراء مطامع أعين البصراء إلا أنه ليس بكلام البشر وأنه كلام خالق القوى والقدرة، وهذا القول من الخلاقة بالقبول بمثل⁽⁴⁾.

وقال أيضاً: إن الله عدد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم إشارة إلى التبيكيت لهم وإلزامهم الحجة⁽⁵⁾.

1- مفاتيح الغيب: الرازي، ج2، ص 08.

2- ينظر زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي، ج1، ص 01، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج1، ص 155، وتفسير القرآن الكريم: ابن كثير، ج1، ص 123.

3- ينظر مفاتيح الغيب: الرازي، ج2، ص 08، البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج1، ص 224-225، والإنفاق: السيوطي، ج2، ص 12.

4- الكشف: الزمخشري، ج1، ص 37.

5- المصدر نفسه: ج1، ص 40.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

وذكر الباقلائي أن الحروف التي بني عليها كلام العرب ثمانية وعشرون حرفاً وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفاً ليدل بالمذكور على غيره وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم⁽¹⁾.

وأكد ابن العربي قول الباقلائي بقوله: أن مجيء الحروف على نصف حروف المعجم هو على سبيل التحدي، كأنما يقال: من زعم أن القرآن ليس بآية (معجزة) فليأخذ الشطر الباقي ويركب على ألفاظه معارضة القرآن⁽²⁾.

وأجمل ابن كثير الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور بقوله: وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانا لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه تركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف، فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة⁽³⁾.

وأجمل رشيد رضا الموقف كله فقال: اقتصر على جعل حكمتها الإشارة إلى إعجاز القرآن بعض المحققين من علماء اللغة وفنونها كالفراء وقطرب والميرد والزنجشيري وبعض علماء الحديث كشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية والحافظ المزي وأطال الزنجشيري في بيانه وتوجيهه بما يراجع في كشفه وفي تفسير البيضاوي وغيره⁽⁴⁾.

كما اهتمت بنت الشاطي بملاحظ ابن كثير السابق وفصلته لتثبت الارتباط الوثيق بين هذه الحروف وبين قضية التحدي بالقرآن وإعجازه.

وخلصت من هذا الاستقراء إلى:

1- أنها بدأت من أوائل الوحي لافتة إلى سر الحرف، ثم كثرت وتتابعت في أواسط العهد المكي حين بلغ الجدل أشده، فعرضت قضية التحدي وظلت الآيات تعاجزهم وتحداهم أن يأتوا بمثله أو بسورة منه إلى أول العهد المدني الذي نزلت فيه آية البقرة فحسنت الجدل العقيم، بعد أن لزمتهم الحجة على صدق المعجزة بعجزهم مجتمعين أن يأتوا بسورة من مثله.

1- إعجاز القرآن: الباقلائي، ص 68، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، ط 01، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1411هـ - 1991م.

2- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 215.

3- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج 01، ص 123.

4- تفسير المنار: محمد رشيد رضا، ج 01، ص 103، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972م.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

2- أكثر السور المبدوءة بالحروف نزلت في المرحلة التي بلغ فيها عتو المشركين أقصى المدى، وأفحشوا في حمل الوحي على الافتراء والسحر والشعر والكهانة فواجههم القرآن بالتحدي⁽¹⁾.

وأورد البوطي في الآراء التي تفسر هذه الحروف رأيا يقول: إن أقربها إلى الذهن وأكثرها شيعة وأنصارا فقد ذهب قطرب والقراء والمبرد وعامة علماء العربية وجمع عظيم من المحققين إلى أن هذه الأحرف المقطعة إنما افتتحت بها السور لتدل على أن القرآن ليس إلا كتابا ألف من هذه الأحرف الهجائية، أ، ب، ت، ث.. الخ. هي تلك التي تبين كلامكم وأشعاركم منها، ومع ذلك فلن تستطيعوا أن تؤلفوا من هذه الأحرف كلاما مثله ويدل على سلامة هذا التفسير ووضوحه أن الكلمة التي تلي هذه الفواتح تحمل معنى الكتاب وتقع في معظم الأحيان موقع الخبر منها كقوله تعالى: ﴿الْمَ ذَلِكْ أَلْكَتَابُ﴾⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿الْمَصَ كَتَبٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾⁽³⁾ وقوله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾⁽⁴⁾ وقوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ﴾⁽⁵⁾، وقوله تعالى: ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾⁽⁶⁾.

ولا يبعد أن تكون هذه الأحرف المقطعة تحمل إلى جانب هذه الدلالة أسراراً معينة، وأن تكون قد سقت مساق القسم بها وأن يكون موقعها في صدر السورة موقع التشبيه للأسماع والأذهان إلى الكلام الذي يعقبها⁽⁷⁾.

ويعلق حسين نصار على هذا الرأي بقوله: "وواضح أن هذا الفصل بدأ قطرب الحديث فيه أو الإشارة الفاصرة، واستمر عند اللغويين إلى العصر الحديث، ووصل الرمحشري به إلى الغاية التي امتلكت كل من جاء بعده، وأنستهم من كان قبله، وصار كلامه المورد العذب"⁽⁸⁾.

ومن الواضح أن جل الأقوال التي ربطت بين حروف هذه الفواتح وبين قضية تحدي العرب وإثبات إعجازه أكدت أن هذه الحروف الأربعة عشر تشير إلى بقية حروف المعجم كي تلفت هؤلاء

1- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: عائشة عبد الرحمن، ص 67 127 145، دار المعارف، مصر، 1977م.

2- سورة البقرة: الآيات 01-02.

3- سورة الأعراف: الآيات 01-02.

4- سورة يونس: الآيات، 01-02.

5- سورة هود: الآيات 01-02.

6- سورة النمل: الآيات، 01-02.

7- من روائع القرآن: محمد سعيد رمضان البوطي، ص 112.

8- فواتح السور: حسين نصار، ص 32، ط01، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2002م.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية
العرب إلى أن هذا الكتاب المعجز لم يجاوز لغتهم ولا حروفهم، إلا أنهم لم ولن يستطيعوا أن يكونوا منها
كتاباً مثله وهذا هو الرأي الذي رجحناه وانطلقنا منه في هذه الدراسة، وقد كان أبرز من تحمس له من
القدماء الباقلي والزمخشري حيث انتقلا به نقلة كبرى وأدلا فيه بنظرات ومحات كانت بمثابة الأسس
والمنطلقات في فهم أسرار الإعجاز اللغوي لهذه الحروف.

كما نصر هذا الرأي أيضاً الحافظ ابن كثير في تفسيره وكان أهم ما أضافه إليه ودل به عليه
ملحظه عن الاقتران المطرد بين الحروف المقطعة وبين الحديث عن القرآن وإعجازه في جميع السور التسع
والعشرين التي افتتحت بهذه الحروف.

وكان أبرز من نصره من المحدثين بنت الشاطي حيث اهتمت بملحظ ابن كثير وفصلته لتثبت
الارتباط الوثيق بين هذه الحروف وبين قضية التحدي بالقرآن وإعجازه وغيرهم كثير.

2- ثمة تأويلات أخرى (قديمة وحديثة) تحاول إضفاء دلالة على هذه الحروف تقتصر منها على ما يلي:
1- أنها أسماء للسور: التي وردت فيها فـ (ألم) اسم هذه وحـم اسم لتلك وذلك أن الأسماء وضعت
للتمييز فهكذا هذه الحروف وضعت لتمييز هذه السور من غيرها ونقله الزمخشري⁽¹⁾ عن الأكثرين، وأن
سيبويه نص عليه في كتابه.

وقال الإمام فخر الرازي: هو قول أكثر المتكلمين، فإن قيل: فقد وجدنا (الم) افتتح بها عدة
سور، فأين التمييز⁽²⁾.

فلنا قد يقع الوفاق بين اسمين لشخصين ثم يميز بعد ذلك بصفة وقعت كما يقال: زيد وزيد ثم
يميزان بأن يقال زيد الفقيه، وزيد النحوي فكذلك إذا قرأ القارئ ﴿أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾⁽³⁾ فقد ميزها عن
﴿أَلَمْ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾⁽⁴⁾ و﴿5﴾.

وعقب نصر حامد أبو زيد قائلاً: "ولكن هذا التأويل يضعف من مشروعيته كثرة السور التي تبدأ
بحروف مثل (الم) التي تبدأ بها سور البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم والقمان والسجدة، ومثل (الر)
التي تبدأ بها سور يونس، وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر، هذا علاوة على الطواسين والحواميم

1- الكشف: الزمخشري، ج01، ص31.

2- مفاتيح الغيب: الرازي، ج02، ص07.

3- سورة البقرة: الأيتان 01-02.

4- سورة آل عمران: الأيتان 01-02.

5- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج01، ص223-224.

ويبدو دفاع علماء القرآن عن مثل هذا التأويل دفاعاً متهافتاً⁽¹⁾.

ونستبين من هذا أن القول بأن الحروف المقطعة أسماء للسور من أقدم تأويلات الحروف وأنه لقي قبولاً عاماً، وأن الزمخشري والرازي هما اللذان اضطلعوا بالقسط الأكبر من توضيحه والدفاع عنه. والحقيقة أننا لم نجد من الأدلة ما يؤيده، ولم نسوغ القول به إلا على معنى مخصوص وهو ما يعتاده الناس من تسمية بعض أنواع الكلام كالخطب والقصائد ونحوها بما افتتح به.. فكذلك الفواتح المحيائية يمكن أن تسمى السور بما على هذا المعنى وإن لم يكن في حد ذاته تفسيراً لها أو بياناً للمراد منها.

2- أنها إشارات ورموز:

أ- أنها إشارات ورموز مضمونية: كان الحكيم الترمذي أول من أشار إلى وجود مناسبة بين الحسروف المقطعة ومضمون السور التي تبدأ بها، قال عن سورة البقرة: "إن الله أودع جميع ما في تلك السورة من الأحكام والقصص في الحروف التي ذكرها في أول السورة ولا يعرف ذلك إلا نبي أو ولي ثم بين ذلك في جميع السورة، ليفقه الناس"⁽²⁾.

وفطن الزركشي إلى هذه العلاقة فقال عن سورة (ق): كل معاني السورة مناسب لما في حرف القاف من الشدة والجهر والقلقلة والانفتاح⁽³⁾.

إذا أردت زيادة إيضاح فتأمل ما اشتملت عليه سورة (ص) من الخصومات المتعددة فأولها خصومة الكفار مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وقولهم: ﴿أَجْعَلِ آلَهُةَ إِلَهُةً وَحِدًا﴾⁽⁴⁾ إلى آخر كلامهم ثم اختصاص الخصمين عند داود ثم تخصم أهل النار ثم اختصاص الملأ الأعلى في العلم وهو الدرجات والكفارات، ثم تخصم إبليس واعتراضه على ربه وأمره بالسجود لآدم، ثم اختصاصه ثانيًا في شأن بنيه وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم... وتأمل سورة الأعراف زاد فيها (ص) لأجل... وشرح فيها قصص آدم فمن بعده من الأنبياء⁽⁵⁾.

1- مفهوم النص دراسة في علوم القرآن: نصر حامد أبو زيد، ص 194.

2- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ج 01، ص 156، الهيئة العامة للكتاب، 1990م.

3- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 218.

4- سورة ص: الآية 05.

5- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 219.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

وذهب الزركشي إلى فكرة أخرى أعلن فيها أنه لما كان نزول القرآن في أزمنة متطاولة وكان باقيا إلى آخر الزمان، ولا كتاب بعده جعل الله الحروف كالعلامم تبين أن هذه السورة من قبيل تلك التي أنزلت من عشر سنين مثلا حتى كأنها تنم لها، وإن كان بينهما مدة⁽¹⁾.

وأى بفكرة ثالثة إذ لاحظ أن أكثر هذه الفواتح تكرارا هي (الم) وعلل ذلك بأن الألف إذا بدئ بها أولا كانت همزة وهي أول المخارج من أقصى الصدر واللام من وسط مخارج الحروف وهي أشد الحروف اعتمادا على اللسان، والميم آخر الحروف ومخرجها من الفم، وهذه الثلاثة هي أصل مخارج الحروف، أعني الخلق واللسان والشفقتين، وترتبت في الترتيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية فهذه الحروف تعتمد المخارج الثلاثة التي يتفرع منها ستة عشر مخرجا، ليصير منها تسعة وعشرون حرفا، عليها مدار كلام الخلق أجمعين. وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف فهي مشتملة على مبتدأ الخلق ونهايته وتوسطه مشتملة على خلق العالم وغايته، وعلى التوسط بين البداية من الشرائع والأوامر فتأمل ذلك في البقرة وآل عمران وتزليل السجدة وسورة الروم⁽²⁾.

ب- أنها إشارات ورموز صوتية: وكان الكرمانى أول من فطن إلى وجود مناسبة صوتية بين الحروف وسورها، فقد رد زيادة الصاد في حروف سورة الأعراف إلى قوله تعالى بعدها: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾⁽³⁾. ورد زيادة الراء في حروف سورة الرعد إلى قوله بعدها: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾⁽⁴⁾. وفطن الزركشي إلى هذه المناسبة فطنته إلى المناسبة المضمونية وأفاض في الحديث عنها، فذهب إلى أن السورة التي بدئت بحرف مفرد خاصة مبنية على كلمات ذلك الحرف.

ويوضح ذلك أنك إذا ناظرت سورة منها بما يماثلها في عدد كلماتها وحروفها، وجدت الحروف المفتوح بها تلك السورة إفرادا وتركيبا أكثر عددا في كلماتها منها في نظيرتها ومماثلتها في عدد كلماتها وحروفها فإن لم تجد بسورة منها ما يماثلها في عدد كلماتها ففي إضراد ذلك في المماثلات مما يوجد له النظير ما يشعر بأن هذه لو وجد ما يماثلها لجرى على ما ذكرت لك، وقد اطردها في أكثرها⁽⁵⁾.

1- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 227.

2- المصدر نفسه: ج 01، ص 217، ينظر معترك الأقران في إعجاز القرآن: السيوطي، ج 01، ص 71.

3- سورة الأعراف: الآية 02.

4- أسرار التكرار في القرآن: محمود بن حمزة الكرمانى، ص 21-22، ط 02، دار الاعتصام، 1396هـ-1976م.

5- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 341.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

وقد تكرر في سورة يونس من الكلم الواقع فيها (الر) مئتا كلمة وعشرون أو نحوها فلها هذا افتتحت بـ (الر) وأقرب السور إليها مما يماثلها بعدها من غير المفتتحة بالحروف المقطعة سورة النحل، وهي أطول منها وما يركب على (الر) من كلمها مئتا كلمة، مع زيادتها في الطول عليها⁽¹⁾.

وتأمل سورة (ق) تجدها مبنية على كلمات ذلك الحرف من ذكر القرآن والخلق وتكرار القول ومراجعته مرارا، والقرب من بن آدم وتلقي الملكين وقول العتيد وذكر الرقيب، وذكر السابق والقشرين والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعد وذكر المتقين، وذكر القلب، والقرن، والتنقيب في البلاد، وذكر القتل مرتين وتشقق الأرض، وإلقاء الرواسي فيها وبسوق النخل، والرزق، وذكر القوم وخوف الوعيد، وغير ذلك⁽²⁾.

وكذلك سورة (ن) فإن فواصلها كلها على هذا الوزن، مع ما تضمنت من الألفاظ النونية⁽³⁾ من أجل ذلك حق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الحروف الواردة في أولها حتى لم تكسب لتسرد (الم) في موضع (الر) ولا (حم) في موضع (طس)⁽⁴⁾.

وعد عدنان زرزور الحروف من النظم القرآني البديع، الذي يمكن التعبير عنه من خلال النقساط

التالية:

1 - العلاقة الموسيقية بين هذه الحروف وبين فواصل الآيات التي تليها بحيث تقوم هذه الفواصل مقام الافتتاحيات التمهيدية في المقطوعات الموسيقية:

أ- فهناك تمهيد بتمائل الروي نحو قوله تعالى في سورة آل عمران:

ألف لام ميم ﴿الْم، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾⁽⁵⁾.

ب- وهناك تمهيد بالتقارب نحو قوله في سورة البقرة:

ألف لام ميم ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾⁽⁶⁾.

ج- وهناك أيضا التمهيد الناشئ عن التناغم في المدود المردفة

نحو قوله في سورة ص: ﴿ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾⁽⁷⁾.

1 - البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 342.

2 - المصدر نفسه: ج 01، ص 218.

3 - المصدر نفسه: ج 01، ص 219.

4 - المصدر نفسه: ج 01، ص 341.

5 - سورة آل عمران: الآيتان 01-02.

6 - سورة البقرة: الآيتان، 01-02.

7 - سورة ص: الآيتان 01-02.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

2- دلالة هذه الحروف على معانيها اللغوية من جهة، وكثرة دوراتها في السور التي صدرت بها من جهة أخرى، بالإضافة إلى ملاحظة الفواصل بوجه عام.

3- لعل هذه الدلالة وذلك التمهيد الموسيقي هما مصدر الإيحاء الفني أو الشعوري الذي يحسه القارئ لهذه الحروف في السور القرآنية⁽¹⁾.

وفطن الرمخشري إلى أن الحروف المقطعة تفوق بقية الحروف في كثرة دوراتها في الكلام واستدل على ذلك بأن الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح⁽²⁾.

ووصف نعيم الحمصي الحروف بأنها كالمفتاح الموسيقي للآيات التي بعدها⁽³⁾ وصرح صبحي الصالح: أكثر الحروف وروداً فيها: الألف واللام، ثم الميم ثم الحاء ثم الراء ثم السين ثم الطاء ثم الصاد ثم الهاء والياء والعين والقاف وأخيراً الكاف والنون⁽⁴⁾.

على الرغم من كثرة الأقوال التي ترى أن الحروف المقطعة رموزاً إلى كلمات أو معانٍ أو أعداد معينة، وقد ورد في هذه الرموز والإشارات روايات لا حصر لها تختلف من حيث تفاصيلها شسطاً أو تعقلاً، لكننا -على أي حال- قد استبعدنا كثيراً من الآراء لعدم استنادها إلى قاعدة منضبطة تقوم عليها.. مما جعلها قابلة لمختلف التخمينات والتوهيمات التي لا ضابط لها ولا رابط بينها، ومنها توهيمات المستشرقين بل أباطيلهم⁽⁵⁾.

3- أنها بمثابة قرع للأسماع والقلوب كي تنشط وتنتبه لتلقي القرآن: أعلن كثيرون أن هذه الحروف أدوات تنبيه وعبروا عن ذلك في صيغ متنوعة. نقل ابن الجوزي عن أبي روق عطية بن الحارث الهمداني: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يجهر بالقراءة في الصلوات كلها وكان المشركون يصفقون ويصفرون فزلت هذه الحروف المقطعة، فسمعوها فبقوا متحيرين⁽⁶⁾.

1- القرآن ونصوصه: عدنان رزوز، ص 146-148، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، 1400هـ-1980م

2- الكشف: الرمخشري، ج 01، ص 40، وينظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 215.

3- فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، ص 29، ط 02، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1400هـ-1980م.

4- مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، ص 235، ط 22، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1999م.

5- بنظر مناهل العرفان: عبد العظيم الزرقاني، ج 01، ص 186-187-189، وينظر فواتح سور القرآن: حسن نصار، ص 56-62.

6- زاد المسر في علم التفسير: ابن الجوزي، ج 01، ص 21.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

ونقل القرطبي: قال قطرب، كانوا ينفرون عند استماع القرآن، فلما سمعوا (الم) و (المص) استكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له -صلى الله عليه وسلم- أقبل عليهم بالقرآن المؤلف، ليثبت في أسماعهم وأذانهم، ويقم الحجج عليهم⁽¹⁾ ونقل الرازي عن ابن روق وقطرب: إن الكفار لما قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾ وتواصوا بالإعراض عنه أراد الله -لما أحب من صلاحهم ونفعهم- أن يورد عليهم ما لا يعرفونه، ليكون ذلك سببا لإسكاتهم، واستماعهم لما يرد عليهم من القرآن، فأنزل الله عليهم هذه الحروف، فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين: اسمعوا إلى ما يجيء به محمد -صلى الله عليه وسلم- فإذا أصغوا هجم عليهم القرآن فكان ذلك سببا لاستماعهم، وطريقا إلى انتفاعهم⁽³⁾.

وذهب رضا إلى أن من حسن البيان وبلاغة التعبير التي غايتها إفهام المراد مع الإقناع والتأثير أن ينبه المتكلم المخاطب إلى مهمات كلامه ويحرص على أن يحيط علمه بما يريده هو منها ويجتهد في إنزالها من نفسه في أفضل منازلها، ومن ذلك التنبيه لها قبل البدء بها لكيلا يفوته شيء منها، وقد جعلت العرب منه هاء التنبيه وأداة الاستفتاح⁽⁴⁾.

فأي غرابة في أن يزيد عليها القرآن الذي بلغ حد الإعجاز في البلاغة وحسن البيان ويحسب أن يكون الإمام المقتدى، كما أنه هو الإمام في الإصلاح والهدى؟ ومنه ما يقع في أثناء الخطاب من رفع الصوت وتكليفه بما تقتضيه الحال من صيحة التخويف والزجر أو غنة الاسترحام والعطف، أو رنة النعي وإثارة الحزن أو... ومنه الاستعانة بالإشارات وتصوير المعاني بالحركات، ومنه كتابة بعض الكلمات أو الجمل بحروف كبيرة أو وضع خط فوقها أو تحتها⁽⁵⁾ وفي موضع آخر أعذن أن الحروف المقطعة أقوى في التنبيه من حرف الهاء الموضوع له في أسماء الإشارة ومن كلمة (ألا) الاستفتاحية⁽⁶⁾. ورأى صبحي الصالح أن السيد رشيد رضا خير من أوضح الغرض من افتتاح بعض السور القرآنية بهذه الحروف المقطعة⁽⁷⁾ ولاحظ أبو بكر الباقلائي ملاحظة اتخذها من جاء بعده قاعدة بنوا عليها ما رأوه في حكمة

1- الجامع لأحكام القرآن: القطري، ج 01، ص 155.

2- سورة فصلت: الآية 26.

3- معاني الغيب: الرازي، ج 02، ص 08.

4- تفسير المنار: محمد رشيد رضا، ج 08، ص 264.

5- المرجع نفسه: ج 08، ص 264.

6- المصدر نفسه: ج 11، ص 12.

7- مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، ص 244، وينظر مباحث في إعجاز نقرآن: أحمد جمال العمري، ص 116، مكتبة الشهاب،

مصر، 1980م.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

استخدام هذه الحروف للتبنيه قال: ما من سورة افتتحت بالحروف المقطعة إلا وقد أشع فيها بيان إعجاز القرآن، وكونه حجة على رسالة محمد -صلى الله عليه وسلم- وللتدليل على ذلك حلل سورتي غافر وفصلت⁽¹⁾ وتجاوز ابن كثير مطلع السورة إلى داخلها فقال: كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق، لا شك فيه ولا مرية ولا ريب⁽²⁾.

وتجاوز الزركشي الاحتجاج للقرآن إلى كل ما يتعلق به فقال: اعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن بخلاف العنكبوت والروم⁽³⁾.

وجعل عبد المنعم السيد حسن الحكمة في ورود الآيات الموحية بكمال هذا الكتاب ومكائنه والمعلنة حقا صراحا، وكون آياته محكمة مفصلة منزلة من عند الله، عقب كل فاتحة من هذه الفواتح، ويلاحظ المتتبع لها أن كل آية من الآيات الواردة عقبها تثبت للقرآن مزيدا من الأوصاف والمزايا، وتجلي أهمية القرآن بالنسبة للرسول وبالنسبة لمن يبلغهم⁽⁴⁾.

ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾⁽⁵⁾؛ لأن المشركين كانوا يعلمون علم اليقين أن محمدا -صلى الله عليه وسلم- أمي لم يقرأ ولم يكتب قبل أن يوحى إليه هذا القرآن فنطقه بهذه الحروف على هذه الصورة التي لا يحذفها إلا القراء والكتابون أمر يقرع الأسماع والقلوب كي تنشط وتنبه لتلقي القرآن.

4-أما فواتح هجائية: جعلت للدلالة على صدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- من حيث نطقه -وهو أمي- بأسماء حروفها.. مع أن الأمي لا يستطيع إلا النطق بأصوات الحروف دون أسمائها.

لقد أشار كثيرون في أثناء حديثهم عن الجوانب المتعددة للحروف المقطعة إلى صدورها من أمي متعجبين من ذلك غير أنها إشارات سريعة وإنما تقف عند من أطال وركز النظر.

صرح الزمخشري ومن تبعه بأن النطق بالحروف أنفسها معتاد لكل أحد يستوي فيه الأميون وغيرهم بخلاف النطق بأسامي الحروف؛ لأنه يختص به من خط وقرأ. فلما أحرر محمد -صلى الله عليه وسلم- بما في أوائل السور، من غير سبق تعلم كان دليلا على أنه استفاد ذلك من الوحي، وشاهدا بصحة نبوته⁽⁶⁾.

1- إعجاز القرآن: السافلي، ص 32 38.

2- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج 01، ص 123.

3- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 219.

4- ظاهرة التكرار في القرآن الكريم: عبد المنعم السيد حسن، ص 139، ط 01، دار المطبوعات الدولية، مصر، 1400هـ-1980م.

5- سورة الأعراف: الآية 204.

6- الكشف: الزمخشري، ج 01، ص 38.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

واتجه أبو السعود في التعبير عن هذه الفكرة إتجاهها خاصا تبعه فيه غيره قال: ليكون مطلع ما يتلى عليهم مستقبلا بضرب من الغرابة، أتمودجا لما في الباقي من فنون الإعجاز، فإن النطق بأنفس الحروف في تضاعيف الكلام وإن كان على طرف التمام يتناوله الخواص والعوام، من الأعراب والأعجماء، لكسن التلفظ بأسمائها إنما يتأتى ممن درس وخط وأما ممن لم يحم حول ذلك قط، فأعز من بيض الأنوق، وأبعد من مناط العيوق لا سيما إذا كان على نمط عجيب وأسلوب غريب، منبئ عن سر سري مبني على نهج عبقرى، بحيث يحار في فهمه أرباب العقول، ويعجز عن إدراكه ألباب الفحول⁽¹⁾.

واكتفى حسن البنا بأن ذكر أن نطق -محمد صلى الله عليه وسلم- الذي كانوا يعلمون أنه أمي لم يقرأ ولم يكتب نطقه بهذه الحروف على الهيئة التي لا يحدقها إلا القراء والكتابون أمر يستدعي الانتباه ويستلقت النظر⁽²⁾.

فهذا الرأي وإن كان لا ينهض وحده بيانا للمراد من هذه الفواتح إلا أنه لا يصادم الرأي الذي تنطلق منه ويصدق هذا الكلام على رأي التحدي والإعجاز.

5- أنها إشارة إلى فضل الكتابة وسمو منزلتها: ذكر أحمد عادل كمال أن حسن البنا وصف ثلاثة آراء في تفسير الحروف بأنها أحقها بالنظر والتقدير، وكان آخر هذه الثلاثة: أنها إشارة إلى فضل الكتابة وسمو منزلتها والتفاوتل بأنه كما كانت معرفة البشر للكتابة إيذانا بانتقالهم من طور إلى طور في مدارج الرقي والكمال، فكذلك الإهداء بهذه الرسالة سيكون انتقالا جديدا إلى درجة أعلى وأكمل في مدارج الحضارة الإنسانية والرقي الاجتماعي⁽³⁾.

وقد جاء القرآن حريضا على إبراز هذا المعنى حتى كانت أول سورة أنزلت منه في أرجح الأقوال ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، أقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾⁽⁴⁾.

والحقيقة أنه يطول بنا الأمر إذا ناقشنا كل التأويلات المختلفة المبهمة التي طرحست لوجود هذه الفواتح الآيات المغلقة والتي أسهب أصحاب الدراسات القرآنية في تعدادها حتى وصلت إلى أكثر من عشرين تأويلا نذكرها بحملة:

1- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: تفسير أبي السعود، ج 01، ص 33.

2- علوم القرآن: أحمد عادل كمال، ص 110، مصر، 1951م.

3- المرجع نفسه: ص 111.

4- سورة العلق: الآيات 01-05.

- حروف لإبطال دعوى قدم العالم⁽¹⁾.
- فواصل وفواتح⁽²⁾.
- إشارات ورموز ترهيبية⁽³⁾ وخارجية⁽⁴⁾.
- الدلالة على عدد آيات السور⁽⁵⁾.
- حساب الجمل⁽⁶⁾.
- أقسام⁽⁷⁾.
- أسماء الله⁽⁸⁾.
- الاسم الأعظم لله⁽⁹⁾.
- اختصارات من أسماء الله⁽¹⁰⁾.
- ثناء على الله⁽¹¹⁾.
- أسماء للنفي⁽¹²⁾.
- أسماء أنبياء وملائكة⁽¹³⁾.
- أسماء للقرآن⁽¹⁴⁾.
- الدلالة على معان شتى⁽¹⁵⁾.
- أسماء مختلفة⁽¹⁶⁾.

- 1 - مفاتيح الغيب: الرازي، ج 02، ص 08.
- 2 - جامع البيان في تفسير القرآن: الطبري، ج 01، ص 67.
- 3 - الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: عائشة عبد الرحمن، ص 129.
- 4 - ساهل العرفان: عبد العظيم الزرقاني، ج 01، ص 186.
- 5 - رأي في تأويل فواتح السور: عبد الوهاب حمودة، ص 198-199، مجلة رسالة الإسلام، العدد 02، السنة 1379هـ-1960م.
- 6 - جامع البيان في تفسير القرآن: الطبري، ج 01، ص 71.
- 7 - الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ج 15، ص 05.
- 8 - مصدر نفسه: ج 15، ص 289.
- 9 - معترك الأقران في إعجاز القرآن: السيوطي، ج 01، ص 156، والإيقان للسيوطي، ج 02، ص 11.
- 10 - تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج 01، ص 121.
- 11 - مفاتيح الغيب: الرازي، ج 01، ص 08.
- 12 - الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ج 15، ص 05.
- 13 - مجمع البيان في تفسير القرآن: الطبرسي، ج 01، ص 32.
- 14 - جامع البيان في تفسير القرآن: الطبري، ج 01، ص 67.
- 15 - المصدر نفسه: ج 01، ص 70.
- 16 - الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ج 13، ص 88.

- مختصرة من جمل وعبارات⁽¹⁾.
- تفسيرات خاصة بفرق⁽²⁾.
- دفاع وهجوم⁽³⁾.
- رموز هيروغليفية⁽⁴⁾.

كما انتهى الأمر بابن فارس إلى رأي جمع فيه كل أقوال وآراء من سبقوه بقوله: إن الله حل وعلا افتتح السور بهذه الحروف إرادة منه للدلالة بكل حرف منها على معان كثيرة، لا على معنى واحد، فتكون هذه الحروف جامعة؛ لأن تكون افتتاحا وأن يكون كل واحد منها مأخوذاً من اسم من أسماء الله تعالى، وأن يكون الله عز وجل قد وضعها هذا الوضع فسمى بها، وأن كل حرف منها في آجال قوم وأرزاق آخرين، وهي مع ذلك مأخوذة من صفات الله تعالى في إنعامه وإفضاله وبجده وأن الافتتاح بها سبب لأن يسمع القرآن من لم يكن يسمع وأن فيها إعلاناً للعرب أن القرآن الدال على نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- بهذه الحروف وأن عجزهم عن الإتيان بمثله مع نزوله بالحروف المتعالمة بينهم دليل على كفرهم وعنادهم وجحودهم، وأن كل عدد منها إذا وقع أول كل سورة فهو اسم لتلك السورة⁽⁵⁾.

وهذا الرأي الذي سلم بها جميعاً وجعلها بمثابة تأويل واحد لا يمكن قبوله وأنه ليس إلا تعبيراً عن حيرة صاحبه أمام الفواتح المحجائية وعجزه عن اتخاذ موقف واضح في فهمها. والحقيقة التي لا تقبل الشك هي أن هذه الفواتح المحجائية آيات تحدي وإعجاز والعلم بها إما إجمالي وإما تفصيلي وأن ما حصله العرب من مضمونها هو العنم الإجمالي الذي يتناسب مع إمكانات عهدهم ذلك أن الإنسان يدرك كثيراً من الأمور إدراكاً فطرياً لا شعورياً وإن لم يستطع أن يعبر عن حقيقة إدراكه مثل فنون القول التي كان يتفاعل معها العربي عنى عهده ويميز بينها ويدرك الفروق بين إيقاعاتها تلقائياً كالشعر خصوصاً مع أنه لم يكن قد ظهر حينئذ ما ظهر بعد ذلك من علوم اللغة والنقد والبلاغة ومن إكتشافات لموسيقى الشعر الخليلية بيحورها وضوابطها الدقيقة.

1- جامع البيان في تفسير القرآن: الطبري، ج 11، ص 57.

2- مفاتيح الغيب: الرازي، ج 24، ص 120.

3- تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، ص 232، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1373هـ-1954م.

4- هيروغليفية تفسير القرآن الكريم: سعد عبد المطلب العدل، ص 18-19، ط 01، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2002.

5- الرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 225.

إن هذه الفواتح آية من آيات الله التي لا تنفذ ودليل على عظمة القدرة الإلهية التي أودعها الحق كتابه العظيم، فظهرت فيه بوصفها آية جديدة من آيات الإعجاز القرآني حقا فهي "نص حكيم قاطع له سر"⁽¹⁾ عددي، وصوتي، وتركيبى ودلالي وبمعنى أدق فيها إعجاز لغوي شامل:

1- الإعجاز العددي:

ذكر الباقلائي أن عدد حروف اللغة تسعة وعشرون وعدد الحروف المقطعة أربعة عشر وعلى الرغم من ذلك وصفها بأنها نصفها، ثم استدرك الأمر فقال: يشبه أن يكون التنصيف وقع في هذه الحروف دون الألف، لأن الألف قد تلغى، وقد تقع هي والهمزة موقعا واحدا⁽²⁾.

واتفق معه الزمخشري وسرد هذه الحروف فقال: اعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم: أربعة عشر سواء، وهي الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون⁽³⁾.

وظن الزمخشري إلى أن الحروف التي ذكرها القرآن كثيرة الدوران قال: إنك إذا استقرت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته.. ومما يدل على أنه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعا في تراكيب الكلم أن الألف واللام لما تكاثرت وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكررتين وهي فواتح سورة البقرة وآل عمران والروم والعنكبوت ولقمان والسجدة والأعراف والرعد ويونس وإبراهيم وهود ويوسف والحجر⁽⁴⁾.

وحصر ابن أبي الإصبع ورود هذه الحروف في السور حسب بنيتها فقال:

1- المفردات: أي الفواتح من حرف واحد، ثلاث سور هي: ص، ق، ن.

2- الثنائيات: تسع سور وهي: طه، طس، يس، والحواميم سوى الشورى.

3- الثلاثيات: ثلاث عشرة سورة وهي ثلاثة أضرب:

ضرب افتتح بـ (ألم) وهو ست سور: البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة.

وضرب افتتح بـ (آلر) وهو خمس سور: وهي يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر.

وضرب افتتح بـ (طسم) وهو سورتان: الشعراء، القصص.

1- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج 01، ص 122.

2- إعجاز القرآن: الباقلائي، ص 70.

3- الكشاف: الزمخشري، ج 01، ص 39.

4- المصدر نفسه: ج 01، ص 40.

4- الرباعيات: سورتان وهما (المص) الأعراف، و(الر) الرعد

5- الخماسيات: سورتان أيضا وهما: (كهيعص) مريم، (حم عسق) الشورى⁽¹⁾.

وذهب الرازي إلى أن حروف لسان العرب ثمانية وعشرون حرفا على قولنا: الهمزة، ألف متحركة⁽²⁾.

وذكر أنه تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام:

1- تسعة أحرف من الألف إلى الذال.

2- وتسعة أحرف آخر في آخر الحروف من الفاء إلى الياء

3- وعشرة من الوسط: من الراء إلى العين

وأعلن أنه ذكر من القسم الأول حرفين، هما الألف والحاء، وترك سبعة وترك من القسم الثاني حرفين هما الفاء والواو وذكر سبعة.

وذكر من القسم الأخير حرفا وترك حرفا، فذكر الراء وترك الزاي، وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد، وذكر الطاء وترك الضاء، وذكر الغين وترك العين، ولم يترك من القسم الأول من حروف الخلق والصدر إلا واحدا، لم يذكره وهو الحاء ولم يذكر من القسم الثاني من حروف الشفة إلا واحدا لم يتركه، وهو الميم⁽³⁾.

وإذا كان الرمحشري نظر إلى مدى دوران الحروف المذكورة والحروف المهملة في الكلام فإن بن كثير نظر إلى قدرها في ذاتها ورأى أن المذكور منها أشرف من المتروك⁽⁴⁾.

وقال الزركشي: هذا واضح على من عد حروف المعجم ثمانية وعشرين حرفا وقال: (لا) مركبة من اللام والألف، والصحيح أنها تسعة وعشرون حرفا، والجواب على هذا المذهب أن الحرف لا يمكن تنصيفه، فيتعين سقوطه؛ لأنه الأليق بالإيجاز⁽⁵⁾.

وحصر مجموعها الكلي وتفصيلها، فقال: اعلم أن الأسماء المتهجاة في أول السور ثمانية وسبعون حرفا⁽⁶⁾.

1- الخواطر السوانح في أسرار الفواتح: ابن أبي الإصبع، ص75-76، تحقيق حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، مصر، 1960م.

2- مفاتيح العيب: الرازي ج26، ص41.

3- المرجع نفسه: ج26، ص41.

4- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج01، ص122.

5- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج01، ص226.

6- المصدر نفسه: ج01، ص215-216.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

فالكاف والنون: كل واحد منهما في مكان واحد والعين والياء والهاء والقاف: كل واحد في مكانين

والصاد في ثلاثة، والطاء في أربعة، والسين في خمسة، والراء في ستة والحاء في سبعة، والألف واللام في ثلاثة عشر، والميم في سبعة عشر.

وذكر الزرقاني أن الله خلق العالم منظما محكما متناسقا متناسبا والكتاب السماوي إذا جاء مطابقا لنظامه، موافقا لإبداعه دل ذلك على أنه من عنده، والعالم المشاهد فيه عدد الثمانية والعشرين وذلك فيما يأتي:

- 1- مفاصل اليدين في كل يد أربعة عشر.
- 2- خرزات عمود ظهر الإنسان منها أربع عشرة في أسفل الصلب، وأربع عشرة في أعلاه.
- 3- خرزات العمود التي في أصلاب الحيوانات التامة الحلقة كالبقرة والجمال والحمير والسباع وسائر الحيوانات التي تلد أولادها، منها أربع عشرة في مؤخر الصلب وأربع عشرة في مؤخر البدن.
- 4- عدد الريشات التي في أجنحة الطير المعتمدة عليها في الطيران أربع عشرة ريشة ظاهرة في كل جناح.
- 5- عدد الخرزات التي في أذنان الحيوانات الطويلة الأذنان كالبقرة والسباع.
- 6- عمود صلب الحيوانات الطويلة الحلقة، كالسمك والحيات، وبعض الحشرات.
- 7- عدد الحروف التي في لغة العرب التي هي أتم اللغات، ثمان وعشرون حرفا، منها أربعة عشر يدغم فيها لام التعريف، وأربعة عشر لا تدغم اللام فيها.
- 8- الحروف التي تخط بالقلم قسمان: منها أربعة عشر معلمة بالنقط وهي: ب، ت، ث وأربعة عشر غير معلمة وهي: أ، ح، د... وبقية الياء وهي تنقط في وسط الكلمة ولا تنقط في آخرها.
- 9- منازل القمر ثمان وعشرون منزلة، في البروج الشمالية أربع عشرة، وفي الجنوبية أربع عشرة... فمن أين لبشر كمحمد أو غيره أن ينظم هذا النظام ويجعل هذه الأعداد موافقة للنظام الذي وضعته؟ إن القرآن تنزيل مبي، وقد وضعت هذه الحروف في أوائل السور لتستخرجوا منها ذلك⁽¹⁾.

وذكر محمد رشاد خليفة أن القرآن يتميز بخاصة هامة، هي وجود الحروف النورانية المعروفة باسم فواتح السور، فإننا نجد بالضبط (14) حرفا تشترك في (14) فاتحة من فواتح السور. وهذه الفواتح نجدها في (29) سورة لأن بعض هذه الفواتح تحييء في أكثر من سورة، فإذا جمعنا

1- مناهل العرفان: عبد العظيم الزرقاني، ج 01، ص 192-193.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية
14+14+29 = نجد أن المجموع (57) وهو ثلاثة أضعاف رقم (19) ونجد أن الرقم (19) هو القاسم
المشترك الأعظم بين جميع فواتح السور دون استثناء⁽¹⁾.

وذهب محمد غلاب إلى أنه مما هو خليق بالذكر هنا أن جميع حروف فواتح السور نجدتها في
فاتحة الكتاب. ومن ذلك أيضا أن علماء العلوم الخفية اتفقوا على أن الحروف الهجائية قسمان:

أولهما: حروف النور المتعلقة بالأمور العلوية، والآخر حروف الظلمة المتعلقة بالأمور السفلية وجميع
حروف فواتح السور هي حروف النور كلها، وليس منها حرف واحد من حروف الظلمة⁽²⁾.

ورصد سعد العدل المرات التي تكررت فيها هذه الرموز فجاءت كما يلي:

- الم تكرر 6 مرات	- طس تكرر 01 مرة
- المص تكرر 01 مرة	- طسم تكرر 02 مرة
- الر تكرر 05 مرة	- حم عسق تكرر 01 مرة
- المر تكرر 01 مرة	- حم تكرر 06 مرات
- كهيعص تكرر 01 مرة	- ص تكرر 01 مرة وتكررت في آخر كهيعص والمص
- طه تكرر 01 مرة	- ق تكرر 01 مرة وتكررت في آخر عسق
- يس تكرر 01 مرة	- ن تكرر 01 مرة ⁽³⁾ .

إن القرآن الكريم حين كرر "الفواتح الهجائية" كررها في بدايات "تسع وعشرين سورة"
بالتحديد كي يكون ذلك تأكيدا على أن حروفها الأربعة عشر إشارة إلى حروف الأبجدية "التسعة
والعشرين" فكأن هذا العدد الأول إذا كان يشك بسبب استحالة التصيف في كونه إشارة إلى العدد
الثاني، فإن هذه الإشارة يمكن تأكيدها من طريق آخر وهو مرات تكرار هذه الفواتح في بدايات السور،
ومن ثم فإن اختيار القرآن لأربعة عشر حرفا على أنها نصف الأبجدية كي تكون إشارة إلى النصف
الآخر.. بعد أدق اختيار من حيث إن تصيف العدد الفردي لحروف الأبجدية وهو 29 على الأصح أمر
مستحيل كما أن هذا العدد (14) يعد موافقا من جهة أخرى لنصف الأبجدية العربية حين تعد حروفها
"صوامت" فقط على طريقة الكتابة العربية التي تكاد تقتصر في رموزها على هذه الصوامت.. دون

1- فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، ص 197-285، وينظر إعجاز الرقم 19 في القرآن الكريم: بسام هاد جزار، ص 124، ط 02،
دار الفانيس، بيروت، 1414هـ-1994م.

2- نظرات استشرافية في الإسلام: محمد غلاب، ص 45، دار الكتاب العربي للمؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، وزارة الثقافة.

3- الهروغليفة: سعد العدل، ص 10، ينظر معجزة القرآن الجديدة: عمر الجندي، ص 11-16، دار ابن قتيبة.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

الحركات التي لم ترمز لشيء منها سوى (ألف المد).. بل إن رمز الألف لم يخلص لها وإنما كان يعبر أيضا منذ أقدم نقوش هذه الكتابة عن صوت صامت آخر هو صوت الهمزة⁽¹⁾.

2- الإعجاز الصوتي: إن هذه الفواتح قد بنيت على أربعة عشر حرفا لتكون إشارة إلى بقية حروف المعجم في إطار الغرض الذي تنزلت من أجله وهو تحدي العرب بالنظم القرآني المؤلف من نفس هذه الحروف.

ومن الملاحظ أنه لا توجد بالآيات الفواتح آية من حرف واحد مثل (ص، ق، ن) التي هي حروف منفصلة كل منها جزء من آية في السور التي افتتحت بها فهي رموز مسطوية لأصوات منطوقة لا معنى لها البتة بخلافها لكونها رموز مجردة لا يدل كل منها عند انفصاله عن غيره إلا على نفسه ذلك أن مدلول مصطلح الحرف في العربية يختلف عن مدلوله في علم اللسان الحديث، حيث يستخدم مصطلح الحرف في علم اللسان الحديث للدلالة على شكل الكتابة فقط، بينما يستخدم في علم العربية للدلالة على شكل الكتابة والإشارة إلى الصوت وقد عرف ابن يعيش الحرف بأنه "صوت مقسوع في مخرج معلوم"⁽²⁾.

إن الحروف المفردة (ص، ق، ن) هي تعبير عن المستوى الصوتي باعتباره المستوى القاعدي للمستويات اللسانية وإن تجسيدات في الرموز الحرفية هي كذلك اللبنة الأولى للغة المكتوبة، إذ هي مباني كلام الله وكتبه التي أنزلها على رسله وهدى بها عباده وأقدرهم على التكلم بها وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان وبها علم القرآن والبيان وجمعت العلوم وحفظت.

والحقيقة أنها حروف غير دالة في ذاتها بل هي جزء من النظام اللغوي الذي يعتمد عليه القرآن ووجودها في القرآن هكذا مفرقة لها دلالة عامة هي تأكيد أن هذا القرآن المعجز في نظمه مؤلف من نفس الحروف التي يؤلفون منها كلامهم، الذي لا يرقى في مستواه إلى آفاق هذا القرآن ومعنى ذلك أن الاشتراك بين القرآن وغيره من نصوص الثقافة هو اشتراك في النظام الصوتي وذلك معنى من معاني الإعجاز عند الباقلائي وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم⁽³⁾.

وهذه الحروف الأربعة عشر المذكورة في أوائل السور إلى جانب أنها من حيث العدد نصف حروف اللغة تمثل من جهة أخرى كل الظواهر الصوتية الموجودة في اللغة فهي تمثل ظواهر (الهمس) و(الجهر) و(الشدة) و(الرخاوة) و(الانفتاح) و(الإطباق) وهي من جهة ثالثة تمثل تقسيم الحروف من

1- ينظر الأصول: تمام حسان، ص 117، الهيئة العامة للكتاب، 1982م.

2- شرح المفصل: ابن يعيش، ج 01، ص 32، مكتبة المتنبى، القاهرة، 1940م.

3- إعجاز القرآن: الباقلائي، ص 68.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

حيث المخرج إلى حلقية وغير حلقية ومعنى ذلك أن اختيار هذه الحروف لبدء السور بها لم يكن اختياراً عشوائياً قائماً على المصادفة والارتجال بل هو اختيار له دلالة من حيث أن هذه الحروف تمثل الظواهر الصوتية الموجودة في حروف اللغة، فمن الحروف المهموسة فيها: الصاد، والكاف، والقاف، والسين، والحاء، والطاء، ومن الحروف المجهورة: الألف واللام والميم والراء والهاء والعين والياء والنون ومن الشديدة الألف والكاف والطاء والقاف ومن الرخوة: اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون ومن المطبقة الصاد والطاء ومن المنفتحة: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون، وبالإضافة إلى ذلك ففيها من حروف القلقة، القاف والطاء ومن حروف الحلق: الحاء والهاء والعين، يقول الباقلاني: "والذي ينقسم إليه هذه الحروف على ما قسمه أهل العربية وبنوا عليها وجوهها أقسام نحن ذاكروها، فمن ذلك أنهم قسموها إلى حروف مهموسة وأخرى مجهورة فالمهموسة منها عشرة وهي الحاء والهاء والحاء والكاف والشين والثاء والفاء والتاء والصاد والسين، وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة المذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء لا زيادة ولا نقصان"⁽¹⁾.

ويقول أيضاً: "وكذلك مما يقسمون إليه الحروف يقول إنها على ضربين: أحدهما حروف الحلق وهي ستة أحرف: العين، الحاء، المهمزة، الهاء، الخاء، الغين. والنصف من هذه الحروف مذكور في جملة الحروف، التي تشمل عليها الحروف المبينة في أوائل السور، وكذلك النصف من الحروف التي ليست بحروف الحلق.

وكذلك تنقسم هذه الحروف إلى قسمين آخرين: أحدهما حروف غير شديدة وإلى الحروف الشديدة، وهي التي تمنع الصوت أن يجري فيه وهي المهمزة والقاف والكاف والجيم والضياء والذال والطاء والياء وقد علمنا أن نصف هذه الحروف أيضاً هي مذكورة في جملة تلك الحروف التي بني عليها تلك السور ومن ذلك الحروف المطبقة وهي أربعة أحرف وما سواها منفتحة، فالمطبقة: الطاء والطاء والصاد والصاد وقد علمنا أن نصف هذه في جملة الحروف المبدوء بها في أوائل السور"⁽²⁾.

ويقول أيضاً: "وإذا كان القوم الذين قسموا في الحروف هذه الأقسام لأغراض لهم في ترتيب العربية وتربيتها بعد الزمان الطويل من عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- ورأوا مباني اللسان على هذه الجهة، وقد نبه بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر على حد التصنيف الذي وصفنا دل على أن

1- إعجاز القرآن: الباقلي، ص 68.

2- المصدر نفسه: ص 69.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية
وقوعها الموقع الذي يقع التواضع عليها بعد العهد الطويل لا يجوز أن يقع إلا من الله عز وجل؛ لأن ذلك
يجري مجرى علم الغيوب، وإن كان إنما نبهوا على ما بيني عليه اللسان في أصله ولم يكن لهم في التقسيم
شيء وإنما التأثير لمن وضع أصل اللسان فذلك أيضا من البديع الذي يدل على أن أصل وضعه وقع موقع
الحكمة التي يقصر عنها اللسان، فإن كان أصل اللغة توقيفا فالأمر في ذلك أبين وإن كان على سبيل
التواضع فهو عجيب أيضا لأنه لا يصح أن تجتمع همهم المختلفة على نحو هذا إلا بأمر من عند الله
تعالى" (1).

نستبين مما سبق أن الباقلاقي وقف في نظام الحروف المقطعة عند ثلاثة جوانب:
عدد السور التي وردت في أوائلها وعدد الحروف نفسها واحتوائها على نصف كل واحد من أحناس
حروف اللغة.

ويهدف الباقلاقي من وراء هذا كله إلى إثبات الإعجاز القرآني ممثلا في قوة النظم وإبداع التأليف
إلى الحد الذي جعل هذا النظم يستثمر في دقة لا حدود لها تلك الطاقة الكامنة في حروف الألفاظ ذاتها
"وكل ذلك يوجب إثبات الحكمة في ذكر هذه الحروف على حد يتعلق به الإعجاز من وجه" (2).

وعلق نصر حامد على كلام الباقلاقي قائلا: إن الدلالة التي يضيفها الباقلاقي هنا دلالة مشاهجة
لدلالة "الإخبار عن الغيوب" على إعجاز النص، ولكن علينا أن نكون على ذكر بأن هذه الدلالة دلالة
أضافتها الثقافة على هذه الحروف بعد تطور الدرس اللغوي ولا يقلل من هذه الدلالة الآن أن تقسيم
الأصوات مخالف لتقسيم القدماء الذين كانوا يعتمدون على مجرد الملاحظة المباشرة، هذا بالإضافة إلى
تطور نطق بعض الأصوات في اللغة الحديثة (3).

نستنتج مما سبق أن هذه (الأربعة عشر) حرفا لم تكن مجرد مجموعة مقطوعة من الأبجدية كيفما
اتفق. بل هي منتقاة منها انتقاء دقيقا يخدم الغرض السابق، وذلك بتمثيلها لأنواع الأصوات العربية
وخصائصها أفضل تمثيل وبكونها من أسهل هذه الأصوات مخارج ومن أوضحها سمعا ومن أكثرها
انتشارا في الكلام العربي، وكان القرآن بتحريه لهذه الصفات في تلك المجموعة من الحروف يريد أن يقول
للعرب: إني لا أتحداكم بأصعب لغتكم أو أغربها، بل أتحداكم بأيسرها وأطوعها وأكثرها انتشارا على
ألسنتكم.

1- إعجاز القرآن: الباقلاقي، ص 69.

2- المصدر نفسه: ص 70.

3- مفهوم النص دراسة في علوم القرآن: نصر حامد أبو زيد، ص 193.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

وكانه يريد أيضا أن يردد على لسان قارئه وسمعه حين يتلو الفواتح المحيائية أصوات اللغة التي تستأثر بكل هذه الصفات السابقة ثم إن هذا الانتقاء المذكور من جهة أخرى دليل قاطع على المصدر الرباني للقرآني الكريم؛ لأنه لا يمكن أن يتم بغير الاستقراء الكامل الدقيق لخصائص الأصوات العريية ومستوى تردد كل منها في الاستعمالات اللغوية وهو ما لم يكن يخاطر ببال أي عربي أمي أو غير أمي على عهد نزول القرآن، ولا أمكن تحقيق ذلك أصلا إلا بعد تقدم الدراسات اللغوية والإحصاءات المعجمية التي تعتمد على جهاز (الكمبيوتر).

3- الإعجاز التركيبي:

يتضح أن الآيات الفواتح من الحروف المقطعة الثنائية والثلاثية والرابعة والخماسية هي الصيغ الدالة التي تعبر عن المستوى الصرفي من حيث الصيغة الممكنة المتصورة أو المحتملة في اللسان العربي التي ألهم الله الإنسان إلى ضم بعض الحروف فيها إلى بعض وفق طرق محددة وطرائق مقننة تمثل المجال اللغوي الممكن مما تحتمله قسمة التركيب في الأصول المتصورة أو المستعملة⁽¹⁾ في اللسان العربي كما يتضح كذلك أن نسبة التواتر في الفواتح للحروف المقطعة الثلاثية أكثر استعمالا وترددا من الحروف المقطعة الرابعة والخماسية من جهة وأكثر استعمالا وتواترا كذلك من الحروف المقطعة الثنائية والأحادية من جهة ثانية، وهذا مطابق لقوانين اللسان العربي من حيث الاستعمال لأن الصيغ الثلاثية أكثر استعمالا من بقية الصيغ وأعدلها تركيبيا⁽²⁾.

وهذا ما يؤكد القرآن الكريم حيث كان حل استعماله في هذا كله للكلمات الثلاثية في الأفعال والأسماء إذ لم يرد بالقرآن كله من الأفعال الرابعة المجردة إلا فعل واحد في موضعين قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافٍ فِي الْقُبُورِ﴾⁽³⁾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾⁽⁴⁾ وبعض الأفعال عن مضاعف الرباعي مثل ﴿زُلْزِلَتْ﴾⁽⁵⁾ و ﴿يُوسُوسُ﴾⁽⁶⁾.

أما الأسماء الرابعة المجردة فلم يأت منها في القرآن كله إلا ستة (06) أسماء وهي كلمة "برزخ" في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾⁽⁷⁾.

1- الخصائص: ابن حني، ج 01، ص 54.

2- المصدر نفسه: ج 01، ص 55.

3- سورة العاديات: الآية 07.

4- سورة الانفطار: الآية 04.

5- سورة الزلزلة: الآية 01.

6- سورة النسر: الآية 04.

7- سورة المؤمنون: الآية 100.

وكلمة (سرمد) من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾⁽¹⁾. وكلمة (سندس) من قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾⁽²⁾ وكلمة (زخرف) من قوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾⁽³⁾ وكلمة (سلسلة) من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾⁽⁴⁾ وكلمة (شرذمة) من قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾⁽⁵⁾.

والاسم الرباعي المزيد بحرفين غير المشتق جاء منه في القرآن ألفاظ قليلة منها كلمة "زمهير" من قوله تعالى: ﴿مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾⁽⁶⁾ وكلمة (قمطير) من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَيْبًا قَمَطِيرًا﴾⁽⁷⁾ وكلمة "زنجيل" من قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾⁽⁸⁾ وكلمة (سلسيل) من قوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا﴾⁽⁹⁾.

والملاحظ أن الآيات الفواتح من الحروف المقطعة قد جاءت ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية وهي الصيغ الدالة في اللسان العربي والأكثر استعمالاً كما أن الصيغة الثلاثية جاءت أكثر من غيرها من الصيغ تواتراً وذلك تماشياً مع قوانين اللسان لأنها أعدهل الصيغ تركيبياً وأكثرها استعمالاً لقلّة حروفها بالموازنة مع الصيغ الأخرى.

ونريد أن نؤكد أن تنوع أبنيتها من حرف إلى خمسة يشير إلى أبنية الكلام العربي التي لا تتجاوز أصولها هذا العدد كما أن مجيئها على أربع عشرة صيغة كأنما يشير إلى جميع التراكيب العربية مثلما كانت حروفها الأربعة عشر من قبل تشير إلى كل حروف الأبجدية، وأن غالب ألفاظ القرآن مؤلف من نفس حروف الفواتح المحاثية بما أن هذه الحروف هي الأكثر تردداً في الاستعمالات اللغوية بالإضافة إلى خاصية التناسق والوضوح والتلاؤم الصوتي والجمال الإيقاعي بين صيغ هذه الفواتح وفواصل السور التي بدأت بها.

1 - سورة القصص: الآية 71.

2 - سورة الكهف: الآية 31.

3 - سورة الأنعام: الآية 112.

4 - سورة الحاقة: الآية 32.

5 - سورة الشعراء: الآية 54.

6 - سورة الإنسان: الآية 13.

7 - سورة الإنسان: الآية 10.

8 - سورة الإنسان: الآية 17.

9 - سورة الإنسان: الآية 18.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

كما نؤكد أيضا أن سبع جماعات فقط من الحروف المقطعة الأربع عشرة آيات كاملة بأنفسها توقيفا⁽¹⁾ كل منها فاتحة أي هي سبع آيات وهي في الوقت نفسه سبع فواتح أي أنها سبع فواتح للسور كل منها آية منفصلة في ذاتها من مجموع أربع عشرة فاتحة، وهذه الفواتح الآيات هي:

آية (ألم) حيث وقعت من السور المفتحة بها وهي ست: البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والسجدة، والروم، ولقمان.

كذلك آية (المص) من سورة الأعراف وآية (طه) من سورة طه، وآية (يس) من سورة يس أو آية (حم) من سورها كلها (غافر، فصلت، الزخرف، الدخان، والشورى، الجاثية الأحقاف) وآية (كهيعص) من سورة مريم.

وقال الواحدي في البسيط في أول سورة يوسف، لا يعد شيء منها آية إلا في (طه) وسره أن جميعها لا يشاكل ما بعده من رؤوس الآي، فلهذا لم يعد آية بخلاف طه، فإنها تشاكل ما بعدها⁽²⁾. ونستنتج مما سبق حقيقة لا مرية فيها وهي أن الفواتح المحائية بحروفها وصيغها قد انتقت انتقاء دقيقا متوازنا تماما، لا يستطيع المرء أن يتدخل فيه بزيادة حرف أو ينقصه أو بتقديمه أو بتأخيره إلا إذا كان ذلك على حساب أي صفة أو خاصية من الخواص التي توحي القرآن وجودها أو إبرازها في هذه الفواتح وهو انتقاء يدل على صدق هذا الكتاب وصدق مبلغه -صلى الله عليه وسلم-.

4- الإعجاز الدلالي:

إن إعجاز القرآن يكمن في رصفه ونظمه في قليله وكثيره وهذا النظم يشمل بلا ريب كل حرف في القرآن، فالنظم والرصف يبدأ من نظم ورصف الأحرف في الكلمات أو قل اختيار كلمات مشتملة على أحرف مخصوصة ومن ثم يقع الإعجاز والتحدي برصف هذه الأحرف ونظمها في نسق وسياق خاص تدل به على معاني القرآن وأسراره.

ومن ثم فإن الإعجاز الدلالي للفواتح المحائية كان مجيئه على هيئة خاصة من جهة البناء الصوتي أو التشكيل الصوتي للفواتح مجتمعة في بعض العبارات الدقيقة التي حاول أسلافنا أن يضمونها الحروف الأربعة عشر التي تكون هذه الفواتح كقولهم "نص حكيم قاطع له سر" وجمعها السهيلي في قوله: "ألم يسطع نور حق كره" وهذا الضابط في لفظه ثقل وهو غير عذب في السمع ولا في اللفظ وقال الزركشي: لو قال (لم يكرها نص حق سطع) لكان أعذب ومنهم من ضبط بقوله: "طرق سمعك

1- الكشف: الزمخشري، ج 01، ص 41.

2- المصدر نفسه: ج 01، ص 220.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

النصيحة" و "صن سرا يقطعك جملة" و "على صراط حق يمسه" وقيل: "من حرص على بظه كاسر" وقيل: "سر حصين قطع كلامه"⁽¹⁾.

بينما يذهب بعض علماء أهل السنة إلى جملة (صح طريقك مع السنة) ويذهب بعض علماء الشيعة إلى جملة (صراط علي حق نمسه)⁽²⁾.

ولقد تتبع السيد عبد المقصود جعفر هذه العبارات تبعا دقيقا وحاول أن ينسج على منوالها من الحروف السابقة، عبارات أخرى فتبين أن العبارات التي يمكن تكوينها من هذه الحروف ليست مجرد تجميع لألفاظ أو جمل أيا كانت وإنما هي تنحو دائما نحو المعاني المعبرة عن قضية القرآن وإعجازه ولا تبعد عن هذه القضية إلا إذا أدخلنا بنظام تكوين أي عبارة حين نقص أو نكرر أي حرف من الحروف (الأربعة عشر)⁽³⁾.

وقال أيضا: "وقد جري ذلك إلى المقارنة الدلالية بين هذه المجموعة من الحروف وبين المجموعة الأخرى التي لم ترد في الفواتح المحجائية فتبين لي أن هناك فرقا شاسعا بينهما من حيث القدرة على تكوين الألفاظ والتعبيرات المختلفة حتى لتبدو إحداهما وهي الأولى في ذلك خصبة ثرية منطلقة بينما تبدو الأخرى وهي الثانية فقيرة هامدة مقيدة"⁽⁴⁾.

نستخلص مما سبق أن هذه الفواتح هي من المبهمات في القرآن مخالفين في ذلك من ذهب إلى أنها من المشابهات وذلك لأن المبهم هو ما قد يعرف ظاهره ولكن العقل يتوقف في تصوره وتفصيله وإدراك حقيقته بينما المتشابه هو ما احتمل وجهين أو وجوها من المعنى دون وجود ما يعين واحدا منها تعيينا ظاهرا أو قاطعا.

وقد ذهب نصر حامد إلى إدخال "المبهم" في التشابه وجعل القسمة ثنائية، بقوله إلى أن التأويلات المتعددة للحروف تؤكد ولا شك إحساس القدماء بأن "غموض" دلالة هذه الحروف يشكل جانبا من جوانب خصوصية النص، فهو غموض يؤكد "الاختلاف" بين القرآن وغيره من النصوص، من هنا تختلف الحروف المقطعة عن غيرها من ظواهر الغموض التي ناقشناها في الفقرات السابقة (من

1- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج1، ص216.

2- راحة الاستهلال في فواتح الفصائد والسور: محمد بدري عبد الخليل، ص91، ط02، المكتب الإسلامي، بيروت، 1405هـ-1984م.

3- الفواتح المحجائية وإعجاز القرآن في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة: السيد عبد المقصود جعفر، ص202، ط01، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، 1412هـ-1992م.

4- المرجع نفسه: ص203.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية
المتشابهة) من حيث أن هذه الأخيرة ظواهر غموض دلالية تبينها وتكشف عنها أجزاء أخرى من النص،
وهي من ثم ظواهر غموض تبرز اختلاف النص داخليا.

وهكذا يكون النص قد خالف بين ذاته وبين غيره من النصوص من جهة، وخالف بين أجزائه من
جهة أخرى، ولم تكن هذه المخالفة إلا آلية من آليات النص حقق بها تميزه، وحقق بها من ثم قدرته على
التفاعل مع الثقافة في المكان والزمان⁽¹⁾.

ولكن مذهب من ميز بين المبهم والمتشابه أدق وأوجه، إذ إنه إذا صح إدخال بعض أنواع المبهم
مثل فواتح السور في المتشابه فهناك أنواع أخرى منه لا تدخل فيه ولا يمكن أن تعتبر منه⁽²⁾.

فقد نفى الطبري تعرض النبي -صلى الله عليه وسلم- للحروف المقطعة بالتفسير حين أعلن:

لو أراد الله بها، أو بشيء منها، الدلالة على معنى واحد مما تحتمله: دون سائر المعاني لأبان ذلك
لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إبانة غير مشككة، إذ كان جل ثناؤه إنما أنزل كتابه على رسوله
-صلى الله عليه وسلم- ليبين لهم ما اختلفوا فيه⁽³⁾.

وكذلك فعل الشوكاني قال: فإن قلت هل ثبت عن رسول الله في هذه الفواتح شسيء يصلح
للتمسك به؟ قلت لا أعلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تكلم في شيء من معانيها، ولو كان
شيء لما قاله الصحابة مأخوذاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لاتفقوا عليه ولم يختلفوا كسائر ما هو
مأخوذ عنه فلما اختلفوا في هذا علمنا أنه لم يكن مأخوذاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم لو كان
عندهم شيء عن النبي في هذا لما تركوا حكايته عنه ورفعوا إليه، لا سيما عند اختلافهم واضطراب أقوالهم
في مثل هذا الكلام الذي لا مجال للغة العرب فيه ولا مدخل لها⁽⁴⁾.

ومن ثم إنقسم أصحاب الدراسات القرآنية واللغوية إلى طائفتين: طائفة اقتنعت بأنه لا سبيل إلى
إدراك دلالتها، وأخرى اجترأت على الخوض فيها.

فباعدت الطرق بهم وأعطونا كثيرا من الدلالات التي لقي بعضها قبولا واسعا وبعضها قبولا
ضيقا، ولم يلق بعضها القبول إلا من صاحبها.

ومهما يكن من شيء فالأمر المؤكد أنه لم يقع بواحد مما قالوا من تأويلات إلى اليوم يقين يضمها

ويسكت المخالفين.

1 - مفهوم النص دراسة في علوم القرآن: نصر حامد أبو زيد، ص 194.

2 - من روائع القرآن: محمد سعيد رمضان البوطي، ص 109.

3 - جامع البيان في تفسير القرآن: الطبري، ج 01، ص 73.

4 - فتح القدير: الشوكاني، ج 01، ص 37-38.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

ولقد لقي القول بأن فواتح السور آية التحدي والإعجاز الرضا العام، ويكاد يغطي على غيره من الأقوال المختلفة من حيث الآراء والمنطلقات والمناهج والغايات وزوايا الدراسة والتي تمثل في مجملها مدى التفاعل والفهم الإنساني النسبي للقرآن الكريم وغير النهائي في كل عصر ومصر مهما كان رسوخ الفاهم في العلم بحكم التطور العقلي والتقدم العلمي والتراكم المعرفي انقيد بظروف العصر ومعارفه من جهة والمرتمن بالحجم المعرفي لصاحبه وتخصسه من جهة ثانية، وذلك لأن مضمون الآيات القرآنية على الرغم من ثبات الصيغة اللفظية متجدد بتجدد المعرفة، ومظاهر الحياة ومتحرك بحركة التاريخ ضمن إطار القوانين العامة والخاصة للسان العربي المبين خدمة للعلم والفهم والبحث الموضوعي الدقيق ولا يتوقف حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الآية المركبة:

تعرف الآية المركبة من بين ما تعرف به اصطلاحاً بأنها قرآن مركب من جمل ولو تقديراً ذو مبدأ ومقطع مندرج في سورة، والصحيح أنها إنما تعلم بتوقيف من الشارع لا مجال للقياس فيه كمعرفة السورة فالآية المركبة طائفة حروف من القرآن علم بتوقيف انقطاعها معنى عن الكلام الذي بعدها في أول القرآن، وعن الكلام الذي قبلها في آخر القرآن، وعن الكلام الذي قبلها والذي بعدها في غيرهما غير مشتمل على مثل ذلك⁽¹⁾. ومن هذا المنطلق فقد تبين لنا بعد التمعن فيها، والتحقيق الطويل أنها مقدار من القرآن مركب تقديراً، أو مركب حقيقة لفظاً ومعنى. وعليه يمكن القول بأن الآية المركبة تحتوي على أنواع من الآيات من حيث بنيتها الصرفية ونمطها التركيبي ووظيفتها الإبلغية منها:

1- الآية الكلمة: وهي عبارة عن لفظة واحدة تتكون من كلمتين فأكثر متصلة صرفياً ولفظياً في نسق خطي كتابياً، وهي عند التحقيق جزء من الجملة تقديراً، أي أنها مقدار من القرآن مركب تقديراً منفصل عما قبله وعما بعده من القرآن توقيفاً بفصل لفظي مثل ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾⁽²⁾.

قال ابن المنير في "البحر" ليس في القرآن كلمة واحدة آية إلا ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾⁽³⁾ وقال أبو عمرو

الداني: لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله: ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾ في سورة الرحمان

وإذا رجعنا إلى مفهومي كل من الكلمة واللفظة نجد أن الكلمة تعني اللفظ الدال على معنى مفرد بالوضع تتألف من حرفين فأكثر حسب نسق معين ذي ترتيب خاص لذلك تجد بأنها اللفظة الدالة على معنى وأنها ما لا يدل جزؤه على شيء من معناه⁽⁴⁾.

وبذلك تختلف عن اللفظة المركبة، ووضح بن يعيش هذه العلاقة من خلال المثال التالي بقوله:

ضرباً: تشكل لفظة واحدة تتألف من كلمتين: فعل (ضرب) وضمير متصل (الألف) يدل على أن الفاعل (هما)⁽⁵⁾ وهذا يعني أن مصطلح الكلمة في علم العربية يتميز عن مصطلح الكلمة في علم اللغة الأوروبي بأنه قد يفيد أصغر جزء ذي معنى في العربية، لذلك فمصطلح الكلمة في العربية يشتمل على جانبين مترابطين فيما بينهما:

- الجانب الأول للكلمة المفردة ويشتمل على عنصرين:

1- انزهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 336.

2- سورة الرحمن: الآية 64.

3- انزهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 336.

4- تقوم الفكر النحوي: على أبو المكارم، ص 81، دار الثقافة، بيروت، 1980، وينظر حاشية الباجوري على السلم: الشيخ الباجوري،

ص 33، مصر 1306هـ.

5- شرح المفصل: ابن يعيش، ج 01، ص 19.

أ- المعنى الدلالي للكلمة: وهو المعنى المعجمي الذي يتميز بالثبات النسبي

ب- بنية الكلمة: (أي صيغتها الصرفية)

- الجانب الثاني: يتعلق بالكلمة من حيث كونها جزءاً في التركيب الإسنادي ويشتمل هذا الجانب على وظيفة الكلمة في الجملة ويعرف بالمعنى الوظيفي الذي يحدد وظيفة الكلمة بالنسبة لبقية الضمائم في الجملة وهو معنى متغير بحسب رتبة الكلمة في الجملة. يترابط الجانبان المذكوران عن طريق قيام صيغة الكلمة المفردة بوظيفة جزء من أجزاء الجملة وهكذا نرى أن دراسة الكلمة لا تنفصل عن دراسة الجملة في العربية، ويعود هذا الترابط إلى الأساس الأول لمفهوم الكلمة في كلام العرب⁽¹⁾.

فالكلمة لغة: لا تدل عند العرب إلا على مفهوم الجملة عند النحاة، يقول ابن تيمية: "لفظ الكلمة له في لغة العرب التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بها معنى، وله في اصطلاح النحاة معنى، فالكلمة في لغتهم هي الجملة التامة (جملة المبتدأ والخبر أو جملة الفعل والفاعل) كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، في الحديث المتفق على صحته (كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم" وقال لأم المؤمنين: لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن "سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته" فهذه أربع جمل كما نرى سمي كل جملة كلمة⁽²⁾.

وقال أحمد: "لا يوجد قط في الكتاب والسنة وكلام العرب لفظ الكلمة إلا والمراد منه الجملة التامة، فكثير من النحاة، وأكثرهم لا يعرفون ذلك بل يظنون أن اصطلاحهم في معنى الكلمة هو لغة العرب... ويقول بعضهم، العرب قد تستعمل الكلمة في الجملة التامة وتستعملها في المفرد وهذا غلط لا يوجد قط في كلام العرب لفظ الكلمة، إلا للجملة التامة"⁽³⁾.

ونؤكد أن الكلمة قد تطلق في اللغة لا في اصطلاح النحاة، ويقصد بها الكلام على سبيل المجاز المرسل، من ذلك قولنا: كلمة الإخلاص لا إله إلا الله" وهو من باب تسمية الشيء باسم جزئه، ومنه قوله تعالى (كلا إنها كلمة) فالضمير في (إنها) عائد إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ

1- ينظر في علم اللغة: غازي مختار طليعات، ص 186-188، ط02، دار طلاس، دمشق، 2000م.

2- الفناوي: ابن نيمية، مج12، ص 103-109، جمع وترتيب عبد الرحمن ابن قاسم العاصمي، الرياض.

3- من حديث الجملة: المرغني، ص 58، عن دراسة لغوية لمفهوم الآية في القرآن الكريم: محمد العبد رتيمة، ص 226.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية
رَبِّ أَرْجِعُون، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ﴿١﴾.

وقد رجعنا إلى القرآن الكريم لمعرفة دلالة الكلمة فوجدنا أنها تدل حقيقة على مفهوم الجملة كما
أنها تدل أيضا في مفهومها العام على صدق التحقق والمعجزة والصدق والدلالة على القطع والحكم
الناجز المرتبط بجوهر الأشياء.

ومن ثم نؤكد أنه لا يوجد في القرآن الكريم الآية الكلمة، إلا إذا أخذت بمعناها المترابط بجانبها
الثاني المرتبط بكونها جزء من الجملة بالمفهوم اللغوي للجملة⁽²⁾.

2- الآيه الجملة: تعرف الجملة لغة "بجماعة الشيء كأنها اشتقت من جملة الحبل، لأنها قوى كثيرة جمعت
فأجملت جملة"⁽³⁾. ويتضح هذا المفهوم بشكل أوضح في آيات القسم⁽⁴⁾ التي بلغت فواتح السور المبتدئة
بها في القرآن كله خمس عشرة فاتحة هي:

- 1- قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ سورة الصافات (الآية 01)
- 2- قوله تعالى: ﴿وَالذَّرِّيَّتِ ذَرَوًا﴾ سورة الذاريات (الآية 01)
- 3- قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾ سورة الطور (الآية 01)
- 4- قوله تعالى: ﴿تَجَمُّ إِذَا هَوَىٰ﴾ سورة النجم (الآية 01)
- 5- قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ سورة المرسلات (الآية 01)
- 6- قوله تعالى: ﴿وَاللَّزْعَاتِ غَرَقًا﴾ سورة النازعات (الآية 01)
- 7- قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ سورة البروج (الآية 01)
- 8- قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ سورة الطارق (الآية 01)
- 9- قوله تعالى: ﴿وَالفجرِ﴾ سورة الفجر (الآية 01)
- 10- قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ سورة الشمس (الآية 01)
- 11- قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ سورة الليل (الآية 01)
- 12- قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ سورة الضحى (الآية 01)

1- سورة المؤمنون: الآيات 99-100، ينظر علاقة المنطق باللغة عند الفلاسفة المسلمين، حسن بشر صالح، ص 196، ط 01، دار الوفاء،
الإسكندرية، 2003م.

2- ينظر الجملة العربية والمعنى: فاضل صالح السامرائي، ص 07، ط 01، دار ابن حزم، 1421هـ-2000م.

3- لسان العرب: ابن منظور: ج 43 ص 128، ينظر تاج العروس: الزبيدي، ج 07 ص 364. وينظر تهذيب اللغة، ج 17 ص 107.

4- الإتيان: السيوطي، ج 02، ص 133.

13- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ سورة التين (الآية 01)

14- قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ سورة العاديات (الآية 01)

15- قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ سورة العصر (الآية 01)

ومنها أربع آيات فواتح عدت عند كثير من الدارسين باعتبارها (آيات كلمات) هي: والطور- والفجر والضحي والعصر وهي مقدار من القرآن مركب تقديراً باعتبار واو القسم. وقد كشف لنا القرآن الكريم عن مدلول الجملة التي لم يرد لفظها فيه إلا مرة واحدة، في قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾⁽¹⁾ بمعنى مجموعاً غير مفرق مكتملاً مرة واحدة.

على غرار الكتب السماوية السابقة كما رسخ في أذهانهم من أخبار نزولها.

أما مدلول الجملة عند النحاة فهو كل كلام اشتمل على مسند ومسند إليه، من حيث مستوى بنيتها النحوية، أما من حيث مستوى بنيتها الإخبارية فهي "كل كلام أفاد السامع فائدة يحسن سكوت المتكلم عندها" وقد ذكرنا أن فواتح سور القرآن تنقسم إلى قسمين:

1- فواتح بحروف إما مفردة أو كثيرة لا تتألف في كلمات لغوية.

2- فواتح بالألفاظ اللغوية المألوفة ذات المعاني المحددة المعروفة.

وقد عني العلماء عناية بالغة بالقسم الأول خاصة فأبانوا طريقة قراءة هذه الحروف وكتابتها وعدها في الآيات... الخ وهذا ما أشرنا إليه في الفصل السابق.

وأما القسم الثاني فإنه يشمل على بقية الآيات القرآنية في مدارج سورها تتقاسمها من حيث البنية النحوية الساكنة جملتها (المبتدأ والخبر- والفعل والفاعل).

ومن حيث البنية الإبداعية المتحركة تختلف باختلاف الأغراض العنوية المقامية أي مراعاة مقتضى الحال، والنحو في حقيقته معاني كما عرفه عبد القاهر الجرجاني بقوله: "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها، هذا هو السبيل، فليست بواجب شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً، وخطؤه إن كان خطأً إلى النظم، ولا يدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى مسن معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له"⁽²⁾.

1- سورة الفرقان: الآية 32.

2- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص 77.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

يتضح أن البنية النحوية الساكنة ليست في علم النحو إلا قرينة، مهما كانت أهميتها التي لا تنكر إلا أنها قرينة مساعدة في أداء المعنى النحوي، لهذا فإننا نعتد جانب المعنى أو الغرض باعتبار الهدف من التركيب اللغوي عموماً في الآيات القرآنية التي نحن بصدد دراستها خصوصاً.

لقد وجدنا⁽¹⁾ أن أربع عشرة آية في أربع عشرة سورة ينتظمها معنى الثناء على الله سبحانه وتعالى تقاسمها معنيان أساسيان هما:

1- إثبات صفات المدح لله

2- ونفى صفات النقص عنه تعالى وتزويجه عن ذلك تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد قسمت بحكمة بالغة ودقة متناهية وإحكام لا مثيل له بنسب متساوية بين هذين المعنيين كما توضح الآيات القرآنية التالية:

- الإثبات نحو قوله تعالى:

1- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة)

2- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام)

3- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ (الكهف)

4- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (سبا)

5- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْلِ وَتِلْكَ وَرَبِّعَ يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فاطر)

- و (تبارك) نحو قوله تعالى:

6- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان)

7- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الملك)

- والتزويج نحو قوله تعالى:

8- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْأَيْمَانِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء).

1- العرمان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 213، وينظر الإقنانه: السيوطي، ج 02، ص 134.

9- ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (الأعلى)

10- ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحديد)

11- ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر)

12- ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الصف)

13- ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة)

14- ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(التغابن)

يقول الزركشي: هذه أربع عشرة سورة استفتحت بالثناء على الله، نصفها لثبوت صفات الكمال ونصفها لسلب النقائص. قلت سر عظيم من أسرار الألوهية.

قال صاحب "العجائب": (سبح لله) هذه كلمة استأثر الله بها؛ فبدأ بالمصدر منها في بني إسرائيل؛ لأنسه الأصل، ثم الماضي (سبح لله) في الحديد والحشر والصف لأنه أسبق الزمانين، ثم المستقبل في الجمعة والتغابن، ثم بالأمر في سورة الأعلى استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها وهي أربع، المصدر، الماضي، المستقبل، والأمر المخاطب فهذه أعجوبة وبرهان⁽¹⁾.

يتضح من كل ما سبق أن الغرض السياقي الذي هو الحمد لله والثناء على الله سبحانه وتعالى تظافر معنيان لتشكيله هما:

- إثبات صفات المدح لله التي تظافرت خمس جمل إسمية، وحملتان فعليتان على توضيحه وعللت أو أواخر الآيات بدايتها فارتبطت بذلك أو أواخرها بأوائلها.

- أما نفي صفات النقص تعالى الله عنهما علواً كبيراً وتزويجه عنها فقد أثبتت الجملة الأولى مبتدئه بالمصدر ثم ثني ذلك بالأمر بتزويجه في بصيغة الأمر ثم ثلث ذلك بإثبات هذا التزويج الذي يقربه كل ما في السموات وما في الأرض وذلك بثلاثة أفعال في ثلاث سور بصيغة الماضي (سبح) وهذا التزويج والنفي متحدد متكرر على دوامه؛ وذلك بأن ربت الآيات بفعلين في سورتين بصيغة المضارع (يسبح).

والملاحظ أن الفعل "سبح" الذي جاء بمشتقاته المختلفة قد خص الله تعالى به نفسه وقد استوعبته الآيات الكريمة المذكورة من جميع جهاته فقد بدأت بالمصدر؛ لأنه الأصل ثم الماضي في ثلاث سور؛ لأنه أسبق الزمانين ثم المستقبل (المضارع) في سورتين ثم الأمر في سورة واحدة، وفي ذلك دلالة على أن الأصل الاشتقائي هو المصدر باعتباره حدث مجرد عن الزمن يتضمن جميع أحرف فعله الماضي ثم إن

تكرار الماضي أكثر من غيره دلالة على كثرته؛ لأنه الصيغة الأكثر استعمالاً وأعدل تركيباً في هذا المثال ولأنه الأسبق من حيث الزمن لأن الخلفية المعرفية المكتسبة هي الأكثر حضوراً في فعل الإنسان والله أعلم .

إن هذه الآيات التي جاءت لغرض الحمد والثناء إثباتاً لصفات الكمال والمدح ونفيها لصفات النقص وتزيها لله عنها قد تظافر نوعاً الجملة في العربية على تأنيها في شكل جمل خبرية إثباتية وتجدداً لتشارك معها أيضاً آيات فواتح آخر⁽¹⁾ في هذا الخبر المعنوي ثلاث وعشرون آية في ثلاث وعشرين سورة هي:

الجمل الخبرية: نحو قوله تعالى:

- 1- ﴿بِرَأْءِ مَنْ أَلَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة)
- 2- ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور)
- 3- ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الزمر)
- 4- ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ (محمد)
- 5- ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (الفتح)
- 6- ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (الرحمن)
- 7- ﴿الْحَاقَّةُ﴾ (الحاقة)
- 8- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (نوح)
- 9- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر)
- 10- ﴿الْقَارِعَةُ﴾ (القارعة)
- 11- ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (الكوثر)
- 12- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال).
- 13- ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النحل)
- 14- ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء)
- 15- ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون)
- 16- ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر)

- 17- ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ (المجادلة)
- 18- ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (المعارج)
- 19- ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (القيامة)
- 20- ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (البلد)
- 21- ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (عبس)
- 22- ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (البينة)
- 23- ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (التكاثر)

ويتضح هنا كذلك أن الجمل الخبرية التي جاءت بهذه الآيات الثلاث والعشرين قد تقاسمتها جملتنا المبتدأ والخبر، وجملة الفعل والفاعل بالتساوي، وقد تعانقتا في الآية رقم إثنين وعشرين (22) التي هي فاتحة لسورة البينة باعتبارها جملة محولة عن جملة اسمية وهي في الآن نفسه جملة فعلية لابتدائها بالفعل الماضي الناقص (كان) ويزداد التقارب بين نوعي المقال من حيث البنية النحوية الساكنة في الآيات التي جاءت لغرض الدعاء⁽¹⁾ في ثلاث آيات فواتح لثلاث سور هي:

1- ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (المطففين)

2- ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (الهمزة)

3- ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ (المسد)

والتي يمكن كذلك اعتبارها من باب الخبر

أما المجموعات الخمس الباقية من فواتح السور⁽²⁾ فقد جاءت تحت باب الإنشاء⁽³⁾، وأول ما يلاحظ فيها هو سيادة نمط الجملة الفعلية، عن نمط الجملة الإسمية، ففي عرض النداء مثلا ورد في عشر آيات فواتح لعشر سور هي: النداء نحو قوله تعالى:

1- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنْ كَانَ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الأحزاب)

2- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَسَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق)

3- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَغَّىٰ مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التحریم)

1- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 230.

2- المصدر نفسه: ج 01، ص 228.

3- ينظر الفهرست القرآني: أشرف عبد الغني المرزا، ص 701، دار الكتب، 2002م.

4- ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (المزمل)

5- ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ (المدثر)

6- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة)

7- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (الحجرات)

8- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ (المتحنة)

9- ﴿أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (النساء)

10- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج)

ومن هنا يتبين لنا أن خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بعد نداءه مباشرة، يكون متبوعاً بأمر بالقيام بعمل معين أو نهي عن عمل معين أو تأكيد صفة الرسالة للقيام بتبعاها، وهذا ما يجعلنا نستنتج أن أسلوب النداء في القرآن لا يكون إلا لأمر أو نهي، فهو للتوجيه في أمور الدنيا وأمر الدين وذلك بإثارة اهتمام الموجه عن طريق النداء ليستعد لتقبل ما يطلب منه ولا يكون إلا لأمر ذي بال ومعنوي يحدده هدف المخاطب ورغبة السامع في معرفة أمر ما، وتوجيهه للقيام بأمر ما كذلك أو نهي عن القيام بأمر معين ليستقيم سلوكه وفق المنهج الذي جاء به الدين الحنيف في هذا المجال وفي القرآن الكريم آيات كثيرة شاهدة على ذلك:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾⁽¹⁾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكِ﴾⁽²⁾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ﴾⁽³⁾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽⁴⁾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾⁽⁵⁾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾⁽⁶⁾.

وكذلك التوجيه عن طريق الجملة المصدرية بالظرف لما يستقبل من الزمن المتضمنة معنى الشرط (إذا) هيأة واستعدادا وتوجيها للسلوك وفق ما يستجد لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ

1- سورة التوبة: الآية 73، سورة التحريم: الآية 09.

2- سورة الأحزاب: الآية 28.

3- سورة الأنفال: الآية 70.

4- سورة الأنفال: الآية 65.

5- سورة المائدة: الآية 67.

6- سورة المائدة: الآية 41.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

يُيَايِعْتِكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾^(١).
وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾^(٢).

أما بقية النداءات الأخرى والمقدرة بسبع وأربعين ومائة آية^(٣) فقد وجه الخطاب فيها إلى الذين آمنوا وإلى الناس والملا منهن وإلى العزيز، فقد كان فيها النداء بعد المنادي مباشرة متبوعاً بطلب: أمر كان أو نهي مما يجعلنا نستنتج تلازم النداء والطلب، وأنها تأتي دائماً ضمن آيات مركبة، جملتها على المستوى النحوي الساكن من أكثر من جملتين متلازمتين معنويًا، تؤكد بشكل قاطع ترابط أجزائها ترابطاً محكمًا، على مستوى البنية الإخبارية الإبلافية.

والملاحظة الثانية التي نستخلصها في باب النداء، أن الآيات الفواتح قد جاءت ثلاث آيات منها لخطاب النبي، بلفظ النبي، لا بلفظ الرسول، وخطابه بصفة من صفاته عند بداية الوحي، وما كان يعانیه من شدته حتى يتزمل ويتدثر في آيتين، كما وردت ثلاث آيات فواتح لخطاب المؤمنين، وآيتان لفاتحي سورتي (النساء والحج) لخطاب الناس جميعاً^(٤).

ولكن بالرجوع إلى القرآن الكريم نجد أن المؤمنين أكثر خطاباً من غيرهم، يتلوهم الناس والحقيقة أن المؤمنين أكثر حاجة بعد إيمانهم لمعرفة كل ما يهمهم في توجيه سلوكياتهم حتى تستقيم مع منهج الدين وكذلك الناس باعتبار الدين جاء لهدايتهم جميعاً؛ لذلك فالآيات لا تفتقر ولا تني عن دعوتهم وخطابهم توجيهها إلى سبيل المنهج القويم والدين الخفيف حتى لا تتفرق بهم السبل.

أما من حيث الصدارة في فواتح السور فقد خص بأغلبيتها النبي والرسول المكلف بتبليغ هذه الرسالة للناس جميعاً، بمعرفة ما فوقها معرفة وسلوك نموذج مثالي لتطبيقها تطبيقاً علمياً، بعد إدراكها نظرياً ليتخذ المؤمنون أسوة.

والملاحظة الثالثة: من حيث تركيب آيات النداء أنها جاءت على شكل جمل فعلية إنشائية محتومة غالباً بجمل اسمية مؤكدة مثل:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٥).

1- سورة المنتحة: الآية 12.

2- سورة الطلاق: الآية 01.

3- ينظر الفهرست القرآني: المراس، ص 701.

4- ينظر دراسة لغوية لفهوم "الآية" في القرآن الكريم: محمد العيد رتيمه، ص 241.

5- سورة الأحزاب: الآية 01.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾⁽¹⁾.
وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾⁽²⁾.

ويعني ذلك حثا على الامتثال بتلك الأوامر والنواهي تأكيدا لحسن الختام، وثبوتا للجزاء لقدرة الأمر والناهي، فهو عليم بما تفعل مخلوقاته جميعا، حكيم في توجيهها سميع لما تقول وعليم بما تخفي الصدور وسيجازي كلا بما يستحق من ثواب أو عقاب يوم تقوم الساعة ذلك اليوم ذي الأمر العظيم. وقد أقسم الله سبحانه بمخلوقاته من نبات، وحيوان، وجماد، وملائكة، وعوامل طبيعية، وأوقات وأمكنة مخصوصة، على وحدانيته وصدق الرسول والرسالة، وعلى أن القرآن حق ويوم القيامة بما فيه حق إلى غير ذلك من المقسم عليه في القرآن الكريم، فقد جاء من الآيات الفواتح بأسلوب القسم⁽³⁾ التي هي جمل فعلية فعلها محذوف تقديره "أقسم" دلت عليه قرينة لفظية هي أداة القسم في هذه الفواتح مثل (الواو) وذلك في خمس عشرة آية لخمس عشرة سورة⁽⁴⁾ نحو:

1- قوله تعالى: ﴿وَالصَّفَّاتِ﴾

2- قوله تعالى: ﴿وَالذَّرِيَّتِ﴾

3- قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾

4- قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ﴾

5- قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾

6- قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾

7- قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾

8- قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾

9- قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾

10- قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ﴾

11- قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ﴾

12- قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى﴾

1- سورة اخجرات: الآية 01.

2- سورة اخج: الآية 01، ينظر دراسة لغوية لفهوم "الآية" في القرآن الكريم: محمد العيد ربيقة، ص 241.

3- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 229.

4- السور هي: الصافات، الناريات، الطور، النجم، المرسلات، النازعات، البروج، الطارق، الفجر، الشمس، الليل، الضحى، التين، العاديات،

العصر، وينظر دراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل، ص 317-326، ط02، دار المنار، القاهرة، 1419هـ-1999م.

13- قوله تعالى: ﴿وَأَلْتَمِسُ﴾

14- قوله تعالى: ﴿وَأَلْعَدِيْتِ﴾

15- قوله تعالى: ﴿وَأَلْعَصْرِ﴾

إن أسلوب القسم في الآيات القرآنية، فيه من الشمول ما يعز نظيره في غير الآيات من الكلام العربي، ومن تنوع أغراضه ما لم يعرف قبله في التراث العربي شعره ونثره، وقد تناول هذا الموضوع بالبحث كثير من الدارسين⁽¹⁾ على اختلاف تخصصاتهم، من قدماء ومحدثين، لكثرتهم في القرآن الكريم وتعدد أركانه وتنوع أغراضه.

جاء القسم في الآيات القرآنية في أكثر من مائتي موضع كالتالي ذكرناها في فواتح السور وتنوعت أساليبه من قسم صريح وضمني⁽²⁾، وجمع بين كل العبارات الدالة عليه عند العرب، مضيفا إليها ما يمثل عنصر الطرافة، في الذي لم يعرفه في مختلف أركانه.

فبالنسبة للمقسم به فقد أقسم الله بذاته بلفظ جلالاته في سبعة عشر موضعا، وبربوبيته في ثمانية مواضع، وبعزته وبالقرآن الكريم وبالحق وبالرسول وبالملائكة وبالقنم وبالظواهر الكونية، باعتبارها آيات على وجود الله ووحدانيته، وبالزمان والمكان من عالم الشهادة، كما أقسم بيوم القيامة لثبوته، فجمع بذلك بين عالمي الشهادة والغيب كقوله تعالى ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾⁽³⁾ وذلك تأكيد على ثبوت وحدانية الله وأن القرآن حق والرسول حق والقيامة حق وهي من أهم ما جاء مقسم عليه لأغراض عديدة، منها:

- لفت الأنظار إلى الآيات الكونية وحقائقها وأسرارها ونظامها البديع.
- وصدق الرسول وثبوت الأمور المعنوية بالمشاهدة الحسية كقسمه بالضحى والشمس والليل؛ وذلك لتصحيح العقائد باعتبار الظواهر الكونية آيات من آيات الله شأن غيرها مما يعتبر جديدا كل الجدة لأن القسم في الكلام العربي لمجرد التأكيد لخير أو لتأكيد اعتذار.

1- ينظر في ذلك المراجع التالية:

* البيان في أقسام القرآن: ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، لبنان، 1402هـ-1982م.

* إمعان في أقسام القرآن: عبد الحميد الفراهي، المطبعة السلطانية، 1349هـ-.

* آيات القسم في القرآن: أحمد كمال المهدي، جامعة الأزهر، 1968م.

2- ينظر مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص 286-287، ط 12، مطبعة المدني، 1423هـ-2002م.

3- سورة الحاقة: الآيتان 38-39.

لقد جميع القرآن في آياته الكريمة كل الكلمات المعروفة لأسلوب القسم عند العرب كاليمين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾⁽¹⁾.

والآية في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى﴾⁽²⁾.

والقسم في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾⁽³⁾.

والحلف في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾⁽⁴⁾.

ولعمرك في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾⁽⁵⁾.

وتأ الله في آيات أربع منها: قوله تعالى: ﴿وَتَأَلَّهُ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾⁽⁶⁾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأَلَّهُ لَقَدْ أَتَرَكْ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾⁽⁷⁾.

فهو إلى هذا الشمول لأسلوب القسم تميز بكثرة تنوع الأغراض وتعدد الأركان وأنواعها كل ذلك لحكمة خاصة، في كل آية من الآيات كالقسم بالغيبيات وغيرها مما هي جديرة بالتقعيد لها أسلوبيا لإثراء الأسلوبية وأغراضها في العربية؛ ذلك لأنه تنوع في الآيات تنوعا قل نظيره فقد جاء متحقق الأركان كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ كما جاء ظاهرا بالتصريح فيه بالقسم والمقسم به كما في قوله تعالى ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّكَ أَجْمَعِينَ﴾⁽⁸⁾.

وجاء مضمرا لم يصرح فيه بالقسم والمقسم به بل بقرينة دالة على جواب القسم وهي (اللام) المؤكدة كقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوْنَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾⁽⁹⁾.

كما أقسم الله في آياته الكريمة ببعض مخلوقاته وذلك للتفكير في آياته الكونية والاستدلال بها على خالقها ولكن هذا النوع من القسم خاص بالله فقط. أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: إن الله يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله⁽¹⁰⁾.

1- سورة النحل: الآية 91.

2- سورة السور: الآية 22.

3- سورة الأنعام: الآية 109.

4- سورة التوبة: الآية 74.

5- سورة الحجر: الآية 72.

6- سورة الأنبياء: الآية 57.

7- سورة يوسف: الآية 91.

8- سورة الحجر: الآية 92.

9- سورة آل عمران: الآية 186.

10- رواه الترمذي، ينظر الإتقان: السيوطي، ج 02، ص 134.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك"⁽¹⁾.

هذه الأنواع من أساليب الآيات في الأقسام محددة بمجالات استعمالها، مما لا نظير له في غيرها حذرة بالتقيد لها تدبيراً في آيات القرآن، وما تدل عليه من آيات الأكوان وذلك بالترابط بينهما من جهة الترابط بين المقول والمضمون.

أما الجمل الاستفهامية فقد وردت في ست آيات فواتح لست سور⁽²⁾ هي:

- 1- قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنثِيَ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مَنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾
- 2- قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾
- 3- قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَشِيَّةِ﴾
- 4- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾
- 5- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾
- 6- قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدِينِ﴾

لقد تعددت فيها أدوات الاستفهام من (هل، عم، وهمزة الاستفهام) وهذه الأخيرة قد جاءت مقرونة بأداة النفي (لم) كما أنها اختصت بالدخول على فعل (رأى)، وهذا الاستعمال يكاد يتميز به القرآن عن سائر كلام العرب كما تجدر الإشارة أن أدوات الاستفهام في هذه الآيات الفواتح قد اختصت بالدخول على الجمل الفعلية دون الإسمية علماً أنها من الأدوات المشتركة بينهما؛ وذلك لم في الفعل من تجدد يتطلب الملاحظة الدقيقة لرصد كل تغير ومعرفة كل حادث تذكيراً بقدرة القادر على إحداث هذه التغيرات، وتلك الأحداث وأنها ليست بفعل الأشياء نفسها، وإنما بفعل خالق الأشياء نفسها لأنه تعالى قد أمرنا بتوحيده والاستعانة به واتباع سبيله ومخالفة كل السبل الأخرى؛ وذلك بتوجيه منه لنا عن طريق النقل (الوحي) وقد جاءت هذه المعاني في الآيات الفواتح لست سور هي⁽³⁾:

1- الإتيان في علوم القرآن: السيوطي، ج02، ص134.

2- السور هي: الإنسان، النبأ، الغاشية، الشرح، الفيل، الماعون.

3- السور هي: الجن، العلق، الكافرون، الصمد، الفلق، الفيل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾

قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾

استفتحت هذه السور بالأمر وجاءت جملها فعلية طلبية تحث على توحيدهِ وتعريفه لمن يسأل عنه

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والإكسال عليه والإلتحاء إليه إذا حرز بالأمر ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

وقد عرف لنا نفسه عن طريق الوحي بكل ما لا يقع تحت حواسنا ﴿قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ﴾؛ لذلك دعانا إلى تعلم الموحى إلى النبي الرسول دعوة عامة من خلال الخاص في شخص النبي الرسول ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وانقطاع للعلم والتعلم والدعوة إلى الاستقامة ولا تقايض في ذلك أحدا ولا تبتغي عما أوحينا إليك بديلا ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ذلك؛ لأن كل نتيجة مشروطة بمقدماها فإذا حدث أمر ما فعليك أن تنتظر نتيجة محددة بحسب طبيعة، وصفة الحدث.

وقد ورد سبع آيات فواتح لسبع سور⁽¹⁾ مسبوقة بظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى

الشرط (إذا) وقد تقاسمت هذه الآيات جملة المبتدأ والخبر في ثلاث آيات هي:

قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾

وهي كما يلاحظ من الجمل المركبة نظرا لكون إخبارها جملا فعلية وجملة الفاعل والفاعل

في الأربع آيات الباقية من السور المذكورة.

وتجدر الإشارة إلى أنه لم يخرج عن الأصناف السابقة للآيات الفواتح التي أتينا على ذكرها بعد

تصنيفها بحسب معانيها وتحدثنا عن تحليلها من حيث مبايها وما ترتبط به من دلالات أن الجملة الفعلية

فيها قد أخذت النصيب الأوفر وأن للعلاقات بينها والجملة الإسمية كانت علاقات تكامل على مستوى

1- السور هي: الواقعة، المنافقون، التكوير، الانفطار، الانشقاق، الزلزلة، الفتح.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

المعنى الذي جاءت به الآيات فقد تظافرتا على تأديته وتقريره، وإن تفرقتا على مستوى بنيتهما النحوية الساكنة.

وأهما وإن كانتا أحيانا كل واحدة منهما آية منفصلة بذاتها مكتملة بنيتها النحوية الساكنة إلا أن معناها غير مكتمل يتطلب بل يستوجب الآية التالية لا كتماله مثل:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ﴾

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾

وهذه الخاصية تعود إلى ظاهرة الترابط وصفة المناسبة خصوصا في الآيات الطويلة التي تتكون من مجموعة من الجمل تكون فيما بينها نصا مكتملا مستوفي للغرض أو الموضوع الذي جاءت الآية من أجله دون حاجة إلى ما يتممها وذلك كثير في القرآن الكريم.

الآية النص:

وهي الآية التي تطلق على النص الكامل المستوفي للموضوع والغرض الذي تحدثت عنه وبعبارة أخرى الآية النص هي المركبات لفظا ومعنى، ويوجد كثير منها في القرآن الكريم نوضح ذلك من خلال مثالين هما:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾⁽¹⁾.

فقد جاءت هذه الآية مستوفية للغرض الذي جاءت من أجله؛ وذلك بوصف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الذين آمنوا به ولازموه (معه) وصفهم من حيث سلوكهم مع أعدائهم من الكفار، وسلوكهم فيما بينهم وسلوكهم مع ربهم ورجبتهم في فضله ورضوانه بركوعهم وسجودهم طاعة له وورغبة في ثوابه فعلامات طاعته وامتثال أوامره بالسجود والركوع أصبحت سمة ظاهرة في وجوههم وصفة لصيقة بهم، وهذه هي صفتهم قبل أن يخلقوا.

فقد وردت في الكتب السماوية السابقة كالطوراة والإنجيل فهم كزرع مثمر ناضج مكتمل مستو على سوقه وذلك تشبيها بالثمرة.

1- سورة الفتح: الآية 29، بنظر الكشاف: الرمخشي، ج 04، ص 337.

أعمالهم الصالحات مما يغيظ الكفار، فهذه هي صفاتهم وأعمالهم في الدنيا وما ينتظرهم عند الله خير وأبقى وأجزل عطاء وأحسن ثواب فقد وعدهم الله ووعدته الحق لكل من عمل الصالحات عن إيمان بالرسول والرسالة واتباع له وعملا بها أن له مغفرة من الله وثوابا عظيما عن كل أعماله.

لهذا فقد جاءت هذه الآية مبتدئة بجملة إسمية ذات أخبار متعددة من دون عطف، فكأنها معا حالة دون تعقيب أو ترتيب أو تراخ؛ وذلك لثبوتها، وقد تخللتها جمل فعلية متجددة لتحدد الأفعال الصالحة منهم، وتحدد الحسرة والغيظ لأعدائهم ومخومة بوعد صادق من الله لكل من آمن وعمل صالحا وكان من أتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- بالمغفرة والأجر العظيم⁽¹⁾.

ومن كل ما تقدم نجد أن البنية الإخبارية التي أشرنا إلى بعض معانيها هي التي استوجبت نمط البنية النحوية الساكنة فكانت مفتوحة بالجملة الإسمية للدلالة على الثبوت، والتحقق لتلك الصفات لهذه الفئة من الرعييل الأول في موكب الإيمان، وثبت بالجملة الفعلية للدلالة على التجدد وعلى أن ركيب الإيمان سائر لا يتوقف، وأن المؤمنين موعودون بحسن الجزاء والختام.

وفي هذه الآية النص أكثر من معجزة فقد أحصينا حروفها بعد حذف مكررها فوجدناها قد جمعت كل الحروف الهجائية في اللسان العربي التسعة والعشرين، كذلك فقد لاحظنا من هذه النتيجة الإحصائية أن ترتيبها في سورتها هو التاسع والعشرون ولا يتعد أن يكون لعلاقة عددها بعدد الحروف التي احتوتها علاقة بفواتح السور المقطعة التسع والعشرين والله أعلم.

2- أما المثال الثاني ففي قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَحَدٍ مِّنْكُمْ فَأَكْتَبُوهُ وَأَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَسَأَبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْسِرْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسَاءَلُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَحَدِهِمْ ذَلِكُمْ أَوْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفَعَّلُوا فإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾⁽²⁾.

1 إرشاد العقل السليم لمزايا الكتاب الكريم: تفسر أبي السعود، ج06، ص 107-109.

2 سورة البقرة: الآية 282، وينظر الكشاف: الزمخشري، ج01، ص 319-320، بنظر تفسر أبي السعود، ج01، ص 319-323.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

إن هذه الآية النص لتدلنا على مدى ما بلغ من حرص القرآن بشؤون المؤمنين والتقنين لمعاملاتهم فيما بينهم خاصة ما يتعلق منها بأموال المال والاقتصاد حفظاً للحقوق المالية، وتقرير أحكام الدين والقرض وأحكام التجارة والرهن، وهي طرق مشروعة شريفة لتنمية المال وزيادته بما فيها من صلاح الفرد والمجتمع؛ لذلك فقد اعتنى الباري سبحانه بموضوع الدين والبيع والرهن وأموال التجارة، وأمر بالإشهاد عند عقد البيع أو عند دفع الدين إلى المستدين كما يأمر بكتابة المعاملات المؤجلة إلى زمن ليكون ذلك أحفظ وأوثق لمقدارها وميقاتها كل ذلك من أجل ضمان حقوق الناس حتى لا يقع ظلم.

أو حيف على أحد وما الأمر بالكتابة والإشهاد ووجوبهما إلا ليكون ذلك أحفظ لمقداره واضبط لميقاته وأضمن لعدم الجحود والإنكار وهي مع طولها موازنة ببقية الآيات باعتبارها أطول آية في القرآن على الإطلاق إلا أنها مختصرة جدا إذا ما قورنت بالقوانين الوضعية، التي جاءت بمواد كثيرة لتقنين هذه الناحية ولا غرابة فإن من خلق الوجود وأحكم نظامه محكمة آياته القرآنية وآياته الكونية في نظام عجيب وإحكام دقيق يند عن المثل أو الشبيه والنظير.

لقد جاءت هذه الآية في أكثر من إثني عشرين جملة وقد ورد بها أيضا أكثر من إثني عشرين فعلا كان لفعل الكتاب النصيب الأوفر من بين بقية الأفعال، وكان لصيغة الأمر في استعمالات الأفعال الصيغة البارزة، وقد استعملت بشكل عجيب صيغ المشتقات: (أكتب، فاكتبوه، وليكتب، كاتب يكتب، فليكتب، تكتبوه، تكتبوها).

وهذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه عند حديثنا عن أسلوب النداء حيث رأينا أنه دائما يكون مقرونا بالطلب سواء أكان أمرا أو نهيًا.

إن هذه الآية النص قد تالت فيها الجمل الفعلية الإنشائية على مستوى البنية النحوية؛ وذلك توجيهها من الله وتأكيدا على تعدد هذه المعاملات فجاءت هذه الجمل الفعلية لما في دلالة الفعل من تجدد وقد حتمت هذه الآية النص بجملة إسمية ثبوتية التأكيد، للدلول الجمل الفعلية السابقة فهي كحتم تأكيدي، على وجوب إتباع تلك الأوامر من قبل المخاطبين بها (المؤمنون) والتأكد من حسن خاتمة المؤمنین بذلك نظرا لأنها صادرة عن من يعلم السر وأخفى العليم بكل شيء الذي وسع كل شيء عنما.

والخلاصة التي يمكننا استنتاجها من كل ما سبق هي:

- أن مصطلح الآية هو أنه مصطلح شامل في دلالاته على كل مقدار من القرآن مركب تركيبيا ظاهرا لفظا ومعنى أو مركب تقديرا وإلحاقا.

أ- أقله حرفان كآيات الحروف المقطعة وهي المعنية بالإلحاق.

الفصل الثاني الأنواع التركيبية للآية القرآنية

ب- أو كلمة دالة على جزء من جملة وهي المركبة تركيبيا مقدرا ككلمة (مدهامتان) وتسمى بالآية الكلمة.

ج- كما تطلق على مختلف أصناف الجمل الإسمية كانت أو فعلية مهما كان أسلوبها وغرضها خبرية أو إنشائية وتسمى بالآية الجملة .

د- ويطلق أحيانا على النص الكامل المستوفي للموضوع، أو الغرض الذي تحدثت عنها الآية في آبي (محمد) و (المدائنة) وتسمى بالآية النص وهي المركبات لفظا ومعنى.

والحقيقة أن الآية القرآنية مهما كان صنفها فقد تحيرت حروفها وكلماتها وألفاظها بدقة بحيث تتسم جميعا بالخفة على السمع والسهولة في النطق والعذوبة على الاسلات والدلالة على المعاني فقد امتازت الآيات في رصف حروفها وترتيبها بالدقة المتناهية ما لا نلاحظه في غيرها من تجانس على وجه دقيق وطريقة محكمة.

أما ألفاظ الآيات وكلماتها فبينها من التأخي والتناسق كما جعلها رائعة التجانس سريعة التجاذب، لبعضها بعضا في بناء الجملة، وكذلك فإننا لنلاحظ بين جمل الآية النص من الترابط ما جعلها وحدة متأخية الأجزاء متعانقة المعاني في بناء محكم نسقت لبناته ونظمت أدق تنظيم.

فلها من وسائل الترتيب ووجوه التنظيم والترتيب لحروفها، وتأليف كلماتها وتنسيق كل جملة مع ما يحاورها بحيث لا ترى كلمة تنبو عن مكانها، أو تضيق بموضعها بل نرى اتساقا وائتلافا يستحيل معه الاستغناء عن حرف واحد فيها أو زيادة حرف عليها من دون أن يتخلل ائتلاف السياق ونظم التركيب وقد تظافر على هذا الإحكام حسن المعاني وتأخيها وترابطها بحسن المباني من الآية الحرفين إلى الآية النص فقد مثلت الفاعلية الحقيقية للغة وأحسن توظيفها في مختلف مستوياتها بمختلف أصناف الآيات.

فكانت الآية تجسيدا لكل فعاليات اللغة ابتداء من مستوى الصوت في الحروف المقطعة وانتهاء بالدلالة النصية في الآيات الجمل أو آية النص مرورا بالمستويين مما رأيناه من آيات الحروف المقطعة وشموها في الدلالة على أصول الصيغ المحتملة الممكنة المتصورة، منها والمستعملة في العربية والنحوي، كما عرضنا من الآيات الجملة بنمطيتها (الإسمية، الفعلية) وهكذا تشكل في مجموعها المفهوم اللغوي إذا ندعوا إلى عرض القواعد اللغوية على الآيات القرآنية⁽¹⁾.

1- قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم: سناء حميد البياتي، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، 2003.

آية التحدي والإعجاز (السورة القرآنية)

لقد اهتم أصحاب الدراسات القرآنية بدراسة السورة باعتبارها المصطلح التوقيفي الذي يمثل أساس التحدي والإعجاز القرآني وقبل أن نتبع ظاهرة التحدي بالسورة القرآنية نحاول أن نقدم مفهوم السورة.

السورة في اللغة والإصطلاح:

لقد تباينت آراء أصحاب المعاجم العربية في تحديد مفهوم السورة من حيث أصل اشتقاقها ومعناها. يرى ابن فارس "أنها من مادة (سور) بقوله السين والواو والراء أصل واحد يدل على علو وارتفاع، وإلى أن السور جمع سورة وهي كل منزلة من البناء"⁽¹⁾.

أما صاحب اللسان فيرى أن "السورة المنزلة، وسورة القرآن سميت بذلك لأنها منزلة مقطوعة عن الأخرى، والجمع سور بفتح الواو، ويروى عن ابن سيده قوله "سميت السورة من القرآن لأنها درجة إلى غيرها، ومن همزها جعلها بقية من القرآن وقطعة منه، وأكثر القراء على ترك الهمزة فيها، ويعلس صاحب التهذيب أن ترك الهمز جاء لكثرة في الكلام.

أما أبو عبيدة، فإنه زعم أنها مشتقة من سورة البناء فكل منزلة رقيقة سورة أما سورة القرآن فإن الله جل ثناؤه جعلها سورا مثل (غرفة غرف) ولم يجعلها من سور البناء؛ لأنها لو كانت من سور البناء لجمعت على سور بضم السين وسكون الواو، لا سور بضم ففتح والقراء مجتمعون على (سور) بضم ففتح، وكذلك على (سور) في قوله تعالى: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُوْرًا لَّهُ بِأَبٍ﴾⁽²⁾.

ولم يقرأ أحد بضم ففتح تدل على تميز سورة القرآن الكريم عندنا عن سورة من سورة البناء قال أبو الهيثم والسورة من سور القرآن عندنا قطعة من القرآن سبق وحداتها جمعها كما أن الغرفة سابقة للغرف، وأنزل الله عز وجل القرآن على نبيه شيئا بعد شيء وجعله مفصلا، وبين كل سورة بخاتمها وبادئتها وميزها من التي تليها"⁽³⁾. أما صاحب التاج فيضيف معنيين لكلمة (السور) استخلصها

من الأحاديث الشريفة هما (الضيافة) من قول الرسول لأصحابه: "قوموا فقد صنع جابر سورا".

ومعنى (العلو) من قوله: "لا يضر المرأة أن تنقض شعرها إذا أصاب الماء سور رأسها"⁽⁴⁾.

1- المقاييس : أحمد بن فارس، ج 03، ص 115.

2- سورة الحديد : الآية 13 . ينظر مجاز القرآن: أبو عبيدة، ج 1، ص 20-30 تحقيق محمد فؤاد ط 2 بيروت، 1981م.

3- لسان العرب: ابن منظور، ج 18-19، ص 384-385-386.

4- تاج العروس: مرتضى الزبيدي، ج 03، ص 384.

أما الجوهري في الصحاح فيرى أنها مأخوذة من السور حائط المدينة وهو كل منزلة من البناء ومنه سورة البناء؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى، وأن معانيها الشرف والرفعة⁽¹⁾.

أما الراغب الأصفهاني فيرى أن السورة تعني المنزلة الرفيعة وسورة القرآن عنده مشتقة من سور المدينة حائطها المشتمل عليها وسورة القرآن تشبيها بها لكونها محاطة بها إحاطة السور بالمدينة ويحتاج لمن قال بأنها (سورة) بالهمز لكونها قطعة مفردة من جملة القرآن⁽²⁾.

لذلك فهو لا يقطع بأصل دون أصل من حيث التخفيف أو الهمز في (سورة).

وقال الفيروز آبادي: وأما سورة بالهمز وبتركة -فبغير الهمز من سورة الأسد، وسورة الشراب بمعنى القوة، لأن قوة السورة أكثر من قوة الآية، أو من السور بمعنى الجماعة، يقال لفلان سور من الإبل أي جماعة؛ لأن السورة مشتملة على جماعة الآيات، أو من السور المحيطة بالأبنية لأن السورة محيطة بالآيات والكلمات، والحروف مشتملة على المعاني: من الأمر والنهي، والأحكام.

وإذا قلت بالهمز فيكون من سور الكأس -وهو ما يبقى فيه من الشراب- لأن كل سورة من القرآن بقية منه، ويقال: إن السور (بلا همز) بمعنى الرفعة والمنزلة وسور القرآن هكذا، متفاوتة: بعضها فوق بعض من جهة الطول، والقصر وفي الفضل، والشرف، والرتبة⁽³⁾.

وأما تعريف السورة اصطلاحاً فقد تعددت فيها التحديدات بحسب وجهات نظر أصحابها:

حيث يرى الزمخشري أن "السورة طائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات وواوها إن كانت أصلاً فإما أن تسمى بسورة المدينة وهي حائطها؛ لأنها طائفة من القرآن محدودة محوزة على حياها كالبلد المسور، أو لأنها محتوية على فنون من العلم وأجناس من الفوائد، كاحتواء سورة المدينة على ما فيها، وإما أن تسمى بالسورة التي هي الرتبة. قال النابغة:

ولرهب حراب وقد سورة ***** في المجد ليس غرابها بمطار

لأحد معنيين؛ لأن السور بمنزلة المنازل والمراتب يترقى فيها القارئ:

وهي أيضاً في أنفسها مترتبة: طوال وأوساط وقصار، أو لرفعة شأنها وجلالة محلها في الدين وإن جعلت واوها منقلبة عن همزة؛ فلأنها قطعة وطائفة من القرآن كالسورة التي هي البقية من الشيء والفضلة منه⁽⁴⁾.

1- الصحاح: الجوهري، ج02، ص 690.

2- المفردات: الراغب الأصفهاني، ص 237-238.

3- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروز آبادي، ج01، ص 84، المكتبة العلمية، لبنان.

4- الكشاف: الزمخشري، ج01، ص 103.

وقال القتيبي: السورة همز ولا همز، فمن همزها جعلها من "أسارت" أي أفضلت من السور، وهو ما بقي من الشراب في الإناء كأنها قطعة من القرآن، ومن لم يهمزها جعلها من المعنى المتقدم وسهل همزها. ومنهم من شبهها بسور البناء، أي القطعة منه، أي منزلة بعد منزلة وقيل: من سور المدينة لاحظتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور ومنه السوار لاحظته بالساعد؛ وعلى هذا فالواو أصلية⁽¹⁾.

وقيل لارتفاعها؛ لأنها كلام الله والسورة المنزلة الرفيعة. قال النابغة:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ***** ترى كل ملك حولها يتذبذب

وقيل لتركيب بعضها على بعض من التسور. بمعنى التصاعد والتركيب ومنه "إذ تسوروا المحراب"⁽²⁾ وقال الجعبري حد السورة قرآن يشتمل على أي ذي فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات.

وقال غيره السورة الطائفة المترجمة توقيفا أي المسماة باسم خاص بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم⁽³⁾.

ويمكننا تصنيف الأقوال السابقة من حيث الأصل الاشتقاقي في قسمين:

- 1- قسم يرى أصحابه بأنها مشتقة من (سور) أي أن الواو أصل فيها تشبيها بسور البناء أو بسورة المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور.
- 2- قسم يرى أصحابه أن واو "سورة" انقلبت همزة فهي مشتقة من "سورة" فيكون معناها القطعة والطائفة من القرآن كالسورة التي هي البقية من الشيء والفضلة منه وعلى هذا الأساس يكون مهموزا وإنما خفت الهمزة فأبدلت واوا لانضمام ما قبلها.

ونستخلص معنى السورة من الأقوال السابقة أنها منزلة رفيعة شريفة من منازل القرآن التي تسدل كلها على علو وارتفاع، وأنها درجة في سلم الدارجات القرآنية التي نزلت على النبي الرسول صلى الله عليه وسلم - شيئا بعد شيء، وأنها قطعة من القرآن وجزء منه تحيط بآياتها التي تحتويها إحاطة السور بالبناء، لها بداية ونهاية تدل على تمامها وكمالها، وأنها ضيافة ربانية ومأدبة قرآنية.

إن اختلاف اللغويين حول الأصل الاشتقاقي لكلمة "سورة" من "سورة" المهموز أو من "سور" المنخفض باعتبار الواو أصلا من جهة واختلافهم نتيجة لذلك في معناها وتعريفها هو كذلك اختلاف تنوع وتكامل لا خلافات تضاد وتنافر في بيان لفظ السورة من حيث الأصل والمعنى.

1- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 332.

2- المصدر نفسه: ج 01، ص 333

3- الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، ج 01، ص 52.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية
والذي نذهب إليه هو أن السورة القرآنية مصطلح قرآني توقيفي حده؛ أنه أصغر جزء من القرآن متحدي به أقصره ثلاث آيات له بداية ونهاية معلومة محددة توقيفاً وأطولها ست وثمانون آية ومائتا آية من ضمن آيات القرآن البالغ عددها ست وثلاثين آية ومائتين وستة آلاف آية (6236) حسب الأوثق والأشيع المقسمة توقيفاً على سور تبلغ عددها أربع عشرة (14) سورة ومائة سورة مبتدئة بسورة الفاتحة ومختومة بسورة الناس حسب ترتيبها في المصحف الذي هو ترتيب توقيفي أيضاً على أرحح الآراء.
لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون أغلب السور قد جمعت بين آيات مختلفة السزول زماناً ومكاناً، ولكن لأمر ما وسر دقيق جمعت في سورة واحدة تهدف إلى غرض واحد له في الغالب مقدمات ونتائج⁽¹⁾.

وهذا موضوع دقيق المأخذ صعب المسلك ، لا يناله إلا من أشرب قلبه حب القرآن ونأى بنفسه عن كل ما يخالفه وإذا كان الأمر كذلك فما آية التحدي والإعجاز؟

لقد ورد التحدي بالقرآن الكريم في خمس آيات من خمس سور هي على ترتيب السور⁽²⁾:

- 1- قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾⁽³⁾
- 2- قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾⁽⁴⁾
- 3- قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾⁽⁵⁾
- 4- قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾⁽⁶⁾
- 5- قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾⁽⁷⁾

والتحدي في هذه الآيات كما نرى جاء مرة بالإتيان بمثل القرآن كله ومرة بعشر سور ومرة بسورة ومرة بحديث مثله، فهل جاء التحدي بالقرآن متدرجاً من الأكثر إلى الأقل أم لا؟

1- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد محمود حجازي، ص 37، ط 02، دار التفسير الزقارقي، 1424 هـ - 2004.

2- أما على ترتيب النزول فأولها آية الإسراء وثانيها آية يونس، وثالثها آية هود، ورابعها آية الطور، (وكلها مكي) ثم نزل حامسها آية البقرة في المدينة، بنظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 249، وينظر الإتيان للسيوطي، ج 01، ص 25، ويرى الزمخشري والبيضاوي والرازي، وأبو حيان وابن كثير وابن عاشور، والرافعي وغيرهم أن آية هود نزلت قبل آية يونس.

3- سورة البقرة: الآية 23.

4- سورة يونس: الآية 38.

5- سورة هود: الآية 13.

6- سورة الإسراء: الآية 88.

7- سورة الطور: الآيات 33-34.

لقد وقع التحدي بالقرآن على ثلاث مراحل، وبطريقة التدرج في هذا التحدي، يتحدى العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بمثل سورة من سوره يعارضونه بها وقد جاء بلغتهم، ونزل بأساليبهم -هم فرسان البلاغة وأرباب البيان- فإن عجزوا عن ذلك، ولم يقدرُوا عليه، فليعلموا أن هذا القرآن ليس من صنع البشر إذا لم يستطع البشر أن يعارضوه أو يأتوا بسورة تضاهي أقصر سورة من سوره وإنما هو كلام الله المعجز الدال على صدق نبينا عليه الصلاة والسلام- في دعواه النبوة والرسالة.

المرحلة الأولى: لقد بدأ التحدي بمكة في سورة الإسراء وكان التحدي بكل ما نزل من القرآن فقال تعالى: ﴿ قُلْ لئنِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ إلا أننا وجدنا العرب أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان يعجزون جميعاً عن الإتيان بمثل هذا القرآن، الذي تتلى آية التحدي والإعجاز فيه صباح مساء على رؤوس الأشهاد وكأنها تثير فيهم الحمية لمجاهة هذا التحدي إلا أنهم رغم هذا ورغم كل ما يبذلونه من محاولة للقضاء على القرآن ودعوته لم يجدوا إلى تحدي القرآن أي سبيل، ولو وجدوا لفعلوا .. إلا أنه العجز البشري، أمام القدرة الإلهية التي لا تتحدى⁽¹⁾.

- **المرحلة الثانية:** وهنا بدأت المرحلة الثانية وهي التحدي بعشر سور من سور القرآن فإذا عجزتم أيها العرب عن الإتيان بمثل القرآن فأتوا بعشر سور من مثله إن كنتم على ذلك قادرين وفي دعواكم صادقين فقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَدْعَيْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ إلا أنهم رغم هذا التحدي الصريح، الذي فضح دعواهم في أن هذا القرآن إنما هو شيء مفترى وأنه أحاديث الأولين اكتبها محمد صلى الله عليه وسلم رغم هذه الدعوى وهذا التحدي لم يجد واحدا منهم يستطيع معارضة القرآن بعشر سور تضاهيه أو تقاربه⁽²⁾ وهنا بدأت المرحلة الأخيرة من التحدي وهي المرحلة الثالثة.

- **المرحلة الثالثة:** وهي المرحلة التي حطمت غرور المشركين، وفضحت دعواهم وأبانت عجزهم، ألا وهي التحدي بسورة واحدة من أقصر سور القرآن الكريم، وهي قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكِتَابَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ، إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْآبَتَرُ ﴾⁽³⁾.

1- الكشاف: الزمخشري، ج 02، ص 664-665، وينظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج 03، ص 1745، وينظر الرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 02، ص 101-102، وينظر الإتيان في علوم القرآن: السيوطي، ج 02، ص 116-117، وينظر تفسير أبي السعود ج 04، ص 156، وينظر المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 33، ط 01، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1409هـ-1989م.

2- المصدر نفسه: ج 02، ص 368، وينظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج 02، ص 1459، وينظر تفسير أبي السعود، ج 03، ص 292-293، وينظر المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 34، وينظر مناهل العرفان: عبد العظيم الزرقاني، ج 02، ص 261.

3- سورة الكوثر: الآيات 01-02-03.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية
فقال تعالى في سورة يونس ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، إلا أن واحدا منهم لم يستطع أيضا أن يأتي بهذه السورة، بل بدأ الجميع يتساقطون الواحد تلو الآخر، ويعلنون -رغم كفرهم وعنادهم- أن هذا الكلام ليس من صنع البشر، وأنه لا سبيل إلى التحدي والمجاهدة.

ولقد أيأسهم الله تعالى من هذه الأحلام اليائسة في المعارضة، في سورة البقرة إذ قال جل وعلا: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ اللَّهِ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ وذلك أن النفي بـ "لن" يفيد التأييد على ما ذهب إليه الإمام الزمخشري⁽¹⁾
ومن هذا المنطلق فإن للعلماء في مراحل التحدي بالقرآن الكريم أقوال:

- **القول الأول:** وهو قول جمهور علماء التفسير والبلاغة أن التحدي كان متدرجا بالقرآن كله كما في سورة الإسراء والطور ثم تحداهم بعشر سور في سورة هود ثم تحداهم بسورة في سورة يونس، ثم بسورة من مثله في سورة البقرة ولكن هذا القول لا يساعد عليه ترتيب نزول القرآن الكريم⁽²⁾.

- **القول الثاني:** رتب آيات التحدي حسب ترتيب النزول وأنه متدرجا أيضا إلا أن التحدي بسورة وقع قبل التحدي بعشر سور، ثم ذهب أصحاب هذا القول يعللون ذلك بتعليلات ليس فيها ما يقنع⁽³⁾.

- **القول الثالث:** وهو ما نرى صوابه أن القولين السابقين قاما على تصور أن الإتيان بمثل القرآن أصعب من الإتيان بمثل عشر سور، وأن الإتيان بالعشر أصعب من الإتيان بسورة وهذا غير صحيح؛ لأن القرآن كله قليله وكثيره على حد سواء في الإعجاز فليس الإتيان بسورة أسهل من الإتيان بالقرآن كله فالتحدي في القرآن بالكيف لا بالكم وبالنوع لا بالمقدار فلا بهم إذا أن يكون التحدي بسورة جاء قبل التحدي بعشر سور أو قبل التحدي بالقرآن كله.

واستحالة المحييء بمثل سورة من القرآن كاستحالة المحييء بعشر سور، واستحالة المحييء بمثل القرآن كله على حد سواء فكل ذلك متعذر، ولذا فلا أثر للاختلاف في ترتيب آيات التحدي ما دام لا يترتب

1- الكشف: الزمخشري، ج 01، ص 106-107، ج 02، ص 335، وينظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج 01، ص 152-153، ج 02، ص 1431-1432، وينظر تفسير أبي السعود، ج 01، ص 86-88، ج 03، ص 240-241، وينظر إعجاز القرآن: للباقلاني، ص 261-262، وينظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 02، ص 118-119، وينظر المعجزة القرآنية: محمد حسن هبتو، ص 35.
2- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 02، ص 102، وينظر الإتيان في علوم القرآن: السيوطي، ج 01، ص 25، وينظر دراسات في علوم القرآن: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ص 270، ط 09، مكتبة التوبة، الرياض، 1421هـ-2000م.
3- المصدر نفسه: ج 02، ص 249.

عليه أثر في قوة التحدي والعجز كان عن الإتيان بجنس القرآن لا عن مقداره⁽¹⁾.

وبهذا الذي ذكرناه من أقوال العلماء في مراحل التحدي وعجز سائر البشر عن معارضة القرآن يتبين لنا أن آية التحدي والإعجاز قد سلمت عن المعارضة في كل المراحل لتثبت وبدلالة قاطعة أنها من عند الله وليست من قول البشر؛ لأنها ليست من قبيل ما يملكونه من الطاقات.

ومما يتصل بالحديث عن مراحل التحدي بالقرآن الحديث عن القدر المعجز⁽²⁾ من القرآن الكريم فقد وقع في هذا القدر خلاف أيضا على أقوال هي:

- القول الأول: أن الإعجاز متعلق بجميع القرآن لا ببعضه وهذا القول مردود بالآيات التي تتحدى بعشر سور وبسورة واحدة أو بحديث مثله.

- القول الثاني: أن الإعجاز متعلق بسورة تامة طويلة أو قصيرة، وهذا رأي الجمهور، وزاد بعضهم أنه يتعلق أيضا بقدر سورة تامة من الكلام بحيث يظهر به تفاضل قوى البلاغة وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر ثلاث آيات، فيكون مقدار هذه السورة من الآيات معجز⁽³⁾.

- القول الثالث: أن الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره لقوله تعالى: ﴿ قَلِيلًا تَوَّأ بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ والتحدي بجنس القرآن لا بالمقدار⁽⁴⁾.

أجل لقد حرصت الألسن أن تأتي من عندها بشيء من هذا القرآن العظيم، ولكن بدأت العقول تتدبر وتفكر عليها تدرك سرا من أسرار بلاغته أو تقف على دليل من دلائل الإعجاز فيه..

وإذا كان إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه فما هو هذا النظام أو التأليف الذي يخالف به غيره من

النصوص؟ هنا يفرق الباقلاوي بين النص القرآني والنصوص الأخرى من جانبين:

- الجانب الأول: هو الشكل الخارجي العام، البناء الكلي أو النوع الأدبي إذا صح لنا استخدام هذا المصطلح؛ ومن المؤكد أن القرآن ليس شعرا كما أنه لا يخضع لمعايير الشعر المعتادة في الكلام العادي، إذن فهو يخالف الكلام البشري في النظم والأسلوب (الشكل الأدبي) يقول الباقلاوي: "وذلك أن نظم القرآن على تصرف وحوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من

1- البرهان، في علوم القرآن: الزركشي، ج2، ص 116-117، وينظر إعجاز القرآن: الباقلاوي، ص 261-262، وينظر الإقناع، السبوطي، ج2، ص 123، وينظر دراسات في علوم القرآن: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ص 270.

2- إعجاز القرآن: الباقلاوي، ص 261-262.

3- المصدر نفسه: ص 262، وينظر الإقناع في علوم القرآن، السبوطي، ج2، ص 123، وينظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، ص 169، مكتبة رحاب، الجزائر.

4- مناهل العرفان: عبد العظيم الزرقاني، ج2، ص 161، وينظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص 193، وينظر دراسات في علوم القرآن الكريم: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ص 271.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية

ترتيب خطاهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ثم إلى معدل موزون غير المسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالاً فتطلب فيه الإصابة والإفادة، وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع وترتيب لطيف وإن لم يكن معتدلاً في وزنه، وذلك شبيهة بجملة الكلام الذي لا يتعمل ولا يتصنع له وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق... فهذا إذا تأمله المتأمل يتبين بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطاهم أنه خارج عن العادة وأنه معجز وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل في جميعه⁽¹⁾.

غير أن مخالفة القرآن ومغايرة شكله العام لكلام العرب ليست مقتضرة على ما سبق بل يضاف إليها بلوغه درجة قصوى من الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة وغيرها رغم طولها⁽²⁾ يقول الباقلاني: "ومها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر وإنما تنسب إلى حكيمهم كنمات معدودة وألفاظ قليلة وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف ويقع فيها ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوز والتعسف، وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به"⁽³⁾.

إن جانب الشكل العام أو البناء اللغوي الكلي الذي يوصف بما وصف، رغم ثبات صيغته اللفظية ومجيئه على قوانين اللسان العربي المبين يمثل آية في التحدي والإعجاز لأرباب اللسان نفسه، وفي إقامة الحجة عليهم تقوم الحجة على العالم ومن حلالهم. إن الإعجاز بالصيغة اللفظية الثابتة من خلال البنية اللغوية الكلية للقرآن موجه أساساً للعرب، ولكن هذه البنية اللغوية في صيغتها اللفظية الثابتة لا وجود لها أساساً من دون مضمون؛ لذلك فقد كان الإعجاز والتحدي غير قاصر عليها بل ظهر بشكل أوضح وعلى نطاق أوسع في المضمون الذي يمثل الجانب الثاني من جوانب الإعجاز والتحدي.

- الجانب الثاني: المضمون أو المحتوى، فالقرآن الكريم إضافة إلى تضمينه الإخبار بالغيوب شأن الكتب السماوية الأخرى، يتميز عنها بحركة المضمون ومسارته لكل ما يستجد من معارف وعلوم لصلاحتها

1- إعجاز القرآن: الباقلاني، ص 59-60.

2- بنظر مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، نصر حامد أبو زيد، ص 148-149.

3- إعجاز القرآن: الباقلاني، ص 60.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية
لكل زمان ومكان باعتباره آخر الكتب السماوية لعالمي الإنس والجن؛ لذلك تعديه لهما على أن يأتوا
بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وتلك حقيقة مسلمة أدركها الباقلائي، ولو كان قد حقق ما جاء فيها بكتابه -إعجاز القرآن-
لكان قد أدى لقضية الإعجاز ما لم يؤده أحد قبله فلننظر ماذا صنع: "إنه استفتح كلامه بأن علم ذلك
علم شريف المحل عظيم المكان قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل عصمة
تفطن لما فيه، وهو أدق من السحر وأهول من البحر، وأعجب من الشعر"⁽¹⁾.

هذا والباقلاني يسلك في إثبات إعجاز القرآن أحد طريقتين:

1- أن يختار من الآيات المتفرقة في السور شواهد على القضية.

2- أن يختار سوراً متكاملة.

وفي كلا الحالتين، فإنه يأخذ نفسه ببيان علو موقع ذلك وسمو بلاغته ونظمه وهو بذكره سوراً متكاملة،
يفتح باباً جديداً في تناول إعجاز القرآن الفني، وكنا نود لو أن الناس والنقاد اتبعوه فيها فظنوا في
القرآن سورة سورة، ولكن أكثرهم على النظر فيه آية آية، وحين يقارنون بينه وبين كلام العرب فإنهم
يقيمون الموازنة، ويديرونها على آية وحيلة من كلامهم أو على آية وبيت من الشعر⁽²⁾.

أما السور التي اختارها كاملة وأدار عليها حديث النظم فإنه اختار من ذلك سورة النمل، حيث
تناولها باعتبارها وحدة فنية متكاملة متماسكة وأخذ في تحليلها من ناحية النظم فتعرض لكل من ألفاظها
ومعانيها، ومدى تألفها في هذا النظم البديع، ومدى الصلة التي تربط بين الفاصلة القرآنية والنظم، كما
قام بإبراز المعاني المقصودة من وراء التصوير القرآني للتعرف على ما تتكشف عنه من مظاهر الجسالة
ودلائل الإعجاز.

تناول الباقلائي كل هذا وغيره عند ما لفت الأذهان إلى السورة كنموذج لما عليه بديع النظم في
سائر آيات الله فيقول: "تأمل السورة التي يذكر فيها النمل والنظر في كلمة كلمة، وفصل فصل، بدأ
بذكر السورة، إلى أن بين أن القرآن من عنده فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنَ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾⁽³⁾.. ثم
وصل بذلك قصة موسى -عليه السلام- وأنه رأى نارا، فقال لأهله امكنوا ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِ كُفْرًا
مِنْهَا بَخِيرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِسِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾⁽⁴⁾.

1- إعجاز القرآن: الباقلائي، ص 197.

2- الباقلائي وكتابه إعجاز القرآن: عبد الرؤوف مخلوف، ص 433، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1978.

3- سورة النمل: الآية 06.

4- سورة النمل: الآية 07.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية

وقال في سورة (طه) في هذه القصة ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾⁽¹⁾ وفي موضع ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبِيرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾⁽²⁾ فقد تصرف في وجوه وأتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم في جميع طرق ذلك ولهذا قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾⁽³⁾ ليكون أبلغ في تعجيزهم وأظهر للحجة عليهم.

ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽⁴⁾ فانظر إلى ما جرى له الكلام من علو أمر هذا النداء وعظم شأن هذا الشاء، وكيف انتظم مع الكلام الأول، وكيف اتصل بتلك المقدمة، وكيف وصل بها ما بعدها من الأخبار عن الربوبية، وما دل به عليها من قلب العصا حية وجعلها دليلاً يدل عليه ومعجزة تهديه إليه؟

وانظر إلى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة ثم ما شفع به هذه الآية وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء، ثم انظر في آية آية وكلمة كلمة، هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الوصف؟ فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية وفي الدلالة آية، فكيف إذ قارنتها أخواتها وضامتها ذواتها مما تجري في الحسن مجراها وتأخذ في معناها!... ويشير الباقلاني إلى حسن الخروج من موضع إلى آخر في آيات القرآن فيقول: ثم من قصة إلى قصة ومن باب إلى باب من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل وحتى يصور لك الفصل وصلاً بيديع التأليف وبلغ الترتيل⁽⁵⁾.

ويستطرد في تحليله للسورة قائلاً: "متى تمياً للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام بعد ذكر العنوان والتسمية: هذه الكلمة الشريفة العالية ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾⁽⁶⁾ والخلوص من ذلك إلى ما صارت إليه من التدبير - ويقصد بلقيس بعد أن وصلت إليها رسالة سليمان - عليه السلام - واشتغلت من المشورة، ومن تعظيمها أمر المستشار، ومنه تعظيمهم أمرها وطاعتها، بتلك

- 1- سورة طه: الآية 10.
- 2- سورة القصص: الآية 29.
- 3- سورة الطور: الآية 34.
- 4- سورة النمل: الآية 08.
- 5- إعجاز القرآن: الباقلاني، ص 202-203.
- 6- سورة النمل: الآية 31.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية
الألفاظ البديعة، والكلمات العجيبة البليغة.. ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها ﴿بِأَيِّهَا أَلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾⁽¹⁾.

وذكر قولهم: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾⁽²⁾ لا تجد في صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به وقوله: "والأمر إليك" تعلم براعته في نفسه وعجيب معناه، وموضع اتفاقه في هذا الكلام وتمكن الفاصلة وملاءمته لما قبله وذلك قوله "فانظري ماذا تأمرين" ثم إلى هذا الاختصار وإلى البيان مع الإيجاز فإن الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والإيجاز، وهذا مما يزيده الاختصار بسطا لتمكنه ووقوعه.

ثم فكر بعد ذلك في آية آية، أو كلمة كلمة، من قوله: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾⁽³⁾.. وهذه الكلمات الثلاث... كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره وكالياقوت يتلأأ بين شذوره، ثم تأمل تمكن الفاصلة، وهي الكلمة الثالثة وحسن موقعها وعجيب حكمها وبارع معناها"⁽⁴⁾.

إلى آخر ما جاء في شرحه وتحليله لآيات هذه السورة الكريمة، والتي يبدو من خلالها إعجابها البالغ ببدع النظم القرآني... حتى يقرر آخر الأمر أنه لن يأخذ في تحليله سبيل الاستطراد والتطويل منعا للإملال: "وإن شرحت لك ما في كل آية طال عليك الأمر، ولكني قد بينت بما فسرت وقررت، بما فصلت: الوجه الذي سلكت والنحو الذي قصدت، ثم فكر بعد ذلك في شيء أدلك عليه، وهو تعادل هذا النظم في الإعجاز في موقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة"⁽⁵⁾.

وعلى هذا النحو من التحليل يدعو الباقلاني إلى تناول سورة (غافر) ونلمس له فيها الروعة والبراعة وهو يحاول إبراز النواحي الجمالية فيها.. ومن خلال نقله من معنى إلى آخر مع بيان دقة الربط بين المعاني والألفاظ، فهو مثلا حين يعرض لفاتحة السورة ﴿حَمِّمْ، تَتْرَبِلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾⁽⁶⁾.

1- سورة النحل: الآية 32.

2- سورة النحل: الآية 33.

3- سورة النحل: الآية 34.

4- إعجاز القرآن: الباقلاني، ص 204-205.

5- المصدر نفسه: ص 205-206.

6- سورة غافر: الآيات 01-02-03.

ثم يتحدث عما فيها من شريف المعاني مع براعة الاستهلال.. يقول: "ثم اتل ما بعدها من الآي، واعرف وجه الخلوص من شيء إلى شيء، ومن احتجاج إلى وعيد، ومن إغذار إلى إنذار، ومن فنون من الأمر شتى تأتلف بشريف النظم، ومتباعدة تتقارب بعلي الضم... ثم جاء إلى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار" (1).

فيقول: "وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل موقع قوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ وهل تقع في الحسن موقع قوله ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ كلمة؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة؟ وهل يسد مسده في الأصالة نكته؟ لو وضع موضع ذلك: ليقتلوه أو ليرجموه، أو لينفوه أو يطردوه، أو ليهلكوه أو ليدلوه، ونحو هذا ما كان ذلك بديعا، ولا بارعا ولا عجيبا ولا بالغا... فانقد موضع هذه الكلمة، وتعلم بها ما تذهب إليه من تخير الكلام وانتقاء الألفاظ والاهتداء للمعاني ... " (2).

وهكذا خرج لنا الباقلائي يمثل هذا التحليل، وهو بذلك المنهج الذي سلكه بين أنه لا تكفي أبدا تلك النظرة الجزئية للنصر دون الوقوف على الاتجاه العام الذي ينتظمه.. فإذا ما بدا واضحا للعيان هدا الترابط بين الكل وأجزائه، سلم بعدئذ النظر وصح الحكم أمام كل ناقد بصير.

ومن ثم كان من أهم ما بلغت الأنظار في دراسة الباقلائي أنه خرج على هذا التقليد وكان حجة بطريقة علمية برزت في تناوله للصورة أو القصيدة بتمامها، أو بمعظمها وهو يتدرج في تحليلها ليظهر ما تنطوي عليه من خصائص في النظم، لا تقتصر على مجرد الروعة في الاستعارة أو البلاغة في تشبيه أو أي مظهر آخر للحمال في صور البيان، مما يرد في آية أو عبارة قصيرة، ولعله أراد بهذا أولا، وفيما يتصل بقضية الإعجاز بيان أن هذا الإعجاز منصب على القرآن في جملته، بمعنى أن السورة القرآنية لا الآية هي أصغر وحدة فنية عضوية في القرآن يمكن الحكم عليها بإعجاز النظم وروعة البيان؛ لأنها تكبر أن تتوافر لها حينئذ كل المعالم الدالة على هذا الإعجاز، وأبرز المظاهر هو ذلك الرباط القوي لمحكم بين الآيات وبعضها وروعة الانتقال فيما بينها على ما قد يكون بين بعضها والبعض من تباعد في المقاسم والأغراض حتى تظهر وكأنها خلق متكامل يمسك بعضه برقاب بعض (3).

وهكذا نجد الباقلائي في كتابه إعجاز القرآن قد أقام منهجه الذي عالج فيه البيان القرآني معارضا فيه طريقة أصحاب البديع - على أساس من الوحدة الفنية في السورة القرآنية مكتملة حتى

1 - سورة عاف: الأيتان 5-6.

2 - إعجاز القرآن: الباقلائي، ص 210.

3 - إعجاز القرآن: عبد الرؤوف مخلوف، ص 437.

يظهر مدى الروعة في هذا البيان القرآني في صورته التامة من ترابط الموضوع مع سلاسة التعبير وتناسق الأسلوب مع المضمون، حيث يقول: "فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ووصفه، فإن العقول تنبه في جهته وتُحار في بحره وتضل دون وصفه.. واعلم أن هذا علم شريف المحل عظيم المكان قليل الطلاب ضعيف الأصحاب ليست له عشيرة تحميه ولا أهل عصمة تظنن لما فيه"⁽¹⁾.

وهذا المنهج الفريد استرعى قلة من العلماء والمفسرين قديما وحديثا فانكبوا على دراسته وأفردوا له علما مستقلا يدرس خصائصه ويحدد معالنه وأطلقوا عليه اسم (علم المناسبة)⁽²⁾. وهي لون من ألوان إعجاز القرآن الكريم، الذي بلغ من ترابط سورته وأجزائه وتماسك كلماته وجمله وآياته مبلغا لا يدانيه فيه كلام آخر، الأمر الذي دفع فصحاء العرب حين سمعوا القرآن، وبعد أن تحداهم لمعارضته، إلى تأمل القرآن سورة سورة، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها بل وجدوا اتساقا يهر العقول ونظاما والتاما وإتقانا وإحكاما لم يدع في نفس أي بليغ منهم موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول، ومع أن القرآن الكريم لم ينزل دفعة واحدة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بل نزل نجوما وآحادا على حسب الوقائع والأحوال، في أكثر من عشرين سنة إلا أنه كان محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال. أخذ بعضه بأعناق بعض، في سورته وآياته، وجمله وعباراته.. فكيف اتسق للقرآن هذا التألف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ أليس هذا سرا من أسرار الإعجاز؟ يشهد بحق وصدق وبدل أبلغ دلالة على مصدر القرآن، وأنه كلام الله تعالى⁽³⁾.

لقد نهج القرآن الكريم منهجا فريدا في عرضه للقضايا والمسائل التي عرض لها خالف به سائر المناهج السابقة واللاحقة التي اصطلحت في مناهجها أن تبنى على مقدمات ومباحث متسلسلة، أو أبواب وفصول إلى غير ذلك من تقسيمات في إطار مقاصد محددة، ونتائج مرسومة.

فتراه يذكر طرفا من الشيء، ثم يتركه ثم يعود إلى إتمامه بطريقة لا تسأم النفوس هديته، ولا تستقل حديثه، مراعيًا في تسلسل نصوصه أن يقارب بين أفرادها، فتجد الآية متسقة في كلماتها، متأزرة مع أحوالها من الآي وتلتقي السورة بالتي بعدها والتي قبلها، برابط لا يجعل منها جنسا غريبا عنها، بل تبدو فيه كعقد نظمت حباته ورتبت إبداع ترتيب، فكان بذلك معجزا بنظمه، بديعا في اتساقه، متناسبا

1- إعجاز القرآن: الباقلاي، ص 197.

2- ينظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ح 01، ص 61-81، وينظر الإفتان في علوم القرآن، السيوطي، ح 02، ص 108-114.

3- ينظر المناسبات بين الآيات السورة: سامي عطا حسن، ص 13، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، مج 30، ع 01، ربيع الأول، 1424هـ-2003.

في آياته، وسوره وأجزائه. فما المناسبة؟ وما أنواعها؟ وما فوائدها؟ وما موقف العلماء منها؟ وما المصنفات التي تكلمت عنها؟ ومن اهتم بذكرها من المفسرين؟

المناسبة في اللغة والإصطلاح:

* المناسبة لغة: قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: "النون والسين والباء، كلمة واحدة قياسها اتصال شيء بشيء منه النسب، سمي لاتصاله، وللاتصال به تقول: نسبت أنسب وهو نسب فلان، والنسب الطريق المستقيم لاتصال بعضه من بعض"⁽¹⁾.

وجاء في لسان العرب وتقول: ليس بينهما مناسبة أي مشاكلة⁽²⁾، والمشاكلة بمعنى المماثلة، تقول هذا شكل هذا، أي مثله، فالمناسبة لغة تعني الاتصال والمقاربة والمماثلة.

والمناسبة في الإصطلاح: هي بيان وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة⁽³⁾، أو كما يقول البقاعي (ت 885 هـ): علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن⁽⁴⁾.

ويبدو توافق المعنى اللغوي للمعنى الإصطلاحي للمناسبة فكلاهما يعني أن الآية وجزأها شقيقتان، يربط بينهما رباط من نوع ما، كما يربط النسب بين المتناسبين، غير أن ذلك لا يعني أن تكون الآيات أو الآيات متماثلة كل التماثل، بل ربما يكون بينهما تضاد أو تباعد في المعنى، المهم أن هناك صلة أو رابطا ما يربط بين الآيتين، أو يقارب بينهما، سواء توصل العلماء لهذه الصلة أم لا فقد تظهر أحيانا، وتختفي أحيانا أخرى، وفي هذا مجال لتسابق الأفهام.

- فوائد معرفتها

إذا كان لمعرفة سبب النزول⁽⁵⁾ أثر في فهم المعنى وتفسير الآية، فمعرفة المناسبة بين الآيات تساعد كذلك على حسن التأويل ودقة الفهم، وإدراك اتساق المعاني بين الآيات وترابط أفكارها وتلاؤم ألفاظها فالقرآن الكريم فيه كثير من فنون العقائد، والأحكام والأخلاق والوعظ والقصص وغيرها ومن

1 - مقاييس اللغة: ابن فارس، ج-05، ص 423-442.

2- لسان العرب: ابن منظور، ج14، ص 119.

3 - مساحت في علوم القرآن: مناخ القطان، ص 92.

4- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: البقاعي، ج 01، ص 06، ط02، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

5- إن الفارق بين علم المناسبة وعلم أسباب النزول فارق بين درس علاقات النص في صورتها الأخيرة النهائية وبين درس أجزاء النص من حيث علاقتها بالظروف الخارجية، أو بالسياق الخارجي لتكون النص ونشكله أنه بعبارة أخرى فارق بين البحث عن جماليات النص وبين البحث عن دلالة النص على الوقائع الخارجية، من هنا نفهم إصرار القدماء على أن علم أسباب النزول علم (تاريخي) في حين أن علم المناسبة علم أسلوبى بمعنى أنه يهتم بأساليب الارتباط بين الآيات والسور، ينظر مفهوم النص: أبو زيد، ص 160.

مقاصد القرآن التي جعلها الله سبحانه وتعالى هداية للبشر، والتي تدور جميعها على الدعوة إلى الله، والقرآن يبث هذا المعنى من خلال المقاصد والأغراض الموزعة على كافة الآيات والسور، فلو جمع كل نوع على حدة لفقد القرآن بذلك أعظم مزايا هدايته المقصودة، قال محمد رشيد رضا: "وقد خطرت لي وجه وهو الذي يطرد في أسلوب القرآن الخاص، في مزج مقاصد القرآن بعضها ببعض من عقائد وحكم، ومواعظ وأحكام تعبدية ومدنية وغيرها، وهو نفي السامة عن القارئ والسامع من طول النوع الواحد منها، وتجديد نشاطها ومنهجها"⁽¹⁾.

فمن أساليب القرآن أن يجمع بين الفنون المختلفة في سورة واحدة، وفي تنسيق بديع يصل بها إلى الذروة في الإعجاز البلاغي، والإحكام البياني وروعة الأسلوب، قال تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾⁽²⁾.

وقال الزركشي: "واعلم أن المناسبة علم شريف، تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل، فيما يقول... ثم يقول: وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"⁽³⁾.

فقد نظر عبد القاهر الجرجاني إلى القرآن الكريم، نظرة كلية باعتباره نصا واحدا؛ وذلك بعرضه سؤالا مؤداه ما الذي أعجز العرب من النص القرآني؟

وأجاب بأنهم "تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة تنوبها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبهه أو أخرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا همر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والثامنا وإتقاننا وإحكاما..."⁽⁴⁾.

ويقول الزمخشري: "وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها مناد على نفسه بلسان طلق دلق أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف نفسه".

وقال في موضع آخر: "فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه ومكانه أضماده وورصافة تفسيره، وأحد بعضه بحجز بعض، كأنما أفرغ إفراغا واحدا ولأمر ما أعجز القوى وأخرس الشقاشق"⁽⁵⁾.

1- تفسير المنار: محمد رشيد رضا، ج02، ص 445.

2- سورة هود: الآية 01.

3- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج01، ص 61-62، وينظر الإتيان: السيوطي، ج02، ص 108.

4- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص 49-50.

5- الكشاف: الزمخشري، ج02، ص 511.

وقال فخر الدين الرازي في ختام تفسيره لسورة البقرة "ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كلما أنه معجز بحسب ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته ولعل الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك"⁽¹⁾.

- أنواع المناسبات:

1- المناسبة بين أجزاء الآية الواحدة:

إذا تدبرنا سورة من سور القرآن الكريم، أخذتنا روعة ألفاظها في سهولتها نظقا وقرب مأخذها معنى ومجئتها على قدر المعنى الذي صيغت له، والمتأمل لألفاظ القرآن الكريم، يجدها وضعت في موضعها من النظم الكريم، فهي مفردات مختارة منتقاة، واللفظ في موضعه متناسب من حيث اللفظ أو المعنى وجاء على قدر المعنى الذي صيغ له بحيث لو رفعت اللفظ من الآية أو استبدلت به غيره، لاختل نظامها وضاع المراد منها.

يقول ابن عطية: "وكتاب الله لو نزعنا منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد ونحن يتبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق، وجودة القريحة"⁽²⁾.

والتناسب بين أجزاء الآية يكون من حيث اللفظ أو المعنى:

أما من حيث اللفظ ونعني به مناسبة اللفظ لألفاظ الآية وذلك مثل قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾⁽³⁾.

فقد جاءت الألفاظ بحيث يلائم بعضها بعضا، وذلك بأنه أتى في الآية بألفاظ متناسبة في الغرابة، فالتاء أغرب ألفاظ القسم؛ وذلك لأنها أقل استعمالا من الواو والياء.

وأتى بـ (تفتؤ) وفتئ: أغرب صيغ الأفعال التي تفيد الاستمرار من أخوات (كان) وأتى بلفظ (حرضا) وهو أغرب ألفاظ الهلاك، فافتضى حسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها توخيا في حسن الجوار، ورعاية في ائتلاف المعنى بالألفاظ ولتتعادل الألفاظ في الوضع، وتناسب في النظم، وجاءت هذه الألفاظ غريبة لتتوافق مع حال يعقوب - عليه السلام - التي وصل إليها وإشفاق أبنائه على حاله، وخشيتهم عليه من الهلاك.

1- مفاتيح الغيب: الرازي، ج07، ص140.

2- الإتيان في علوم القرآن: السيوطي، ج02، ص119.

3- سورة يوسف: الآية 85.

وأما تناسب اللفظ من حيث المعنى: ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمَسَّكُمْ النَّارُ﴾⁽¹⁾ فإنه تعالى لما نهى عن الركوب إلى الظالمين وهو الميل إليهم، والاعتماد عليهم وكان ذلك دون مشاركتهم في الظلم، أخبر أن العقاب على ذلك دون العقاب على الظلم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾⁽²⁾ وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾⁽³⁾.

فقدم رزق الآباء في آية الأنعام على الأبناء، وفي آية الإسراء قدم رزق الأبناء على الآباء، وذلك أن الكلام في الآية الأولى، موجه إلى الفقراء دون الأغنياء فهم يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم لا أنهم يخشونه فأوجبت البلاغة تقديم عدتهم بالرزق وتكميل العدة برزق الأولاد.

وفي الآية الثانية (آية الإسراء) الخطاب لغير الفقراء، وهم الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر لا أنهم مفتقرون في الحال، وذلك أنهم يخافون أن تسلبهم كلف الأولاد ما بأيديهم من الغنى، فوجب تقديم العدة برزق الأولاد، فيأمنوا ما خافوه من الفقر فقال: لا تقتلوهم فإننا نرزقهم وإياكم؛ أي أن الله جعل معهم رزقهم، فهم لا يشاركونكم في رزقكم، فلا تخشوا الفقر⁽⁴⁾.

ومن المناسبة بين أجزاء الآية: مراعاة ما يقتضيه التعبير والمعنى والسياق، مع مراعاة الانسجام في فواصل الآيات لما لذلك من تأثير كبير على السمع ووقع مؤثر في النفس من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾⁽⁵⁾.
وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽⁶⁾.

ولا شك في أن خاتمة كل من الآيتين تسجّم مع الآيات فيها، ولكن السياق أيضا يقتضي الفاصلة التي ختمت فيها كل آية من الآيتين؛ ذلك أن الآية في سورة إبراهيم في سياق وصف الإنسان وذكر صفاته، فختم الآية بصفة الإنسان، وأن الآية الثانية في سورة النحل، في سياق صفات الله تعالى فذكر صفاته⁽⁷⁾.

1- سورة هود: الآية 113.

2- سورة الأنعام: الآية 151.

3- سورة الإسراء: الآية 31.

4- التفسير القرآني: فاضل صالح السامرائي، ص 60-61، جامعة بغداد، 1989م، وينظر الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، ج 02، ص 116.

5- سورة إبراهيم: الآية 34.

6- سورة النحل: الآية 18.

7- التفسير القرآني: فاضل صالح السامرائي، ص 197.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكْلَافًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾⁽¹⁾. ففي الآية أن جزاء السارق والسارقة قطع أيديهما والتكليف بهما جزاء سرقتهما وخيانتهم، قال الأصمعي: كنت أقرأ سورة المائدة ومعني أعرايي، فقرأت هذه الآية (والسارق والسارقة) فقلت (والله غفور رحيم) سهوا فقال الأعرايي كلام من هذا؟ فقلت كلام الله، قال أعد فأعدت (والله غفور رحيم) ثم تنبتهت فقلت: (والله عزيز حكيم) فقال الآن أصبت، فقلت كيف عرفت؟ قال: يا هذا عز فحكهم فأمر بالقطع فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع⁽²⁾.

ومن بديع اختيار الفاصلة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾⁽³⁾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾⁽⁴⁾، فقد ختم الآية الأولى بقوله: (المبطلون) وختم الآية الثانية بقوله (الكافرون)، وذلك؛ لأن كل كلمة مناسبة للسياق الذي وردت فيه، فالأولى وردت في سياق الحق، ونقيض الحق والباطل، والثانية في سياق الإيمان ونقيض الإيمان الكفر، فما أحله من كلام، وما أعظمه من تعبير⁽⁵⁾.

2- المناسبة بين الآيات:

أما ارتباط الآية بالآية فينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: أن يظهر الارتباط بين الآية الثانية والآية الأولى، كأن تكون الآية الثانية سببا للأولى، أو مفسرة لها، أو مؤكدة لها، أو بدلا، أو جاءت معترضة، إلى غير ذلك من وسائل الارتباط، وهذا النوع لا يتطلب كثير جهد في استخراج المناسبة ما دام الطالب لمعرفة واستخراجها، مستوفيا للشروط التي يجب توافرها في المفسر لأن الترابط واضح، ومن أمثلة هذا القسم:

1- أن تكون الآية الثانية سببا للأولى، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿تَرَى إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيْبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيْقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾⁽⁶⁾.

1- سورة المائدة: الآية 38.

2- مفاتيح الغيب: الفخر الرازي، ج 06، ص 236.

3- سورة غافر: الآية 78.

4- سورة غافر: الآية 85.

5- التعمير القرآن: السامرائي، ص 201.

6- سورة آل عمران: الآتان 23-24.

ووجه النظم أنه تعالى لما قال في الآية الأولى، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ قال في الآية الثانية ﴿لِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي ذلك التولي والإعراض إنما حصل بسبب أنهم قالوا ﴿لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾⁽¹⁾.

2- أن تكون الآية الثانية تفسيرا للأولى: وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَوْمَ ابْتُعِنَ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَوْمَ إِنَّمَا هَدَيْهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾⁽²⁾. قال الألوسي: "وترك العطف في النداء الثاني وهو ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾؛ لأنه تفسيرا لما أجمل في النداء قبله من الهداية إلى سبيل الرشاد، فإنها التحذير من الإخلاق إلى الدنيا، والترغيب في إظهار الآخرة على الأولى، وقد أدى ذلك فيه على أتم وجه وأحسنه"⁽³⁾.

3- أن تكون الآية الثانية تأكيداً للأولى، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمٍ مَا لِي سِيءَ أَدْعَاكُمْ إِلَيَّ النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ، تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَفَّارِ﴾⁽⁴⁾، فقوله: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَفَّارِ﴾ تأكيد لما قبله فقد كرر نداءهم إيقاظاً لهم عن سنة الغفلة، واهتماماً بالمنادى له ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به دعوته⁽⁵⁾.

4- أن تكون الآية الثانية بدلا من الأولى: مثل قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ﴾⁽⁶⁾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾⁽⁷⁾، فإن لفظ (الصراط) الثانية بدل من الأولى والبدل موضح ومبين للمبدل منه⁽⁸⁾.

5- أن تكون الآية معترضة: فبالإضافة إلى أن الإعراض يقع مؤكداً لمفهوم الكلام الذي وقع فيه ومقرراً له في نفوس السامعين، فإنه يأتي لأغراض بلاغية منها:

أنه يأتي لتعظيم المقسم به وتفخيمه، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾⁽⁹⁾.

1- مفاتيح الغيب: الرازي، ج 07، ص 237.

2- سورة غافر: الآيتان 38-39.

3- روح المعاني: الألوسي، ج 24، ص 70، دار الفكر، بيروت.

4- سورة غافر: الآيتان 41-42.

5- روح المعاني: الألوسي، ج 24، ص 71.

6- سورة الفاتحة: الآيتان، 06-07.

7- سورة الشورى: الآيتان، 52-53.

8- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: تفسير أبي السعود، ج 01، ص 28، وينظر ج 06، ص 24.

9- سورة الواقعة: الآيات 78-79-80.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية
 ففي هذا الكلام اعتراضان: أحدهما قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، لأنه اعتراض بين القسم الذي هو: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ وبين جوابه: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾، والثاني قوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ وهو اعتراض بين الموصوف الذي هو (قسم)، وبين صفته التي هي (عظيم) وفائدة الإعتراض هو تعظيم شأن المقسم به في نفس القارئ أو السامع أي: إنه من عظم الشأن وفخامة الأمر، بحيث لو علم ذلك لوفي حقه من التعظيم⁽¹⁾.

فالإعتراض ليس وسيلة للتحسين فحسب، وليس حشواً يمكن الإستغناء عنه، بل إنه إذا وقع موقعه المناسب، كان من مقتضيات النظم، ومن مقتضيات المقام، ولو أسقط من السياق سقط معه جزء أصيل من المعنى، فهو يحمل بجانب كونه جزءاً من المعنى الأصلي، معاني فرعية أخرى تلتحم جميعاً في تكوين معنى كلي.

القسم الثاني: هو ما لا يظهر الارتباط فيه بين الآيتين:

لقد جرت عادة القرآن إذا ذكر أحكاماً، أن يذكر بعدها وعداً أو وعيداً ليكون باعثاً على العمل، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيهه، ليعلم عظم الأمر والناهي فتبدو -في الظاهر- كل آية مستقلة عن الأخرى، وأما خلاف النوع المبدوء به.

وينقسم هذا القسم إلى قسمين:

أ- أن تكون الآية الثانية معطوفة على ما قبلها بحرف من حروف العطف، فتشاركها في الحكم، ولا بد أن تكون بينهما جهة جامعة، إذ لا بد منها عند العطف كقوله تعالى: ﴿وَأَلَّهُ يَبِضُّ وَيَسْطُ﴾⁽²⁾ فالجهة الجامعة هي التضاد: وأمثلة هذا القسم تظهر في الطباق والمقابلة:

أما الطباق⁽³⁾ فهو أن يجمع بين متضادين مع مراعاة التقابل مثل البياض والسواد، والليل والنهار، وهو قسمان لفظي ومعنوي، فاللفظي مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً حِزَاءً بِمَآ كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾⁽⁴⁾، وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽⁵⁾.

1- العوائد المشوق إلى علوم القرآن: ابن القيم، ص 95، دار الكعب العلمية، بيروت.

2- سورة البقرة: الآية 245.

3- بنظر الصناعين: أبو هلال العسكري، ص 238، ط 01، الأستانة، وينظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 03، ص 512.

4- سورة التوبة: الآية 82.

5- سورة آل عمران: الآية 26.

وأما الطباق المعنوي: فمثل قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِن أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾⁽¹⁾ ومعناه ربنا يعلم إنا لصادقون⁽²⁾.

وأما المقابلة⁽³⁾ وهي ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخالفه في بعضها، وهي قريبة من الطباق، ويفرق بينهما من وجهين:

أحدهما: أن الطباق لا يكون إلا بين الضدين غالباً، والمقابلة تكون لأكثر من ذلك غالباً.

ثانيهما: الطباق لا يكون إلا بالأضداد، والمقابلة تكون بالأضداد وغيرها، فالمقابلة أعم من الطباق، وعليه فكل طباق مقابلة وليس العكس.

مثال المقابلة في قوله تعالى: ﴿فَلَا صِدْقَ وَلَا صَلَىٰ، وَلَكِنَّ كَذِبًا وَتَوَلَّىٰ﴾⁽⁴⁾ فقابل بين: صدق وكذب، وبين صلى الذي هو الإقبال على الله تعالى، وتولى: الذي هو الإعراض عنه.

ب- ألا تكون الآية الثانية معطوفة على الأولى:⁽⁵⁾

إذا لم يكن هناك عطف بين الجملتين، فلا بد إذن من دعامة يعتمد عليها في الربط وتؤذن بارتباط الكلام، وهي قرينة معنوية يدركها المستنبط ببصيرته النفاذة، كالحاق النظير بالنظير، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾⁽⁶⁾ ثم بين أوصافهم وحثهم ذلك بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾⁽⁷⁾ وذكر جزاءهم فقال: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَعْقِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾⁽⁸⁾.

والنظير هنا: في أن الغنائم لما انتزعت من أيدي المجاهدين في أول الأمر، وجعلت لله والرسول، -صلى الله عليه وسلم- تألم بعضهم لحرمانه منها، فألحق الله ذلك بكراهيتهم للخروج إلى الجهاد في أول الأمر، وتبينهم بعد ذلك أن في الخروج الغنيمة والنصر، وعز الإسلام وهلاك الأعداء كأنه يقول: ﴿وَوَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾⁽⁹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- 1- سورة يس: الأيتان 15-16.
- 2- الإصاح والتبيين: عبد العزيز، ص 113، مضعة النجم الخشب، القاهرة.
- 3- بنظر المصاحفين: أبو هلال العسكري، ص 264، وبظر المرهات في علوم القرآن: الزركشي، ج 03، ص 515.
- 4- سورة القيامة: الأيتان، 31-32.
- 5- المرهات في علوم القرآن: الزركشي، ج 03، ص 516.
- 6- سورة الأنفال: الآية 01.
- 7- سورة الأنفال: الآية 04.
- 8- سورة الأنفال: الآية 04.
- 9- سورة البقرة: الآية 216، وبظر المرهات في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 75.

ومن الروابط الاستطراد⁽¹⁾: ومثاله قصة آدم عليه السلام، وفيها بدو السوأة واستطرادا في هذا الباب قوله تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾⁽²⁾.

وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر بدو السوات وخصف الورق عليها إظهارا للنمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة وإشعارا بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى، ثم رجع إلى تكملة القصة فقال: ﴿يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾⁽³⁾.

ومن أوجه الربط: الانتقال من حديث إلى حديث تنشيطا للسامع، والربط بين الحديثين باسم الإشارة، ومثاله أنه - سبحانه وتعالى - لما تحدث عن بعض الأنبياء في سورة (ص) ختم هذا الحديث بقوله: ﴿وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ، هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِن لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَّآبٍ﴾⁽⁴⁾ فقوله: هذا ذكر: يشير إلى ذكر الأنبياء ثم يشرع في ذكر الجنة، وبعد ذلك يشرع في ذكر النار فيقول: ﴿هَٰذَا وَإِن لِلطَّاغِينَ لَشَرٌّ مَّآبٍ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبئْسَ الْمِهَادُ﴾⁽⁵⁾.

ومن الروابط حسن التخلص⁽⁶⁾: كأن يصل إلى غرضه في أثناء الحديث عن شيء آخر، كالحديث عن موسى - عليه السلام - في سورة الأعراف في أكثر من أربعين آية، ثم يصل إلى الحديث عن محمد - صلى الله عليه وسلم - وبعد ذلك يعود لإتمام الحديث عن موسى - عليه السلام -، قال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ...﴾⁽⁷⁾، وبعد ذلك يعود فيقول: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾⁽⁸⁾.

- 1- الإستطراد هو: أن يأخذ المتكلم في معنى، فيبدأ به في يأخذ في معنى آخر، بظن الصانعين، العسكري، ص 316، وينظر الإنتقان، السيوطي، ج 02، ص 109.
- 2- سورة الأعراف: الآية 26.
- 3- سورة الأعراف: الآية 27، وينظر الكشاف: الزمخشري، ج 02، ص 94.
- 4- سورة ص: الآيات، 48-49.
- 5- سورة ص: الآيات، 55-56، وينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تفسر أبي السعود، ج 05، ص 367-368.
- 6- حسن التخلص: هو أن ينتقل مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل، يختله اختلاسا دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الإلتزام بينهما، ينظر الإنتقان في علوم القرآن: السيوطي، ج 02، ص 109.
- 7- سورة الأعراف: الآيات 156-157.
- 8- سورة الأعراف: الآية 159، ينظر الأضلال في علوم القرآن: محمود القبيعي، ص 62، ط 04، القاهرة، 1996.

إن التآلف والترابط والتناسب كما هو حاصل بين آيات القرآن الكريم في السورة الواحدة حاصل بين سور القرآن فأنت لا تقرأ سورة من سور القرآن يامعان إلا وتجد بينها وبين سابقتها مناسبة ورابطة، تظهر سر الإعجاز في ترتيب سورته، وهو على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مناسبة فواتح السور لخواتيمها: من ذلك ما في سورة القصص، فقد بدأت بقصة موسى عليه السلام والوعد برده إلى أمه، ودعائه ألا يكون ظهيرا للمجرمين ثم حتم الله السورة بتسليية رسولنا -صلى الله عليه وسلم- بخروجه من مكة ووعدده بالرجوع إليها ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾⁽¹⁾. وقد عاد إليها فاتحا منتصرا وقيل له: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾⁽²⁾.

وسورة (المؤمنون) افتتحت بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾⁽³⁾ وورد قبل آخرها بآية ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾⁽⁴⁾.

وسورة (ص) بدأها بالذكر في قوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾⁽⁵⁾ وقال قبل آخرها بآية: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾⁽⁶⁾.

وفي سورة (القلم) نفى في أولها ما رمي به -صلى الله عليه وسلم- من الجنون فقال: ﴿مَا أَنْتَ بِعِمَّةٍ رَبِّكَ بِمَحْجُونٍ﴾⁽⁷⁾ وفي آخرها حكى قول المشركين، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَحْجُونٌ﴾⁽⁸⁾ فسبحان من نفى عن رسوله التهمة قبل حكايتها.

القسم الثاني: مناسبة افتتاح السورة لخاتمة ما قبلها.

قال الزركشي: "إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختمت به السورة قبله، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى"⁽⁹⁾ كقوله تعالى في آخر سورة الطور: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحُهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾⁽¹⁰⁾، ثم قال في السورة التي تليها ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾⁽¹¹⁾.

1 - سورة القصص: الآية 85.

2 - سورة القصص: الآية 86، بنظر البرهان: للزركشي، ج 01، ص 236، وبنظر الإنفاق في علوم القرآن: السبوطي، ج 02، ص 11.

3 - سورة المؤمنون: الآية 01.

4 - سورة المؤمنون: الآية 117، بنظر الكشاف: الزمخشري، ج 03، ص 201.

5 - سورة ص: الآية 01.

6 - سورة ص: الآية 87.

7 - سورة القلم: الآية 02.

8 - سورة القلم: الآية 51، بنظر الأطلان في علوم القرآن: محمد القبيعي، ص 63.

9 - البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 64.

10 - سورة الطور: الآية 49.

11 - سورة النجم: الآية 01.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية

وافتح سورة الحديد بالتسبيح بقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾⁽¹⁾ فإنه في غاية المناسبة لختم سورة الواقعة التي قبلها، والتي أمرت به بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾⁽²⁾.

القسم الثالث: مناسبة افتتاح السورة لمقاصدها

فسورة الإسراء افتتحت بالتسبيح بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ...﴾⁽³⁾، وسورة الكهف وهي تالية لها في الترتيب افتتحت بالحمد بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْنَا عِبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾⁽⁴⁾.

قال ابن الزمكاني: إن سورة (سبحان) لما اشتملت على الإسراء الذي كذب المشركون به النبي -صلى الله عليه وسلم- وتكذبه تكذيب الله سبحانه وتعالى أتى به (سبحانه) لتزويه الله تعالى عما نسب إلى نبيه من الكذب وسورة الكهف لما أنزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف، وتأخر الوحي نزلت مينة أن الله تعالى لم يقطع نعمته عن نبيه، ولا عن المؤمنين، بل أتم عليهم النعمة بإنزال الكتاب، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة⁽⁵⁾.

وقال الزركشي: "وينبغي البحث عن تعداد الأسماء: هل هو تسويقي، أو عما يظهر من المناسبات؟ فإن كان الثاني فلن يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها وهو بعيد"⁽⁶⁾.

قال: "وينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز؛ كتسمية سورة البقرة بهذا الإسم لقريظة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها، وعجيب الحكمة فيها"⁽⁷⁾.

1- سورة الحديد: الآية 01، ونظر البرهان: الزركشي، ج 01، ص 64.

2- سورة الواقعة: الآية 99.

3- سورة الإسراء: الآية 01.

4- سورة الكهف: الآية 01.

5- الإتيان في علوم القرآن: السيوطي، ج 02، ص 114.

6- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 339، ونظر الإتيان: السيوطي، ج 01، ص 55.

7- المصدر نفسه: ج 01، ص 340، ولن شاء الشرح الكافي والتحليل الوافي لمناسبة افتتاح السورة لمقاصدها فليعد إلى تناسق الدرر في

تناسب السور: السيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، وحواهر البيان في تناسب سور القرآن: عبد الله الصديق

الغماري، ط 02، عالم الكتب، بيروت، 1986م.

تعد مناسبة الآيات والسور، وارتباط مبانيها، من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهو علم لم يكتب له الظهور إلا في أوائل القرن الرابع الهجري، قال محي الدين بن عربي (ت 638هـ) "لا بد من مناسبة بين آي القرآن وإن كان بينهما بعد ظاهر، ولكن لا بد من وجه جامع بين الآيتين مناسب هو الذي أعطى أن تكون هذه الآية مناسبة لما جاورها من الآيات، لأنه نظم إلهي وما رأينا أحدا ذهب إلى النظر في هذا إلا الرماني (ت 386هـ) من النحويين، فإن له تفسيراً للقرآن، أخبرني من وقف عليه أنه نحا في القرآن هذا المنحى، ثم يقول إن مسمى الآية إذا لزمته أمور من قبل أو بعد يظهر من قوة الكلام أن الآية تطلب تلك اللوازم فلا تكمل الآية إلا بها، وهو نظر الكامل من الرجال، فمن ينظر في كلام الله على هذا النمط فإنه يفوز بعلم كبير، وخير كثير، فإن الحق سبحانه لا يعين لفظاً ولا يقيد أمراً إلا وقد أراد من عباده أن ينظروا فيه، من حيث ما خصه وأفرده لتلك الحالة أو عينه بتلك العبارة، ومضى لم ينظر الناظر في هذه الأمور بهذه العين، فقد غاب عن الصواب المطلوب"⁽¹⁾.

ومما يؤكد هذا الرأي محاولة الباقلاني الكشف عن وجه الارتباط بين الآيات الأولى من سورة الإسراء بوصفه وجهاً من وجوه الإعجاز يرى أن ما يبدو "فصلاً" بين الآية الأولى والآية الثانية هو في حقيقته "وصل" يرتد إلى النظم الذي يبرأ منه الكلام العادي، - كلام البشر - وهو نظم أدى إلى الانتقال إلى ذكر نوح ووصفه بأنه "شكور" وصفا يربط الكلام بعضه ببعض لمناسبته للفاصلة من جهة وللإعلاء إلى ما يجب على بني إسرائيل - المعاصرين للنص - من الشكر اقتداءً بنوح من جهة أخرى⁽²⁾.

وفي كل ذلك يكون تركيز الباقلاني على مفارقة النص لغيره من النصوص وذلك دون أن يحدد بالضبط وجه العلاقة بين الآية الأولى والآية الثانية، إنه يكتفي بالقول: "هذا خروج لو كان في غير هذا الكلام لتصور في صورة المنقطع، وقد تمثل في هذا النظم لبراعته وعجيب أمره موقع ما لا يتفك منه القول، وقد يتبرأ الكلام المتصل بعضه من بعض، ويظهر عليه التثبيح والتباين للحلل الواقع في النظم، وقد تصور هذا الفصل للطفه وصلاً، ولم يبين عليه تميز الخروج، ثم انظر كيف أجرى هذا الخطاب إلى ذكر نوح وكيف أثنى عليه وكيف يليق صفته بالفاصلة ويتم النظم بما مع خروجها مخرج البروز من الكلام الأول إلى ذكره وإجرائه إلى مدحه بشكره، وكوهم من ذريته يوجب عليهم أن يسيروا بسيرته وأن يستنوا بسنته في أن يشكروا كشكره ولا يتخذوا من دون الله وكيلاً، وأن يعتقدوا تعظيم تخلصه إياهم من الطوفان لما حملهم عليه ونجاههم فيه حين أهلك من عداهم به، وقد عرفهم أنه إنما يؤاخذهم بذنوبهم وفسادهم فيما سلط عليهم من قبلهم وعاقبهم، ثم عاد عليهم بالإفضال والإحسان، حتى يتذكروا

1- رحمة من الرحمان في تفسير وإشارات القرآن: ابن عربي، ج 01، ص 13-14، جمعه محمود الغراب، مطبعة نصر، دمشق.

2- مفهوم النص: نصر حامد أبو زيد، ص 170.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية
ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم، وعلى نوح الذي ولد لهم وهم من ذريته، فلما عادوا إلى جهالتهم وتمردوا
في طغيانهم عاد عليهم بالتعذيب"⁽¹⁾.

وإذا كان الباقلاني يكتفي بهذه التعميمات فإن الزركشي الذي ينقل عن الباقلاني كثيرا ويعتمد
عليه في كثير من الآراء يستطيع أن يلمح وجها من أوجه المناسبة بين ذكر الإسراء في الآية الأولى وبين
الحديث عن بني إسرائيل في الآيات التالية، ويستطيع كذلك أن يكشف عن وجه المناسبة بين قصة بني
إسرائيل وبين ذكر القرآن في الآية التاسعة، إن العلاقة بين ذكر الإسراء وذكر قصة بني إسرائيل: التقدير
أطلعناه على الغيب عيانا، وأخبرناه بوقائع من سلف بيانا، لتقوم أخباره على معجزته برهانا؛ أي سبحان
الذي أطلعك على بعض آياته لتقصها ذكرا وأخبرك بما جرى لموسى وقومه في الكرتين، لتكون قصتهما
آية أخرى أو أنه أسرى بمحمد إلى ربه كما أسرى بموسى من مصر حين خرج منها خائفا يترقب"⁽²⁾.

ويكون الانتقال من قصة بني إسرائيل إلى ذكر القرآن خروجاً إلى حكمة القرآن؛ لأنه الآية
الكبرى، وعلى هذا ففس الانتقال من مقام إلى مقام"⁽³⁾.

كما ركز عبد القاهر الجرجاني أيضا على منهج الباقلاني في شرح وتحليل تلك الآيات المعطوفة
على بعضها دون أن يكون للعطف وجه واضح من الوجوه المعروفة في باب "الفصل والوصل"، وهو
باب يؤكد على أهميته قائلا: "اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الحمل من عطف بعضها على بعض أو
ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد الأخرى، من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى
لتمام الصواب فيه إلا للأعراب الخالص، وإلا قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنا مسن المعرفة في ذوق
الكلام هم بما أفراد وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة فقد جاء عن بعضهم أنه سئل
عنها فقال: معرفة الفصل من الوصل، ذاك لغموضه، ودقة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه
أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة"⁽⁴⁾.

وقال الشيخ أبو الحسن الشهرستاني: أول من أظهر بيغداد علم المناسبة ولم تكن سمعناه من غيره
هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري وكان غزير العلم في الشريعة والأدب وكان يقول على الكرسي إذا

1- إعجاز القرآن: الباقلاني، ص 222-223.

2- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 69.

3- المصدر نفسه: ج 01، ص 70.

4- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص 174.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية
قرئ عليه الآية: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه
السورة؟ وكان يزرى على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة⁽¹⁾.

والتدبر للقرآن الكريم يجد أنه بالرغم من نزوله مفرقا منجما، لكنه تم مترابطا محكما قال أبو بكر
ابن العربي في كتابه (سراج المريدين): "ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة
متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله
عز وجل لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله،
ورددناه إليه"⁽²⁾.

وقد حظي هذا العلم باهتمام الإمام فخر الدين الرازي (ت 606هـ) الذي وصفه بقوله: "إن
أكثر لطائف القرآن مودعة فيه"⁽³⁾.

وقال الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت 885هـ): "علم مناسبات القرآن: علم
تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال، وتتوقف
الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها،
فذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبتته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو"⁽⁴⁾.

ويرى الشيخ سعيد حوى في مقدمة تفسيره: "إن علماءنا دندنوا حول ضرورة البحث عن الصلة
والمناسبة بين الآيات في السورة الواحدة، وعن الصلة والمناسبة بين سور القرآن عامة ثم يقول: ولكن وإن
عرج بعض المفسرين على هذا الموضوع، فإن أحدا لم يستوعب القرآن كله بذكر الربط والمناسبة بسين
الآيات في السورة الواحدة، وبين سور القرآن بعضها مع بعض على ضوء نظرية شاملة"⁽⁵⁾.

ورد عن بعض العلماء إنكار هذا الفن بزعم أنه تكلف محض وكان من أبرزهم سلطان العلماء
عز الدين بن عبد السلام (ت 660 هـ)، والإمام المفسر محمد بن علي الشوكاني (ت 1200 هـ)،
قال سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام: "واعلم أن من الفوائد أن من محاسن الكلام أن يرتبط
بعضه ببعض، ويتشبه بعضه ببعض، لئلا يكون مقطعا، وهذا بشرط أن يقع الكلام في أمر متحد،
فيرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحد الكلامين بالآخر، ومن ربط

1- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 62-63، وينظر الإتيان: السيوطي، ج 02، ص 108.

2- المصدر نفسه: ج 01، ص 62.

3- المصدر نفسه: ج 01، ص 62.

4- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر البقاعي، ج 01، ص 15-16.

5- الأساس في التفسير: سعيد حوى، ج 01، ص 21-22، ط 03، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة.

ذلك فهو متكلف، لما لم يقدر عليه إلا بربط ركيك يسان عن مثله حس الحديث، فضلا عن أحسنه فإن القرآن نزل على الرسول -صلى الله عليه وسلم- في نيف وعشرين سنة، في أحكام مختلفة، شرعت لأسباب مختلفة غير مؤتلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض إذ ليس يحسن أن يرتبط تصرف إلا له في خلقه وأحكامه بعضه ببعض مع اختلاف العلل والأسباب"⁽¹⁾ ثم أخذ يضرب أمثلة لذلك، فسلطان العلماء - كما يظهر من كلامه - لم يعارض وجود المناسبة والترابط بين الكلام، لكنه اشترط أن يقع الكلام في أمر متحد، وما عدا ذلك فهو يراه متكلفا⁽²⁾.

أما الإمام محمد بن علي الشوكاني فقد أنحى باللوم، بل بالتقريع على أئمة التفسير القائلين بالتناسب في القرآن الكريم، وأطال في الاستدلال لرأيه وذلك عند تفسيره لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ...﴾⁽³⁾.

وقال: "اعلم أن كثيرا من المفسرين جاءوا بعلم متكلف وخاضوا في بحر لم يكلفوا في سباحته واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه، في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف ويتزه عنها كلام البلغاء فضلا عن كلام الرب سبحانه"⁽⁴⁾.

واقعد أثبت الدرس اللغوي الحديث أن للمناسبة فائدة وأي فائدة: إذ أنها تساعد في ترجيح رأي على آخر إذا تساويا في القوة، وكان أحدهما أليق بارتباط أجزاء الآية أو الآيات، فإن العقل يتوجه بداهة لترجيح ما هو الأولى بنظم الكلام، أما قوله إن فن المناسبة (كلام بمحض الرأي المنهي عنه) فغير مقبول، لأن الرأي المنهي عنه هو الرأي الناشئ عن الهوى أو غير الملتزم بضوابط التفسير.

قال الإمام الشاطبي: "إن إعمال الرأي في القرآن جاء ذمه، وجاء أيضا ما يقتضي إعماله فما كان موافقا لكلام العرب والكتاب والسنة فهذا لا يمكن إهماله مثله لعالم بهما، أما الرأي غير الجاري على موافقة العربية أو غير الجاري على الأدلة الشرعية، فهذا هو الرأي المذموم المنهي عنه"⁽⁵⁾.

1- الإشارة إلى الإعجاز في بعض أنواع الحجاز: ابن عبد السلام، ص 221، ط 01، المطبعة العامرة الأستانة، 1313هـ.

2- ينظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 63.

3- سورة البقرة: الآية 40.

4- فتح القدير: الشوكاني، ج 01، ص 85-87.

5- الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي، ج 03، ص 272-274، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت،

كما أن ذكر المناسبة بين الآيات والسور ليس تكليماً بمحض الرأي، بل هو يبرز الوحدة المعنوية بين آيات وسور الكتاب العزيز، ويرسخ الاعتقاد بإعجاز القرآن الكريم، لما يديه هذا العلم من لطائف القرآن وأسراره، كما أنه يعزز رأي العلماء الذين يرون أن ترتيب السور توقيفي، لا اجتهاد فيه، أما قوله: "فقد جاؤا بتكلفات وتعسفات... إلخ" ففيه حيف على المفسرين، فما أكثر المناسبات الذكية التي يقبلها العقل، ويضطرب لها الذوق وإذا قمنا برفض أي علم لأخطاء وقعت فيه، لما بقي لنا علم ولا تفسير الشوكاني نفسه لما فيه من روايات ضعيفة، وموضوعة يوردها دون أن ينبه عليها⁽¹⁾.

وتابعهما في هذا الرأي (من المحدثين) الدكتور صحي الصالح حيث قال: "فإن وقع أي تناسب في أمور متحدة، مرتبطة أوائلها بآخرها، فهذا تناسب معقول مقبول، وإن وقع على أسباب مختلفة وأمور متافرة، فما هذا من التناسب في شيء"⁽²⁾.

وقد خالف جمهور الأمة أصحاب هذا الرأي، ووهوا قائله، وأكدوا وجود التناسب بين الآيات والسور، ومن هؤلاء الشيخ ولي الله محمد بن أحمد الملوي المنفلوطي الشافعي حيث قال: "قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المرفقة، وفصل الخطاب: أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً مرتبة سورة كلها، وآياته بالتوقيف إلى أن يقول... والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكتملة لما قبلها، أو مستقلة ثم المستقلة: ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سبقت له"⁽³⁾.

وأشار الإمام الشاطبي إلى تعدد القضايا في السورة الواحدة، وأكد أن هذا التعدد لا يمنع من وجود الترابط والتناسب بين الآيات فقال: "غير أن الكلام المنظور فيه تارة يكون واحداً بكل اعتبار معى أنه أنزل في قضية واحدة طالت أو قصرت، وعليه أكثر سور الفصل وتسارة يكون متعدداً في الاعتبار بمعنى؛ أنه أنزل في قضايا متعددة كسورة البقرة، وآل عمران، والنساء، وأقرأ باسم ربك وأشباهاها، ولا علينا أنزلت السورة بكاملها دفعة واحدة أم نزلت شيئاً بعد شيء ويقول: فسورة البقرة مثلا كلام واحد باعتبار النظم واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها، منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب، ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم، ومنها ما هو المقصود في الإنزال، ثم يقول: وسورة المؤمنون نازلة في قضية واحدة، وإن اشتملت على معان كثيرة فإنها من

1- ينظر التفسير والمفسرون: محمد حسن الذهبي، ج2، ص 213، ط08، مكتبة وهبة، القاهرة، 1424هـ-2003م.

2- مباحث في علوم القرآن: صحي الصالح، ص 152.

3- نظم الدرر: البقاعي، ج01، ص 15-16.

المكيات، وغالب المكى أنه مقرر لثلاثة معان أصلها معنى واحد، وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى... إلى أن يقول: فالقرآن كله كلام واحد بهذا الاعتبار"⁽¹⁾.

وإضافة إلى ما سبق يمكننا القول إن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم وتحدهم أن يأتوا بمثله، وتدرج معهم في التحدي إلى أن اقتصر التحدي على سورة واحدة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَيَّ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ...﴾⁽²⁾ لم يقولوا إنه مختلف القضايا والأغراض لا رابطة تربطها ولا سياق يجمعها، ولو كان في وسعهم وهم أرباب الفصاحة وفرسان البيان أن يجدوا ثغرة للنفاذ منها لقول مثل ذلك لما ترددوا.

كما أن من الواضح أن كل من ألف كتابا مشتملا على مطالب متفرقة، وقضايا مختلفة يلاحظ في ترتيبها مناسبة وارتباطا فكيف بالحكيم المتعال! المفسرون وعلم المناسبات:

اعتنى كثير من المفسرين بعلم مناسبات القرآن الكريم في تفاسيرهم، على اختلاف مشاربهم وكما دندنوا حول المناسبة بين الآيات، بحثوا عن الصلة والمناسبة بين سور القرآن عامة وكانوا بين مقلد ومكتر، وكان أبو بكر النيسابوري أول من سبق إلى هذا العلم، وكان ينحى باللائمة على علماء بغداد لإهمالهم علم المناسبات، والكلام في هذا الشأن، وتعرض أحمد بن عمار المهدي للوحدة المعنوية بين آيات القرآن الكريم، وساق بعض الشواهد على التناسب بين آيات القرآن منها:

قوله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾⁽³⁾ وما بعدها، وهو قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾⁽⁴⁾ ووجه التناسب: "إنما اتخذ إبراهيم خليلا لحسن طاعته لا لحاجته إليه، لأن له ما في السموات والأرض"⁽⁵⁾.

وعرض الزمخشري في تفسيره الكشاف لإعجاز وأسرار الجمال القرآني وفيه يقول: "وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم، وإلا بقيت محتجبة في أكامها"⁽⁶⁾ وكان للمناسبة في كتابه حظ أوفى ممن سبقه من المفسرين.

1- الموافقات: الشاطبي، ص 267-272.

2- سورة البقرة: الآية 22.

3- سورة النساء: الآية 125.

4- سورة النساء: الآية 126.

5- المهدي وجهوده في التفسير والقراءات: سعيد الفلاح، ص 313، الكلية الزيتونية، تونس، وينظر المنهج البلاغي لتفسير القرآن: الطوير حسن مسعود، ص 46، ط 01، بيروت.

6- الكشاف: الزمخشري، ج 02، ص 302.

وصنف ابن عطية كتابه في التفسير: وتعرض فيه للوحدة المعنوية بين آيات القرآن الكريم، التي يرى أكثر البلاغيين والمفسرين أنها مظهر من مظاهر الإعجاز البياني في كتاب الله، يقول في الانتظام الوارد بين قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾⁽¹⁾، وبين الآية التي قبلها: "هذه الآية منتظمة في معنى التي قبلها، أي لا يمنعكم تخريب مسجد من أداء العبادات فإن المسجد المخصوص للصلاة إن خرب فثم وجه الله موجود حيث توليتم"⁽²⁾.

وكان فخر الدين الرازي أكثر المفسرين اعتناء بعلم المناسبات، قال الزركشي: "وقد قل اعتناء المفسرين بهذا العلم، ومن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"⁽³⁾ والشواهد في تفسيره كثيرة.

واهتم ابن جزى الكلبي (ت 741هـ) اهتماما بالغا بعلم المناسبة بين الآيات والسور في تفسيره اقتداء بشيخه ابن الزبير الغرناطي، وعند تعرضه لتفسير آية مصارف الزكاة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ...﴾⁽⁴⁾ يطرح سؤالاً عن سبب ذكر مصارف الزكاة في تضاعيف ذكر المنافقين ويحجب عنه بقوله: "إنه حصر مصارف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها، فاتصلت هذه الآية في المعنى بالآية التي سبقتها، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾"⁽⁵⁾.

ويعد أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) من المفسرين القلائل الذين أولوا عناية للتناسب بين آيات وسور القرآن الكريم، وتفسيره (البحر المحيط) حافل بالشواهد على ذلك، فهو قد درج على ذكر مناسبة أول كل سورة إلى آخر ما قبلها.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى من أول سورة الأنبياء ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾⁽⁶⁾، فقد ذكر التناسب بين أول هذه السورة وآخر سورة طه، وقال: مناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما ذكر قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا...﴾⁽⁷⁾ قال مشركو مكة: محمد

1- سورة البقرة: الآية 115.

2- المنهج البلاغي في تفسير القرآن الكريم: الطوير، ص 71.

3- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 62.

4- سورة التوبة: الآية 60.

5- التسهيل لعلوم التنزيل: أحمد ابن جزى الكلبي، ص 256، ط 01، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1355هـ.

6- سورة الأنبياء: الآية 01.

7- سورة طه: الآية 135.

يهددنا بالميعاد والجزاء على الأعمال، وليس بصحيح، وإن صح ففيه بعد، فأنزل الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾⁽¹⁾.

وذكر مناسبة أول سورة عبس، وهو قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾⁽²⁾ للسورة التي قبلها، وهي سورة النازعات فقال مناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا﴾⁽³⁾ ذكر في هذه من ينفعه الإنذار، ومن لم ينفعه الإنذار، وهم الذين كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يناجيهم في أمر الإسلام كعتبة بن ربيعة، وأبي جهل وأممية بن خلف⁽⁴⁾.

وقد أورد أبو حيان شواهد كثيرة على التناسب المعنوي بين آيات القرآن الكريم، من ذلك قوله: وهو يفسر آية التحدي في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا...﴾⁽⁵⁾ قال: "مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لم يحتج عليهم بما يثبت الوجدانية، ويطل الشك وعرفهم أن من جعل الله شريكاً فهو بمعزل من العلم والتمييز ويحتج على من شك في النبوة بما يزيل شبهته وهو كون القرآن معجزة، ويبين لهم كيف يعلمون أنه من عند الله، أم من عنده أن يأتوا هم ومن يستعينون به بسورة"⁽⁶⁾.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَلْمِي أَنفُسِهِمْ...﴾⁽⁷⁾ يبرز التناسب بين هذه الآية وما قبلها فيقول: "مناسبة هذه الآية لما قبلها هي أنه تعالى لما ذكر ثواب من أقدم على الجهاد، أتبعه بعقاب من قعد عن الجهاد، وسكن في بلاد الكفار"⁽⁸⁾.

ويظهر الثواب الذي ذكره في قوله تعالى قبل هذه الآية: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً...﴾⁽⁹⁾، ولا يتوقف في هذه السورة عند ذكر تناسب آياتها بل يورد التناسب بين أول السورة وآخرها، فيقول: "ختمت هذه السورة (يعني سورة النساء) بهذه الآية

1- البحر المحيط: أبو حيان، ج06، ص256، ط02، دار الفكر، بيروت.

2- سورة عبس: الآيتان 01-02.

3- سورة النازعات: الآية 45.

4- البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، ج08، ص427.

5- سورة البقرة: الآية 23.

6- البحر المحيط: أبو حيان، ج01، ص102.

7- سورة النساء: الآية 97.

8- البحر المحيط: أبو حيان، ج03، ص333.

9- سورة النساء: الآيتان 95-96.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية
(يعني آية الكلاله)، كما بدئت أولا بأحكام الأموال في الإرث وغيره ليشاكل المبدأ المقطع، وكثيرا ما
وقع ذلك في السور⁽¹⁾.

واهتم بها كذلك عدد من المفسرين منهم الشهاب الخفاجي في حاشيته على تفسير البيضاوي
والإمام نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري، في تفسيره غرائب القرآن، ورغائب الفرقان، والعلامة
أبو السعود محمد بن محمد العمادي في تفسيره: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، والآلوسي
(ت 1270هـ)، شهاب الدين محمود في تفسيره روح المعاني، وغيرهم كثير، وتقاسيرهم حافلة
بالشواهد والأمثلة التي لا يتسع لها هذا البحث.

كما حاول بعض العلماء والمفسرين من القدامى والمعاصرين أن يحددوا للسورة القرآنية أهدافا
ومقاصد عامة تعنى بها السورة، وقد أعانت هذه الأهداف والمقاصد على تبيين أوجه الربط بين آيات
السورة القرآنية.

ومن العلماء الذين لهم إسهامات في هذا المجال كل من: شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728 هـ)
في تفسيره لسورتي الفاتحة والإخلاص⁽²⁾ وتلميذه ابن القيم (ت 751 هـ) في تفسيره لسورتي الفاتحة
والمعودتين⁽³⁾.

وحاول الدكتور محمد أحمد السنباطي أن يجعل من الإمام ابن القيم رائدا لهذا الاتجاه⁽⁴⁾ وتابعه في
ذلك الدكتور زاهر بن عوض الألمعي في كتابه "دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم"⁽⁵⁾
وتعرض (الفيروز أبادي) لبيان الأهداف والمقاصد لسور القرآن الكريم، في كتابه "بصائر ذوي التمييز في
لطائف الكتاب العزيز"⁽⁶⁾، واهتم صاحب تفسير المنار ببيان أهداف السورة القرآنية، حيث كان يضع في
خاتمة تفسير كل سورة ملخصا لأهم موضوعاتها، وقضاياها⁽⁷⁾.

وألّف الدكتور عبد الله شحاتة كتابا متخصصا في هذا الموضوع تحت عنوان "أهداف كل سورة
ومقاصدها في القرآن الكريم"⁽⁸⁾.

1 - بحر الخيط: أبو حبان، ج 03، ص 406.

2 - ينظر دقائق التفسير: ابن تيمية، جمع وتحقيق محمد السيد الجنيد، دار الأنصار، القاهرة.

3 - ينظر التفسير القيم: ابن القيم، جمعه محمد أويس الندوي، لجنة التراث العربي، بيروت.

4 - ينظر منهج ابن القيم في التفسير: محمد أحمد السنباطي، طبعه مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة.

5 - ينظر دراسات في التفسير الموضوعي: زاهر بن عوض الألمعي، مطبعة الفرردق، جدة، 1405 هـ.

6 - ينظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروز أبادي.

7 - ينظر تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) محمد رشيد رضا.

8 - ينظر أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم: عبد الله شحاتة، الهيئة المصرية العامة، مصر، 1986.

كما حاول بعض العلماء إبراز الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية مثل نابغة الأزهر الدكتور محمد عبد الله دراز وتحدث عن ذلك في كتابه العظيم النبأ العظيم فقال: "واعلم أنه ليس من ههنا الآن أن نكشف لك عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية التي تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض، فتلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير وإنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضاً واحداً نرسم به خط سيرها إلى غايتها ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها لكي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة في موقعها من تلك السلسلة العظمى... ثم يبين أهمية تحديد عمود السورة قبل الخوض في بيان المناسبات بين أجزائها فيقول: بيد أننا قبل أن نأخذ فيما قصدنا إليه نحب أن نقول كلمة ساق الحديث إليها، وهي أن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني، تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضوعية بين جزء وجزء منه وهي تلك الصلات المثبوتة في مثالي الآيات ومطالعها ومقاطعها - إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها، بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها، على وجه يكون معاوناً له على السير في تلك التفاصيل عن بيته - إلى أن يقول: "وهذا تعرف مبلغ الخطأ الذي يتعرض له الناظرون في المناسبات بين الآيات حين يعكفون على بحث تلك الصلات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين أو القضايا المتجاورة غاضين أبصارهم عن هذا النظام الكلي الذي وضعت عليه السورة في حملتها: فكم يجلب هذا النظر القاصر لصاحبه من جور عن القصد وحكم ينأ به عن أروع نواحي الجمال في النظم"⁽¹⁾.

ومن المهتمين والمبرزين في هذا الجانب الشهيد السيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن⁽²⁾ فقد استوعب جميع سور القرآن الكريم، في بيان وحدتها الموضوعية والجرس الموسيقي المناسب مع الآيات والمعاني.

وقد اهتم الشيخ محمود شتوت ببيان مقاصد السورة ووحدتها الموضوعية من خلال تفسيره الذي فسر فيه عشر سور من القرآن الكريم، يقول في تفسيره لسورة آل عمران: "ونحن إذ نقرأ السورة نجد أنها قد برزت فيها العناية بأمرين عظيمين لهما خطرهما في سعادة الأمم وشقائهما: الأول: تقرير الحق في قضية العالم الكبرى وهي مسألة الألوهية وإنزال الكعب، وما يتعلق بها من أمر الدين والوحي والرسالة.

1- النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 158-159، ط07، دار القلم، الكويت، 1413هـ-1993م.

2- في ظلال القرآن: سيد قطب.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية

والثاني: تقرير العلة التي من أجلها ينصرف الناس في كل زمان ومكان، عن التوجه إلى معرفة الحق، والعمل على إدراكه، والتمسك به⁽¹⁾، ثم يشرع في تفصيل الأمرين.

كما اهتم بها الشيخ عبد العزيز جاويش، ودعا إلى تلمس الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية التي تبين بصورة جلية ارتباط الآي بعضها ببعض، فتتناسق آياتها، وتتلاحم حتى تكون كالسبيكة الواحدة، فقال: "قد يغفل المفسر عما بين آيات القرآن من الارتباط والتناسب وما قد يفيد بعضها بعضا من البيان، أو التقييد، فيأخذها بالتأويل مفككة العرى مبددة النظم، حتى إذا استعصى عليه أمرها، ونبأ عقله عن فهمها، لا يزال يركب في تأويلها صعاب المراكب ويلتمس بلوغ معانيها بتسليم الجبال وقطع السبابس وقلما سلمت أقدامهم من العثار أو استطاعوا إبراز ما فيها من الآثار"⁽²⁾، كما كانت للأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، نظرات ثاقبة في تبيين الوحدة الموضوعية في السور القرآنية من خلال استعراضه القصص القرآني في كتابه "القصص القرآني إيجاهه ونفحاته"⁽³⁾.

المصنفات في علم المناسبات:

لم يظهر التصنيف في هذا العلم -على عظيم فوائده- إلا في أواخر القرن الثامن الهجري، حينما ألف ابن الزبير الغرناطي (ت 708هـ)، مصنفه البرهان في ترتيب سور القرآن⁽⁴⁾، وقد رأى أنه لم يسبق إليه فقال: "ولم أر في هذا الضرب شيئا لمن تقدم وغير، وإنما ندر لبعضهم توجيه ارتباط آيات في مواضع متفرقات"⁽⁵⁾ وهو يعني بذلك أن محاولات جرت قبله لمعرفة أسرار ترتيب الآيات، أما ترتيب السور فیری أنه: "لم يقرع أحد هذا الباب قبله ممن تأخر أو تقدم"⁽⁶⁾.

وبعد ابن الزبير ألف الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي كتابه: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، وكتاب مشهور في هذا الفن، اعتنى فيه بأوجه المناسبات وكان من أوائل الكتب التي استوعبت آيات القرآن وسوره، ببيان وتطبيق المناسبة عليها، بل إنه كان نقطة التحول التي لفتت الانتباه إلى وحدة السورة القرآنية بعد أن كان الحديث عن المناسبات مجرد إشارات لبعض المفسرين فكان مرجعا ضخما، عول عليه كل من جاء بعده.

وصنف جلال الدين السيوطي، ثلاثة كتب في هذا الفن:

- 1- تفسير القرآن الكريم: الأجزاء العشرة الأولى، محمود شلتوت، ط 04، دار الفلم، القاهرة، 1966م.
- 2- تفسير أسرار القرآن: عبد العزيز جاويش، ص 117، مطبعة الهداية الإسلامية، الأستانة، 1331هـ.
- 3- انظر القصص القرآني: فضل حسن عباس، ط 01، دار الفرقان، عمان، 1987م.
- 4- قامت وزارة الأوقاف المغربية بطبع الكتاب، تحقيق محمد شعبان، 1990م.
- 5- البرهان في ترتيب سور القرآن: ابن الزبير محمد بن عبدوس، ص 181.
- 6- المصدر نفسه: ص 181، وينظر المنهج البلاغي لتفسير القرآن الكريم، الطوير، ص 173.

الأول: أسرار التثريل وقال عنه إنه جامع لمناسبة السور والآيات.

الثاني: تناسق الدرر في تناسب السور لخصه في كتابه (أسرار التثريل).

الثالث: مرصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع وهو يتناول التناسب بين فواتح السور القرآنية وخواصها⁽¹⁾.

ومن أفرد هذا العلم بالتصنيف من المحدثين عبد الله الصديق الغماري فوضع كتابه (جواهر البيان في تناسب سور القرآن)⁽²⁾.

وكتب الدكتور محمد أحمد يوسف القاسم، في (المناسبات في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره)⁽³⁾ كما كتب الباحث محمد مصطفى أيدين في (المناسبات بين الأسماء الحسنی والآيات التي ختمت بها)⁽⁴⁾.

ومن أفرد أيضا هذا العلم بالتصنيف في ضوء الجهود اللغوية المعاصرة صبحي الفقي فوضع كتابه علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية⁽⁵⁾ وهذه الدراسة كتاب يقع جزأين تتبع صاحبها هذا الاتجاه النصي وتناول في دراسة الجوانب التالية:

عرف المؤلفون بهذا الاتجاه من حيث مفهومه وتعريفاته المختلفة وأهمية الدراسة النصية وطبيعتها وموقف القدماء من التحليل النصي وذلك في فصل تمهيدي، ثم تناول في فصل تال: التماسك النصي من حيث مفهومه وأهميته وأدواته وغير ذلك من القضايا ثم عرض في الفصول التالية لبعض الآيات التي بمجموعها يبين هذا الاتجاه مطبقا على السورة المكية، فعرض للضمائر والتوابع والتكرار، والمناسبة والحذف، وفي كل موضوع من هذه الموضوعات كان يقدم إطارا نظريا مخصصا له بعض الباحث، ثم يعقبه بتحليل نصي لبعض السور المكية على وفق الأداة التي يتحدث عنها.

الإسلامية

- 1- ينظر الإتيان في علوم القرآن: السيوطي، ج02، ص 108-111.
- 2- جواهر البيان في تناسب سور القرآن: الغماري، ط02، عالم الكتب، بيروت، 1986م.
- 3- المناسبات في ترتيب آيات القرآن وسوره: أحمد يوسف القاسم، مكتبة كلية أصول الدين، جامعة الأزهر.
- 4- الإيضاح والتبيين: عبد العزيز، ص 98.
- 5- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق -دراسة تطبيقية على السور المكية-، صبحي إبراهيم الفقي، ط01، دار فباء، القاهرة، 1421هـ-2000م.

ونعرض في هذه الدراسة خلاصة ما قال في دراسته المشار إليها حول سورة الأنعام:

- في بحث (الضمير)⁽¹⁾ يلفت النظر إلى وجود 1456 ضميرا في سورة الأنعام التي تبلغ آياتها مائة وخمسا وستين آية، فهل لهذه الضمائر دور في تحقيق التماسك في هذه السورة وتوزيع أغلب هذه الضمائر في هذه السورة على مستويات أربعة:

- الله تعالى
- الرسول صلى الله عليه وسلم
- المشركين
- المؤمنين

وكلها تصب في مجرى واحد هو تحقيق التماسك بين الأجزاء التي تناقش قضايا مختلفة في نهاية الأمر تشكل موضوعا واحدا هو موضوع السورة الأساسي.

- وفي مبحث (التوابع)⁽²⁾ نراه يلفت الأنظار إلى عدد مرات ورود أدوات العطف وورود النعت والبدل والتوكيد المعنوي وكان يحمل ذلك خمسمائة وثلاثة وتسعين موضعا، ويؤكد أن هذا العدد الكبير في سورة آياتها مائة وخمس وستون آية فقط.

ثم يشير في تناوله إلى إبراز التناسق الذي صنعتته هذه التوابع، ويخلص في النهاية إلى أن "التوابع قامت بالربط بين الكلمة والكلمة، والعبارة والعبارة والجملة والجملة، ليس على مستوى الآية الواحدة فقط، بل على مستوى السورة كلها، ومن المؤكد أن السبب في هذا يعزى إلى وحدة موضوع السورة"⁽³⁾.

وهكذا يسير الباحث في دراسته التطبيقية الجديدة في هذا المجال حيث يعرض تطبيقه على سورة الأنعام في مبحث التكرار. ثم ينتقل الباحث لتطبيق ذلك على مبحث المناسبة، وفي مبحث (الحذف): وهكذا.

والذي نريد أن نوضحه أن تلك النماذج الممثلة لهذه الدراسات ليست إلا أمثلة للنماذج لا حصرا دقيقا لها ومن يتابع الدراسات القرآنية التي ارتكزت على الاتجاهات اللغوية ولا سيما الاتجاه النصي يجد الكثير كما فعل البقاعي في تفسيره: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" وغيره من القدماء، وكما فعل من المحدثين الشيخ الصابوني في سلسلته قيس من نور القرآن الكريم دراسة تحليلية لأهداف ومقاصد السور، وغيره من المحدثين كثير.

1- علم اللغة النصي: صبحي الفقي، ج 01، ص 177-199.

2- المرجع نفسه: ج 01، ص 276-290.

3- المرجع نفسه: ج 01، ص 289-290.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية

وهكذا يعد تفسير الظلال واحداً من التفاسير القلائل التي حفلت بالإشارة إلى هذا الاتجاه النصي، وبخاصة في السور التي أعاد كتابة تفسيرها مرة أخرى، وهي تستغرق الأجزاء العشرة⁽¹⁾، فقد أولاهما إشارة إلى هذا التماسك النصي بين آيات كل سورة⁽²⁾.

ويشير نصر حامد أبو زيد إلى أهمية هذه الدراسة النصية للقرآن الكريم بقوله: "إن البحث عن مفهوم النص ليس في حقيقته إلا بحثاً عن ماهية القرآن وطبيعته بوصفه نصاً لغوياً وهو بحث يتناول القرآن من حيث هو كتاب العربية الأكبر وأثرها الأدبي الخالد"⁽³⁾.

وقدم هذه الاتجاهات خدمات جلي للمفسرين المعاصرين للقرآن الكريم في المعالجة النصية؛ لأن عملهم يقوم على النظرة إلى النص القرآني كاملاً، إلى درجة أنهم رأوا القرآن الكريم كله آخذاً بعضه بيد بعض، فأكدوا التماسك الصوتي، والصرفي والنحوي، والمعجمي، والدلالي، وكذلك التماسك النصي، وأكدوا المناسبة بين حروف الكلمة الواحدة، وكلمات الجملة الواحدة، وجمل النص الواحد ونصوص القرآن كله وهكذا.

وقد كثرت الاتجاهات التي توافرت على دراسة النص من جميع جوانبه ومن هذه الاتجاهات:

1- الاتجاه الأسلوبي: لقد وجدت كلمة الأسلوب مجالاً طيباً في الدراسات القديمة، وبخاصة في مباحث الإعجاز القرآني التي استدعت ممن تعرضوا له أن يتفهموا مدلول الكلمة عند بحثهم المقارن بين أسلوب القرآن وغيره من أساليب العرب، متخذين في ذلك وسيلتهم لإثبات الإعجاز وتفاوت هذا المفهوم ضيقاً واتساعاً من باحث إلى آخر⁽⁴⁾.

ويعتمد الاتجاه الأسلوبي على فكرة الاختيار أو الانحرافات (العدول)، فنحن عندما نقرأ نصاً قراءة أسلوبية نحاول أن نميز الاختيارات والانحرافات فيه حيث إنها تعد مفاتيح تمكنا من العالم الشعوري الكائن وراء النص الأدبي⁽⁵⁾.

1- مدخل إلى ظلال القرآن: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 51، ط 03، دار عمان، الأردن، 1421هـ-2000.

2- ومن سلك هذا المسلك النصي في العصر الحديث بصورة مختصرة عن الظلال لسيد قطب تفسيران موجزان هما: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، والتفسير المبسر الذي أعدته لجنة العلماء في المملكة العربية في مجلد واحد أيضاً.

3- مفهوم النص دراسة في علوم القرآن: نصر أبو زيد، ص 10.

4- بين البلاغة والأسلوبية: محمد عبد المطلب، ص 16، مكتبة الحرية الحديثة، جامعة عين شمس، وينظر مدخل إلى علم الأسلوب: شكري

محمد عياد، ص 30، ط 04، نشر أصدقاء الكتاب، القاهرة، 1998م.

5- مدخل إلى علم الأسلوب: شكري محمد عياد، ص 37.

وتمثل دراسة الدكتور إبراهيم عوض لسورة المائدة دراسة أسلوبية نموذجاً للاتجاه الأسلوبى المرتكز على الدرس اللغوى الحديث فى تناول النص القرآنى، وقد امتد باع المؤلف إلى دراسة سور قرآنية أخرى بالمنحى نفسه الأسلوبى مثل تناوله لسورة طه، ويوسف، وغيرها.

وقد اعتمد فى دراسته لهذه السور على منهج التحليل الأسلوبى فى إثبات مكية السور أو مدنيتهما ومن ذلك ما ذهب إليه فى تناوله لسورة المائدة حين استخلص السمات الأسلوبية الخاصة بالوحي المدنى فقال: "أول سمة نص عليها من سمات الوحي المدنى الموجودة فى هذه السورة هى عبارة: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ التى وردت فيها ست عشر مرة، وتكررت فى القرآن الكريم كله تسعا وثمانين مرة جميعها فى القسم المدنى منه، لا تكاد تخلو منها سورة.

والملاحظ أن هذا النداء إما أن يعقبه أمر أو نهي أو شرط، وقد يصاحب الشرط أمر أو نهي وقد يراد الأمر أو النهي فى شكل جملة خبرية، كذلك فإن الفعل (أحلت) فى صيغة الماضى المبني للمجهول هو من خصائص أسلوب الوحي المدنى، وقد وردت فيه تسع مرات، أربع مرات منها فى المائدة وحدها، ولم يرد فى أى سورة من الوحي المكي⁽¹⁾.

وقد قرر المؤلف عقيب ذلك أن لكل من المكي والمدنى خصائصه الأسلوبية التى ينفرد ببعضها، ويغلب عليه بعضها الآخر، فلذلك فإن لكل سورة فى القرآن الكريم خصائصها الأسلوبية أيضاً. وقد حاول إبراهيم عوض أن يطبق تلك الملامح الأسلوبية فى دراسته على سورة يوسف والرعد وطه، وأن يستخلص ما تختص به كل واحدة منها من سمات الأسلوبية سواء أكانت صيغاً لفظية أم عبارات أم صوراً بيانية⁽²⁾.

2- الإتجاه السياقى: وهو إتجاه يتخذ من نظرية السياق منطلقاً لتفسير النص القرآنى الكريم ونظرية السياق من أحدث النظريات اللغوية فى تحليل النصوص ودراستها ولا يعنى هذا أنها نظرية جديدة تماماً وإنما وجدت أصولها الأولى منذ القدم، واستعان بها المفسرون القدماء فى تفسير كثير من آي الذكر الحكيم، وتكمن الجدة فى هذه النظرية فى أنها وضعت أسسها النظرية فى شكل علمى قابل للتطبيق على جميع اللغات⁽³⁾.

1- سورة المائدة: دراسة أسلوبية فقهية مقارنة: إبراهيم عوض، ص 07-08، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1421هـ-2000م.

2- المرجع نفسه: ص 13-14، وانظر سورة طه: دراسة لغوية مقارنة، ص 05-06، دار النهضة العربية، 1416هـ-1995م، وينظر

سورة يوسف دراسة أسلوبية فنية مقارنة، ص 05-06، دار النهضة العربية، 1424هـ-1993م.

3- دراسات وبحوث إسلامية: محمد إبراهيم عبد الرحمان، ص 191، ط1، دار الوفاء، الإسكندرية، 2004م.

بعد الدكتور تمام حسان من أبرز اللغويين العرب المعاصرين الذين اعتمدوا على نظرية السياق في تفسير وتحليل النص القرآني وبخاصة في كتاب "البيان في روائع القرآن"، حيث عقد الفصل السابع لبيان قرينة السياق في التركيب القرآني، وتحدث فيه عن علاقات الجمل بعضها ببعض، وعن أثر السياق في تحديد البنية الصرفية، وأدوات الربط، كما تحدث عن السياق الخارجي بأنواعه المختلفة في بيان المعنى المراد من النص القرآني الكريم.

وسنحاول فيما يلي بيان بعض التطبيقات العملية لهذا الاتجاه في تناول المؤلف له.

أولاً: في مجال السياق اللغوي

1- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾⁽¹⁾.

يقول المؤلف: "فالدليل على أن (إن) مخففة من الثقيلة، وأن معنى السياق هو التأكيد وليس الشرط كون الفعل (يكاد) مرفوعاً غير مجزوم، ثم وجود اللام في خير (إن) المخففة وعدم وجود ما يصلح للشرط"⁽²⁾.

2- قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَّ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾⁽³⁾.

يبين المؤلف أن التركيب القرآني يأذن أن يكون خير المبتدأ إما (الغفور) وإما (ذو الرحمة) على رغم الغفور صفة للمبتدأ، وإما جملة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ﴾ على رغم ما قبلها صفتين للمبتدأ وتأني القرينة السياقية من الإضراب عن تعجيل العذاب إلى ضرب موعد مقبل لهم والدليل قوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾ ثم يبين أن ذلك يدل على أن الخير قوله تعالى: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَّ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وقد جاءت القرينة السياقية الدالة على ذلك من علاقة الإضراب المعبر عنها بحرف الإضراب (بل)⁽⁴⁾.

ثانياً: السياق الخارجي

1- مراعاة الظروف الحسية والنفسية المحيطة بالنص في تفسير هذا وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَسَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ﴾⁽⁵⁾.

يقول المؤلف "فهؤلاء الرجال الذين خاطبهم أصحاب الأعراف عهدت لهم سيمتا الغنى والكبرياء في الدنيا، وكان ذلك من المدركات الحسية، فلما كان نصيبهم في الآخرة العذاب والهوان سألهم

1- سورة الفلم: الآية 51.

2- البيان في روائع القرآن: تمام حسان، ص 212، ط 01، عالم الكتب، 1413هـ-1993م.

3- سورة الكهف: الآية 58.

4- البيان في روائع القرآن: تمام حسان، ص 213.

5- سورة الأعراف: الآية 48.

أصحاب الأعراف على سبيل السخرية والتهكم عما إذا كان غناهم وكبرياؤهم قد أغنيا عنهم مسن الله شيئاً، وانتقى بقرينة السياق هكذا أن يكون المعنى على النص أي (لم يغن عنكم جمعكم) بدليل (يعرفونهم بسيماهم) لأن مضمون النفي معلوم سلفاً لهؤلاء الرجال فلا حاجة إلى إيضاحه فضل إيضاح، ثم بدليل مواصلة السؤال في الآية التي بعد ذلك ﴿أَهْوَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾⁽¹⁾ ومنه أيضاً: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَّ أَذَاهُمْ﴾⁽²⁾.

إذ يصلح التركيب لجعل الأذى منهم له أو منه لهم، ولكن الظروف الحسية التي يعرفها السني أن الأذى واقع منهم عليه وليس منه عليهم، فأصبح المعنى (ولا تجزع لإيذائهم إياك)⁽³⁾.

2- مراعاة الظروف النفسية كالحب والكرهية والغضب والرضا والطمع ونحو ذلك؛ كما يتضح من قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَىٰ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾⁽⁴⁾.

فالتركيب - كما يوضح تمام حسان - صالح لمعنى (وترغبون في أن تنكحوهن)، وكذلك (وترغبون عن أن تنكحوهن)، وقد حذف حرف الجر قصداً ليضم التركيب حالتي الرغبة فيهن والرغبة عنهن؛ لأن اليتيمة ذات المال إما أن تكون جميلة فيرغب وليها في أن ينكحها استثارةً بمالها وجمالها، وإما أن تكون قبيحة فيعضلها رغبة عنها وطمعاً في مالها، وهكذا تكون الظروف النفسية متكاً لقرينة السياق دالة على القصد في حذف حرف الجر⁽⁵⁾.

3- مراعاة المحيط الاجتماعي كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾⁽⁶⁾.

فمن المسلم به أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحابته كانوا يعلمون من المحيط الاجتماعي الذي يحيط بهم ما المقصود بهذا الكلام، وبالأخبار والرهبان، فالسياق بالنسبة إليهم ترتكز دلالاته على الظروف الاجتماعية ويدل على المعنى بمعونة هذه الظروف، أما نحن الآن فإننا بحاجة إلى

1- سورة الأعراف: الآية 49.

2- سورة الأحزاب: الآية 48.

3- البيان في روائع القرآن: تمام حسان، ص 218-219.

4- سورة النساء: الآية 127.

5- البيان في روائع القرآن: تمام حسان، ص 219.

6- سورة التوبة: الآية 34.

معرفة سبب نزول الآية حتى تتضح لنا دلالة السياق على هذا الخبر أو ذاك الراهب الذي دل عليه لفظ (كثير)⁽¹⁾.

4- مراعاة العادات والتقاليد في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾⁽²⁾، إذا كان الذين كفروا يفترون على الله الكذب ويجعلون هذه الأنواع من الإبل من تقاليد عبادتهم للطاغوت، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾⁽³⁾ وغير ذلك من الآيات التي هي إشارات إلى عادات وتقاليد كانت للعرب يفتقر فهم النص إلى معرفتها، أي أن هذه المعرفة هي المتكأ الذي لا بد منه لقرينة السياق⁽⁴⁾.

5- الإشارة إلى المأثورات والتاريخ كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾⁽⁵⁾. وكذا قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْسِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾⁽⁶⁾... ومن هذا القبيل كل ما في القرآن من خير الأولين وقصص الأنبياء⁽⁷⁾.

وخلاصة القول أن قرينة السياق تمتد على مساحة واسعة من الركائز المبتدئة باللغة: هدفها وعلاقتها النحوية ومفرداتها، لتشمل الدلالات بأنواعها من عرفية إلى عقلية إلى طبيعية، كما تشتمل على المقام بما فيه من عناصر حسية ونفسية واجتماعية كالعادات والتقاليد، ومأثورات التراث، وكذلك العناصر الجغرافية والتاريخية مما يجعل قرينة السياق كبرى القرائن بحق؛ لأن الفرق بينها وبين الاحتجاج بغيرها كالقرائن اللفظية النحوية كالإعراب والرتبة وغيرها، هو فرق ما بين الاعتداء بحرفية النص، والاعتداد بروح النص.

إن قرينة السياق هي التي يحكم بواسطتها على ما إذا كان المعنى المقصود هو الأصلي أو المجاز وهي التي تقضي بأن الكلام كناية أو تورية أو جناس.. الخ، وهي التي تدل عند غياب القرينة اللفظية على أن المقصود هو هذا المعنى دون ذلك إذ يكون كلاهما محتملا⁽⁸⁾.

1- بيان في روائع القرآن: غمام حسان، ص 220.

2- سورة المائدة: الآية 102.

3- سورة الأفعال: الآية 35.

4- بيان في روائع القرآن: غمام حسان، ص 220-221، بتصرف.

5- سورة آل عمران: الآية 11.

6- سورة البقرة: الآية 259.

7- بيان في روائع القرآن: غمام حسان، ص 221.

8- المرجع نفسه: ص 221-222 بتصرف.

بعد هذه الدراسة لآية التحدي والإعجاز من حيث علم المناسبات تبين لنا الحقائق التالية:

- بمعرفة التناسب نتمكن من معرفة كيف اتسق القرآن الكريم هذا التأليف، وكيف استقام له هذا التناسق الذي يشهد بحق وصدق على إعجاز القرآن الكريم، ويدل بأبلغ دلالة على مصدر القرآن وأنه كلام الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾⁽¹⁾.
- يبين علم المناسبات الكثير من أسرار التعبير القرآني في التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب ويبرز الحكمة من ضرب الأمثال، وقص القصص، حسب مقتضيات الأحوال.
- إن المتأمل لتركيب آيات القرآن، ونظم كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها وأسلوبه في التوفيق بين القضايا والأغراض المتنوعة، مع حسن ربط وبراعة مسلك كأنه سبيكة واحدة، أو عقد نظيم، يترجح لديه الرأي القائل إن ترتيبه توقيفي.
- إن موضوع التناسب بين آيات القرآن وسوره والوحدة الموضوعية للسورة القرآنية هو من الموضوعات التي ينبغي أن تتفرغ لها جهود العلماء والمهتمين بالدراسات القرآنية فهو يعين على الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى وعلى تحقيق مقاصد هذا الكتاب العظيم في نفوس المؤمنين.
- إن القرآن الكريم ليس كأى كتاب من صنع البشر، ولا بد أن نلفظ إلى أن إعجازه بالدرجة الأولى راجع إلى لغته وبيانه، وأن قراءته تحتاج إلى كثير من التدبير؛ كي يتحول هذا التدبير إلى منهجية في التفكير، وإذا وجدت المنهجية أمكن أن يوجد الإنسان المبدع، وتصبح المعلومات والخبرات معززة لهذا الإبداع، ولو كان القرآن الكريم كأى كتاب لما نشأ على شواطئه علم التفسير، ولما استمرت إبداعات المفسرين إلى يومنا...!!⁽²⁾.
- لا بد لمن يتعامل مع النص القرآني أن يتسم بالتفرقة بين ما هو أصلي موروث، وما هو ديناميكي متغير، كما لا بد أن يكون هناك إطار يتحرك فيه، يفرق فيه بين ما هو ثابت، وبين ما هو قابل للتحويل.
- النص القرآني مفتوح على المعرفة، لأنه جاء صالحاً لكل زمان ومكان، وليس ليئة دون أخرى أو عصر دون آخر.
- علم اللغة النصي هو ذلك الفرع من فروع علم اللغة الذي يعني بدراسة النص باعتباره الوحدة اللغوية الكبرى، وذلك بدراسة جوانب عديدة أهمها الترابط والتماسك ووسائله وأنواعه والسياق وغيرها.

1- سورة النساء: الآية 82.

2- بحوث ودراسات إسلامية: محمد إبراهيم عبد الرحمان، ص 177.

- الإتجاه الأسلوبي يعنى بوصف الاختيارات اللغوية التي يعمد إليها المبدع لتوصيل رسالته، واللجوء إلى وصف الظاهرة الأدبية، ومدى تميز المبدع فيها، ولذا فإن منهج هذا الإتجاه منهج وصفي.
- تمكن الدراسة الأسلوبية من التمييز للإختيارات والانحرافات في النص الأدبي حيث تعدد مفاتيح تمكننا من العالم الشعوري الكائن وراء النص الأدبي.
- تعد نظرية السياق من أحدث النظريات اللغوية في تفسير النص القرآني، وقد تجلّى هذا الإتجاه في الدراسة الرائدة التي قام بها تمام حسان في كتابه (البيان في روائع القرآن).
- إن لغة العرب هي أهم الوسائل في فهم هذا النص القرآني، حيث نزل بها القرآن الكريم ومهما تطورت مناهج هذه اللغة، وتعددت مدارسها فإنها خادمة لهذا القرآن معينة على فهمه وتأمّله.
- وهكذا يظل النص القرآني غنياً بعطائه يجد فيه كل ذي مأرب مأربه، وصاحب كل إتجاه بغيتسه ليوكب كل جديد، ويناسب كل العصور إذا وجد المفسر الذي يجيد الإبحار في أعماقه بعد أن يتسلح بما يحميه من مغبات الجهل وعواقب الهوى⁽¹⁾.

الآية العظمى والمعجزة الكبرى (القرآن الكريم):

لقد اهتم أصحاب الدراسات اللغوية والقرآنية قديما وحديثا بدراسة القرآن الكريم من حيث صفاء اللفظ وفصاحته إلى دقة تركيبه وبلاغته وحسن أسلوبه وجزالته، وتناسق أجزاءه وتربطها وثبات نص وحركة مضمون متحدد بتحدد الحياة مكانا وزمانا تحقيقا لمقولة صلاحيته لكل زمان ومكان.

فكتبوا لذلك في مختلف علومه وصور إعجازه واستنباط أحكامه بحسب خلفياتهم المعرفية وتراكمها وبحسب تخصصاتهم العلمية ودقتها ومناهجها فكان بذلك القدوة والمحتذى بغض النظر عما يتمتع به من قداسة وإجلال في نفوس المؤمنين وقد قال بدر الدين الزركشي "لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه"⁽¹⁾.

وإلى مثل هذا ذهب أبو بكر بن عربي فجعل علوم القرآن لا تتناهى إذا راعينا الروابط والتراكيب وهذه العلوم إذا حصرت باعتبار كلمات القرآن فهي "خمسون وأربعمائة وسبعة وآلاف علم وسبعون ألف علم على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة، قال بعض السلف: إذ لكل كلمة ظاهر وباطل وحد ومقطع، وهذا مطلق دون اعتبار تركيبه وما بينها من روابط وهذا ما لا يحصى ولا يعلمه إلا الله عز وجل"⁽²⁾.

إن سيادة هذا المفهوم للقرآن وسيطرته التي أدت في النهاية إلى نقل فعاليته وإدراكه من المجال اللغوي إلى مجال السيميوطيقا؛ وذلك من فصل النظرة إليه من الخارج عن الداخل والتعميم دون التخصيص انطلاقا من معايير خارجية عن قوانين اللسان العربي المبين الذي أثبتته القرآن الكريم لنفسه بنصوص صريحة لا تقبل التأويل منها:

- 1- قوله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾⁽³⁾.
- 2- قوله جل ثناؤه: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾⁽⁴⁾.

ومن هذا المنطلق يمكن أن نستشف بوادر وعي لم يتبلور آنذاك بأن النص القرآني ثابت لفظا حتى أحصيت كلمه ومتحرك معني ومضمونا بحسب التراكمات المعرفية نتيجة الرقي العقلي والتطور المعرفي

1- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 29.

2- المصدر نفسه: ج 01، ص 38.

3- سورة النحل: الآية 103.

4- سورة الشعراء: الآيات 192-195.

العلمي يتقدم الزمن وذلك من خلال ما ورد به من قرائن لفظية تثبت ذلك مثل (لو أعطي العبد بكل حرف ألف فهم، لم يبلغ ما أودعه الله في آية من كتابه). ومثل (إن لكل كلمة ظاهر وباطن... ما لا يحصى وأصدق مثل على ما استنتجناه قوله: "لا نهاية لفهم كلام الله" وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح عليه بمعنى ما يكتسبه من معرفة وعلم بحكم اختصاصه وخلفيته المعرفية ومكانه وزمانه وانتماءته المدرسية والعقدية، مما جعل معايير تناول مختلفة، ومناهج البحث متباينة.

إذن فالقرآن كان وما زال وسيبقى حجة الله على العالمين ولكن علينا نحن أن نعرف مواضع ومواقع إعجازه لعصرنا لكي تستمر الرسالة وكأنها جاءت اليوم لتنظر إلى منطلق علماء الإسلام السابقين في طريقة فهمهم لنبوة النبي ومعجزة القرآن، وكيف كانت تعمل عندهم، ونقارنها بمنطق علماء اليوم في نظرهم وفهمهم لنبوة النبي ومعجزة القرآن؟

يقول الباقلاني: "إن نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم- معجزتها القرآن الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن أن نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام بنيت على هذه المعجزة؛" ويصف هذه المعجزة بقوله: "فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة عمت الثقلين، وبقيت بقاء العصرين، ولزوم الحجة بما في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد"⁽¹⁾.

ولكن هل يمكن إدراك الإعجاز بسهولة حتى وإن كان إعجازا لغويا فقط كما كانوا يظهرون؟ يقول الباقلاني: "يجب أن تعلم أن من حكم المعجزات إذا ظهرت على الأنبياء أن يدعوا فيها أنها من دلائلهم وآياتهم لأنه لا يصح بعثة النبي من غير أن يؤتى دلالة ويؤيد بآية، لأن النبي لا يتميز من الكاذب بصورته ولا بقول نفسه ولا بشيء آخر سوى البرهان الذي يظهر عليه فيستدل على صدقه، فإذا ذكر لهم أن هذه آيتي وكانوا عاجزين عنها صح له به ما ادعاه، ولو كانوا غير عاجزين عنها لم يصح أن يكون برهانا له وليس يكون معجزا إلا بأن يتحداهم إلى أن يأتوا بمثله فإذا تحداهم وبأن عاجزهم صار ذلك معجزا وإنما احتيج من باب القرآن، إلى التحدي لأن من الناس من لا يعرف كونه معجزا وإنما يعرف إعجازه بطريق؛ لأن الكلام المعجز لا يتميز من غيره بحروفه وصوته وإنما يحتاج إلى علم وطريق يتوصل به إلى معرفة كونه معجزا فإن كان لا يعرف بعضهم إعجازه فيجب أن يعرف حتى يمكنه أن يستدل به"⁽²⁾.

1- إعجاز القرآن: الباقلاني، ص 31.

2- المنصر نفسه: ص 258.

..... الآية في الدراسات القرآنية
إذن فالسابقون كانوا يحتاجون لمعرفة الإعجاز إلى دراسة وعلم رغم أن الإعجاز كان عندهم لغويا أكثر منه علميا ونظريات علمية فكيف الحال عندنا في الإعجاز العلمي.

نرى أن الأقدمين لم يكونوا يعرفون الإعجاز بداهة بعد أن مضى عصر النبوة وبدأت الأبحاث في علوم القرآن تنتشر ودخل كثير من غير العرب في الإسلام وهم لهم ثقافات وعلوم ليست للعرب كما أن الفصاحة والبلاغة دخلها ضعف كثير، ومن هنا كان يجب أن تقوم المؤلفات الكبيرة لمعرفة إعجاز القرآن، فالذي لا يعرف إعجاز القرآن لا يصدق أنه من الله، وقد يعتبره كتابا من الكتب لأنه مؤلف من حروف وكلمات وموضوع بين دفتي ورقة.

أما من يعرف إعجازه فإن إيمانه يتكامل مع القرآن على أنه كلام الله ومعجزة رسول الله وأن فيه من اليقين الحق الذي لا يقين غيره.

ومن هنا أيضا تعددت أوجه إعجاز القرآن حتى عند القدماء أنفسهم الذين كان التحدي الأول لهم بنعته وبلاغته ومعانيه ولكن من أعجب العجب في هذا القرآن العظيم الذي جاء من رب العالمين لهداية الناس أجمعين أنه يدل على صدقه بنفسه في كل عصر وحين يقول ابن تيمية: "كونه معجزا يعلم بأدلة متعددة والإعجاز فيه من وجوه فهو دليل إعجازه وعنده جمل لبسطها تفصيل طويل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾⁽¹⁾. فهو كاف في الدعوة والبيان وهو كاف في الحجج والبرهان"⁽²⁾.

ونظرا لكون عصرنا الحاضر هو عصر العلم والتكنولوجيا وأن لغة العصر الحالي هي لغة العلم، ولكون القرآن الكريم هو كتاب هداية للناس كافة وليس مقتصرًا على العرب فقط أو الناطقين باللغة العربية الذين يفهمون إعجازه اللغوي والبلاغي فأصبح من اللازم على أصحاب الدراسات القرآنية إظهار أوجه إعجازه المتعددة الأخرى وخاصة البرهان العلمي الذي أصبح أكثر وضوحًا في الوقت الحاضر نتيجة التقدم الحاصل في العلم والتكنولوجيا قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلِتَعْلَمَ نَبَأُهُ بَعْدَ حِينٍ﴾⁽³⁾.

إن تناول القرآن الكريم لقضية العلم تناول فريد، وإن عنايته بتوجيه العقل إلى النظر والتفكير في آفاق الكون ظاهرة في كثير من آياته وبهذه العناية امتاز القرآن الكريم عن سائر الكتب السماوية، لأنه

1- سورة العنكبوت: الآيات، 50-51.

2- التفسير الكبير: ابن تيمية، ج 02، ص 142، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م.

3- سورة ص: الآيات، 87-88.

نزل على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- بعد أن بلغت البشرية رشدها وعرفت من أمر الكون الشيء الكثير، وسارت في طريق المعرفة في حضارات متعاقبة، لذلك فقد اختلفت المعجزة الكبرى لخاتم الأنبياء -محمد صلى الله عليه وسلم- عن معجزات من سبقه منهم، إذ كانت معجزته الكبرى والدائمة هي معجزة علمية عقلية وهي القرآن الكريم يقول الإمام السيوطي "وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادهم وقلة بصيرتهم وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية، لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم؛ ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية والباقية ليراهن ذوا البصائر كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا)⁽¹⁾.

"لقد أهاب القرآن الكريم بالعقل أن يستيقظ من سباته وأن يتفكر في ملكوت السموات والأرض وهذا ما يفسر لنا العناية الواضحة في القرآن باقتياد الإنسان ليرى ويسمع في آفاق هذا الكون العجيب ما يزيد خشوعا أمام حقيقة الألوهية فيمتلئ قلبه خشوعا بأن هذا الكون لم يأت وليد صدفة كما يدعي الجاهلون المتظاهرون بالعلم بل هو صنعة خالق حكيم قادر مدير عليم (جل جلاله)"⁽²⁾.

"وقد حشد القرآن الكريم ما يقرب من خمسين آية في تحريك العقل البشري من وهدة التقليد والتبليد كما حشد عشرات الآيات في إيقاظ الحواس من سماع وبصر ولمس، وعشرات أخرى في إيقاظ التفكير فضلا عن طلب البرهان بل إن القرآن أضاف حقيقة في غاية الأهمية هي أنه أطلق كلمة العلم على الدين كأنما يمزج بينهما في مرحلة العصر القرآني مزجا لافكاك له ومن ثم يغدو العلم والدين سواء في لغة القرآن"⁽³⁾.

"وقد ورد ذكر العلم ومشتقاته في القرآن الكريم في (782) موضعا ووردت المعرفة في (29) موضعا ويتساوي عدد مرات ذكر العلم والمعرفة بعدد مرات ذكر الإيمان ومشتقاته التي وردت في (811) موضعا من القرآن الكريم"⁽⁴⁾.

1- أخرجه البخاري في صحيحه: ينظر الإتيان في علوم القرآن: السيوطي، ج 02، ص 116.

2- الإيمان في القرآن: مصطفى عبد الواحد، ص 16، دار الرائد، مري، بيروت، 1986م.

3- ثقافة العلمانية: عماد الدين خليل، ص 37-39، ط 02، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1975.

4- رحلة الإيمان في جسم الإنسان: حامد أحمد حامد، ص 07، دار القلم، دمشق، 1991.

ومما يؤيد ذلك أن أول آيات الوحي، التي نزلت على قلب المصطفى محمد -صلى الله عليه وسلم- كانت تأمره بالقراءة والتعلم قال تعالى ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (1).

ولكن القرآن المجيد لم يطلب مجرد القراءة والتعلم وإنما طلبهما بأن يكونا في ظل الإيمان وأن تكون (باسم الله)؛ لأن ما في القرآن من مضامين تكفي للرد على كل الحجج والاعتراضات، كما أنها تكفي لتدل وتوضح وتبرهن على حقيقة الدعوة وأنها من الله وتعطي لكل عصر دليلاً يناسبه وتتحدث لكل قوم باللغة التي يفهمونها علماً وفقهاً وحجة وبيانا.

وإذا ما جئنا إلى البحوث المعاصرة والعلماء المحدثين نجد أن قوة الدليل لديهم في الإعجاز القرآني ومما يناسب العصر الحاضر هي بنفس القوة التي كانت لدى القدماء السابقين من العلماء ورغم اختلاف طبيعة دليل كل منهم يقول محمد متولي الشعراوي: "أما الإسلام فلأنه دين خاتم وشامل للبشرية كلها، فلا يمكن أن تكون معجزته حسية تنتهي كسابقاتها فخص الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- بمعجزة تماثل قدر رسالته علو زمان وعلو مكان بحيث أن أي إنسان يؤمن على مرّ الزمن بمحمد يستطيع أن يقول أنا أو من محمد وهذه معجزته. وتابع عيسى لا يستطيع أن يقولها لأن التاريخ هو الذي حدثنا عن معجزة عيسى" (2).

ولما كان طابع العصر الذي نعيش فيه اليوم هو طابع البحوث والاكتشافات العلمية المتعددة في كافة جوانب الكون والحياة، ولما كان كبرياء العالم وقوته اليوم يقوم أساساً على مقدار التقدم الذي توصلت إليه البشرية في هذا الجانب كان على القرآن باعتباره معجزة لكل زمان ومكان أن يظهر إعجازه في هذا الجانب ليكشف للعالم تقدمه وسبقه في الإشارة والتوضيح إلى الحقائق العلمية التي توصل إليها العلم اليوم، بعد أن كان هو قد ذكرها قبل أربعة عشر قرناً، ومن هذا كان ما يسمى بالإعجاز العلمي للقرآن كلغة معاصرة يتحدث بها القرآن إلى الإنسانية جمعاء ليدل على صدقه وصدق نبوة رسولنا الكريم من خلاله وليتحدث للإنسانية اليوم بلغتها ليقم الحجج عليها بنفس قوة الحجج التي أقامها على العرب أيام نزوله الأولى يقول محمد حسن هيتو: "فإننا حين نتكلم عن إعجاز القرآن لا نريد بذلك إقناع العرب فحسب وإنما نريد إقناع العالم بأسره جميعاً في كل زمان ومكان ولذلك يجب علينا أن نخطب البشر بما تستوعبه عقولهم، وأن الجوانب العلمية اليوم من أهم ما يستهوي عقول الناس في الشرق والغرب، فإذا ما رأوا ما يدل على الإعجاز في كتاب الله في جانب العلوم التي يتقونها، هان

1- سورة العلق: الآيات، 01-05.

2- القرآن معجزة ومنهج: محمد متولي الشعراوي، ج2، ص 279، دار الندوة، بيروت، 1984م.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية
عليهم الإيمان والتسليم، إذن فالذي دفع العلماء والمفكرين المسلمين للبحث والتحقيق في جوانب الإعجاز العلمي في القرآن هو الواقع الذي يعيش فيه الناس والذي صارت فيه العلوم أساس الحياة والحضارة الإنسانية⁽¹⁾.

إن هم البشرية اليوم، هو هم علمي، فقد انكشف الغطاء للعقل الإنساني، في هذا العصر ما لم يتكشف له منه في أي عصر مضى من تاريخ الإنسانية، وإحساس الإنسان بموقعه المتميز في الكون والحياة جاءه اليوم من خلال الاكتشافات العلمية وتوظيف النظرية العلمية في الصناعات والتكنولوجيا التي استطاع من خلالها أن يصل إلى القمر فيمشي عليه متبخرًا، كما استطاع أن يسير أعماق الذرة والكون والمجرات والسدم مستخدمًا لحسابه السنين الضوئية كما استطاع أن يسير أعماق الذرة ليصل إلى أخطر قانون علمي اكتشف حتى الآن وهو تحول الطاقة إلى مادة والمادة إلى طاقة وهي علوم الحياة بحث أسرار الخلية الحية حتى تعرّف على اللغة الكيميائية في أعماق الخلية وبدأ يدرس الهندسة الحيوية والوراثية ويتحكم في صفات الجنس البشري⁽²⁾.

لقد أصبح العالم كمادة في يد العالم المعاصر كالعجينة في يد الخباز. بدورها ويمطها كما يشاء، هكذا العالم الذي تتلاعب به قوانين الكتلة والطاقة والسرعة حتى حطمته وكشفت مجهولاته التي كانت في السابق تحكمها الأساطير والخرافات والمعقولات الساذجة والفتحة، بل إن الإنسان أخذ يتحدث عن تاريخ العالم والكون بداية ونهاية، ويحسب دوران الفلك والفضاء وانتهائه إلى أمده أو عمره الكيميائي والفيزيائي، وقد غابت المستحيلات العقلية التي كانت تحجم الفكر عند حدود ضيقة، وهكذا طار الإنسان في الفضاء يلاحق النجوم والكواكب والمجرات ويطلق الأقمار الصناعية والمركبات الفضائية إلى أعماق الكون عله أن يجد حافة الكون ليبحث وراءه عما يكون هناك وتعمق في الذرة تحليلًا حتى بلغ اللامنظور، وتبحرت تسميات المادة التي تحولت إلى طاقة شعاعية فحسب، مما قضى على مفهوم المادة والجسمية بالمعاني القديمة ليدخل بدلها مفهوم الضوء والطاقة.

إذن حتى اللغة العلمية ومصطلحاتها اليوم أصبحت تختلف اختلافًا كبيرًا جدًا بل ومتناقضًا مع مفردات اللغة القديمة ومفاهيمها، فكيف استطاع القرآن في هذا العصر الذي كل ما فيه علم في عنم أن يفرض إعجازه علميًا على هذا العصر ذي اللغة المختلفة كليًا؟ بل وكيف يمكن للقرآن أن يدخل مجال

1- المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 148.

2- الإعجاز العلمي في القرآن، (تأصيل فكري ومنهج): سامي أحمد الموصلي، ص 18، ط 01، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1422هـ-2001م.

هذه العلوم ليتجاوزها وهو أصلاً كتاب هداية واعتبار وليس كتاب علم واختبار كما أجمع عليه السلف والخلف⁽¹⁾؟

يقول عبد الوهاب خلاف: "القرآن أنزله الله على رسوله ليكون حجة له ودستورا للناس، ليس من مقاصده الأصلية أن يقرر نظريات علمية في خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وحركات الكواكب وغيرها من الكائنات، ولكنه في مقام الاستدلال على وجود الله ووحدانيته وتذكير الناس بآلائه ونعمه، ونحو هذا من الأغراض جاء بآيات تفهم منها سنن كونه ونواميس طبيعية كشف العلم الحديث في كل عصر براهينها وذل على أن الآيات التي لفتت إليها من عند الله؛ لأن الناس ما كان لهم بها من علم وما وصلوا إلى حقائقها وإنما كان استدلالهم بظواهرها، فكلما كشف البحث العلمي سنة كونية، وظهر أن آية في القرآن أشارت إلى هذه السنة قام برهان جديد على أن القرآن من عند الله، وإلى هذا الوجه من وجوه الإعجاز أرشد الله سبحانه بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثَمٌّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مَعْنٍ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ، سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾⁽²⁾.

وهنا إعجاز آخر لم يطرأ على البال، فإذا كان القرآن هو كتاب هداية واعتبار قد أشار في مضامينه عرضاً إلى سنن الكون، فجاءت كل اكتشافات العالم المعاصر تؤيدها وتدعها، فكيف لو اتجه حقا لأن يكون كتاب علم واختبار؟ لا شك أنه سيكون أكبر من أنه يسعه العقل البشري ولأعطى اليقين والحقيقة في كل شيء مباشرة، دونما حاجة إلى توسطات التجارب، ووسائل الاحتمالات والإحصاءات وسيكون هو مقياس الحقائق ذاتها؛ لأنه أعرف بما منها بنفسها. لماذا؟ لأن قائل القرآن هو خالق الأكوان مجال العلم والمعرفة يقول محمد متولي الشعراوي: "إن القرآن كلام الله والكون خلق الله وحقائق الكون الموجودة فيه والتي خلقها الله لا بد أن تتسجم مع كلام الله، فلا يكون هناك تضارب، فإن حصل ما ظاهره التضارب فيما أنك فهمت حقيقة قرآنية، وهي ليست حقيقة قرآنية، وليس هذا المراد من الحقيقة القرآنية، وإما أنك أتيت بشيء ليس حقيقة علمية وقلت هو حقيقة علمية، ولكن إذا أكدنا أن هذه حقيقة قرآنية - وهذا هو الفرق - وهذه حقيقة علمية فلا بد أن يلتقيا؛ لأن قائل القرآن هو خالق الكون"⁽³⁾.

1- الإعجاز العلمي في القرآن (تأصيل فكري وتاريخ ومنهج): سامي أحمد الموصلي، ص 18.

2- سورة فصلت: الآيات 52-53، وينظر علم أصول الفقه: عبد الوهاب خلاف، ص 29، ط 01، الزهراء للنشر والتوزيع، الجزائر، 1990م.

3- هذا هو الإسلام: محمد متولي الشعراوي، ص 204، الدار المصرية للنشر، مصر، 1987.

بل إن بعض المفسرين والباحثين يوحّدون في المعنى بين الكون المنظور وهو الوجود والكون المقروء وهو القرآن الكريم، ويعتبرون أن الكون المنظور هو أدق تفسير للكون المقروء وليس العكس يقول محسن عبد الحميد متحدثاً عن مدرسة الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا في التفسير العلمي، أنه يجب "الانطلاق من المبدأ القائل كلما ازدادنا معرفة بما في الوجود من الأسرار والقوانين ازدادنا علماً بما في كتاب الله ذلك؛ لأن الكون المنظور أعظم وأدق تفسير للكون المقروء فلا بد إذن من الاستفادة من العلوم المتنوعة والثقافات الإنسانية المتعددة الحديثة في تفسير القرآن الكريم في داخل الضوابط الأصولية المعروفة بين علماء الإسلام التي تضبط الاتجاه لحركة تفسير القرآن في كل عصر"⁽¹⁾.

لقد جاء القرآن الكريم شاملاً للآيات المنظورة بأظهر برهان، والآيات المسطورة بأوضح بيان "لأن آيات الله المتلوة هي مفاتيح آيات الله الكونية، وآيات الله المشاهدة المنظورة هي تصديق وتحقيق لآيات الله المرتلة فكلاهما كلمات الله وآياته البينات ومعجزاته الباهرات ومن الخير الإمام بكل مظهر منها إلتماساً للتوضيح والبيان وإن كانا في النهاية يلتقيان"⁽²⁾.

إن من يتدبر آيات الله الكونية يجدها مطابقة ومصدقة لآيات الله المتلوة وكتلتها تؤدي إلى الإيمان الصادق العميق سواء عن طريق التفكير العقلي أو النظر الحسي، علماً أن الحقيقة العلمية لا تتناقض ولا تتعارض مع الحقيقة القرآنية، لأن مصدرها واحد هو الله سبحانه وتعالى حيث أن القرآن الكريم كلام الله وكتابه المسطور، والكون هو خلق الله وكتابه المنظور ولن يحدث تعارض بين العلم والقرآن إلا إذا ضل العلم طريقه أو أخطأنا نحن فهم وتفسير الآية القرآنية وقد قال موريس بوكاي: "أن القرآن الكريم لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث"⁽³⁾، وهذا مصداق لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾⁽⁴⁾.

فالقرآن الكريم -إذن- لا يتناقض مع أي حقيقة علمية ثابتة، ونحن في زمن الكشوف العلمية الغزيرة، وهو مليء زاحر بالآيات التي تتحدث عن الكون والحياة والإنسان وقصة الخلق مما يجعل من يتعرض لكل ذلك وما يتصدى له عرضة للخطأ ولو تجرأ بسبب مما ساقه وعرضه، ولكن أن تأتي كل ذلك ثم لا تكذبه الكشوف العلمية الدقيقة الصادقة، ولا يتناقض معها على الإطلاق لدليل عظيم على

1- تطور تفسير القرآن: محسن عبد الحميد، ص 221، بغداد، 1408هـ.

2- فلسفة المعرفة في القرآن الكريم: علي عبد العظيم، ص 206، الطبعة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1973م.

3- القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلوم (دراسة الكعب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة): موريس بوكاي، ص 17.

4- سورة سبأ: الآية 06.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية
أنه ليس من قول بشر ألفه قبل أربعة عشر قرناً، ونحن في هذا الزمن نجد العالم الراسخ القدم في علمه
يقرر حقيقة تستند إلى دراسات وملاحظات دقيقة طويلة ومقدمات صادقة وأبحاث مترابطة معقدة، ثم
تأتي النتيجة ليكذبها ككشف جديد أثبت منه وأصدق... ولكننا نجد أن ما قرره القرآن الكريم صادق
كله، ولم يأت العلم الصحيح ليقول إن هذه النقطة خطأ، أو تلك كاذبة، بل جاء العلم ليصدق كل
حقيقة طرحها القرآن الكريم يقول الزركشي: "وكل علم من العلوم منتزع من القرآن، وإلا فليس له
برهان"⁽¹⁾.

لقد أفاض العلماء في الكلام عن إعجاز القرآن والبحث في وجوهه، وتعددت آراؤهم في ذلك
فذهب بعضهم إلى أن الإعجاز منحصر في نظم القرآن، وبلاغة تعبيره، وذهب بعضهم إلى أن الإعجاز
متركز في معاني القرآن وما تضمنه من تشريع وحكمة وبيان لأسرار الخلق وأخبار ما مضى وما هو آت،
وجمع آخرون بين المذهبين وقالوا: إن الإعجاز كائن في نظم القرآن وفي معانيه معاً، وفرق آخرون بين
ما هو من الإعجاز وما هو دليل على صدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- مما ورد ذكره في القرآن
من أسرار الخلق وذكر المعجيات.

ولم تزل دراسات الإعجاز القرآني في عصرنا قائمة واتجاهاتها متعددة، وقد وسعت الاكتشافات
العلمية الكبيرة في هذا العصر من دائرة البحث في أسرار القرآن للوقوف على آفاق جديدة من وجوه
إعجازه، وقد وجدنا أن عرض مناهج العلماء والباحثين في دراسة إعجاز القرآن الكريم أمر مفيد إن لم
يكن ضرورياً، ومن أجل، ألا تظهر تلك الدراسات وكأنها تسير في اتجاهات متضادة، ومن أجل أن
نكشف الإطار الكبير للإعجاز القرآني الذي نجد فيه كل دراسة مكافئ الذي لا يتعارض مع غيرها من
الدراسات.

ومن ثم فإننا في هذه الدراسة سوف نقتصر على عرض المناهج، مع التركيز على الاتجاهات العامة
في دراسة الإعجاز من غير الخوض في التفاصيل من أجل الوقوف على المنهج الذي يمكن أن يكون
أكثر ملاءمة للكشف عن أسرار القرآن وإظهار وجوه إعجازه.
وذلك من خلال النقاط الآتية:

- 1- الإعجاز القرآني في عصر النبوة وما بعدها
- 2- مناهج العلماء في تحديد وجوه الإعجاز
- 3- ملامح المنهج الأمثل

1- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 01، ص 28.

أولاً: الإعجاز القرآني في عصر النبوة وما بعدها

الإعجاز مصدر على وزن إفعال من العجز، وفعله أعجز، والفعل الثلاثي المجرد عجز يعجز ويقال: عجز أيضاً، وعجز عن الأمر إذا قصر عنه، وأعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه، والعجز الضعف⁽¹⁾.

والإعجاز في الاصطلاح: هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عمل أو رأي أو تدبير⁽²⁾. والمعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة⁽³⁾، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، وأيد الله نبينا محمداً -صلى الله عليه وسلم- بحملة من المعجزات "وأفضل معجزاته وأكملها وأجلها وأعظمها القرآن الذي نزل عليه بأفصح اللغات، وأصحها، وأبلغها، وأوضحها، وأثبتها، وأمتنها، بعد أن لم يكن كاتباً ولا شاعراً ولا قارئاً، ولا عارفاً بطريقة الكتابة، واستدعاء من خطباء العرب العرباء وبلغائهم وفصائحهم أن يأتوا بسورة من مثله، فأعرضوا عن معارضته، عجزاً عن الإتيان بمثله، فتبين بذلك أن هذه المعجزة أعجزت العالمين عن آخرهم"⁽⁴⁾.

ولم يكن مصطلح الإعجاز قد تميز في عصر النبوة وإن كان معناه قائماً معروفاً، فقد روى البخاري أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة"⁽⁵⁾. قال ابن حجر: "أي أن معجزتي التي تحديت بها هي الوحي الذي أنزل علي، وهو القرآن الكريم لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح"⁽⁶⁾.

وقد جاء في القرآن ما يؤكد أنه أكبر معجزاته -صلى الله عليه وسلم- قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾⁽⁷⁾. فكان القرآن يثبت المؤمنين بينما ظل المشركون في حيرتهم يترددون.

1- لسان العرب: ابن منظور "مادة عجز"، ج07، ص236.

2- بصائر ذوي التمييز: الفيروز آبادي، ج01، ص65.

3- الإنقان في علوم القرآن: السيوطي، ج02، ص116.

4- بصائر ذوي التمييز: الفيروز آبادي، ج01، ص67.

5- الإنقان في علوم القرآن: السيوطي، ج02، ص116.

6- فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، ج09، ص06، أخرجه محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، المطبعة السلفية.

7- سورة العنكبوت: الآيات، 50-51.

..... الآية في الدراسات القرآنية
 وكان المعاندون يفرعونهم القرآن وهو يتلى على الناس من حولهم فيكون له ذلك التأثير الهائل في نفوسهم حين يتحولون من الكفر إلى الإيمان فشنوا حملة للتشكيك في القرآن وفي صدق النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد حكى القرآن بعضاً من تحمصاتهم تلك حيث يقول الله تعالى:

- 1- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾⁽¹⁾.
- 2- ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاتٌ أَحْلَامٌ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾⁽²⁾.
- 3- ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَرُكَو الْهَتَا لَشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾⁽³⁾.
- 4- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾⁽⁴⁾.
- 5- ﴿وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾⁽⁵⁾.

و لم تكن أقوال المشركين الباطلة في القرآن الكريم لتوقف سير الدعوة أو لتقنع المشركين أنفسهم بصدق دعواهم، فقد كانوا متحيرين في أمرهم، لا تكاد نفوسهم تستقر على شيء حتى تتحول عنه لكن الله تعالى لم يدع تلك الأقاويل الباطلة لتؤثر في النفوس الضعيفة، فردها عليهم من أبسط طريق، حين تحداهم بالقرآن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور، أو بسورة واحدة فقال الله تعالى: ﴿قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾⁽⁶⁾. وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾⁽⁷⁾. فقد ثبت بما بيناه أنه تحداهم إليه، و لم يأتوا بمثله، وفي هذا أمران:

أحدهما: التحدي إلى القرآن، وهو تحد قائم طوال حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.
 والثاني: أن المشركين عجزوا عن الإتيان بمثله أو مثل بعضه وهو عجز يدل عليه النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري، فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين⁽⁸⁾.

1- سورة سنا: الآية 43.

2- سورة الأنبياء: الآية 05.

3- سورة الصافات: الآية 36.

4- سورة الفرقان: الآيات 04-05.

5- سورة الأنفال: الآية 31.

6- سورة الإسراء: الآية 88.

7- سورة الطور: الآيات، 33-34.

8- إعجاز القرآن: الباقلان، ص 41، وينظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 02، ص 102.

والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الاتيان بمثل القرآن أنه تحداهم إليه حتى طال التحدي، وجعله دلالة على صدقه -صلى الله عليه وسلم- ونبوته وضمن أحكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسي ذريتهم، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا وتوصلوا إلى تخلص أنفسهم وأهلهم من حكمه بأمر قريب، هو عادتهم في لسانهم ومألوف من خطابهم وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال، وإكثار المراء والجدال، وعن الجلاء عن الأوطان، وعن تسليم الأهل والذرية للسي، فلما لم تحصل هناك معارضة منهم علم أنهم عاجزون عنها⁽¹⁾.

كان عجز المشركين من العرب عن معارضة القرآن -إذن- حقيقه لا جدال حولها، وكان عجز غير العرب عن ذلك أوضح، لأن العرب -وهم المتكلمون باللغة المنزل بها- عجزوا عن ذلك مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ النَّاسِ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾⁽²⁾.

ثم مضت سنوات كثيرة وجاء عصر تدوين العلوم الإسلامية، وبحث العلماء شتى المسائل المتعلقة بنص القرآن وتاريخه، ونالت مباحث إعجاز القرآن قسطا ليس بالقليل من جهودهم، وكتبت في ذلك فصول وكتب مستقلة في البحث عن سر الإعجاز وبيان وجوهه وتوضيحها، وسقف على مناهج العلماء في ذلك.

ثانيا: مناهج العلماء في دراسة الإعجاز القرآني

إن ما كتب في بيان وجوه إعجاز القرآن لا يستوعبه كتاب، بل تقصر عنه المجلدات وليس من غرضنا هنا الدخول في تلك التفصيلات، وإنما القصد متجه إلى الوقوف على طريقة المؤلفين في تحديد وجوه الإعجاز، للتعرف على الاتجاهات والموازنة بينها وتحديد أقربها إلى طبيعة الموضوع وحاجة العصر، وسوف أقتصر في العرض على أشهر المؤلفين في الإعجاز وعلى أشهر المناهج فيه؛ لأن تقصي ذلك كله أمر خارج عن حدود هذا البحث.

1- تكاد كلمة العلماء تتفق على أن الجاحظ (ت 255هـ) هو أول من درس موضوع الإعجاز في كتاب مستقل، حيث يذكر له المؤرخون كتاب (نظم القرآن)⁽³⁾، والظاهر أن الجاحظ يذهب إلى أن

1- إعجاز القرآن: البقلاوي، ص 43، وينظر بيان إعجاز القرآن: الخطابي، ص 21، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف، ومحمد زغلول، ط04، دار المعارف.

2- سورة البقرة: الآيات، 23-24، وينظر النكت في إعجاز القرآن: الرماني، ص 109.

3- ينظر الفهرست: ابن النديم، ص 61، وينظر إعجاز القرآن: البقلاوي، ص 27.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية
إعجاز القرآن كائن في نظمه وتأليفه، وهو يرد في ذلك على شيخه إبراهيم بن سيار النظام
(ت 224هـ) الذي ذهب إلى أن الإعجاز كائن في أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته، ولولا
ذلك لكان في مقدورهم الإتيان بمثله، ويسمى هذا المذهب بالصرفة وهو قول أنكروه جمهور العلماء
وردوه⁽¹⁾.

2- ومن أقدم الكتب التي عالجت الموضوع كتاب (بيان إعجاز القرآن) لأبي سليمان حمد بن محمد بن
إبراهيم الخطابي (ت 388هـ) الذي استهله بقوله: "قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديما وحديثا،
وذهبوا فيه كل مذهب من القول"⁽²⁾.

ثم عرض الخطابي ثلاثا من تلك المذاهب، لكنه لا يوافق القائلين بها، وهي:

أ- ذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة، وهو ينكر ذلك.

ب- وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان،
وهو يقول: ولا يشك في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه ولكنه ليس بالأمر
العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة
بنفسها⁽³⁾.

ج- وزعم آخرون أن إعجازه من جهة بلاغته، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر، لكنه يأخذ
عليهم أنهم إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة لم يتمكنوا وقالوا: إن ذلك شيء لا يمكن تصويره
وأنه يظهر أثره في النفس حينما لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به.

ويتلخص رأي الخطابي في إعجاز القرآن بقوله: "واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء
بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمنا أصح المعاني..."⁽⁴⁾.

والثفت إلى الأثر الذي يتركه سماع القرآن الكريم في النفس، وجعله أحد وجوه الإعجاز ولتمييزه
في ذكر هذا الوجه أنقل نص كلامه، قال: "في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد
يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن
منظوما ولا متثورا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة

1- ينظر بيان إعجاز القرآن: الخطابي، ص 22، وينظر إعجاز القرآن: البيهقي، ص 54، وينظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 02،
ص 104-105، وينظر للمعجزة الكبرى: أبو زهرة، ص 57، دار الفكر العربي، القاهرة، 1418هـ-1998م.

2- بيان إعجاز القرآن: الخطابي، ص 21.

3- المصدر نفسه: ص 22-24.

4- المصدر نفسه: ص 27.

في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجع والقلق وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتترعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول -صلى الله عليه وسلم- من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالته ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيمانا...⁽¹⁾.

3- وألف أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت 386هـ) كتاب "النكت في إعجاز القرآن"، وقال في أوله: "وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات: ترك المعارضة مع توفر الدواعي، وشدة الحاجة والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة وقياسه بكل معجزة"⁽²⁾.

ثم بين تلك الوجوه، وقد استغرق حديثه من البلاغة وأقسامها معظم الكتاب⁽³⁾.

وخلاصة رأي الرماني في الإعجاز أن القرآن معجز بنظمه وبيانه، وذلك؛ لأنه خرق العادة في هذه الناحية، فلم يكن ما تضمنه شعرا يقيد الوزن والقافية، ولكنه جاء كلاما جميلا لطيفا خالبا من الوزن الذي يعد من مستلزمات جمال الشعر، وأن أقصر سورة منه معجزة كأطول سورة فيه، وهذا الوجه هو الذي اعتمده الرماني في إعجاز القرآن، وكان يدور حوله، ولا يخلو وجه من وجوه الإعجاز الأخرى التي ذكرها إلا وتضمنه ما عدا القول بالصرفة الذي لا ينسجم مع ما قرره الرماني من وجوه الإعجاز الأخرى؛ لأن القول بالصرفة ينقض كل ما قاله الرماني من تلك الوجوه⁽⁴⁾.

4- وفصل أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي (ت 403هـ) وجوه الإعجاز في كتابه (إعجاز القرآن) وذكرها ملخصة في كتابه (الانتصار لنقل القرآن) وهي عنده ثلاثة أوجه:
أحدها: ما تضمنه من الإخبار عن الغيوب، وما يحدث وما يكون، وذلك مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم إليه.

1- بيان إعجاز القرآن: المخطوط، ص 70.

2- النكت في إعجاز القرآن: الرماني، ص 75.

3- للمصدر نفسه: ص 75-109، وبقيّة الوجوه، ص 109-113.

4- إعجاز القرآن وعلم المعاني: عمر الملاحوش، ص 167، ط 01، مكتبة الفلاح، الكويت، 1407هـ-1986م.

الوجه الثاني: ما تضمنه من قصص الأولين، وأخبار الماضين التي لا يعرفها إلا من أكثر ملاقاته الأمم، ودراسة الكتب، مع العلم بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان أمياً، ولم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبأهم وسيرهم.

الوجه الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه⁽¹⁾.
5- ومن اعتنى بإعجاز القرآن أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان الجرجاني (ت 471هـ)، وكتب في ذلك (الرسالة الشافية) التي ضمنها جملاً من "القول في بيان عجز العرب حين تحددوا إلى معارضة القرآن، وإذعائهم وعلمهم أن الذي سمعوه فائت للقوى البشرية ومتجاوز للذي يتسع له ذرع المخلوقين..."⁽²⁾.

وهذه الرسالة كتبها عبد القاهر ليثبت حقيقة الإعجاز لا ليبين أسرارها أما تفصيل القول في أسرار الإعجاز فقد جاء في كتابه (دلائل الإعجاز) وتتلخص فكرته عن الإعجاز الذي ألف الكتاب لتأكيدا في قوله: "إذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عددنا، لم يبق إلا أن يكون في النظم، لأنه ليس من بعد ما أبطلناه أن يكون فيه إلا النظم والاستعارة، ولا يمكن أن تجعل الاستعارة الأصل في الإعجاز، وأن يقصر عليها؛ لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في أي معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة وإذا امتنع ذلك فيها، ثبت أن النظم مكانه الذي ينبغي أن يكون فيه... وكنا قد قلنا أن ليس النظم شيئاً غير توحي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم"⁽³⁾.

يقول نعيم الحمصي: "أشهر من تكلم في قضية الإعجاز، في القرن السادس متكلمان أحدهما له أبحاث واسعة في الفلسفة وهو الغزالي، والثاني مؤلف في السيرة النبوية وهو القاضي عياض..."⁽⁴⁾.
وستحدث على كل واحد منهما على حدة فيما يلي:

– الإمام الغزالي (ت 505هـ)

يرى الغزالي أن القرآن مسوق لمعنى واحد وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى وصرفهم عن الدنيا إلى الدين⁽⁵⁾.

1- إعجاز القرآن: الباقلان، ص 57-59، وينظر نكت الانتصار، ص 58-242، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية.
2- الرسالة الشافية: عبد القاهر الجرجاني، ص 117.
3- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص 292-293.
4- فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، ص 91.
5- الإتيان: السيوطي، ج 02، ص 124.

وكان يذهب إلى أن في القرآن جميع العلوم الدينية والدينيوية، وأنها كامنة في مطاويه لا يدركها إلا العالمون، فكأنه يرى أن هذا وجه من وجوه الإعجاز؛ لأنه إنما ذكره قاصداً به أن يبين عظمة القرآن. يرى الذهبي أن الإمام الغزالي كان -إلى عهده- أكثر من استوفى بيان هذا القول في تفسير القرآن، وأهم من أيده وعمل على ترويجه في الأوساط العلمية والإسلامية⁽¹⁾.

ويفصل الدكتور نصار: تعرض الغزالي للعلوم في القرآن، وأن ذلك كان من خلال ثلاثة من كتبه هي: جواهر القرآن، وإحياء علوم الدين، وثمافت الفلاسفة فقد وصف القرآن في الكتاب الأول بالبحر المحيط، الذي يتشعب منه علم الأولين والآخرين، كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها لها، وجعل هذه العلوم أصنافاً:

- 1- العلوم الدينية التي لا بد من وجود أصلها في العالم حتى يتيسر سلوك طريق الله والسفر إليه.
- 2- علوم الطب والنجوم وهيئة العلم وهيئة بدن الحيوان وتشريح أعضائه والسحر والطلسمات وغير ذلك.
- 3- علوم لم تخرج بعد إلى الوجود، وإن كان في قوة آدمي الوصول إليها.
- 4- علوم كانت قد خرجت إلى الوجود، واندرست، فلا يوجد في هذه العصور على بسيط الأرض من يعرفها.
- 5- علوم ليس في قوة البشر إدراكها والإحاطة بها، ويحظى بها بعض الملائكة والمقربين⁽²⁾.

ويؤكد الذهبي ما نقله عن الغزالي في الإحياء، عن بعض العلماء: "إن القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم، إذ كل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع" ثم يروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن". ثم يقول: "وبالجملة فالعلوم كلها داخلية في أفعال الله عز وجل وصفاته" وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها، ثم يزيد على ذلك فيقول: "بل كل ما أشكل فهمه على النظر، واختلف فيه الخلاق في النظريات، والمعقولات في القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها"⁽³⁾.

1- التفسير والمفسرون: محمد حسن الذهبي، ج2، ص 349.

2- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: حسين نصار، ص 35-36، العدد 592، دار الغلال، ذو الحجة، أبريل، 2000م.

3- إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي، ج1، ص 346، تقدم له عبد الرؤوف، ط01، مكتبة الصفا، القاهرة، 1423هـ-2003م،

وينظر التفسير والمفسرون، الذهبي، ج2، ص 349.

وبعد أن يذكر الغزالي العلوم ويذكر أن منها ما سوف يوجد ومنها ما اندرست، يذكر أن أوليات العلوم كلها في القرآن، فإنها جميعها مغترقة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال...

ويشير أخيراً إلى أنه لو ذهب يفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ولا يمكن الإشارة إلى مجامعها⁽¹⁾.

ثم يبين في كتاب (الجواهر) الذي ألفه بعد (الإحياء) فيؤكد الذي قرره في الإحياء بيانا وتفصيلا، ثم يعقد فصلا لانشعاب العلوم الدينية كلها، وما يتصل بها في القرآن عن تقسيمات وتفصيلات... ثم إنه قسم العلوم القرآنية إلى قسمين:

الأول: علم الصدف والقشر، وجعل من مشتملاته علم اللغة، وعلم النحو، وعلم القراءات، وعلم مخارج الحروف، وعلم التفسير⁽²⁾.

والآخر: علم اللباب وجعل من مشتملاته: علم قصص الأولين، وعلم الكلام، وعلم الفقه، وعلم أصول الفقه والعلم بالله واليوم الآخر، والعلم بالصراط المستقيم، وطريق السلوك⁽³⁾.

ويشير الدكتور فهد الرومي إلى ما عقده الغزالي في الفصل الخامس من كتاب (الجواهر)، وجعله لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن فيذكر علم الطب والنجوم وهيئة العالم، وهيئة بدن الحيوان وتشريح أعضائه، وعلم السحر، وعلم الطلسمات وغير ذلك ثم يقول: "هذه العلوم ما عدناها وما لم نعدنا ليست أوائلها خارجة عن القرآن فإن جميعها مغترقة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى، وهو بحر الأفعال وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مدادا لكلمات الله لنفد البحر قبل أن تنفذ..."⁽⁴⁾.

وللمتأمل أن يسأل عن توقف الغزالي من خلال هذه النصوص وغيرها الدالة على أن في القرآن رموزا وعلامات، ودلالات وأوائل، ومجامع العلوم لا تدل دلالة كاملة على موقف صاحبها، وإن كانت صريحة في تأييد التفسير العلمي إلا أنها تقصر عن تحديد مدى هذا التأييد.

- 1- إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي، ج 01، ص 351، وينظر جواهر القرآن ودرره، ص 25، تحقيق: رضوان جامع، ط 01، دار الحرم لنتراث، القاهرة، 2004، وينظر فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، ص 91.
- 2- جواهر القرآن ودرره: أبو حامد الغزالي، ص 18-19.
- 3- المصدر نفسه: ص 20-22.
- 4- المصدر نفسه: ص 24.

وهذه النصوص باختصار تدل على أن قائلها قد وضع الأسس النظرية للتفسير العلمي وبعبارة أخرى، أصرح وأوضح: إن الغزالي روح للتفسير العلمي، ومهد السبيل لمن أراد سلوكه وإن كان هو لم يسلكه لكن جاء من بعده وقريب منه من التزم هذا النوع التزاماً⁽¹⁾.

- ويبحث القاضي عياض بن موسى (ت 544هـ) الإعجاز وحصره في أربعة وجوه هي:

- 1- حسن تأليفه، والثمام كلمه، وفصاحته، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب.
 - 2- صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها.
 - 3- ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات، ولما لم يكن ولم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر.
 - 4- ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة، والشرائع الدائرة⁽²⁾.
- والناظر إلى تلك الوجوه التي ذكرها القاضي لا يحتاج إلى إعمال فكر أو كد ذهن، ليدرك أنها عين ما ذكره السابقون، وأنه لم يأت بجديد في بحثه، إنما هو جامع وناقل وهذه سمة عصره. ونلاحظ أن القاضي لم يستوف كل ما ذكره السلف عن الإعجاز، فعقد فصولا أخرى في وجوه الإعجاز يراها مجالاً للجدل والنزاع، بينما الوجوه الأربعة التي ذكرها:
- أولاً: - بينه لا نزاع فيها، ولا مرية⁽³⁾.

فالفصل الثامن تحت عنوان: "التحدي والتعجيز في قضايا وإعلامهم أنهم لا يفعلونها"، والتاسع تحت عنوان "روعه في السمع وهيبته في القلوب"، والعاشر "بقاؤه على الزمن"، ثم لا يكتفي بذلك، بل يعقد فصلاً آخر وهو الفصل الحادي عشر تحت عنوان "وجوه أخرى للإعجاز" ويذكر فيه الوجوه الآتية:

- 1- إن قارئه لا يمده، وسامعه لا يمجحه، بل الإكباب على تلاوته يزيد حلاوة.
- 2- جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة، ولا محمد -صلى الله عليه وسلم- قبل نبوته خاصة، بمعرفتها، ولا القيام بها، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم، ولا يشمل عليها كتاب من كتبهم.
- 3- جمعه بين الدليل ومدلوله.
- 4- جعله في حيز المنظوم الذي لم يعهد، ولم يكن في المنثور.
- 5- تيسيره تعالى حفظه لتعلمه، وتقريبه على متحفظية.

1- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري: فهد الرومي، ج 02، ص 553-555، ط 02، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1414هـ.

2- الشفا بتعريف حقوق المصطفى: القاضي عياض، ج 01، ص 500-501، تحقيق: محمد أمين قره علي وآخرون، ط 01، دمشق.

3- المصدر نفسه: ج 01، ص 526.

6- مشاكلة بعض أجزائه بعضا، وحسن ائتلاف أنواعها، والتثام أقسامها.

7- الجملة الكثيرة التي انطوت عليها الكلمات القليلة⁽¹⁾.

وهكذا جمع القاضي عياض وجوه الإعجاز جميعها، ونقلها عن الراسخين في هذا العلم المبتكرين لأصوله، جمع جهودهم ووضعها جنبا إلى جنب، أردف ما قاله الثاني بما قاله الأول كان حصيلة ذلك خلاصة ما قيل عن الإعجاز القرآني منذ القرن الثالث الهجري حتى عصره، وهذا الجمع وإن كان جمعا وتهديا وتلخيصا لم يرق إلى مرتبة الإبداع يدل على كثرة قراءات الرجل، وسعة إطلاعه.

وإذا كان التوفيق قد حالف القاضي في عملية الجمع والحصر، فإنه لم يخالفه في الفهم والتبويب، ذلك أنه لم يفتن إلى موضع كل وجه من الوجوه الأخرى، ولم يدرك تحت أي الفصول يندرج، فحساء بحثه مفككا قلقا غير مترابط لتعدد المسارات وتشتت العبارات⁽²⁾.

فالتأمل في الوجوه الأربعة المعتمدة عند القاضي يلحظ أن الأول والثاني وجه واحد هو الإعجاز البياني، ويندرج تحت هذا الوجه كذلك الوجوه: الرابع والسادس والسابع، الواردة تحت عنوان: وجوه أخرى للإعجاز. أما الوجهان الثالث والرابع من الوجوه المعتمدة عنده وكذا الوجه الوارد في الفصل الثامن وهو: (التحدي والتعجيز في قضايا، وإعلامهم أنهم لا يفعلونها) فكلها تندرج تحت باب واحد هو: الإخبار عن الغيوب. ويبقى بعد ذلك من الوجوه التي ذكرها القاضي عياض:

1- روعته في السمع، وهيته في القلوب، وهو ما يمكن أن نطلق عليه (الإعجاز النفسي).

2- جمعه لعلوم ومعارف.. وهو ما يطلق عليه (الإعجاز العلمي).

أما بقية الوجوه فلا تدخل في باب الإعجاز، وإنما هي من دلائله، وتدلل على أن القرآن من عند الله تعالى، وليس من قول البشر.

وبناء على ما سبق يمكن القول بأن وجوه الإعجاز عند القاضي تنحصر في أربعة فقط هي:

1- الوجه البياني المتعلق بأسلوب القرآن ونظمه وهو الوجه الذي يرتضيه جل الباحثين في الإعجاز.

2- الوجه التاريخي (الإخبار عن الغيوب).

3- الوجه النفسي.

4- الوجه العلمي.

وهي وجوه لا يكاد يختلف عليها، والحقيقة أنه أدرك ما وقع فيه من اضطراب وخلط بين وجوه الإعجاز التي ذكرها؛ فاستدرك ذلك في نهاية حديثه عن وجوه الإعجاز، حيث قال: "وهذا كله، وكثير

1- الشفا بتعريف حقوق المصطفى القاضي عياض، ج 01، ص 535-541.

2- مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري: أحمد جمال العمري، ص 209، دار المعارف.

مما ذكرنا أنه ذكر في إعجاز القرآن وجوه كثيرة ذكرها الأئمة لم تذكرها؛ إذ أكثرها داخل في باب بلاغته، فلا نحب أن يعد فنا منفردا في إعجازه، إلا في باب تفصيل فنون البلاغة، وكذلك كثير مما قدمناه ذكره عنهم يعد في خواصه وفضائله لا في إعجازه، وحقيقة الإعجاز الوجوه الأربعة التي ذكرنا، فليعتمد عليها، وما بعدها من خواص القرآن وعجائبه التي لا تنقضي⁽¹⁾.

وتبين من رأي القاضي عياض في الإعجاز أنه لم يأت بجديد، وإنما لخص تقريبا رأي الباقين وزاد عليه جمع القرآن علوما ومعارف لم يجمعها كتاب قبله على إيجازه، ويعرض لرأي الصرفة أثناء كلامه فلا ينكر هذا القول بل يثبت إثباتا مبهما ضعيفا ويقول: إنه على هذا القول أيضا معجز⁽²⁾. وإذا تتبعنا كتابات من جاؤوا بعد القاضي عياض وجدناهم قد اقتفوا أثره ونجحوا نجه فكأنوا مجرد ناقلين عن أسلافهم، مرددين لأقوالهم.

- فالإمام الرازي مثلا وهو من علماء القرن السادس (ت 606هـ) يورد مذاهب العلماء في الإعجاز: وهي الصرفة، وكون أسلوب القرآن مخالف لأسلوب الشعر والخطب والرسائل.. وأنه ليس فيه اختلاف وتناقض، واشتماله على العيوب، ثم يبطل تلك الوجوه ويعقب عليها بقوله: "ولما بطلت هذه المذاهب، ولا بد من أمر معقول حتى يصبح التحدي به ويعجز الغير عنه، ولم يبق وجه معقول في الإعجاز سوى الفصاحة، علما أن الوجه في كون القرآن معجزا هو الفصاحة"⁽³⁾.

- ويذكر السكاكي (ت 626هـ) الوجوه نفسها التي أوردها الرازي ويبطلها، ثم يورد وجها خامسا ارتضاه، وهو "ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة، ولا طريق لك إلى هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين، بعد فضل إلهي من هبة يهبها بحكمته من يشاء، وهي النفس المستعدة لذلك"⁽⁴⁾. فالإعجاز عنده إعجاز يعتمد على الذوق، وطول خدمة علمي البلاغة والفصاحة.

- ويقرر علم الدين علي بن محمد السخاوي (ت 643هـ) أن إعجاز القرآن من قبل أنه خارج في بديع نظمه وغرابة أساليبه عن معهود كلام البشر، مختص بنمط غريب، لا يشبه شيئا من القول في الرصف والترتيب، لا هو من قبيل الشعر، ولا من ضروب الخطب، والسجع يعلم من تأمله أنه خارج

1- الشفا بتعريف حقوق المصطفى: القاضي عياض، ج 01، ص 541.

2- فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، ص 92.

3- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: الفخر الرازي، ص 33-34، تحقيق إبراهيم السامرائي، وبركات حمدي، دار الفكر، عمان، 1985م.

4- مفتاح العلوم: السكاكي، ص 216-217.

..... الآية في الدراسات القرآنية
عن المؤلف، مباين للمعروف متناسب في البلاغة، متشابه في البراعة يرى من التكلف مآثره عن التصنع والتعسف.

أما ما تضمنه القرآن العزيز من الإخبار عن المغيب وما أتى به من أخبار القرون الماضية والأمم الخالية، وبما كان من أول خلق الأرض والسماء إلى انقضاء الدنيا فذلك - في رأيه - ليس مما تحداهم به، ولكنه دليل على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم -⁽¹⁾.

- وذكر بدر الدين الزركشي (ت 794هـ) اثني عشر وجها من وجوه الإعجاز⁽²⁾، وهي لا تخرج عما ذكره السابقون له: وهو قول "أهل التحقيق على أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد على انفراده، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع بل وغير ذلك مما لم يسبق، ثم يعدد ما سبق من الأقوال المختلفة"⁽³⁾.

فليس للزركشي رأي خاص إذن في الإعجاز، ولكن المهم أنه يعتقد بإمكان وجود وجوه للإعجاز، لم تقل حتى عهده فكأنه يؤمن بنظرية الإعجاز العلمي⁽⁴⁾.

- أما الفيروز آبادي (ت 817هـ) فيرى الإعجاز من جميع الوجوه: "نظما ولفظا ومعنى، وأن القرآن ميمز عن خطب الخطباء وشعر الشعراء بإثني عشر معنى" ومجملها: إنجاز اللفظ، وتشبيه الشيء بالشيء، واستعارة المعاني البديعة، وتلاؤم الحروف والكلمات والفواصل والمقاطع في الآيات وتجانس الصيغ والألفاظ وتعريف القصص والأحوال وتضمين الحكم والأسرار، والمبالغة في الأمر والنهي، وحسن بيان المقاصد والأغراض، وتمهيد المصالح والأسباب، والإخبار عما كان وما يكون"⁽⁵⁾.

وخلاصة هذا الكلام ومضمونه أن الإعجاز عنده إعجاز بياني وإعجاز تاريخي يتمثل في الإخبار عن الغيوب.

- ولخص جلال الدين السيوطي (ت 911هـ) جهود العلماء السابقين له في موضوع إعجاز القرآن في باب من أبواب كتابه الكبير (الإتقان في علوم القرآن) كما أنه ألف كتابا حافلا في الموضوع سماه (معترك الأقران في إعجاز القرآن) جاء في ثلاثة أجزاء كبيرة، وذكر أن بعض العلماء أنهى وجوه إعجازه

1- جمال القراء وكمال الإقراء: علي بن محمد علم الدين السخاوي، ج 01، ص 44، تحقيق: علي البواب، ط 01، مكتبة التراث، مكة المكرمة، 1408هـ.

2- البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج 02، ص 104.

3- المصدر نفسه: ج 02، ص 114.

4- فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، ص 153.

5- بصائر ذوي التمييز: الفيروز آبادي، ج 01، ص 68.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية
إلى ثمانين⁽¹⁾، وبلغ ما ذكره هو خمسة وثلاثين وجها، استغرق الوجه الأخير من وجوه إعجازه كثير من ثلثي الكتاب وهو في ألفاظ القرآن المشتركة وقال في أول كلامه عنه: "وهذا الوجه من أعظم إعجازه، حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجها وأكثر وأقل ولا يوجد ذلك في كلام البشر"⁽²⁾، وكثير مما ذكره السيوطي لا يدخل في موضوع الإعجاز وقد أشار هو نفسه إلى ذلك بقوله: "وإن كانت بعض الأوجه لا تعد من إعجازه وإنما ذكرتها للإطلاع على بعض معانيه، فيثلج له صدرك، وتتهج نفسك"⁽³⁾.

وخلاصة هذا الكلام ومضمونه أن السيوطي يرى أنه لا نهاية لوجوه الإعجاز (الإعجاز المطلق).
والتأمل في النماذج السابقة يجدها عين ما قاله السابقون في الإعجاز، ويجد فيها دلالة قاطعة على أن علماء تلك الفترة كانوا مجرد ناقلين لآراء من سبقوهم، ولا ينبغي أن نجردهم من أي فضل، بل نحمد لهم أن جمعوا لنا تلك الآراء وناقشوها وتقيدوا بعضها، وانتخبوا لنا خلاصة ما قيل في قضية الإعجاز. ولم يكن المحدثون أقل عناية يبحث وجوه إعجاز القرآن من السابقين، فألفوا في ذلك الكتب وعقدوا الفصول، وسنقتصر هنا على ذكر الاتجاهات البارزة لديهم في معالجة الموضوع، دون الخوض في التفصيلات وهي:

*الاتجاه الأول: يقدم عددا كبيرا من وجوه الإعجاز، وقد أوصلها الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني إلى أربعة عشر وجها هذه عناوينها:
الوجه الأول: لغته وأسلوبه
الوجه الثاني: طريقة تأليفه
الوجه الثالث: علومه ومعارفه
الوجه الرابع: وفاؤه بحاجات البشر
الوجه الخامس: موقف القرآن من العلوم الكونية
الوجه السادس: سياسته في الإصلاح
الوجه السابع: أنباء الغيب فيه
الوجه الثامن: آيات العتاب
الوجه التاسع: ما نزل بعد طول انتظار

1- معترك الأقران في إعجاز القرآن: السيوطي، ج 01، ص 03، دار الفكر العربي، القاهرة، وينظر الاتقان: ج 02، ص 116-125.

2- المصدر نفسه: ج 01، ص 514.

3- المصدر نفسه: ج 01، ص 12.

الوجه العاشر: مظهر النبي -صلى الله عليه وسلم- عند هبوط الوحي عليه

الوجه الحادي عشر: آية المبالغة

الوجه الثاني عشر: عجز الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن الاتيان ببدل له

الوجه الثالث عشر: الآيات التي تجرد الرسول -صلى الله عليه وسلم- ومن نسبته إليه

الوجه الرابع عشر: تأثير القرآن ونجاحه⁽¹⁾

*الاتجاه الثاني: يجعل الإعجاز منقسما على ثلاثة نواح هي:

1- الإعجاز اللغوي (البياني)

2- الإعجاز العلمي

3- الإعجاز التشريعي (أو الإصلاحية التهذيبية الإجتماعية)⁽²⁾.

*الاتجاه الثالث: يقصر الإعجاز على الجانب البياني من القرآن فهو "كائن في رصف القرآن وبيانه

ونظمه، ومباينة خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة العرب" ثم إن ما في القرآن من

مكون الغيب ومن دقائق التشريع ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي

المفضي إلى الإعجاز، وإن كان ما فيه من ذلك كله يعد دليلا على أنه من عند الله تعالى..."⁽³⁾.

*الاتجاه الرابع: يقصر الإعجاز على ما في القرآن من معان سامية وتشريع حكيم فأعجازه في رسالته

العليا النافعة للناس كافة وذلك من أوجه كثيرة نذكر منها:

1- إنها جاءت على لسان رجل أمة وفي أمة أمية، تعيش الحياة القبلية بكل كيان أفرادها، لا يخطر

على بال أحد منهم انتظام أو التزام بقانون عام أو نظام حضاري.

2- إنه تشريع شامل وكافل لإحقاق الحق، وصيانة مصالح الناس في جميع شؤونهم المالية

والاجتماعية والأسرية، والدولية...

3- إنه تسامى على كل قانون عرفته الأمم قديمها وحديثها، حتى أقرت المجامع القانونية الدولية الفقه

الإسلامي مصدرا أساسيا تقتبس منه القوانين، وإن القوانين الحديثة في نظورها تسامى لتقترب

من الفقه الإسلامي⁽⁴⁾.

1- مناهل العرفان: عبد العظيم الزرقاني، ص 260-319.

2- النبأ العظيم: عبد الله دراز، ص 79، وينظر مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص 257-273.

3- فصل في إعجاز القرآن: محمود محمد شاكر، ص 30-31، وهو تقدم لكتاب الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي، ترجمة عبد الصور شاهين،

دار الفكر، دمشق.

4- علوم القرآن: نور الدين عتر، ص 219-220، ط06، مطبعة الصباح، دمشق، 1416هـ-1996م.

قال فضيلة العلامة الكبير الشيخ محمد أبو زهرة: "ومن هذه الأحكام الشرعية التي اشتمل عليها القرآن، فإنها لا يمكن أن تكون من عند محمد -صلى الله عليه وسلم-، بل هي من عند الله وقد كتبنا في هذه عدة بحوث في إحدى المجالات الإسلامية بعنوان "شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله" جمعناها إحدى الهيئات الإسلامية في رسالة، ونشرتها وترجمتها إلى الفرنسية والإنجليزية، وقد أقمنا الدليل على أن تلك الشريعة المحكمة لا يمكن أن يأتي بها أمي لا يقرأ ولا يكتب وقد نشأ في بلد أمي ليس به مدرسة ولا مكتب دراسة وهي في أحكامها لا يمكن أن تكون إلا من عند الله تعالى.

وكتبنا بحثا وازنا فيه بين شريعة القرآن وقانون الرومان في الملكية بالخلافة (الميراث) وذكرنا أن قانون الرومان قد تكوّن في نحو ثلاثة عشر قرنا ومع ذلك هو بالملكية بالخلافة لا يوازن بشريعة القرآن إلا إذا وازنا بين عصا هشة وسيف بتار، فلا يمكن أن يأتي به محمد من عنده، بل هو من عند الله تعالى. والأوروبيون القانونيون يرون في قانون الميراث في القرآن أن العقل البشري لم يصل إلى الآن إلى خير منه ونحن نقرر لهذا أن ما ذكره القرطبي غير الصرفة يدل على أن القرآن كله جملة وتفصيلا هو من عند الله تعالى العليم الخبير"⁽¹⁾.

فالقرآن معجزة لما في رسالته من تعليمات عليا، وإرشادات سامية، وغايات نبيلة، وأغراض شريفة وأهداف قيمة، تزيد الإيمان وتحث المؤمنين على الأعمال الصالحة ومكارم الأخلاق... ملامح المنهج الأمثل:

إن كثرة الوجوه التي ذكرها العلماء في بيان الإعجاز تساعد قراء القرآن في كثير من الأحيان في الوقوف على جوانب من أسرارها، كما أنها قد تكون سببا في حجب تلك الأسرار الباهرة، وذلك حين يقف المرء على بعض الأقوال المتعارضة في تحديد وجوه الإعجاز، وقد جعل ذلك السيوطي يقول: "وقد خاض الناس في ذلك كثيرا، فبين محسن ومسيئ"⁽²⁾.

ونحن نعتقد أن كثرة تلك الوجوه وتباينها في بعض الأحيان لا تغير من حقيقة إعجاز القرآن، وإنما هي تعكس تفاوت العلماء في إدراك ذلك الإعجاز، وقد أخير كل واحد منهم بما عرف، لأن أمر القرآن عجيب "يراه الأديب معجزا، ويراه اللغوي معجزا، ويراه أرباب القانون والتشريع معجزا، ويراه علماء الاقتصاد معجزا، ويراه المربون معجزا، ويراه علماء النفس والعينون بالدراسات النفسية معجزا، ويراه علماء الاجتماع معجزا، ويراه المصلحون معجزا، ويراه كل راسخ في علمه معجزا"⁽³⁾.

1- المعجزة الكبرى: محمد أبو زهرة، ص 68-69.

2- الاتقان: السيوطي، ج 02، ص 118.

3- التعبير القرآني: فاضل صالح السامرائي، ص 22.

ونحن نعتقد أيضا أن تلك الوجوه يمكن أن تسلك في منهج يزيل ما قد يبدو بينها من تعارض ويكون كل وجه كاشفا عن جانب من أسرار القرآن، أو مقدا للدليل على صدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- في ما أخبر به من أنه يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم وتتلخص ملامح هذا المنهج في أمرين:

الأول: تحديد الوجه الذي أعجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن أو معارضته في عصر النبوة.

الثاني: تحديد ما جاء في القرآن من الأمور التي تدل على أنه لا يمكن أن يكون من عند أحد سوى الله.

وهذا المنهج في دراسة إعجاز القرآن ليس من وضعنا، فقد أشار إليه بعض العلماء السابقين كما ذكره عدد من المتحدثين، ولكننا نريد أن نقف عنده، ونوضح جوانبه ونؤكد عليه؛ لأنه هو المنهج المناسب في اعتقادنا لدراسة إعجاز القرآن على نحو مؤثر ومفيد وإليك البيان:

1- كان علم الدين السخاوي (ت 643هـ) أول عالم يفرق بين الأمرين السابقين في دراسة الإعجاز فيما إطلعنا عليه، وقد ألححت إلى رأيه من قبل، ونقف عنده هنا، لأهمية الفكرة التي عرضها في الموضوع، يقول في مطلع الباب الذي عقده عن الإعجاز في كتابه الكبير: "لا ريب في عجز البلغاء وقصور الفصحاء عن معارضة القرآن العظيم، وعن الإتيان بسورة من مثله في حديث الزمان والقديم، وذلك ظاهر مكشوف ومتيقن معروف، لا سيما القوم الذين تحداهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإنهم كانوا ذوي حرص على تكذيبه والرد عليه، وحالهم معه معروفة في معاداته، ومعاندته، وإظهار بغضه وآذاه، وقذفه بالجنون والشعر والسحر، فكيف يترك من هذه حاله معارضته وهو قادر عليها... فلا ريب في أنهم راموا ذلك فما أطاقوه وحاولوه فما استطاعوه، وأنهم رأوا نظما عجيبا خارجا عن أساليب كلامهم، ورضا بديعا مبينا لقوانين بلاغتهم ونظامهم، فأيقنوا بالقصور عن معارضته، واستشعروا العجز عن مقابله وهذا هو الوجه في إعجاز القرآن.." (1).

"وأما ما تضمنه القرآن العزيز من الإخبار عن المغيب فليس ذلك ما تحداهم به، ولكنه دليل على صدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- في كونه أميا لا معرفة له ولا يحسن أن يقرأ ولا وقف على شيء من أخبار الأمم السالفة حتى إنه لا يقول الشعر ولا ينظر في الكتب ثم إنه قد أتى بأخبار القرون الماضية والأمم الخالية، وبما كان من أول خلق الأرض والسماء إلى انقضاء الدنيا، وهم يعلمون ذلك من حاله ولا يشكون فيه، فهذه الحال دليل قاطع بصدقه -صلى الله عليه وسلم-.

ولكن إعجاز القرآن من قبل أنه خارج في بديع نظمه وغرابة أساليبه عن معهود كلام البشر، مختص بنمط غريب، لا يشبه شيئا من القول في الرصف والترتيب لا هو من قبيل الشعر، ولا من ضروب

الخطب والسجع، يعلم من تأمله أنه خارج عن المؤلف، مبين للمعروف، متناسب في البلاغة، متشابه في البراعة بريء من التكلف مته عن التصنع والتعسف"⁽¹⁾.

وقد أكد علم الدين هذا المعنى في موضع آخر حيث قال: "فإن قيل: فهل في إقامته البراهين، وإيراد الدلائل على الوحدانية بذكر السماوات والأرض وتصريف الرياح والسحاب، وبأنه لو كان فيها إله آخر لفسدتا، وعلى البعث بإنزال الماء، وإحياء الأرض بعد موتها، وبالنشأة الأولى إلى غير ذلك إعجاز؟ قلت: الإعجاز من جهة إيراد هذه الحجج في الأساليب العجيبة والبلاغة الفائقة، فهو راجع إلى ما قدمناه من نظم القرآن وإعجازه، وأما كونها براهين قاطعة فهو دليل على صدق النبي -صلى الله عليه وسلم-"⁽²⁾.

2- وتحدث الأستاذ محمود محمد شاكر عن ذلك أيضا في فصل في إعجاز القرآن وهو تقدم لكتاب "الظاهرة القرآنية" فقال: "ولا مناص لتكلم في إعجاز القرآن من أن تبين حقيقتين عظيمتين.. وأن يفصل بينهما فصلا ظاهرا لا يلتبس، وأن يميز أوضح التمييز بين الوجوه المشتركة التي تكون بينهما. أولهما: أن إعجاز القرآن كما يدل عليه لفظه وتاريخه... إنما هو تحد بفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك، فما هو يتحد بالإخبار بالغيب المكنون، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهر من تنزله، ولا بعلم ما لا يدركه علم المخاطبين به من العرب، ولا بشيء من المعاني مما لا يتصل بالنظم والبيان.

ثانيهما: أن إثبات دليل النبوة، وتصديق دليل الوحي، وأن القرآن من عند الله.. لا يكون شيء منها يدل على أن القرآن معجز، ولا أظن أن قائلا يستطيع أن يقول إن التوراة والإنجيل والزيور كتب معجزة، بالمعنى المعروف في شأن إعجاز القرآن من أجل أنها كتب منزلة من عند الله ومن البين أن العرب قد طولبوا بأن يعرفوا دليل نبوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ودليل صدق الوحي الذي يأتيه بمجرد سماع القرآن نفسه، لا بما يجادلهم به.. فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة، أما صحة النبوة فليست برهانا على إعجاز القرآن.

والخلط بين هاتين الحقيقتين، وإهمال الفصل بينهما في التطبيق والنظر وفي دراسة إعجاز القرآن قد أفضى إلى تخليط شديد في الدراسة قديما وحديثا..."⁽³⁾.

1- جمال القراء وكمال الإقراء: علم الدين السخاوي، ج 01، ص 44.

2- المصدر نفسه: ج 01، ص 47.

3- فصل في إعجاز القرآن: محمود محمد شاكر، ص 24-25.

وبناء على هذا فقد ذهب الأستاذ محمود محمد شاكر إلى أن "الإعجاز كائن في رصف القرآن وبيانه ونظمه وأن ما في القرآن من مكنون الغيب، ومن دقائق التشريع ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز، وإن كان ما فيه من ذلك كله يعد دليلاً على أنه من عند الله تعالى..."⁽¹⁾.

3- واتخذ الشيخ محمد أبو زهرة في فهم الإعجاز موقفاً مقارباً لذلك، حيث قال ويعلق على الوجوه الكثيرة التي يذكرها الدارسون في بيان إعجاز القرآن: "إن بعض هذه الوجوه تحدى بها القرآن الكريم... والوجوه الأخرى التي لم يتحد بها القرآن الكريم، وإن كانت من عند الله تعالى العليم الحكيم، مثل إخباره عن أمور مغيبة في المستقبل ثم وقوعها كما أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه، وإخباره عن الأمم السابقة... فذكر هذا في القرآن الذي نزل على أمي لا يقرأ ولا يكتب ولم يجلس إلى معلم دليل على أنه من عند الله سبحانه وتعالى... فكان التحدي للعرب ابتداء بالمنهج البياني للقرآن..."⁽²⁾.

ثم يقول الشيخ أبو زهرة: "وعلى ذلك نقسم وجوه الإعجاز التي اشتمل عليها القرآن إلى قسمين: أولهما: ما يتعلق بالمنهاج البياني، وهذا النوع من الإعجاز أول من يخاطب به العرب.

القسم الثاني: الإعجاز بما اشتمل عليه من ذكر لأخبار السابقين، ولأخبار مستقبلية، وقعت كما ذكر واشتماله على علوم كونية وحقائق لم تكن معروفة في عصر محمد -صلى الله عليه وسلم- وقد أتى بها القرآن، وتقررت حقائقها من بعد، وكذلك ما اشتمل عليه من شرائع أثبت الوجود الإنساني أنها أصلح من غيرها وأنها وحدها العادلة وأن هذا النوع معجزة للأجيال كلها"⁽³⁾.

يمكن أن نقرر من خلال العرض السابق الأمور الآتية:

أولاً: أن إعجاز القرآن تحقق في ذات الوقت الذي كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتلو فيه القرآن على من حوله من العرب، ويدعوهم إلى الإيمان به، وأن القرآن حين تحدى المشركين إلى الإتيان بمثله فإنه ما كان قد اكتمل نزوله، لكنهم عجزوا، ولجأوا بدلاً عنه إلى القتال وما جر ذلك عليهم من الويلات، وهذا يقتضي أن الإعجاز كائن في كل آية وسورة منه مهما كان موضوعها، وتتفق كلمة الدارسين على أن الذي أدهش العرب وأعجزهم حين سمعوا تلاوة القرآن إنما هو نظم وطريقة تعبيره، وقد دلت الشواهد التاريخية على أن العربي من عتاة المشركين كان إذا سمع القرآن رق له وربما آمن كما

1- فصل في إعجاز القرآن: محمود محمد شاكر، ص 30-31.

2- المعجزة الكبرى: محمد أبو زهرة، ص 68-69.

3- المصدر نفسه: ص 69-70.

حصل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه⁽¹⁾ أو أعرض وفي نفسه الحيرة من أمره، كما وقع للوليد بن المغيرة⁽²⁾ وعتبة بن ربيعة⁽³⁾ وغيرهما⁽⁴⁾.

ثانياً: إن ما جاء في القرآن من الإخبار بالمغيبات والأمور المستقبلية التي تحققت فيما بعد، وقصص الأمم الماضية، وما جاء فيه من ذكر أسرار الكون وبديع الصنع في الخلائق لم يكن من وجوه الإعجاز الظاهرة التي أعجزت العرب في عصر النبوة وذلك لأن وقوف الناس على ما في هذه المعاني من الحكمة الباهرة التي يعجز عنها البشر كان متراجحاً عن زمن التحدي "ولا يصح أن يكون شاهد المعجزة متراجحاً في الزمن عنها، واقعا في أعقابها"⁽⁵⁾.

ولكن ذلك يعطي الدليل المستمر على صدق النبي -صلى الله عليه وسلم- وأن هذا القرآن من عند الله تعالى.

ثالثاً: إننا إذا أردنا أن نقدم منهاجاً للدراسة الإعجاز في القرآن وجدنا أن أقربها إلى الواقع ما رسمه علم الدين السخاوي ومحمود محمد شاكر وأبو زهرة، لكن الأولين يخرجان كل ما عدا النظم وبديع التأليف من دائرة الإعجاز بل إن محموداً يرى أن ما عدا ذلك "هو أقرب إلى أن يكون باباً من علم التوحيد"⁽⁶⁾. رابعاً: ويظهر لنا أننا في عصرنا هذا بحاجة ماسة إلى منهج يوضح لنا حقيقة الإعجاز الذي أحس به العرب في عصر النبوة كما يوضح لنا الجوانب التي تقدم الأدلة العلمية المحسوسة على أن القرآن لا يمكن أن يكون من تأليف بشر وأنه من عند الله العليم الحكيم ليزداد الذين آمنوا إيماناً، وليكون ذلك عنصراً في دعوة الناس إلى الإيمان.

فالوقوف على سر الإعجاز المتعلق بتعبير القرآن مباشرة أمر يعجز عنه جمهور الناس اليوم لأن "كثيراً من الناس ليس لديهم اطلاع على المسلمات اللغوية، وليس لديهم معرفة بأحكام اللغة وأسرارها، ومن الصعب أن يهتدي هؤلاء إلى أمثال هذه المواطن بأنفسهم من غير دليل يأخذ بأيديهم يدهم على مواطن الفن والجمال ويصرهم بأسرار التعبير ويوضح لهم ذلك بأمثلة يعونها ويفهمونها"⁽⁷⁾.

1- السيرة النبوية: ابن هشام، ج 01، ص 343، تحقيق مصطفى السفا، ط 02، مصطفى الباني الحلبي، 1375هـ-1955م.

2- المصدر نفسه: ج 01، ص 270.

3- المصدر نفسه: ج 01، ص 293.

4- المصدر نفسه: ج 01، ص 315.

5- الإعجاز في دراسات السابقين: عبد الكريم الخطيب، ج 01، ص 335، دار الفكر العربي، 1974م.

6- فصل في إعجاز القرآن: محمود محمد شاكر، ص 26.

7- التعبير القرآني: فاضل صالح السمرائي، ص 10.

خامسا: إن هذا المنهج في دراسة الإعجاز لا يهمل التراث الكبير الذي خلقه العلماء السابقون في موضوع الإعجاز، لكنه يعيد تنظيمه على نحو أكثر وضوحا وتناسقا، في إطار يضم ما كان أصلا سرا للإعجاز، وما ظهر بعد ذلك من دلائل صدق النبوة وربانية القرآن، وهذا تصبح كلمة الإعجاز ذات دلالة أوسع مما وضعت له في أول الأمر من بيان سر عجز العرب عن محاكاته لتدل على ذلك ثم على ما وقف عليه العلماء بعد ذلك من أسرار القرآن التشريعية والعلمية والتاريخية... الخ.

شرح مفصل لمنهج الإعجاز القرآني في ضوء الجهود العلمية المعاصرة:

من أوضح سمات عصرنا هذا أنه عصر التقدم العلمي والتكنولوجي، حيث تقدمت فيه البشرية كثيرا في العلوم والمعارف المادية والمخترعات الحديثة، وبلغت في هذا قمة عالية، ما كان أحد من السابقين يحلم أن يصل إليها.

وقد أعجب الإنسان المعاصر بالمخترعات والإكتشافات العلمية، وأشاد بالعقل الإنساني العجيب الذي تمكن من تحقيق كل ذلك، وقد أقبل المفكرون الإسلاميون على القرآن الكريم، وصاروا يبحثون فيه عن آيات تتضمن إشارات ومضامين علمية في مختلف مجالات العلم وألوانه، وفسروها تفسيراً علمياً على ضوء العلوم والمعارف الحديثة.

وحدوا آيات كثيرة ذات مضامين علمية، وقدموا بعض ما فيها من حقائق علمية للمثقفين المسلمين فزادت ثقتهم بالقرآن والإسلام، وقدموها للمثقفين العلمانيين فقربتهم من القرآن، وقدموها إلى العلماء الغربيين فدهشوا وأعجبوا بالقرآن وبعضهم آمن به ودخل في الإسلام.

لقد جعل المفكرون الإسلاميون الحقائق العلمية الثابتة من أوضح الأدلة المعاصرة على المصدر الرباني للقرآن الكريم، وإثبات أنه كلام الله تعالى؛ لأن هذه الحقائق العلمية فوق المستوى العلمي للرسول -صلى الله عليه وسلم- وفوق مستوى العرب العلمي في عصر التنزيل بل وفوق مستوى العالم العلمي في ذلك العصر، فلو كان القرآن الكريم من تأليف محمد -صلى الله عليه وسلم- فمن كان يدره بالحقائق العلمية الثابتة التي لم يكن للعلماء علم بها، والتي لم يكتشفها العلماء إلا في هذا العصر؟⁽¹⁾.

إن تطور أدوات المعرفة الإنسانية ووسائل هذه المعرفة هو الذي يكمن وراء تطور النظرة إلى تفسير القرآن الكريم، لقد كان المفسرون والعلماء السابقون يتحدثون بمعطيات عصرهم العلمية والمعرفية، وبقدراهم الخاصة في النظر إلى كتاب الله تعالى، ولا شك أنهم وضعوا لنا القاعدة الأساسية الكبرى الثابتة التي نقف عليها ولا ينكر فضلهم فلولا جهودهم المباركة ما تأتى لغيرهم أن يقول شيئا.

1- إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 388-389 بنصرف، ط01، دار عمان، 1421هـ-

ومما يجب الإشارة إليه أن العلم قد تقدم، ومناهج التحليل النفسي والاجتماعي واللغوي قد قطعت شوطا كبيرا لا يستهان به.

إن القرآن الكريم لا ينكر إعجازه في كل شيء، فهو معجز قديما وحديثا، ومعجز لاحقا وإلى قيام الساعة، معجز في حروفه وكلماته وتراكيبه وآياته وسوره، وحركاته، معجز في نظمه نصا متكاملا، معجز في كل جزء من أجزائه وفي كل دلالة من دلالاته⁽¹⁾.

وعلى الرغم من كل ذلك فبحدوث الثورة المعرفية وانفتاح المفكرين الإسلاميين على نتائج العلم في الغرب وانطوائهم تحت النظرة الكونية الجديدة وقع تغير كبير في النظر إلى الإعجاز القرآني من حيث المعنى والموضوع، والآيات الدالة عليه.

والحقيقة أن معنى الإعجاز القرآني وموضوعه تابع لطبيعة النشاط الفكري السائد، بمعنى أنه تاريخيا متغير من عصر إلى عصر، وفقا لتغير اهتمامات عقل الإنسان في التاريخ، فحينما كانت الثقافة الإسلامية ثقافة لغة وأدب ونصوص أو بمعنى أجمل ثقافة نصوص لغوية تحلل وتفسر وتذوق لم يكن الإعجاز القرآني ليخرج عن طبيعة هذا الاهتمام السائد.

والإعجاز القرآني كما يظهر في تجلياته التاريخية يعتبر دائما خلاصة العمل التفسيري الدائر حول النص القرآني بمعنى أن النص يفسر ويشرح ثم يشار بعدها إلى خصائصه الخارقة.

نستنتج من هذا أن الإعجاز لا يكون إلا تابع للتفسير يتلون بلونه ويأخذ طابعه وسماته في كل عصر، وبما أن الطابع اللغوي أهم مميزات التفسير البياني فقد جاء الإعجاز من جنسه، أما في هذا العصر فلم تعد البراعة اللغوية كافية في تفسير نص القرآن وإدراك دلالاته الكونية الواسعة، إنه صار واجبا الاعتماد على حقائق الواقع المادي بجانب الأداة اللغوية في تفسير القرآن، ثم تجلية إعجازه، ولذا خرج الإعجاز القرآني من دائرة التذوق اللغوي ليترك دائرة أوسع وأشمل هي ما تعكسه الآيات القرآنية من دلالات ومعاني تماثل الحقائق المكتشفة في مجالات النفس والآفاق.

وفي ظل الواقع الثقافي الجديد المختلف عن واقع المتقدمين اختلافا كبيرا لم تعد آيات التحدي منطلقا نظريا لإثبات إعجاز القرآن، وإنما صار المعاصرون يؤكدون الإعجاز القرآني منطلقين من آيات قرآنية كثيرة تفيد معنى الإعجاز القرآني بوضوح، ولكن الإقتران بالتحدي الصريح تفيد في صورة وعد تكفل الله بإظهاره عن طريق الدلالات والبراهين القرآنية على حقائق الواقع التي تقود إلى الإيمان بصدق دعوى النبي الأمي -صلى الله عليه وسلم- والإيمان بالمصدر الإلهي من مثل قوله تعالى: ﴿سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا

1- شواهد في الإعجاز القرآني: عودة خليل أبو عودة، ص 19-20، ط01، دار عمان، 1419هـ-1998.

فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿١﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (٢)،
وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ (٣) وغيرها كثير.

ولقد صارت هذه الآيات وأمثالها منطلقاً نظرياً لإثبات المحتوى الإعجازي للقرآن الكريم بدل
آيات التحدي المعروفة من مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ (٤).
وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٥). وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ
هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٦).

إن الواقع العلمي الجديد الذي نعيشه في عصرنا هذا، ويوجه نمط تفكيرنا هو الذي قاد إلى تغير
النظرة إلى إعجاز القرآن، ولذا لم يعد الاهتمام مصروفاً إلى تأكيد نفي القدرة على الإتيان بالمثل فقط،
وإنما صار اهتمام الأجيال الجديدة منصبا على رؤية دلالات وبراهين القرآن الكريم وهي تماثل معلومات
الإنسان المؤكدة عن الكون والحياة أي الحقائق العلمية المؤكدة، وهذه المماثلة يستدل بها على المصدر
الإلهي للقرآن الكريم فصار كل ما يؤكد المصدرية الإلهية للقرآن إعجازاً قرآنياً صحيحاً، فوجد العلماء
والباحثون في القرآن الكريم بعيتهم على اختلاف مشاربهم وتعدد تخصصاتهم فتناولوا مسألة الإعجاز من
منظور تخصصاتهم، ومعطيات علوم العصر عصر الانفجار المعرفي وامتلات مكباتنا بلفيف من الكتب من
أمثال: الإعجاز العلمي والإعجاز الطبي والإعجاز العددي وإعجاز النبات في القرآن والإعجاز التشريعي
والإعجاز الاقتصادي والإعجاز الفكري والإعجاز الفني وما شاكل ذلك (٧).

هذا على الرغم من اعتراض بعض العلماء على هذا الإعجاز المتحقق بهذه الطريقة ونلاحظ أن
هناك بجانب الآيات الواعدة لإظهار البراهين للناس على صدق المصدر القرآني آيات قرآنية أخرى تحقق
هذا الوعد المضروب تحقيقاً علمياً، وبشكل تاريخي مستمر وهي الآيات التي اتخذت موضوعاً لها في
الواقع الكوني بجميع أبعاده الطبيعية والنفسية والسياسية والتاريخية وغيرها.

1- سورة فصلت: الآية 53.

2- سورة ص: الآية 88.

3- سورة النمل: الآية 93.

4- سورة البقرة: الآية 23.

5- سورة هود: الآية 13.

6- سورة الإسراء: الآية 88.

7- نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم: أحمد سيد عمار، ص 97، ط 01، دار الفكر، دمشق، 1421هـ-2000م.

وعند التأمل نجد الآيات الكونية التي تعلن دلائل الإعجاز القرآني، وسواء في شكله المتحقق أو الموعود لا تخلو من معنى التحدي، وإن كان بطريق ضمني غير صريح؛ لأن إقامة الدليل الحسي القاطع على صحة دعوى القرآن، كما هو الحال مع الإعجاز العلمي، أو الوعد في إظهار هذه الأدلة والبراهين في المستقبل هو في حقيقة الأمر تحدي للمكذبين بالقرآن الكريم أو الذين يردون إظهار تناقضه لأن من إعجاز القرآن "عجز الزمن عن إبطال شيء منه"⁽¹⁾.

إذن فهو في تحد دائم إذا كان هذا التحدي بمعنى ظهور الأدلة والبراهين بشكل مستمر مع التاريخ على صدق دعوى القرآن فالأمر الذي يحقق في الوقت نفسه إعجازه.

وهكذا فلم يعد الإعجاز في هذا العصر يتحقق من انعدام القدرة على تقليد نص من نصوص الوحي والإتيان بما يقاربه في النظم والأسلوب بل صار يعد من الإعجاز كل معنى من آيات القرآن الكريم دل في ذاته على أنه يستحيل صدوره من بشر.

وقد اتضح أنه لم يكن ممكنا الخروج بمسألة الإعجاز القرآني من الإطار اللغوي والبياني إلا حين وقع التخلي عن اشتراط التحدي الصريح الذي ترائى للمتقدمين في الآيات المذكورة أنه صار مستدلا عليه بقرائن الأحوال في جل الآيات القرآنية فخرج عن معنى: انعدام القدرة على الاتيان بمثيل له ذي مضمون بياني إلى معنى الدليل والبرهان على كون القرآن الكريم من عند الله بقطع النظر عن موضوع هذا الدليل والبرهان بيانيا كان أم علميا أم تشريعا أم تاريخيا... وهذا ازدادت دائرة الإعجاز اتساعا مقرونا بالدليل النهائي لإعجاز القرآن الكريم وهو أمية النبي -صلى الله عليه وسلم-⁽²⁾

وهكذا فإن إعجاز القرآن يحث الدارسين على التفكير ويفتح لهم أبواب المعرفة ويدعوهم إلى ولوجها والتقدم فيها، وقبول كل جديد من العلوم.

وللمعجزة بصفة عامة صفات جوهرية تلخص في التحدي وملاءمتها لطبيعة المخاطبين بها، وغايتها التي تحدد مداها الزماني والمكاني، وهذه الأمور الثلاثة متحققة في القرآن الكريم تمام التحقيق⁽³⁾.

ومنا يجب أن نتضح لنا أن فصاحة القرآن الكريم التي خشع لها العرب لا تعني الآن شيئا لأهل الأرض، كذلك الإعجاز العلمي في القرآن الكريم الذي يخشع له الآن أهل الأرض لو عرفوه، كان لا يعني شيئا البتة بالنسبة لتلك العصور الماضية، بل لو شرح لهم ذلك لكان فتنة لأكثرهم فهو إعجاز لأهل

1- تفسير اسرار: محمد رشيد رضا، ج 01، ص 207.

2- الاتجاه العلمي لتفسير القرآن الكريم في العصور الحديثة: عبد الحميد بوكعباش، ص 303، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، القاهرة، 1989م.

3- اتجاهات التفسير في العصر الحديث: عفت الشرقاوي، ص 270، نشر مطبعة جامعة عين شمس، 1972م.

هذا العصر وما بعده، وهو إعجاز؛ لأن هذا العصر وما بعده يعرفون أن من المستحيل على أي إنسان في زمن نزول القرآن معرفة هذه الحقائق، وألها لا تفسر لوجودها في القرآن إلا أن القرآن وحى من لدن عليم خبير، وهو علمي؛ لأنه يختص بالحقائق العلمية الطبيعية الكونية، التي لم تعرف البشرية أكثرها إلا منذ عقود قليلة⁽¹⁾.

ويضيف الرافي: "أن هذه العلوم ستدفع بعد تمحيصها واتصال آثارها الصحيحة بالنفوس الإنسانية إلى غاية واحدة، وهي تحقيق الإسلام، وأنه الحق الذي لا مرية فيه، وأنه فطرة الله التي فطر الناس عليها، وأنه لذلك هو الدين الطبيعي للإنسانية وسيكون العقل الإنساني آخر نبي في الأرض.

وقد أشار القرآن إلى نشأة هذه العلوم وإلى تمحيصها وغايتها، وذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾⁽²⁾.

ولو جمعت أنواع العلوم الإنسانية كلها ما خرجت في معانيها عن قوله تعالى: ﴿وَفِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ هذه آفاق وهذه آفاق أخرى، فإن لم يكن هذا التعبير من الإعجاز الظاهر بداهة فليس يصح في الأفهام شيء⁽³⁾.

كما أن "معجزة القرآن تختلف أيضا عن معجزات الرسل الأخرى، في أنه لا توجد قضية تمس حياة البشر إلا ويوجد في القرآن -منهج الله سبحانه- ما يعالج هذه القضية، فما من قضية أساسية في المجتمع إلا ويعالجها القرآن الكريم.

ولكن هنا قد يقع بعض اللبس، فقد يقول بعض الناس: إن القرآن مثلا لا يعالج قضايا زيادة إنتاج الأرض، أو الاختراعات الحديثة إلى آخر مثل هذا الكلام، ولكن الذي يجب أن يعرفه الناس جميعا أن القرآن هو منهج عبادة وأنه حين يأتي ليعالج، لا يعالج الخصوصيات وإنما يضع المبدأ.. فهو حين يطلب منا أن ننقب في الأرض، ونبحث عن آيات الله وأن نعمل وننتج ونعمر الأرض، فهو يضع الحل للمشكلات التي تتصل بالزراعة أو التربة أو ما شابه ذلك⁽⁴⁾.

1 - ينظر في مسيرة الإعجاز العلمي في القرآن: محمد بن عبد الرؤوف القاسم، ص 11-18، ط01، دار الأعلام، عمان، 1421هـ/2000م، وينظر اتجاه التفسير في العصر الحديث منذ عهد الإمام محمد عبده إلى مشروع التفسير في العصر الوسيط: مصطفى محمد السيد الطور، ص 278-279، سلسلة البحوث الإسلامية السنة السابعة، العدد 80، ربيع الأول، 1395هـ/أبريل 1975م.

2 - سورة فصلت: الآية 53.

3 - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: الرافي، ص 128، وينظر علوم القرآن: عبد الله شحاتة، ص 129.

4 - معجزة القرآن: محمد متولي الشعراوي، ص 41 (بتصرف)، تقدم ناصر إسماعيل محمد، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.

فإحاطة القرآن بكل شيء، لا تعني دخول القرآن في تفصيلات أو جزئيات فهو قواعد وكماليات ثابتة ومبادئ أساسية، تقام عليها أعمدة العلم في كل العصور والثقافات؛ "لأن كون القرآن معجزة، فلا بد أن يبقى بهذا النص وإلا ضاع الإعجاز"⁽¹⁾.

فإن بدا عند التحقيق أن مفسراً قد خرج بالتفسير عن إطار مدلول الحقيقة القرآنية، فإن النقد سيوجه حينئذ إلى هذه التفسيرات عينها، والذي سيرفضه الآخرون هو هذه الآراء البشرية ذاتها، ويبقى للنص القرآني قدسيته ومهابته، وروعته وإعجازه، دون أن يتأثر شيء من ذلك بتأويلات المفسرين العصريين.

"على أنه يلاحظ أن معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين فمعجزات الرسل خرفت قوانين الكون، وتحدث وأثبتت أن الذي جاءت على يديه رسول صادق من الله ولكنها معجزات كونية من رآها فقد آمن بها، ومن لم يرها تصبح خيراً بعد ذلك إن شاء صدقه، وإن شاء لم يصدقه، ولو لم ترد في القرآن لكان من الممكن أن يقال إنها لم تحدث"⁽²⁾.

أما معجزة القرآن فمستمرة، فالزمن جزء من قضية الإفصاح عن أسرار هذا التنزيل فكلما تقدم الزمن فتح الناس أعينهم على الجديد من أوجه المعاني في هذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنفذ غرائبه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ﴾⁽³⁾.

ففي الحديث النبوي عن علي ابن أبي طالب، كرم الله وجهه قال: "أما أي قد سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ألا إنها ستكون فتنة، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخير وما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا يشيع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تن الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾"⁽⁴⁾ من قال به صدق، ومن عمل به أحر ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.."⁽⁵⁾.

1- معجزة القرآن: محمد متولي الشعراوي، ص 37، بتصرف.

2- المرجع نفسه: ص 28.

3- سورة القيامة: الآية 19.

4- سورة الجن: الآيتان: 1-2.

5- أخرجه الترمذي وغيره، ينظر الإتيان: السيوطي، ج 02، ص 125، وينظر اتاج الجامع للأصول: منصور علي ناصف، ج 04، ص 07،

دار إحياء التراث العربي، 1962م.

وما أخرجه أبو الشيخ عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "إن الله لو أغفل شيئاً لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة"⁽¹⁾.

لعل هذا أقدم أثر لحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- عن إعجاز القرآن المطلق فهو لا يشيع منه العلماء ولا تنقضي عجائبه...

ويروى أيضاً عن علي بن أبي طالب في وصفه للقرآن أنه قال: "القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفتني عجائبه، ولا تنقضي غرائبيه، ولا تكشف الظلمات إلا به، وهو أمر زاجر وصامت ناطق وحجة الله على خلقه، أنزله الله نوراً لا تطفأ مصابيحها، وسراجاً لا يخبو توقده وبحراً لا يدرك قعره جعله الله رياء للعلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء وماج لطرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء، وهو كتاب الله بين أظهركم، ناطق لا يعيا لسانه ويبت لا تهدم أركانه وعز لا تهدم أعوانه"⁽²⁾.

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود قال: من أراد العلم فعليه بالقرآن قال به خير الأولين والآخرين، قال البيهقي: يعني أصول العلم.

وقال السيوطي: أنا أقول قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء... أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات... وبدء الخلق وأسماء مشاهير الرسل والملائكة وعيون أخبار الأمم السابقة..."⁽³⁾.

ويذكر كثيراً من هذه الأدلة المستنبطة من القرآن الكريم ويدلل على ذلك بقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾⁽⁴⁾، وقوله سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾⁽⁵⁾.

إذن فالقدامى من العلماء والباحثين، ومن الصحابة والتابعين كانوا يعتقدون أن كل العلوم في القرآن، سواء عرفوا هذه العلوم التي كانت في عصرهم، أو لم يعرفوها، وأن فيه علم الأولين والآخرين، ولمعرفتنا بحدود علومهم في ذلك الزمان واختلاط بعضها ببعض فإننا لا نستغرب منه ذلك، فأين كتاب الله من كتب البشر؟ وأين علم الله من علم البشر؟

1- الاتقان: السيوطي، ج02، ص126، وينظر المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: فهد بن عبد الرحمن، ج01، ص266، ط04، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1414هـ.

2- فحج البلاغة: الإمام علي بن أبي طالب، ص315، ط02، دار الكتاب اللبناني، 1908م، وينظر تفسير مفردات القرآن: سميح عاطف الزين، ص07، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1984.

3- الاتقان: السيوطي، ج02، ص129-131.

4- سورة الأنعام: الآية 38.

5- سورة النحل: الآية 89.

فالأساس الذي اعتمده في أحاديثهم عن القرآن، وما استخرجوه واستنبطوه منه يعود إلى هذا اليقين والإيمان بصدقه قبل البرهنة عليه، وذلك؛ لأنه من الله ومن علم الله ومن كلام الله، فخالق الكون والخلق أدرى بما خلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾⁽¹⁾.

ولعل خير ما يستشهدون به على جميع ما يذكروه من علوم القرآن أنه هو نفسه قال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾⁽²⁾.

فمن يؤمن بالقرآن يؤمن بهذه الآية، ومن يؤمن بهذه الآية فليبالغ ما شاء فلن يصل إلى حدود علم الله، لأن علم الله مطلق، وجميع المبالغات المفهومة وغير المفهومة هي نسبية لعقل الإنسان المحدود⁽³⁾.

ويبقى السؤال مطروحا عن مدى الحاجة والضرورة التي تجعلنا نظرق تفسير القرآن علميا في هذا العصر، ألا يكفي في دعاية البشر إلى الهداية المضامين والأفكار التي فهمها العرب والمسلمون من القرآن في القديم؟ ولماذا ندخل هذا الباب الذي كثر فيه الخطأ حتى خشينا على القرآن أن يزداد تفسيراً باطنياً جديداً؟ ثم هل من القرآن نفسه ما يدعونا إلى طرق هذا الباب ويأمرنا به لكي نكون مأمورين شرعاً به؟ ولو افترضنا أننا لم نظرق هذا الباب فهل نكون بهذا قد حججنا القرآن وفيدناه بعصر دون عصره؟ وقللنا من صلاحيته لكل زمان ومكان؟

وإذا كان القرآن طالبنا بالتدبير والتفكير، ألا يكفي سلاح العقل وما قدمه المتكلمون والفلاسفة المسلمون لاستعاب عملية التدبير والتفكير القرآني؟ ولا نحتاج إلى تجارب العلماء وبحث المختبرات التي تخرج كل يوم علينا بنظريات علمية جديدة وقوانين عن الكون والطبيعة والحياة، تنقض فيها ما سبق من نظريات وقوانين كانت تسميها هي نفسها علمية فتجاوزتها إلى غيرها، ولم تتوقف الحياة على شكل دون شكل من هذه النظريات والقوانين؟

وأخيراً هل نستطيع مثلاً أن نستغني عن التفسير العلمي للقرآن والإعجاز العلمي في هذا العصر، الذي لا يعرف إلا لغة العلم والحضارة والطاقة والمادة والنسبية ولغة الرقم الحسائي في الكمبيوترات تتحكم في كل مفردات حياته⁽⁴⁾.

1- سورة الملك: الآية 14.

2- سورة لقمان: الآية 27.

3- الإعجاز العلمي في القرآن: سامي أحمد الموصلي، ص 25-26.

4- المرجع نفسه: ص 40.

وللجواب على هذه الأسئلة جميعا كان علينا استعراض أفكار وآراء ومضامين الذين يؤيدون التفسير العلمين وما يعنيه في العصر الحاضر أمام حوار الحضارات والأفكار وصراعها بين الشرق والغرب، وبين المادية والروحية وبين معسكرات الإلحاد ومعسكر الإيمان وأسلحة العلم ومختراته وبجوته التي تخدم أغراض كل معسكر وكل اتجاه.

فهل نستطيع أن نقف على الحياد أو نرفض التعامل مع العلم المعاصر وصراع التلسكوبات والأقمار الصناعية تزدهم في الفضاء وصراع الميكروسكوبات مع الخلية الحية ومع مفردات الذرة وجسيماتها حتى ضاق العالم من التسميات الجديدة للاكتشافات داخل كل منها، فاستخدموا الكمبيوترات المتقدمة لحزن المعلومات عنها بدل الكتب والأوراق التي لا تتسع لها؟⁽¹⁾.

هل نستطيع أن ندعي أن ديننا وقرآنا صالح لكل زمان ومكان ونحن جالسين على التل لا نبدي رأيا، وليس لنا رأي في كل هذا؛ لأن قرآنا نزل في غير هذا العصر ولقوم أميين فسروه عند معطيائهم اللفظية والبلاغية واستخرجوا منه الأحكام التي يريدون وعمموها، فنحن نطبقها كما هي ونفهم القرآن كما فهموه؟

ألا نكذب نحن القرآن نفسه حينما نضعه هذا الموضوع، وهو الذي دعا بأكثر من سبعمئة آية للتفكير والتدبر علميا بالكون وخلقه وخالقه، ويتوجه بالخطاب في خمسين موضعا، للذين يعقلون، ومائة موضع للذين يعلمون وثلاثين موضعا للذين يتفكرون ويتفقهون؟

ألا نكون مناقضين للقرآن نفسه وهو الذي يخاطبنا مباشرة بالجواب على كيف لفهم حقيقة الخلق ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت﴾⁽²⁾.

وإذا كان القرآن هو دليل ومعجزة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- وأنه نبي من عند الله، فكيف سنحاجج أبناء هذا العصر، علماء ومثقفين وعوام، بأن رسولنا مرسل إلى الخلق كلهم حتى قيام الساعة، ولا نبي بعده؛ لأنه خاتم النبيين إذ لم يكن هذا الدليل وهذه المعجزة قائمة بعملها الإعجازي لكل عصر وأبنائها المخاطبين بهذا النداء؟

ولو كانت هذه المعجزة معجزة لأبناء العصر الذي أنزلت عليهم فآمنوا بها في وقتها فما الذي يجعل أبناء عصرنا والعصور اللاحقة لا معجزة لديهم سوى الأخبار التاريخية عن هذه المعجزة، فما الفرق

1- الإعجاز العلمي في القرآن: سامي أحمد الموصلي، ص 41.

2- سورة الفاشية: الآيات 17-20.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية
بينها وبين معجزات باقي الأنبياء الذين مضوا مع معجزاتهم وليس لهم دليل على صدق نبوتهم بمعجزاتهم
غير أخبار يرويها التاريخ؟⁽¹⁾.

"إن الإيمان بالنبوة يقتضي وجود المعجزة، والتصديق الجازم بخوارق العادات يحتاج إلى برهان، فمعجزة
محمد -صلى الله عليه وسلم- هي القرآن، ولا تزال هذه المعجزة تتحدى منذ أكثر من أربعة عشر قرنا
وإلى الآن، أما معجزة الأنبياء السابقين فإنها غير مدركة ولا محسوسة لنا في الوقت الحاضر"⁽²⁾.

إذن فإن المعجزة هي دليل صدق الأنبياء على دعواهم ولقد كان القرآن ولا يزال هو المعجزة
المثبتة لنبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- وفي ذلك يقول وحيد الدين خان في الإعجاز: "هو إعجاز
القرآن بالتحدى الدائم على أن يأتوا بمثله ونبوات القرآن الغيبية، ومن ثم الإعجاز العلمي فيه ويقول عنه:
إنه رغم نزول القرآن قبل قرون كثيرة من عصر العلوم الحديثة لم يتمكن أحد من إثبات أية أخطاء علمية
فيه ولو أنه كان كلاما بشريا لكان هذا ضربا من المستحيل"⁽³⁾.

ولقد أثبت العلم أن: "القرآن الكريم هو المعجزة الدالة على صدق نبوة محمد -صلى الله عليه
وسلم- وما عدا القرآن من خوارق العادات التي ظهرت بين يديه فلا تعد من معجزاته؛ لأنها لم تنقل
بالتواتر، فضلا عن كون المعجزة بالنسبة إلى آخر الأنبياء لا بد أن تظل قائمة بالتحدى وتلك الخوارق لم
تعد قائمة، يمكن أن توجد لدى غير المسلمين قناعات بصدق نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-"⁽⁴⁾.

إذن إن القول بالإعجاز العلمي للقرآن ينقصه شرطان أساسيان:

الأول: أن يتحدى أصحاب المعجزة من يريد أن يؤمنوا بها.

والأخر: أن تكون المعجزة من جنس برز فيه من وجهة إليهم وفشا فيهم عجزهم مثل السحر عند
الفراعنة أيام موسى، والطب عند الرومان أيام المسيح -عليهما السلام-، والإتفاق تام أن العرب كانوا
أيام الوحي جاهلين بالعلوم بل كانوا أميين، ثم ما حاجة القرآن إلى الإعجاز العلمي؟

إن كثيرا من المفكرين جهروا بالقول بغنى القرآن عن هذه البضاعة، وعن أن يجعلها من وظائفه،
ولم يزعم أحد من الكتابيين أن كتابه السماوي معجز علميا، ولو خلا القرآن الكريم خلوا تماما من

1- الإعجاز العلمي في القرآن: سامي أحمد الموصلي، ص 41.

2- الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية: محمد الخالد، ج 02، ص 245، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1984م.

3- الإسلام يتحدى: وحيد الدين خالد، ص 123-138، تحقيق عبد الصبور شاهين، ط 06، دار البحوث العلمية، 1401هـ-1908م.

4- الأصول الفكرية: محمد الخالد، ج 02، ص 266-286.

الإشارات العلمية لما انتقص ذلك من مكانته بل من إعجازه العام، ولما انتقص من قدرته الراهنة على الإضطلاع بوظيفته في إثبات الخالق⁽¹⁾.

وعلى هذا فالإعجاز العلمي هو الإتيان بأمر يعجز البشر عجزاً كاملاً عن أن يأتوا بمثله، وبذلك يسمى إعجازاً، ويكون دليلاً على أن من ورائه قدرة فوق قدرة جميع البشر.

فالإعجاز العلمي في القرآن هو معجزة الله ورسوله إلى عصرنا فكيف يجب أن نتعامل معه؟ "إننا نحن المسلمين مدعوون في كل زمان ومكان وبنص الشرع إلى الاستفادة من كل حقيقة علمية، لأن ديننا دين العلم والمعرفة، لم ولن يتعارض في يوم من الأيام مع حقائق العلم في الكون والحياة"⁽²⁾؛ لأن القرآن يتحدث عن صفات الله وأفعاله والكون هو من خلق الله وأفعاله، وما ذكره بن مجاهد أنه ما من شيء في العالم إلا وهو في كتاب الله.

وما قاله بن أبي الفضل المرسي من أن القرآن جمع علوم الأولين والآخرين، بل ويستشهد السيوطي لأبي البكر بن عربي من أن القرآن فيه علوم على عدد كلمات القرآن مضروبة في أربعة، لأن لكل كلمة ظهر وبطن وحد ومطلع، عدا ترتيبها والروابط بينها وهذا مما لا يحصى ولا يعلمه إلا الله⁽³⁾ بل ويعتبر بعض القدماء أن حدود علم الله لا نهاية لها مستشهدين بقوله تعالى في القرآن ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدَةٌ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبِحْرٍ مَا نَفَذْتَ كَلِمَاتِ اللَّهِ﴾⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾⁽⁵⁾. وآخر من قال به، بهذا المعنى الفخر الرازي الذي قال: "ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل أكثرها وما أوتي البشر من العلم إلا قليلاً"⁽⁶⁾.

ومن هذا المنطلق يبرهن محمد العفيفي بكتاب كامل اسمه (القرآن تفسير الكون والحياة) على مدى صحة تصورات الأقدمين حيث يؤكد على أن هذا الكتاب يحقق ويؤمن بأن القرآن فيه تفسير كل شيء وفيه الحقيقة المطلقة، وفيه الثبات الحقيقي في الحياة، وهو التطابق بين كلمات القرآن وبين تغيرات الحياة ومكتشفات العلم، ويعتبر أن القرآن يقول الفصل في كل شيء؛ لأن فيه علم كل شيء، ويؤكد

1- بنظر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: حسين نصار، ص 270-276.

2- المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 152.

3- الإتيان: السيوطي، ج 02، ص 126-128.

4- سورة لقمان: الآية 27.

5- سورة الكهف: الآية 109.

6- الإنسان في الكون بين العلم والقرآن: عبد العليم عبد الرحمان خضر، ص 222، عالم المعرفة، السعودية، 1983م.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية
على أن في العالم كتابا واحدا قدم للناس جميعا حقائق العلم قبل أن تثبت في معارك العلاقات بين الوعي
البشري وبين مادة الكون ويقول بأن القرآن بصفته كلام الله تعالى، وهو اليقين الوحيد في عالمنا الذي
تختلف مادته ولا تتفق بغير قدرة الله، ويرى بأن الحق هو ظهور الكلمة، فإن عبدنا الحق صدقت كلماتنا،
وإن أخضعنا كلماتنا لكلمات الله فزنا بالعلم كله، بل إنه يصر على أن القرآن حقا هو تفسير الحياة، ولا
يمكن أن يكون للحياة تفسير غير القرآن ويقصد بالحياة، الكون والوجود كله، ويشير بتعبير آخر إلى أن
القرآن هو التفسير لليقين الوحيد المطلق لكل شيء في الحياة في شمولها وتفصيلها، وأن سائر علوم الحياة
وسائر بحوثنا في صحيح المادة إنما هو أمر سبقنا القرآن إلى بيانه، ودعانا إلى معرفته وأن علماء العالم لو
اجتمعوا كلهم على الآيات القرآنية الكونية لاكتشفوا سبق القرآن للوعي البشري إلى اكتشاف كل
الحقائق ثم يفسر قوله بأن العلم الذي أنزله الله تعالى على رسوله في القرآن هو علم الصلة بين كل شيء
وكل شيء، من طريق تفصيل الحياة بالخلق وتفصيل القرآن بالأمر⁽¹⁾.

وهكذا ينتهي إلى القول بأن صلة الوعي البشري بالحياة كلها احتمالات وتغيرات ومفاجآت
وانقطاع عن العلم الحقيقي، ولولا القرآن الذي أعان الوعي البشري على اكتشاف العلوم لبقى الإنسان
في حيرة من أمره، ثم يختم تصوراتنا بأن الإيمان هو أعلى درجات العلم وأنه لا علم البتة إلا وهو الإيمان،
لأن عمل الإنسان إذا انقطع إلى نفسه فهو احتمالات في احتمالات في حين أن اليقين والثبات لا يكونا
إلا بارتباط هذا العمل بالحقيقة والحقيقة هي في كلام الله "إن العمل الإنساني متحقق حقه في البقاء إن
كان عملا إنسانيا صالحا، والله هو الذي يحقه، فبقاؤه إنما يتم بإحقاق الله له" ويقول: "لا وجود ولا
عمل للإنسان بغير خلق الله للإنسان ومادة الحياة، ثم يعمل الإنسان عملا احتماليا لا يتحقق إلا بالحق
والحق هو الله والحق يهدي إلى الحق أي أن التزام الحق في العمل يحقق احتماليته فيجعلها متحققة بالحق
أو باطلة بإبطال الحق لها فالإحتمال في حدود عمل الإنسان واليقين هو خلق الله ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا
تَعْمَلُونَ﴾⁽²⁾.

ويصل إلى إثبات أن القيمة الحقيقية هي عبادة كل شيء لله، وأن القرآن هو التفسير الحقيقي لكل
أحوال الحياة؛ لأن القرآن مفصل تفصيلا مطلقا بينما الحياة مختلفة⁽³⁾.

1- ينظر القرآن تفسير الكون والحياة: محمد العفيفي، ذات السلاسل، الكويت، 1986م.

2- سورة الصافات: الآية 96.

3- القرآن تفسير الكون والحياة: محمد العفيفي، ص 97.

الفصل الثالث الآية في الدراسات القرآنية
إذن فهذا النموذج في التفسير للقرآن يعطي كل كلمات المبالغة عن القرآن حقيقتها في هذا
العصر بعد أن أعطاها القدماء حقيقتها حينما جعلوا كل العلوم تصب وتنبع من القرآن مهما كانت
بعيدة.

ولكن الملاحظة الذكية التي يبدأ بها المؤلف كتابه وهو يختاط لتعليمات كلماته كي لا يساء
فهمها، هي تأكيده في أول عبارة من كتابه على توضيح ضروري جدا لفهم أفكاره فهما سليما حيث
يقول: "من حقيقة القرآن أن فيه تفصيل كل شيء... وأول ما يتعثر فيه الوعي البشري وهو يحاول فهم
أن القرآن فيه تفصيل كل شيء، أن يظن أن القرآن فيه مادة الحياة بذاتها... حتى لقد ظن بعض الناس أن
القرآن فيه ذكر أجزاء المادة، أو تفصيلات المعادلات الرياضية أو الكيميائية، إلى غير ذلك من تفصيلات
الوقائع المادية ذاتها... وليس في ذلك شيء من الصواب، وأن القرآن هو أعظم وأعلى قدرا من أن يكون
ضمن حويبات الحياة المادية.

إن القرآن كلام الله، فهو كما سنرى، فوق الحياة وليس ضمن محتوياتها، القرآن فيه تفصيل كل
شيء، حيث هو مهيم على تفصيلات المادة بتفصيلات الحقيقة المحيطة بسائر علاقات الأشياء بعضها
ببعض؛ فالخلق، أي أجزاء الأحياء والأشياء في رحاب الكون لا بد له من علاقة بالخلق، والإنسان، وهو
يبحث في حقائق الكتل المادية، لا بد له من حساب في علاقته هو نفسه بهذه الكتل المادية الإنسان ومراييه
ومشاهداته بحاجة إلى علاقة ثالثة، إلى ضلع ثالث يكمل مثلث الإنسان والأشياء بصلعها الثالث وهو
الأخلاق أو مراقبة المجتمع الإنساني له"⁽¹⁾.

علما أن الأخلاق عنده ليست بالمعنى المباشر المعروف وإنما هو بينها على أساس نوع السلوك
الإنساني تجاه علاقة الإنسان بالأشياء بعد إدراكها له بشكل معين، فيقول: "إذا كانت المادة تتحول إلى
طاقة، والطاقة تتحول إلى مادة، وكما هي حقيقة حياتنا التي نحياها، فإن سائر المنتجات المادية تتحول إلى
أخلاق، أي إلى لحظة التصرف في المنتجات، وقد يكون التصرف أمينا صادقا يعطي كل ذي حق حقه،
وقد يحدث عكس ذلك تماما، وعلى ذلك، فالعالم كله بحاجة إلى هذا الإكتشاف الضخم في كلمات
القرآن؛ لأنها تحقق ذلك كله، وتعطي كل مرحلة منه حقها الواضح الذي يربط بين المادة والأخلاق
ربطاً عضويًا لا شك فيه كما حدد القرآن لكل كلمة من كلماته قيمة يقينية هي أعز من حقائق العلم
التطبيقية نفسها"⁽²⁾.

1- القرآن تفسر الكون والحياة: محمد العفيفي، ص 07.

2- المرجع نفسه: ص 50.

..... الآية في الدراسات القرآنية
وهكذا يصل المؤلف إلى القول: "إن كلمات القرآن أكثر واقعية -وأعز حقيقة- من مصطلحات الحقائق العلمية الثابتة، ولا نقول الفروض أو النظريات، إن الكلمة القرآنية (آية) ومعناها العلاقة والدلالة قد وحدت في مدلولها بين الآية القرآنية وبين الآلة المحسنة في الوقائع المادية في الحياة على أساس أن مدلول كلمة الآية هو الوسيط بين علاقات الأشياء بحقائقها النسبية والحقيقة "الكلية المطلقة".

بل إن هذا التطابق بين الكلمة القرآنية والحياة يعتبره المؤلف آية بنفسها من الله "وكل من الكلمة القرآنية وواقعها في الحياة بينها علاقة حكم للقرآن، وخضوع في واقع الحياة يبينان معا، إن هذه العلاقة نفسها آية من آيات الله" (1).

ثم يعقد المؤلف فصلا تحت عنوان: (أفلا يتدبرون القرآن) يبدأ بسؤال (كيف نفسر حياتنا في القرآن) ليصل إلى أن العلاقة لما كانت بين الإنسان، وشأنه الخضوع لكتاب الله، وبين القرآن وشأنه حكم كل شيء بكلمات الله، لذا فمن أراد أن يفهم الحياة أو يفسرها فلن يتحقق له شيء من ذلك إلا بالقرآن، فهذا محتاج إلى ربط أنفسنا بالقرآن كلما تدبرنا القرآن، ثم ليستنتج "بأن القرآن حقا هو تفسير الحياة، ولا يمكن أن يكون للحياة تفسير غير القرآن والمقصود بالحياة الكون والحياة معا بل والوجود حاضره وغائبه" (2).

إنه ينعي على التعبير العملي للحياة عجزه عن متابعة متغيراتها، ومفاجأتها في كل لحظة "إذا كانت الحياة الإنسانية كلها تبحث عن لغة للتعبير فلا تجدد؛ لأن متغيرات الحياة تفاجئنا كل لحظة بما لم يمكن في الحسبان، إن القرآن هو التفسير، التفسير الوحيد اليقين المطلق لكل شيء للحياة في شمولها وتفصيلها" (3).
وهكذا حينما يستشهد بقول القرآن ﴿ وَلَا يَأْتُوكَ بِمِثْلِ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (4).
نراه يعلق على كلمة (تفسيرا) "بأنها جاءت مرة واحدة دالة على أن كلام الله هو الذي يفسر كل ما عداه تفسيرا، هو الحق فليس بعد الحق إلا الضلال، فمهما يحاول الناس أن يصيبوا الحق في تفسيرهم أمرا من أمور الحياة فرما تيسر لهم شيء من صواب الرأي أو القول، ولكنهم لن يعلموا يقينا أنهم أصابوا أحسن الحديث وأحسن العمل، كمن يسافر من بلد إلى آخر فلعله يختار مكانا من البلد وصل إليه وغيره أحسن منه وهو لا يدري من ذلك شيئا بل هو لا يدري وجه الإصابة فيما أصاب، واليقين لا مصدر له إلا الله وحده لا شريك له".

1- القرآن تفسير الكون والحياة: محمد العفيفي، ص 48-49.

2- المرجع نفسه: ص 286.

3- المرجع نفسه: ص 287.

4- سورة الفرقان: الآية 33.

ويستشهد بحديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- "من قال في القرآن برأيه فصاب فقد أخطأ" ويشرحه بقوله: "إن الأصل في القرآن أنه هو اليقين"، فلا يكافئه في القول فيه إلا اليقين ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو المؤيد باليقين، فكان كلامه عن القرآن وعمله به هي الصدور الكامل عن الوحي، وكان ما عدا ذلك من القول بالرأي باطلا؛ لأنه إن صادف وجه الحق، والحق بكل شيء محيوط، فليس يعني ذلك من اليقين بالحق ووضوحه في وعي القائلين بالرأي حيث لا يغنيهم أن يصلوا إلى الحق اتفاقا لا يقينا ظاهرا في الإعتقاد الذي يبين العمل ويحققه تحقيقا كاملا في الضمير، فضلا عن سائر الجوارح، حيث هذا الظهور في الفهم هو طريق التواصي بالحق والتواصي بالصبر⁽¹⁾.

ويحتم بقوله: "فالقرآن إذن كلماته هي أحكامه والكلمة من كلمات اللغة إذا كانت قد جاءت في القرآن فهي بموقعها من القرآن وبصيغتها القرآنية إنما هي حكم يزيدنا بيانا كلما ازددنا توسعا في التدبر ونحن في التدبر خاضعون بلغتنا وحياتنا كلها لهذه الأحكام القرآنية"⁽²⁾.

ونستنتج من كل ما تقدم: أن الوظيفة الأساسية للقرآن الكريم هي الدعوة والتشريع أي كتاب دعوة إلى الإيمان بربوبية الله الواحد كامل الصفات ونبوة -محمد صلى الله عليه وسلم- ووضع الشرائع التي تكفل إقامة المجتمع الإسلامي:

- أن لنظرية إعجاز القرآن أثرا بالغا في الفكر العربي الإسلامي فقد أثارت قضية الإعجاز جدلا واسعا بين المتكلمين على اختلاف فرقهم، وعرض لها المفسرون في ثنايا تفسيرهم للقرآن الكريم وأفاد منها اللغويون والأدباء والبلاغيون والنقاد.

- أن الوجه الأمثل في الإعجاز القرآني هو الوجه البياني لأنه يوجد في كل سور القرآن وفي كل آية من آياتها أما سائر الأوجه الأخرى التي ذكرها العلماء فلا تعدوا إلا أن تكون من دلائل كون القرآن الكريم من عند الله تعالى.

- أن المقصود بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم هو توسيع مدلول الآيات القرآنية وتعميق معانيها في الوجدان والفكر الإنساني بالانتفاع بالكشوف العلمية المعاصرة في توسيع هذا المدلول وتعميق هذه المعاني عن طريق الاستئناس بالموافقات الدقيقة والمقارنات العميقة الملحوظة للعلماء المتخصصين والخبراء الباحثين في مجالات الكون والحياة في شتى علومها ومعارفها.

- أن القرآن الكريم هو الآية العظمى والمعجزة الكبرى والتفسير الوحيد اليقين المطلق لكل شيء حيث قدم جميع حقائق العلم قبل أن تثبت في معارك العلاقات بين الوعي البشري وبين مادة الكون.

1- القرآن تفسير الكون والحياة: محمد العفيفي، ص 275.

2- المرجع نفسه: ص 315.

الإعجاز اللغوي:

وهو أبرز وجوه الإعجاز وأظهرها إذ هو المطابق لأحوال العرب وقت نزول القرآن فالتحدي يكون يجنس ما برز فيه القوم وتفوقوا وهم تفوقوا في البيان والبلاغة والفصاحة، ولم يتفوقوا في العلوم والمعارف وأخبار الغيب أو التشريع أو نحو ذلك، فكان الإعجاز بالبيان أظهر وجوه التحدي وأبرزها. والقوم أدركوا أول ما أدركوا إعجازه البياني فملك منهم الألباب واستولى على الأفئدة ويطلق على هذا الوجه عدة مصطلحات فيسمى: (الإعجاز اللغوي، والإعجاز البياني، والإعجاز البلاغي)، وتدخل في هذا المعنى أيضا أقوالهم المختلفة في أن إعجاز القرآن (بلاغته أو فصاحته) أو ما تضمنه من البديع أو نظمه أو أسلوبه أو غير ذلك من فروع اللغة العربية. والناظر في هذا القرآن الكريم لا يخلو من حالتين:

الأولى: أن لا يكون ممن أوتوا قوة المعرفة للفصل بين درجات الكلام والتفريق بين البليغ والأبلغ والفصيح والأفصح.

الثانية: أن يكون قد أوتي حظا من التمييز بين الأساليب ومعرفة درجات البلاغة والفصاحة.

فإن كنت من الفئة الأولى فلا سبيل لك لمعرفة إعجاز القرآن وبلاغته بحسك وذوقك وإنما سبيلك أن تقنع بشهادة أهل الخبرة والمعرفة، وهم هنا أهل الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع وأعلمهم بذلك سليقة وأجودهم فترة وأتقنهم تربية وسماعهم من نزل عليهم القرآن وأولئك فقد أقرؤا بذلك في مشاهد عديدة وأقوال كثيرة فهذا الوليد بن المغيرة يقول لمن أنكر عليه سماعه للقرآن وتأثره به "والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمشمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته"⁽¹⁾.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر بأثره عن غيره فتزلت ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾⁽²⁾.

وقد وصف الله تفكيره بقوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾⁽³⁾.

1 - النبا العظيم: محمد عبد الله دراز، ص 92 وما بعدها.

2 - هنا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والآية 11 من سورة المدثر. المستدرک: الحاكم النيسابوري، ج 02، ص 506-507، دار الكتب العلمية.

3 - سورة المدثر: الآيات 18-25.

التمهيد الإعجاز اللغوي والعلمي

قال محمد عبد الله دراز: "فانظر تصوير القرآن للجهد العنيف الذي بذله الرجل في إصدار حكمه الثاني حيث يقول: إنه فكر وقدر، ثم نظر ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر ومعنى هذا كله أنه كان يقاوم فطرته ويستكره نفسه على مخالفة وجدانه، وإنه كان في حيرة وضيق بما يقول..

وأخيرا استطاع أن يقول ما قال نزولا على إرادة قومه وانظر الفرق بين هذا الحكم المصطنع وبين حكم البديهة العربية في قوله أول مرة، إنه يعلو وما يعلو وإنه يحطم ما تحته"⁽¹⁾.

هذه شهادة أهل اللغة نفسها وهي شهادة خصم والفضل ما شهدت به الأعداء

وإذ لم تر الهلال فسلم ***** لأناس رأوه بالأبصار

وإن كنت من الفئة الثانية وهم الذين أوتوا حظا من تذوق البيان وشيئا من إدراك الفصاحة والبلاغة فدونك نصوص البلغاء وأبيات الشعراء، وكلمات الخطباء اختر منها ما شئت من أرقى عصور البلاغة وأعلى صور البيان ثم انظر في آية من آيات القرآن ستجد البون شاسعا والفرق كما بين الثرى والثريا أو السماء والأرض .

فإن قلت: نعم لقد نثرت كنانة الكلام بين يدي وعجمت سهامها فما وجدت كالقرآن أصلب عودا ولقد وردت مناهل القول وتذوقت طعومها فما وجدت كالقرآن أعذب موردا وقد آمنت أنه كما وصفتموه غير أن الذي أحس به من ذلك معنى يتجمجم في الصدر لا أحسن تفسيره ولا أملك تعليقه، فهل من سبيل إلى عرض شيء من ذلك علينا لتطمئن به قلوبنا ونزداد إيمانا إلى إيماننا؟⁽²⁾.

قلنا: إن هذا أمر جسيم، ومرام بعيد لا يمكن رسمه في هذه العجالة ولو طالت ولعلنا نذكر ما يقرب البعيد ويدينه ونتحدث عن أمرين:

أولهما: ألفاظه وهي القشرة البادية.

ثانيهما: معانيه وهي اللآلئ الكامنة.

فأول ما يلاقيك من ألفاظه خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره.

1- دع القارئ المحود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلا بنفسه على هوى القرآن لا بنفس تاليه ثم انتبذ منه مكانا قصيا لا تسمع فيه جرس حروفه ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ومداتها وغناها ووصلها وسكنها ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وستجد اتساقا وائتلافا يسترعي سمعك لا يعرف منه على كثرة ترداده ملل ولا سأم.

1 - النبا العظيم: عبد الله دراز، ص 93.

2 - المرجع نفسه: ص 100-101.

هذا الجمال في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن حتى الذين لا يعرفون لغة العرب فكيف يخفى على العرب أنفسهم؛ إنه النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيما منوعا، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعا بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس فيه آنا بعد آن⁽¹⁾.

2- وإذا ما قربت أذنك قليلا، قليلا فطرت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وعلاقتها مع بعضها فهذا ينقر وهذا يصفر وذاك يهمس وذلك يجهر وآخر ينزلق عليه النفس وآخر يحتبس عنده النفس، وهلم جرا، فترى الجمال اللغوي ماثلا أمامك في مجموعة مختلفة مؤلفة من هاتين الصفتين السابقتين تتألف القشرة السطحية للجمال القرآن وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما توحيه اللآلئ النفيسة فاقتضت حكمته تعالى أن يصون معاني القرآن الكريم السامية بألفاظ عذبة تغري بطلاوتها، وتكون بمثالة (الخداء) يستحث النفوس على السير إليها ويهون عليها عناء السفر في طلبها لا جرم اصطفتى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالب العذب الجميل ومن أجل ذلك سيقى صوت القرآن أبدا في أفواه الناس وآذانهم ما دامت فيهم حاسة تذوق وحاسة تسمع وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سره وينفذون بها إلى بعيد غوره⁽²⁾.

ثانيا: المعاني

فإن لم يلهك جمال القشرة البادية عن سام المعاني المستترة فكشفت الصدفة عن درها ونفذت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي تجلى لك ما هو أهى وأهمر ولقيت ما هو أروع وأبدع ولا تحسبن ذلك الأمر لا يظهر أمره إلا في مجموع القرآن بل يظهر ذلك في القطعة منه، ويظهر في السورة⁽³⁾ وسنعرض لك لمحة سريعة عن هاتين المرتبتين:

1 - النبا العظيم: عبد الله دراز، ص 101-102.

2 - المرجع نفسه: ص 103-104.

3 - المرجع نفسه: ص 106-107.

أولاً: بيان القرآن في قطعة، قطعة منه: (1)

فمن صفاته:

1 - القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى:

وهما طرفان متقابلان الميل لأحدهما ميل عن الآخر فمن أوجز في لفظه لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً ومن يعمد إلى الوفاء بالمعنى وإبراز كل دقائقه لا يجد في قليل اللفظ ما يشفي صدره فيسترسل استرسالاً يشعره بتضاؤل قوة نشاطك واضمحلال باعثة إقبالك؛ فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغائتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع فانظر حيث شئت من القرآن الكريم تجد وفاء الألفاظ بحق المعاني واحتواء المعاني للألفاظ بحيث لا يستغني معنى على لفظه ولا تقصر لفظه عن معنى كمال قال ابن عطية: "لو نزعته منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد" (2).

2- خطاب العامة وخطاب الخاصة:

وهما أيضاً غائتان متباعدتان فما تخاطب به الذكي لا تخاطب به الغبي، وما تخاطب به الطفل لا تخاطب به الكبير، أدرك العرب ذلك وسدوا عجزهم عنه بعبارات مثل "لكل مقام مقال"، ونحو ذلك. وجاء القرآن الكريم وقد ملك الغائتين فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام وأبلغه ويراه العامة أحسن كلام وأوضحه (3).

3- إقناع العقل وإمتاع العاطفة: وفي كل إنسان قوتان:

أ- قوة تفكير

ب- قوة عاطفة ووجدان

والقوة الأولى تغوص باحثة عن الحقائق المستترة والمعاني الباطنة وأما الثانية فتطفو تبحث عن الجمال الظاهر في القشرة البادية والنفس الإنسانية، إما أن تغوص مع تلك أو تطفو مع هذه، ولا تستطيع أو تغوص وتطفو في آن واحد أو لحظة واحدة وحين تظهر (قوة الوجدان) تضعف (قوة التفكير) فلا يتقن عقله فكراً فإن وفي المتكلم بحق العقل يخس حق العاطفة، وإن وفي بحق العاطفة

1 - النبا العظيم: عبد الله دراز، ص 108.

2 - المحرر الوجيز: ابن عطية، ج 01، ص 60-61، تحقيق المجلس العلمي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1395هـ وينظر النبا العظيم: دراز، ص 109-110، وينظر مناهل العرفان: الزرقاني، ج 02، ص 254-255.

3 - النبا العظيم: دراز، ص 113، وينظر مناهل العرفان: الزرقاني، ج 02، ص 246.

بخس حق العقل، فإما أن يأتي بكلام علمي مجرد يرضى به عقله أو بكلام أدبي منمق يرضى به عاطفته حتى بات الناس يقسمون الأساليب إلى نوعين لا ثالث لهما:

أ- أسلوب علمي

ب- أسلوب أدبي

وقسمت الدراسة في عصورنا هذه إلى علمية أو أدبية؛ فلا تطمع من إنسان في أن يهب لك هاتين الطلبتين على سواء وهو لم يجمعهما في نفسه على سواء وما كلام المتكلم إلا نتاج قوته إما قوة التفكير وإما قوة الوجدان وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

حاشا القرآن الكريم الذي جمع "قوة الحقيقة البرهانية" و "قوة المتعة الوجدانية" تدبروا في آيات القرآن الكريم فسترون أنها في معمعة البراهين والأحكام لا تنسى نصيب القلب والوجدان ذلك أنها كلام الله رب العالمين الذي لا يشغله شأن عن شأن⁽¹⁾.

4- البيان والإجماع:

وهما أيضا أمران متقابلان لا يكادان يجتمعان في كلام إن وجد الأول إضمحل الثاني وإن وجد الثاني تلاشى الأول فكلام البشر إما أن يكون مجعلا وإما أن يكون مبينا وأن له أن يكون مجعلا مبينا في آن واحد.

أما القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى فالأمر غير ذلك، تقرأ الآية القرآنية فتجد فيها من الوضوح والظهور ما يبوئها الدرجة العليا في البيان بأسلوب محكم خال من كل غريب عن الغرض، يسبق معناها إلى نفسك دون كد ذهن ولا إعادة تلاوة، فإن أعدت النظر مرة أخرى لاح لك منها معاني جديدة فإن زدت التدبر زاد العطاء وانكشف لك ما يجعلك توفن أن في الآية إجمالا لمعان جديدة مع بيان ووضوح⁽²⁾.

ثانيا: بيان القرآن في سورة سورة منه

وهي أيضا مرتبة من مراتب البيان في القرآن لها صفات وخصائص أهمها:

الكثرة والواحدة

فالكلام هو مرآة المعنى فإن ساء نظمه تبددت معانيه كما تبدد الصورة الواحدة على المرآة المهشمة أو غير المستوية السطح، ولا بد لإبراز المعنى ووضوحه من إحكام ألفاظه وإتقان بيانه وذلك بتمام

1 - النبا العظيم: دراز، ص 113-116، وينظر مناهل العرفان: الزرقاني، ج02، ص 247.

2 - المرجع نفسه: ص 117، وينظر المرجع نفسه: ص 253-254.

التقارب بين كلماته والترابط بين جملة حتى تماسك وتتعاون أشد ما يكون التماسك وأقوى ما يكون العناق وليس ذلك بالأمر الهين بل هو مطلب شاق يحتاج إلى مهارة وحذق ولطف وحس في اختيار أحسن المواقع لتلك الأجزاء؛ أيها أحق أن يجعل أصلا أو تمة وأيها أحق أن يبدأ به أو يختم ثم اختيار أحسن الطرق للمزج بينها بالإسناد أو التعليق أو بالعطف، وغير ذلك من أسباب الترابط ذلك حال المعنى الواحد الذي تتصل أجزائه فيما بينها فما ظنك بالمعاني المختلفة في جوهرها كم تحتاج من المهارة والحذق؟ ولهذا المشقة نرى كثيرا من البلغاء حين ينتقل من معنى إلى معنى لا يستغني عن استعمال بعض الأدوات لسد الثغرة التي يحدثها الانفصال بين المعاني من نحو قولهم (وبعد) أو (ونعود) أو (نتنقل إلى الحديث عن) أو (وستحدث) أو (بقي علينا) ونحو ذلك...

وهذا شأن البلغاء في الحديث الواحد في المجلس الواحد فكيف لو جاء حديثه في أماكن مختلفة وأزمان متباعدة ألا تكون سمات الانفصال وظواهر الإنقطاع أقوى وأشد.

حاشا القرآن فقد اشتملت السورة منه على وصف وقصص وتشريع وجدل وعقائد وأمر ونهي ونزلت السورة في أوقات مختلفة وأزمان متباعدة ورتبت آياتها بطريقة عجيبة يرسم مكان الآية ويحدد قبل أن تنزل الآية التي قبلها أو التي بعدها ثم لا يحدث أن تنقل من موضعها إلى آخر فإذا ما نزل ما حولها من الآيات رأيت الترابط والتلازم كأنهن قطعة واحدة بل رأيتهن مع بقية آيات السورة كأنهن سبيكة واحدة فلا تجد فرقا ولا يستبين لك أمر في معرفة ما نزل من السورة منحما وما نزل منهن مفرقا فجاءت الكثرة الكاثرة من المعاني في السورة كأنهن معنى واحد أو آية واحدة محكمة السبك متقنة السرد (1)(2).

الإعجاز العلمي:

القرآن الكريم كلام الله والكون كله من خلق الله ولا يشك مؤمن في التطابق التام بين كلام الله تعالى وبين حقائق هذا الكون ونظامه.

ولا ريب أن المؤمن حين يقرأ اكتشافا علميا جديدا أثبتته العلماء بالبرهان القاطع ثم يجد ذلك مذكورا في القرآن الكريم أو ما يوافقه فإنه يشعر بزيادة الطمأنينة القلبية كالتّي طلبها إبراهيم -عليه السلام- وبفرح

1 - إن شئت دراسة وافية لنموذج تطبيقي لهذا المعنى ينظر ما كتبه محمد عبد الله دراز عن الكثرة والواحدة في سورة البقرة في كتابه النبأ العظيم من ص 142 إلى نهاية الكتاب.

2 - إلى هنا انتهى ما اقتبسته مما كتبه في هذا الموضوع، محمد عبد الله دراز في كتابه القيم النبأ العظيم ص 92، ولزيد البيان ينظر ما كتبه الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه مناهل العرفان، ج 02، ص 243-258، والأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص 188-273. وينظر ما كتبه فهد بن عبد الرحمن الرومي في كتابه دراسات في علوم القرآن الكريم، ص 281، ط 09، مكتبة التوبة، الرياض، 1421هـ-2000م.

التمهيد الإعجاز اللغوي والعلمي
وسرور كفرح الرسول - صلى الله عليه وسلم - بحديث الجساسة⁽¹⁾، لكن هذه المقارنة أو التوفيق بين
النص القرآني والإكتشاف العلمي الجديد ينبغي أن تكون له ضوابطه وأن تكون له موازنه ولهذا وقع
الإختلاف بين العلماء في التفسير العلمي للقرآن الكريم بين مؤيد ومعارض⁽²⁾.
المراد به:

يراد بالتفسير العلمي: "اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم ومكتشفات العلم
التجريبي والربط بينهما بوجه من الوجوه".

وهذا تعريفه بما هو عليه، أما تعريفه بما ينبغي أن يكون عليه فهو: "كشف الصلة بين النصوص
القرآنية وحقائق العلم التجريبي". والفرق بينهما أن في الأول خلطاً بين النظريات والحقائق بحيث نجد
كثيراً من المفسرين يفسرون القرآن بهما من غير تحقيق وما ينبغي أن يكون هو التمييز بين النظريات
والحقائق والإقتصار على الثانية دون الأولى في تفسير القرآن الكريم.

أقوال العلماء في الإعجاز العلمي⁽³⁾

مما لاشك فيه أن مثل هذا اللون من التفسير في جدته وتجده سيكون له خصوم وسيكون له
أنصار يلتمس كل منهم دليلاً ينصر به رأيه ويؤيده به ثم يكر على دليل الخصم فيبطله. وقد كان هذا
الأمر في التفسير العلمي للقرآن الكريم منذ لحظات بزوغه ونحن وإن كنا لا نعرف هذا الحدث باليوم أو
بالسنة إلا أن العلماء اتفقوا على أن الإمام الغزالي المتوفى سنة 505 هـ من أوائل المتكلمين في هذا
النوع من التفسير وعلى هذا فيكون ظهوره على وجه التقريب في أواخر القرن الخامس الهجري واتفقوا
أيضاً على أن الغزالي نفسه أكثر من استوفى بيان هذا القول إلى عهده⁽⁴⁾.

ومما لا شك فيه أن الغزالي لم يكن وحيداً في الميدان يجول ويصول فقد نزل معه أنصار ونازله
خصوم وما زالت المعركة قائمة لم يهدأ لها بال ولم تقعد لها قائمة وانقسموا إلى فريقين أو ثلاثة:

1- المؤيدون للتفسير العلمي

2- المعارضون

3- المعتدلون

1 - صحيح مسلم، (حديث الجساسة)، ج4، ص 2261، تحقيق وتصحيح وترقيم: عماد فزاد عبد الباقي، رئاسة إدارات البحوث العلمية
والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، 1400هـ.

2 - بنظر دراسات وبحوث إسلامية: محمد إبراهيم عبد الرحمان، الدراسة الثالثة، ص 137.

3 - اتجاهات التفسير في القرن الرابع الهجري: فهد ابن عبد الرحمان الرومي، ج02، ص 550 وما بعدها.

4 - بنظر التفسير والمفسرون: الذهبي، ج02، ص 349، وينظر اتجاهات التفسير في العصر الراهن: عبد المجيد المحتسب، ص 247، ط03،
مكتبة النهضة الإسلامية، عمان، الأردن، 1402هـ-1982م.

المؤيدون للتفسير العلمي:

ومن المؤيدون للتفسير العلمي الإمام الغزالي، الفخر الرازي، الزركشي، السيوطي، البيضاوي، نظام الدين النيسابوري، ومن المعاصرين الألوسي، وطنطاوي الجوهري، والإسكندراني والكواكي ومحمد فريد وجدي والرافعي والقاسمي وغيرهم⁽¹⁾.

من أدلة المؤيدون للتفسير العلمي:

- استدلال المؤيدون للتفسير العلمي بأدلة كثيرة منها:

1- الاستدلال بظاهر عموم بعض الآيات: كقوله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾⁽²⁾ وقوله سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾⁽³⁾ وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾⁽⁴⁾. وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾⁽⁵⁾. وغير ذلك من الآيات الداعية إلى التفكير والتدبر في خلق الله عز شأنه.

2- الاستدلال بظاهر عموم بعض الأحاديث والآثار: كحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: "ستكون فنن قيل: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخير ما بعدكم..." وما أخرجه سعيد ابن منصور عن بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه خير الأولين والآخريين"⁽⁶⁾.

3- وقالوا: إن الله سبحانه وتعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار وكيفية أحوال الضياء والظلام وأحوال الشمس والقمر والنجوم وذكر هذه الأمور في أكثر من الصور وكررها وأعادها مرة بعد أخرى فلو لم يكن البحث عنها والتأمل في أحوالهم جائزا لما ملأ الله كتابه منها⁽⁷⁾.

1 - اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري: فهد بن عبد الرحمان الرومي، ج2، ص 604-614.

2 - سورة الأنعام: الآية 38.

3 - سورة النحل: الآية 89.

4 - سورة ق: الآية 06.

5 - سورة فصلت: الآية 52.

6 - الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، ج2، ص 126.

7 - مفاتيح الغيب: الرازي، ج4، ص 121.

التمهيد الإعجاز اللغوي والعلمي

4- أن العلم الحديث قد يكون ضروريا لفهم بعض المعاني القرآنية وليس هناك ما يمنع من أن يكون فهم بعض الآيات فهما دقيقا متوقفا على تقدم بعض العلوم فتكون الحقيقة العلمية من قواعد الترجيح في التفسير إذا كان للآية أكثر من معنى فيتعين أن يأخذ بالمعنى الذي تؤيده الحقائق العلمية⁽¹⁾.

5- تحقق فوائد كثيرة ومنافع كبيرة من التفسير العلمي منها:

أ- إدراك وجوه جديدة للإعجاز في القرآن الكريم بإثبات التوافق بين حقائق القرآن الكريم وحقائق العلم.
ب- استمالة غير المسلمين إلى الإسلام وإقناعهم به ببيان إعجاز القرآن العلمي وإقامة الحجة عليهم بذلك.

ج- امتلاء النفوس إيمانا بعظمة الله جل جلاله وعظيم سلطانه وقدرته بعد الوقوف على أسرار الكون التي كشفها القرآن⁽²⁾.

المعارضون للتفسير العلمي:

ومن المعارضين للتفسير العلمي أبو حيان الأندلسي والشاطبي ومحمود شلتوت وأمين الخولي وسيد قطب وغيرهم.

من أدلة المعارضين: واستدل المعارضون للتفسير العلمي بأدلة منها:

1- أن للتفسير شروطا وقيودا قررهما العلماء ينبغي الإلتزام بها فلا يكون تفسير القرآن مباحا لكل من حصل علما من العلوم وغابت عنه علوم أخرى لا بد منها للمفسر ومن ذلك عدم تحميل ألفاظ القرآن معاني وإطلاقات لم توضع لها ولم تستعمل فيها.

2- أن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد وليس بكتاب تفصيل لمسائل العلوم ونظرياته ودقائق الاكتشافات والمعارف ومن طلب ذلك من القرآن فقد أساء فهم طبيعة هذا القرآن ووظيفته.

3- أن التفسير العلمي مدعاة إلى الزلل لدى أكثر الذين خاضوا فيه من المعاصرين؛ لأن عملية التوفيق تفترض غالبا محاولة للجمع بين موقفين يتوهم أنهما متعاديان ولا عداة أو يظن أنهما متلاقيان ولا لقاء⁽³⁾.

4- أن تناول القرآن بهذا المنهج يضطر المفسر إلى مجاوزة الحدود التي تحملها ألفاظ النص القرآني؛ لأنه يحس بضرورة متابعة العلم في مجالاته المختلفة فيتعجل تلمس المطابقة بين القرآن والعلم تعجلا غير

1 - التفسير بمكتشفات العلم التحريبي: محمد الشايع، ص 37-40، العدد 04، مجلة جامعة الإمام.

2 - اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري: فهد بن عبد الرحمن، ج02، ص 602.

3 - معالم الشريعة: صبحي الصالح، ص 291، ط03، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م.

5- أن ما يكشف من العلوم إنما هو نظريات وفروض قابلة دائما للتغيير والتبديل والتعديل والنقض والإضافة بل قابلة؛ لأن تنقلب رأسا على عقب ومن ثم فلا يصح أن نعلق الحقائق القرآنية النهائية بمثل تلك النظريات حتى لا نقف محرجين عند ثبوت بطلان تلك النظرية.

- المعتدلون أو الرأي المختار:

قبل أن نذكر ما نراه صوابا يجب أن نذكر حقيقة ينبغي إدراكها وهي التفريق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي فالأول هو مثار البحث والناقشة وأما الثانية فقضية مسلمة لا نزاع فيها ذلكم أن المؤيدين للتفسير العلمي والمعارضين له أيضا كلهم بلا استثناء يقرون ويعترفون أن القرآن الكريم لم ولن يصادم حقيقة علمية.

لم يقولوا هذا عن عاطفة مجردة ولم يقله أتباع القرآن فحسب، وإنما قاله أولئك وقاله خصومه أيضا، بعد أن تناولوا آيات عديدة منه وقلبوها دراسة وتأملا وتدبرا ونظروا فيما بين أيديهم من النظريات والحقائق العلمية حتى انتهوا إلى ما انتهوا إليه⁽²⁾.

وقد يحسب أحد أن السلامة من مصادمة الحقائق العلمية أمر هين فما على المتكلم إلا أن يتجنب الخوض في مجالاتها ويحذر من الوقوع في مبهمات العلوم وغوامض المعارف وأسرار الكون وخفايا العلم وبدا يظفر بهذه السمة.

والأمر حق لو كان القرآن سلك هذا المسلك لكنه وقد أنزل قبل أربعة عشر قرنا من الزمن عرض لكثير من مظاهر هذا الكون كخلق السماوات والأرض وخلق الإنسان، وسوق السحب وتراكمه ونزول المطر وجريان الشمس وتحدثت عن القمر والنجوم، والشهب وأطوار الجنين، وعن النبات والبحار وغير ذلك كثير، ومع ذلك كله لم يسقط العلم كلمة من كلماته ولم يصادم جزئية من جزئياته⁽³⁾، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذا يجد ذاته يعتبر إعجازا علميا للقرآن حتى ولو لم يتم الربط بين الآية القرآنية والاكتشاف العلمي الحديث.

وهذا أمر يدركه ويقره كل العلماء لا ينكره أحد، فالإعجاز العلمي في القرآن الكريم متحقق مدرك ثابت لا خلاف فيه.

1 - اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري: فهد بن عبد الرحمن الرومي، ج2، ص 603، وينظر التفسير بمكتشفات العلم التحريوي: حمد الشايع، ص 28-33.

2 - خصائص القرآن الكريم: فهد بن عبد الرحمن الرومي، ص 75، ط07، دار طيبة، الرياض، 1411هـ.

3 - المرجع نفسه: ص 76.

ثم انقسم العلماء بعد ذلك إلى قسمين: فمنهم من قال: مادام الإعجاز العلمي متحققا في القرآن وثابتا فما علينا أن نطبقه بين آياته واحدة واحدة وبين الحقائق العلمية واحدة واحدة. وامتنعت طائفة أخرى عن تطبيقه لا خوفا عليه من النقض وليس لخشية على حقائقه ولكن لعدم الثقة في مداركنا نحن البشر، فقد نحسب نظرية علمية حقيقة علمية فما تلبث إلا قليلا حتى تتقوض بعد رسوخ وتزعزع بعد ثبوت ولات حين مناص نقع في الحرج الشديد فيكذب القرآن وهو الصادق فتكون البلية فالعيب والنقص في مداركنا وليس في حقائق القرآن الكريم⁽¹⁾.

وهذا تترك أن الجميع يقول بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم لكن منهم من قال بجواز التفسير العلمي ومنهم من منعه والذي نراه صوابا هو الوسط بين الفريقين فلا رفض ولا إنكار للتفسير العلمي يمنع من إدراك وجوه الإعجاز الجديدة، ويدفع مزاعم القائلين بالعداوة بين الدين والعلم، ويمنع من استمالة غير المسلمين أو يحث على الانتفاع بقوى الكون، ولا تسليم مطلق للتفسير العلمي؛ لأن إعجاز القرآن ثابت وغني عن أن يسلك في بيانه هذا المسلك، كما أن الدعوة إلى النظر في الكون دعوة لمواعظ العبرة والعظة وليس بالضرورة إلى بيان دقائقها وكشف علومها؛ ولأن التفسير العلمي مدعاة إلى الزلل لدى أكثر الذين خاضوا فيه وأن تناول القرآن بهذا المنهج يضطر المفسر إلى مجاوزة الحدود التي تحملها ألفاظ القرآن ويحملها ما لا يتحمل، فضلا عن أن ما يكشف من العلوم إنما هو فروض ونظريات قابلة دائما للتغيير والتعديل والنقص والإضافة⁽²⁾.

إذا فلا رفض مطلق ولا قبول مطلق بل وسط بين طرفين وجمع بين حقيقتين، حقيقة قرآنية ثابتة بالنص الذي لا يقبل الشك وحقيقة علمية ثابتة بالتجربة والمشاهدة القطعيين.

لهذا فلا بأس من إيراد الحقائق العلمية الثابتة في التفسير القرآني بشرط:

- ألا تطغى تلك المباحث على المقصود الأول وهو الهداية.

- أن تذكر تلك العلوم لأجل تعميق الشعور الديني لدى المسلم والدفاع عن العقيدة ضد أعدائها.

- أن تذكر تلك الأبحاث على وجه يدفع المسلمين إلى النهضة العلمية.

- أن لا تذكر هذه الأبحاث على أنها هي التفسير الذي لا يدل النص القرآني على سواه بل تذكر لتوسيع المدلول والاستشهاد بها على وجه لا يؤثر بطلانها فيما بعد على قداسة النص القرآني، ذلك أن تفسير

1 - اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري: فهد بن عبد الرحمن الرومي، ج2، ص 600-601.

2 - المرجع نفسه: ص 202-204.

التمهيد الإعجاز اللغوي والعلمي
النص القرآني بنظرية قابلة للتغيير والإبطال يثير الشكوك حول الحقائق القرآنية في أذهان الناس كلما
تعرضت نظرية للرد أو البطلان⁽¹⁾.
فإذا تحققت هذه الشروط فلا مانع من إيراد الحقائق العلمية في كتب التفسير والله أعلم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 - نظرات في مدرسة التفسير الحديثة: مصطفى مسلم، ص 58، العدد 02، مجلة كلية أصول الدين، وينظر دراسات في علوم القرآن الكريم: فهد بن عبد الرحمن ابن سليمان الرومي، ص 289.

الإعجاز اللغوي في بعض آيات المحكمات:

الإعجاز اللغوي الوارد في هذا المبحث لبعض آيات المحكمات خارج قيود التاريخ والزمان والمكان، لا يعني أبداً - كما يريد أن يفهم بعضهم - إلغاء ما تحمله هذه النصوص من معان ودلالات لأحداث خاصة وقعت في الجيل الأول ولا يعني أبداً فرض التصورات الواردة في هذا الإعجاز على النصوص القرآنية.

إننا نهدف من تصورنا الإعجازي هذا إلى البرهنة على أن النص القرآني الذي يحمل وجهها ظاهره التاريخ يحمل في الوقت ذاته وجهها مطلقاً مجرداً عن التاريخ وقيود الزمان والمكان.

إن المتدبر للآية القرآنية يلاحظ كيف أن الكلمة القرآنية هي واحدة وصف وتسمية تصف وتسمي المسائل والقضايا وصفاً مطلقاً يتعلق بعلم الله تعالى المطلق بحقيقة هذه المسائل...

فالكلمة القرآنية روح تفيض بالحياة، تعطي كل جيل في كل زمان ومكان صورة للمسألة التي تصفها وتسميها بما يناسب مدارك هذا الجيل...⁽¹⁾.

"إن العلاقة بين إدراك ما يحمله القرآن الكريم من معان ودلالات ومضامين وأدلة للمسائل وبين حقيقة هذه المسائل، هي علاقة تناظر يسير طرفاها في خطين متوازيين، فالقرآن الكريم يعطي لكل جيل تصوراً شاملاً عن المسائل والقضايا وذلك حسب إدراك هذا الجيل وحسب الزاوية التي ينظر منها إلى هذه المسائل، ومن ثم يعطي تصوراً يتطور مع تطور الأجيال...⁽²⁾.

ومن جهة أخرى فإن التطور في إدراك حقيقة المسائل والقضايا نتيجة التطور العلمي والمعرفي والحضاري للأجيال يوازيه تطور في إدراك حقيقة ما يحمله النص القرآني لهذه المسائل.

ولذلك فالوصول إلى الحقائق الكونية عبر التقدم العلمي والمعرفي والحضاري ورؤية حمل القرآن الكريم لهذه الحقائق، هو تبيان للبشر بأن القرآن الكريم حق وأنه فوق الزمان والمكان ﴿سُنْرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي آفَاقٍ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾⁽³⁾.

1 - المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 22-23، ط03، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1421هـ-2000م، وينظر القدر، عدنان الرفاعي، ص09، ط02، دار الفكر، دمشق، 1999م.
2 - الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 137، ط01، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2001م.
3 - سورة فصلت: الآية 53، وينظر الكشاف: الزمخشري، ج04، ص 201.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية

وإن عدم إطلاق المعنى الذي تحمله الكلمة القرآنية، وتحجيمه ضمن إطار إدراك جيل من الأجيال يؤدي إلى تحجيم المعاني التي يحملها النص القرآني بحيث لا تتجاوز حدود إدراك هذا الجيل، ومن ثم إلغاء مبدأ تدبر كتاب الله تعالى، وفرض قوانين هذا العالم المخلوق على نص ينتمي لعالم الأمر ويتعلق بصفات الله تعالى⁽¹⁾.

فالكلمة القرآنية تحمل وجهين للدلالات والمعاني والمضامين:

1- وجه مادي حسي يصف الجانب المادي الحسي للمسائل.. وإدراكنا للدلالات ومعاني ومضامين الكلمة يتعلق بإدراكنا لحقيقة المسألة وماهيتها المادية الحسية، ويتطور إدراكنا لحقيقة المسألة من جانبها المادي الحسي.. فقبل أن ندرك أن للكلمة القرآنية مفهوما نسبيا لا يمكن إطلاقه كان إدراكنا للدلالات والمعاني التي تحملها الكلمة يختلف عن إدراكنا للدلالات ومعاني هذه الكلمة بعد إدراك نسبيتها وارتباطها بالمسألة.

2- وجه معنوي مجرد عن المادة والحس، يتعلق بالماهية غير المادية للمسألة وهو وجه إطلاق المسألة خارج إطار التصورات المادية التاريخية للأجيال.. وهذا الوجه ينبع من المعنى المجرد الذي يحمله الجذر اللغوي الذي تفرعت عن هذه الكلمة⁽²⁾.

فالكلمة القرآنية بصورتها المجردة، عن ارتباطها بالأشياء، لها معنى لا يتغير يرتبط بجذرها اللغوي وما نتصوره من معان مختلفة لها ناتج عن اقترانها بالمسائل المختلفة، وعن درجة إدراكنا لحقيقة هذه المسائل ومن ثم فالذي يتغير هو إدراكنا لعمق وصف الكلمة القرآنية للمسألة التي تصفها وتسميها هذه الكلمة..

إذا علينا أن ننظر إلى الكلمة القرآنية من منظار جذرها اللغوي، ومن مناظر الجذور اللغوية لكلمات النص الذي يحوي هذه الكلمة، وألا نقف فقط عند الوجه الحسي المادي لهذه الكلمة وألا نؤطر إطلاق المعنى الذي تحمله الكلمة القرآنية عند تصورات جيل من الأجيال.

وهذه المسألة في القرآن الكريم تنسحب حتى على الأسماء، فكل اسم هو في الوقت ذاته اسم صفة يصف ويسمي المسألة وصفا مجردا عن ارتباطها المادي الحسي التاريخي.. أي أن كل اسم يحمل في الوقت ذاته وجهين:

1 - الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 138.

2 - المرجع نفسه: ص 139، بتصرف، وينظر الحق المطلق: عدنان الرفاعي، ص 19-25.

وجه مادي حسي تاريخي، ووجه معنوي مجرد عن المادة والحس والتاريخ ينبع من المعنى المجرد الذي يحمله الجذر اللغوي الذي تفرع عنه هذا الاسم.

وعلى سبيل المثال لو أخذنا اسم أبي لهب في الصورة القرآنية التالية: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾⁽¹⁾ لرأينا أنه يحمل في الوقت ذاته وجهين للدلالات والمعاني:

¹ - وجه حسي تاريخي يصف شخصية معلومة تاريخياً.

² - وجه معنوي مجرد عن التاريخ والحس ينبع مما يحمله الجذران (أ ب و) و (ل هـ ب) من معان ودلالات.. ووفق هذا الوجه يخرج الاسم أبو لهب من إطار التاريخ، ليكون له إسقاط في كل زمان ومكان..⁽²⁾

وكذلك كلمة حنين في الصورة القرآنية ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾⁽³⁾ فالعبارة (ويوم حنين) هي الأخرى لها وجهان من الدلالات والمعاني:

¹ - وجه حسي تاريخي يرتبط بمعركة معلومة تاريخياً.

² - وجه معنوي مجرد عن الحس والتاريخ ينبع مما يحمل الجذران (ي و م) و (ح ن ن) من معان ودلالات مجردة...⁽⁴⁾

وبالنظر إلى وجه الكلمة المعنوي المجرد عن المادة والحس والتاريخ، نرى إطلاقاً للنص القرآني يتجاوز المكان والزمان والتاريخ.. أما حينما نحصر الكلمة القرآنية ضمن إطار وجهها الحسي التاريخي فإننا نحجم كلمات الله تعالى ضمن إطار عالم الخلق ونفرض على النص تصوراتنا المادية التاريخية ومن ثم نعطل مسألة تدبر كتاب الله تعالى التي يأمرنا الله تعالى بها: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾⁽⁵⁾.

وهكذا نرى أن لكل آية قرآنية من زاوية إدراكنا وجهين يرتبطان بعمقين:

1- وجه ذو عمق مجرد عن الزمان والمكان والتاريخ، وذلك كون القرآن الكريم ينتمي لعالم الأمر ويتعلق بصفات الله تعالى.

1 - سورة المسد: الآية 01، ينظر الكشاف: الزمخشري، ج04، ص 808.

2- الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 140.

3- سورة التوبة: الآية 25، وينظر الكشاف: الزمخشري، ج02، ص 251.

4- الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 141.

5- سورة محمد: الآية 24.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية

2- وجه ذو عمق يصور حركة التاريخ وسيرة البشرية في تفاعلها مع مناهج الله تعالى كقصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام وكخطاب الله تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- ولمن عاصره...⁽¹⁾.

وكل وجه من هذين الوجهين لا يلغي الآخر فظهور الوجه التاريخي في بعض النصوص القرآنية بشكل يطفو فيه -بالنسبة لتصوراتنا- أكثر من الوجه المجرد عن التاريخ لا يلغي الوجه المطلق المجرد عن الحس والتاريخ الذي يحمله هذا النص...

وكذلك ظهور الوجه المجرد عن الحس والتاريخ في بعض النصوص القرآنية بشكل يطفو فيه -بالنسبة لتصوراتنا- أكثر من ظهور الوجه الحسي التاريخي لا يلغي الإسقاطات الحسية التاريخية لهذا النص في كل زمان ومكان.

وأولى الوجهين في دراسة القرآن الكريم وتفسيره وتدبره هو الوجه المجرد عن الحس والتاريخ حتى في النصوص التي يطفو فيها الوجه التاريخي؛ لأن ذلك يرسم في نفوسنا إطلاقاً يتناسب مع كون القرآن الكريم روحاً من أمر الله تعالى ويأتي الوجه الحسي التاريخي كإسقاط حسي من مجموعة الإسقاطات التي يحملها النص.

وللنص القرآني (بعمقيه المجرد والتاريخي) أعماق مختلفة منها الظاهر ومنها الباطن الذي ينتهي بعمق التأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾⁽²⁾ ⁽³⁾.

فنعندنا نقول للنص القرآني أعماق كثيرة نعي أعماقا مبرهنة قرآنيا، برهنة لا يمكن إثبات نقيضها ولا يمكن البرهنة على بطلانها والقرآن الكريم يؤكد أن معاني ودلالات ومضامين كلمات الله تعالى لا تنتهي أبدا لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾⁽⁴⁾.

ومن هنا نقول لا يحق لفرد أو لجيل أن يفرض تصوراته للنص القرآني وإن كانت صحيحة بحيث تلغى الأعماق الأخرى لهذا النص، ومن ثم لا يحق لأحد أن يوقف التدبر بكتاب الله تعالى وأن يلغي

1- الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 142.

2- سورة آل عمران: الآية 07.

3- الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 142-143.

4- سورة الكهف: الآية 109.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية

البحث المنهجي العلمي السليم في كتاب الله تعالى، بحجة إدراكه لعمق من أعماق النص القرآني وكون رسالة الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- هي خاتمة الرسالات السماوية للبشرية وكون القرآن الكريم هو خاتم المعجزات ومجردا عن الزمان والمكان والتاريخ والحدوث.. يقتضي أن يكون القرآن رسالة مستمرة موجهة مباشرة إلى كل إنسان في هذا العالم وأن يكون الخطاب القرآني بجميع صيغه موجها إلى كل نفس وحسب درجة إيمانها⁽¹⁾.

لننظر إلى الآيات القرآنية التالية:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾⁽³⁾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا، وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾⁽⁵⁾.

إننا نرى أن الخطاب موجه عبر قمة الرسالة والنبوة حيث يتربع على هذه القمة الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- ونرى في صيغة هذا الخطاب عبر صفتي الرسالة والنبوة اللتين لهما إسقاط نسبي في كل نفس حسب درجة هذه النفس على محور الرسالة والنبوة، أن كل نفس تحس أن هذا الخطاب (في الآيات السابقة) موجه إليها إحساسا يوازي درجة سموها وعلوها على محور الرسالة والنبوة.

فما تحمله الآيات السابقة من أحكام نحن مكلفون بتنفيذها وليس محمد -صلى الله عليه وسلم- وحده المكلف بتنفيذها، ولكن كون الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- في قمة محور الرسالة والنبوة فإن إسقاط أحكام هذه الآيات في نفسه أكبر من غيره؛ لأن درجته على محور الرسالة والنبوة أكبر من درجة غيره ولكن ذلك لا يعني أننا بعيدون عما يحمله هذا الخطاب من أحكام⁽⁶⁾.

1- الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 144.

2- سورة المائدة: الآية 41، بنظر الكشاف: الزمخشري، ج01، ص 620.

3- سورة الأنعام: الآية 07، بنظر المصدر نفسه: ج02، ص 06-07.

4- سورة الأنفال: الآية 65، بنظر المصدر نفسه: ج02، ص 227.

5- سورة الأحزاب: الآيات 01-02-03، بنظر المصدر نفسه، ج03، ص 503.

6- الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 147.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية

فطلب الله تعالى بأن لا تسبب مسارعة الكفار في الكفر بإدخال الحزن إلى النفس الداعية إلى الله تعالى ومعرفة حقيقة مجادلة الكفار وقولهم عن البراهين والأدلة الواضحة إنها سحر مبین، والتحريض على قتال الكفار والمشرکین والأمر بتقوى الله تعالى، وعدم طاعة الكفار والمنافقين واتباع ما أوحى الله تعالى والتوكل عليه (وهذا ما تحمله الآيات السابقة) كل ذلك نحن مطالبون به وله إسقاطات في نفوسنا تتناسب مع درجة هذه النفوس على محور الرسالة والنبوة ولذلك فالمطالبة المطلقة للرسول -صلى الله عليه وسلم- كونه يتربع على قمة محور الرسالة والنبوة لا تلغي إسقاطات هذا الخطاب في نفوس باقي البشر إيجابية كانت أم سلبية⁽¹⁾.

وتتحلى هذه الحقيقة في الآيات القرآنية التالية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بَيْوتِهِنَّ﴾⁽²⁾.

فلو لم توجد إسقاطات لهذا الخطاب في جميع النفوس، ولو لم يكن الجميع مكلفا بتنفيذ أحكام هذا الخطاب لما رأينا هذا الخطاب بصيغة الجمع التي تعني جميع المسلمين وليس محمدا -صلى الله عليه وسلم- لوحده... (طلقتم) (فطلقوهن) (وأحصوا) (واتقوا) (لا تخرجوهن).

إن محمدا -صلى الله عليه وسلم- الصفة المطلقة للرسالة والنبوة (100%) أوحى إليه القرآن الكريم من الله تعالى عن طريق جبريل عليه السلام، ونحن تلقيناه من الله تعالى عن طريق محمد -صلى الله عليه وسلم- فمسألة إنزال القرآن إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- وإيجائه من الله تعالى إليه لها إسقاطاتها النسبية في جميع النفوس كل يحس بروح هذا الكتاب المنزل والموحى حسب درجته على سلم الرسالة والنبوة⁽³⁾.

وهكذا فالقرآن الذي أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- أنزل علينا أيضا كل حسب درجته على محور الرسالة والنبوة لقوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ بِعَظْمِكُمْ﴾⁽⁵⁾.

1- الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 148.

2- سورة الطلاق: الآية 01، ينظر في ظلال القرآن: سيد قطب، ج28، ص 3599، ط35، دار الشروق، القاهرة، 1425هـ-2005م.

3- الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 148.

4- سورة البقرة: الآية 105، ينظر في ظلال القرآن: سيد قطب، ج01، ص 101.

5- سورة البقرة: الآية 231.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾⁽³⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾⁽⁵⁾.

والكفار الموجدون في الجهة السالبة على محور الرسالة والنبوة والذين كرهوا ما أنزل الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ الْوُجُوهُ وَأَضَلُّ أَعْمَالُهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾⁽⁶⁾.

والذين يعكسون ما أنزل الله تعالى إسقاطا سلبيا في نفوسهم بأن يقابلوا ما أنزل الله تعالى

بالإعراض والاستهزاء هؤلاء ما أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- أنزل عليهم أيضا لقوله تعالى:

﴿يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَن تُنزلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنبئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَؤُوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾⁽⁷⁾.

1- سورة النساء: الآية 140.

2- سورة الأعراف: الآية 03.

3- سورة الأنبياء: الآية 10، وينظر في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 17، ص 2370.

4- سورة النور: الآية 34.

5- سورة الزمر: الآية 55.

6- سورة محمد، الأيتان 8-9.

7- سورة التوبة: الآية 64، ينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبي السعود، ج 03، ص 165.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية

فهم من الناس وما أنزل إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - أنزل إلى كل الناس ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾⁽¹⁾.

وهكذا عندما يقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾⁽³⁾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾⁽⁴⁾.

فإنه يخاطب كل نفس بشرية ودرجة الاستجابة لهذا الخطاب، وتفاعل النفس معه تحدد سمو النفس البشرية في سلم رقيها نحو الخلاص لله تعالى (صفة النبوة) والدعوة الصادقة إلى الله تعالى (صفة الرسالة)⁽⁵⁾.

وهكذا نرى أنه في ورود الخطاب القرآني عبر قمة محور الرسالة والنبوة أو عبر خطاب دون هذه القمة نرى حكمة مرادة، وليس مجرد التفات أدبي لا علاقة له بماهية الأحكام القرآنية كما يتصور الكثيرون.

وجميع المفسرين قديما وحديثا نظروا إلى النصوص القرآنية التي يطفوا فيها الوجه التاريخي على الوجه المجرد نظرة حسية تاريخية بحتة ولم ينظروا - بالنسبة لهذه النصوص - إلى الوجه المطلق المجرد عن التاريخ والزمان والمكان ومن ثم أطروا هذه النصوص القرآنية ضمن إطار التاريخ والزمان والمكان، واكتفوا بإطلاق الحكمة الكامنة في هذه الأحداث التاريخية.

فإطلاقهم للنص ليس بإطلاق ماهية النص وعباراته وكلماته وإنما بإطلاق الحكم والعبارة المستنبطة من تلك الأحداث ومن ثم جعلوا بعض النصوص القرآنية محكومة للتاريخ ومن ثم للزمان والمكان ومن ثم جعلوا هذه النصوص - سواء علموا بذلك أم لم يعلموا - مخلوقة⁽⁶⁾.

إن استسلام العقل لأفكار وتصورات مقولبة في قوالب تاريخية حسية بالنسبة للنصوص القرآنية والنظر إلى هذه النصوص من منظار حسي تاريخي تحيط به تلك القوالب الفكرية المسبقة الصنع وتصور معظمهم أن أسباب نزول آيات القرآن الكريم هي إطار حسي تاريخي يخص الجيل الأول فقط، وكأن

1- سورة النساء: الآية 174.

2- سورة النحل: الآية 89، ينظر إحدى الكبر، معجزة 19، عدنان الرفاعي، ص 214، وينظر الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 14.

3- سورة الشعراء: الآية 193-194.

4- سورة الإنسان: الآية 23.

5- الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 150.

6- المرجع نفسه: ص 155.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية
القرآن الكريم لا يحمل من المعاني والأدلة ما لا يتجاوز حدود إدراك الجيل الأول والنظر في تفسير القرآن
الكريم من منظار أحادي البعد هو تفاعل الجيل الأول مع آيات القرآن الكريم كل ذلك أدى بمعظم
المفسرين إلى فرض الوجه التاريخي الحسي على الكثير من النصوص القرآنية، ومن ثم غياب الوجه المجرد
عن التاريخ والمكان والزمان بالنسبة لهذه النصوص، من تفاسيرنا قديما وحديثا⁽¹⁾.

نحن لا ننكر أسباب النزول ولا ندعوا إلى عدم النظر إليها، - كما يريد أن يفهم بعضهم - ولا
ننكر خصوصية الجيل الأول الذي عاصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - في التفاعل مع نزول القرآن
الكريم ولا ننكر الوجه التاريخي الذي يطفوا في بعض النصوص القرآنية.

نحن نقول انظروا إلى القرآن كونه روحا من أمر الله تعالى يتعلق بصفاته العظيمة ولا تغفلوا عن
ذلك، انظروا إلى القرآن الكريم كونه رسالة مستمرة في كل زمان ومكان وكونه مترا على قلب كل
إنسان حتى قيام الساعة ولا تغفلوا عن ذلك.

إن من يريد أن يتفاعل بروحه مع القرآن الكريم عليه - بعد النظر إلى كل الأوجه التي يحملها
القرآن الكريم - أن ينظر إليه على أنه نزل الآن من السماء على قلبه هو وأن خطاب الله تعالى في القرآن
الكريم موجه إليه الآن توجيهها يتناسب ودرجة سموه على محور الرسالة والنبوة⁽²⁾.
فمثلا بالنسبة للنصين التاليين:

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى، أَمَّا مَنْ
أَسْتَعْتَى، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى، وَهُوَ يَخْشَى، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى،
كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ، فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ، مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾⁽³⁾.
وقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ
بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَن لِيطْغَى * أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَى * إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾⁽⁴⁾.

الكل يعلم أن هذين النصين يحمل كل منهما وجهها تاريخيا حسيا معروفا يتعلق بأحداث تاريخية
حصلت مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - وجميع المفسرين ومعظم أفراد هذه الأمة ينظرون إلى هذين

1- الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 156-157.

2- المرجع نفسه: ص 157، وينظر إعمال العقل من النظرة التحريضية إلى الرؤيا التكاملية: لوي صافي، ص 118-162، ط 01، دار الفكر،
دمشق، 1419هـ-1998م.

3- سورة عبس: الآيات 01-16، ينظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج 04، ص 3033.

4- سورة العلق: الآيات 01-08، ولا بد أن نقرر هنا أن مفهوم الإعجاز كان قائما وواردا من أول يوم نزلت فيه هذه الآيات، ينظر حديث
عن القرآن: عبد الصبور شاهين، ص 63، دار أخبار اليوم، عدد ديسمبر، 2000م.

النصين من هذا المنظار التاريخي نظرة يغيب فيها الوجه المطلق المجرد عن التاريخ والزمان والمكان الذي يحمله هذان النصان.

نحن لا ننكر الوجه التاريخي الحسي لكل من هذين النصين، وفي الوقت ذاته لا نلغي الوجه المجرد عن التاريخ والزمان والمكان لكل منهما فلو نظرنا إلى كل نص من هذين النصين نظرة مجردة عن التاريخ والزمان والمكان وعمّا نحمله لهما من تصورات مسبقة لرأيناها مجردين عن التاريخ والزمان والمكان ويخاطبان كل إنسان في كل زمان ومكان.

فكل داعية إلى الله تعالى في كل زمان ومكان يخاطبه النص الأول حاملا له أحكاما وعبرا ترسم له طريق دعوته السليمة الصادقة إلى الله تعالى، وكل متجه إلى الله تعالى بقلب صادق يريد قراءة صادقة لآيات الله تعالى وتدبرا سليما لها يخاطبه النص الثاني حاملا له أحكاما وعبرا ترسم له طريق قراءته السليمة الصادقة لآيات الله تعالى⁽¹⁾.

لنقف عند النص القرآني الأول الذي يتصوره معظمهم خاصا بالجيل الأول من الذين عاصروا الرسول -صلى الله عليه وسلم- لنرى كيف أن هذا النص المطلق وأن له إسقاطا في كل زمان ومكان...

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾⁽²⁾.
إننا نرى أن النص يبدأ بالعبارة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذه العبارة مطلقة تخاطب كل مؤمن ومؤمنة في كل زمان ومكان ولا يمكن حصر خطابها في جيل دون غيره⁽³⁾.

فحين يوجه الله تعالى خطابه للذين آمنوا فهذا يعني جملة المؤمنين حتى قيام الساعة وإدراك ما تحمله العبارة (لا تقدموا) من معان لا بد من العودة إلى مشتقات الجذر (ق د م) في القرآن الكريم، والنظر إلى هذه العبارة من مناظير المحاور الرئيسة -في المعنى- لهذه المشتقات.

إن المتقدم يكون في مقدمة من هو متقدمهم ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾⁽⁴⁾ فالمتقدم وفق هذا المحور من المعنى هو نقيض المتأخر ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾⁽⁵⁾.

1- الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 158.

2- سورة الحجرات: الآية 01، ينظر في ظلال القرآن: سيد قطب، ج26، ص 3338.

3- الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 159.

4- سورة هود: الآية 98.

5- سورة المدثر: الآية 37.

فهذا المحور من المعنى يدور في إطار قفز المتقدم إلى الأمام بحيث يتأخر غيره في مسألة التقدم التي قفز بها، إلى العبارة القرآنية (لا تقدموا) - من هذا المنظار - هي بمعنى لا تتقدموا⁽¹⁾ أي لا تكونوا أمام كتاب الله تعالى (بين يدي الله) وأمام سنة رسوله (ورسوله). بمعنى كونوا خلف كتاب الله وسنة رسوله منقادين لتعاليمهما⁽²⁾ أي لا تسموا وتعلوا فتكونوا أمام منهج الله تعالى ورسوله. بمعنى لا تجعلوا لأنفسكم علوا في الشأن والقيمة والأهمية عند منهج الله تعالى ورسوله.

ولهذا الجذر معنى يدور في إطار التبيين والتفصيل والعرض ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾⁽³⁾ ويكون معنى العبارة (لا تقدموا) - من هذا المنظار - هو لا تعرضوا وتبينوا رأيا ومعتقدا فيما بينه وفصله عرضه الله تعالى في كتابه الكريم (بين يدي الله) وفيما بينه وفصله رسوله - صلى الله عليه وسلم - في سنته الشريفة (ورسوله) أي لا تجعلوا لأنفسكم رأيا وإرادة واقتراحا فيما بينه وعرضه الله تعالى ورسوله⁽⁴⁾.

ولهذا الجذر معنى يدور في إطار الفعل فكلمة قدم في إطار معنى الفعل ﴿وَأِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ لِلْإِنْسَانَ كُفُورًا﴾⁽⁵⁾.

ومن هذا المنظار يكون معنى عبارة (لا تقدموا) هو لا تفعلوا فعلا وضعيا من عند أنفسكم في مسألة بينها الله تعالى ورسوله. بمعنى انصاعوا في أفعالكم لما بينه الله تعالى في كتابه الكريم (بين يدي الله) وما فعله الرسول - صلى الله عليه وسلم - (ورسوله).

وفي حذف المفعول به الذي يقع عليه التقدم إطلاق للمعنى ولحدود الخطاب وإشارة إلى عدم خصوصيته بحيث يتناول كل ما يمكن تصوره من التقدم بين يدي الله تعالى ورسوله⁽⁶⁾ والعبارة القرآنية (بين يدي الله ورسوله) تؤكد إطلاق النص وعدم خصوصيته كما يتصور معظمهم للجيل الأول ممن عاصر الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

إن اليد في القرآن الكريم تأتي بمعنى القوة والاستطاعة التي يملكها صاحب إرادة تحقيق الأمر ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾⁽⁷⁾ فما هو باليد يكون تحت سيطرة واستطاعة وإرادة من بيده تنفيذ الأمر ﴿قُلْ إِنْ

1- الكشاف: الزمخشري، ج04، ص340..

2- المصدر نفسه: ص 341.

3- سورة ق: الآية 28.

4- الكشاف: الزمخشري، ج04، ص 378.

5- سورة الثوري: الآية 48.

6- الكشاف: الزمخشري، ص 225.

7- سورة الفتح: الآية 10.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية
الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ⁽¹⁾ وبين يدي الأمر يعني أمامه (ظاهره) وهو نقيض خلفه (باطنه)
﴿بِأَيْهِ الْبَاطِلُ مِنَ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾⁽²⁾.

وهكذا فالعبارة القرآنية (بين يدي الله ورسوله) تعني أمام ظاهر إرادة الله تعالى في كتابه (القرآن
الكريم) وأمام ظاهر إرادة رسوله -صلى الله عليه وسلم- في أفعاله (سنة الشريفة)⁽³⁾.

ولا يمكن حصر هذه العبارة ضمن إطار تاريخية شخص الرسول -صلى الله عليه وسلم- في
زمانه ومكانه اللذين عاش فيهما؛ أي لا يمكن إخضاع هذه العبارة القرآنية للزمان والمكان وحصرها
بالجيل الأول ودليل ذلك هو عطف كلمة "ورسوله" في هذه العبارة على كلمة الله تعالى "بين يدي الله
ورسوله".

فلما كان الله تعالى مجرداً عن التاريخ والمادة والحضور المادي الحسي، ومن ثم المراد بالعبارة (بين
يدي الله) هو كتاب الله تعالى القرآن الكريم، فإن كلمة (ورسوله) المعطوف على الله تعالى تعني سنة
الرسول -صلى الله عليه وسلم- بشكل مجرد عن التاريخ والزمان والمكان ولا تعني فقط الحضور الحسي
المادي لشخص الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

وهذا الإطلاق (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) الواقع تحت خطاب الله تعالى للمؤمنين في كل
زمان ومكان (يا أيها الذين آمنوا) يقابله في الآية ذاتها إطلاق آخر يناظره تماماً هو الوجه الآخر للخطاب
(واتقوا الله إن الله سميع عليم) هذا التناظر نراه واضحاً جلياً عبر التناظر التام بين مجموعتي حروف هذين
الوجهين للخطاب فكل منهما مكون من (24) حرفاً (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾⁽⁴⁾ فعدم التقدم بين يدي الله ورسوله (وهذا ما يصوره الركن الأول) هو من تقوى
الله تعالى (وهذا ما يصوره الركن الثاني).

ومن جهة أخرى فإن تقوى الله تعالى تقتضي عدم التقدم بين يدي الله تعالى ورسوله -صلى الله
عليه وسلم- فعدم جعل المؤمنين لأنفسهم وزناً وشأناً عند منهج الله تعالى ورسوله (الركن الأول)
يقتضي عدم فعل ما ينبئ عن عدم التقوى (الركن الثاني) والعكس بالعكس⁽⁵⁾.

1- سورة آل عمران: الآية 73.

2- سورة فصلت: الآية 42.

3- الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 160.

4- المرجع نفسه: ص 161.

5- المرجع نفسه: ص 162.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية
وهكذا نرى أن الوجه الأول للخطاب (التقدم) يصف الجانب الظاهري لقول المؤمنين وفعلهم في تفاعلهم مع منهج الله تعالى، وأن الوجه الثاني للخطاب (التقوى) يصف الجانب الباطن والخفي لقول المؤمنين وفعلهم، في تفاعلهم مع منهج الله تعالى.

وفي التناظر بين الظاهر والباطن لأقوال المؤمنين وأفعالهم في تفاعلهم مع منهج الله تعالى إشارة إلى أن المؤمنين (يا أيها الذين آمنوا) منسجمون في تفاعلهم مع منهج الله تعالى ما بين الظاهر (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) وما بين الباطن ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾⁽¹⁾.

ولما كان الخطاب القرآني يخص -إضافة لكتاب الله تعالى- السنة الشريفة للرسول -صلى الله عليه وسلم- نرى أن النص القرآني يأتي بصيغة الرسالة (بين يدي الله ورسوله) ولم يأت بصيغة النبوة كما سنرى في الآية الثانية من النص، فمن قدم رأيه وفكره وفعله على سنة الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقد قدمه على أمر الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾⁽²⁾ وفي هذه الآية تناظر تام بين ركنيها، فكل ركن مكون من (11) حرفاً (من يطع الرسول) (فقد أطاع الله).

إن طاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- (اتباع أقواله وأفعاله) تؤدي إلى طاعة الله تعالى، ومن جهة أخرى فإن طاعة الله تعالى تقتضي اتباع سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

فالآية الأولى جمعت المرسل مع رسوله (بين يدي الله ورسوله) لذلك نرى أن الخطاب يأتي بصيغة الرسالة (ورسوله) التي تصف جانب الرسالة والدعوة في سنة الرسول -صلى الله عليه وسلم-⁽³⁾.

- لننظر إلى الآية الأولى من سورة المجادلة التي ذهب معظم المفسرين إلى تأطيرها في إطار التاريخ والزمان والمكان، وإلى عدم النظر إليها من خلال هذا المنظار ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾⁽⁴⁾.

وبالتجرد عما نحمله من خصوصية قصصية في الجليل الأول رافقت نزول الآية الأولى من سورة المجادلة نرى عبر هذا المنظار الدلائل الآتية:

1 - مسألتنا المجادلة والشكوى تردان في الآية الكريمة بصيغة المضارع (تجادلك) و (تشتكي) وفي هذا دليل على أن الآية الكريمة تصور هاتين المسألتين ضمن إطار استمرارية حدوثهما في كل زمان ومكان،

1- الكشاف: الرغشري، ج4، ص 342.

2 - سورة النساء: الآية 80.

3 - الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 163.

4 - سورة المجادلة: الآية 01، ينظر في ظلال القرآن، سيد قطب، ج28، ص 3504.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية
فإنه تعالى لم يقل (قد سمع الله قول التي جادلتك في زوجها واشتكت إلى الله) بل نراه يأتي بهاتين
المسألتين وفق صيغة الاستمرارية.

2- سمع الله تعالى في هذه الآية يأتي وفق صيغتين:

أ- صيغة الماضي وتأتي لمسألتي المجادلة والشكوى ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي
إِلَى اللَّهِ﴾ وهذه الصيغة تدل على وقوع سمع الله تعالى لمسألتي المجادلة والشكوى (المستمرين في كل
زمان ومكان كما رأينا في الفقرة السابقة) قبل وقوعهما؛ أي تدل على علم الله تعالى الكاشف لأحداث
قبل وقوعها في عالم المادة والمكان والزمان.

ب- صيغة المضارع وتأتي لمسألة التحاور (والله يسمع تحاور كما) وهذه الصيغة تدل على استمرارية سمع
الله تعالى لمسألة التحاور أثناء حدوثها في عالم المادة والمكان والزمان، ومن ثم تدل على علم الله تعالى
المشاهد للحادثة أثناء تجليها في عالمها المكاني والزمني⁽¹⁾.

3- المجادلة هي البحث عن حجج وبراهين وتقديمها لإثبات المراد وللدفاع عما يريد المجادل، والمجادلة
في هذه الآية الكريمة تقوم بها الزوجة مع قمة محور الرسالة والنبوة (تجادلك في زوجها) والشكوى هي
إرجاع الأمر إلى المشكو إليه وطلب الفرج منه والشكوى في هذه الآية الكريمة تقوم بها الزوجة إلى
الله تعالى (وتشتكي إلى الله).

ولما كانت هاتان المسألتان (المجادلة والشكوى) واقعتين تحت ساحة علم الله تعالى الكاشف لهما
قبل وقوعها، فإن الصورة القرآنية (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله) تعني أن الله
تعالى علم بعلمه الكاشف ما سيكون - في كل زمان ومكان - من حجج وبراهين تقدمها الزوجة أثناء
تفاعلها مع ما جاء به قمة محور الرسالة والنبوة، والفرج الذي ستطلبه الزوجة من الله تعالى أثناء تفاعلها
مع هذه المسألة⁽²⁾.

4- في الانتقال من علم الله تعالى الكاشف - في مسألتي المجادلة والشكوى - إلى علم الله تعالى المشاهد
في مسألة التحاور، وفي تكرار كلمة الله تعالى ما بين السمع الأول الكاشف (قد سمع الله) وبين السمع
الثاني المشاهد (والله يسمع)، وفي اقتران مسألة التحاور بطرفي التحاور (تحاور كما).

1 - الحمكة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 202، بنظر الكشاف: الزمخشري، ج 04، ص 472، وينظر تفسير أبي السعود، ج 06، ص 213 -

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية
في الوقت الذي يأتي فيه الفاعل في مسألتي المجادلة والشكوى مرتبطا بالزوجة فقط، في كل ذلك
دليل على أن الصورة القرآنية (والله يسمع تحاور كما) هي استئناف جديد، وخطاب قرآني من منظور
جديد، هو دون قمة محور الرسالة والنبوة.

5- التحاور هو المراجعة في الكلام مراجعة مشاهدة حسيا، ولا يكون إلا بين اثنين لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ
لصَّاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾⁽¹⁾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾⁽²⁾.

لذلك نرى أن الصورة القرآنية (والله يسمع تحاور كما) التي تصور علم الله تعالى المشاهد، تشمل
طرفي الحوار، ولا تستثني أحدا منهما، كما هو الحال في مسألتي المجادلة والشكوى، حيث يرتبط الفاعل
بالزوجة التي تجادل وتشتكي.

6- ورود مسألة التحاور بصيغة المثني (والله يسمع تحاور كما)، وفي صورة إستئنافية، وفي ساحة علم الله
تعالى المشاهد هذا الورد يرسم الجانب الحسي لتحاور طرفي الحوار في هذه المسألة، التي علم الله تعالى
بعلمه الكاشف (قد سمع الله) عمق المجادلة والشكوى فيها بالنسبة للزوجة.

7- إن ورود نهاية الآية (إن الله سميع بصير) بالصيغة الإسمية المستقلة عن الحدث ماضيه (قد سمع الله)
وحاضره ومستقبله (والله يسمع) دليل على اقتران علمي الله تعالى الكاشف والمشاهد بالنسبة للمسألة،
فورود مسألتي المجادلة والشكوى تحت ساحة علم الله تعالى الكاشف لا يلغي إحاطة علم الله تعالى
المشاهد لهما وورود مسألة التحاور تحت ساحة علم الله تعالى المشاهد لا يلغي إحاطة علم الله تعالى
الكاشف لها، فالصورة القرآنية (إن الله سميع بصير) تعني إحاطة علمي الله تعالى الكاشف والمشاهد
لمسائل المجادلة والشكوى والتحاور في كل زمان ومكان⁽³⁾.

8- ما دامت الصورة القرآنية (إن الله سميع بصير) تدل على إحاطة علمي الله تعالى الكاشف والمشاهد
لمسائل المجادلة والشكوى والتحاور، لماذا تأتي مسألنا المجادلة والشكوى تحت ساحة علم الله تعالى
الكاشف، ومسألة التحاور، تحت ساحة علم الله تعالى المشاهد؟

إن مسألة مجادلة ما جاء به قمة الرسالة والنبوة، أثناء التفاعل معه بالنسبة لهذه المسألة، ومسألة
الشكوى إلى الله تعالى هما مسألتان أقرب إلى الساحة المعنوية منهما إلى الساحة الحسية، فالطرف الآخر
في هاتين المسألتين هو منهج قمة محور الرسالة والنبوة والله تعالى، وهما فوق المادة والحس، لذلك نرى

1 - سورة الكهف: الآية 34.

2 - سورة الكهف: الآية 37.

3 - الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 204.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية
وقوع هاتين المسألتين تحت ساحة علم الله تعالى الكاشف؛ لأن هذا العلم هو فوق المادة والمكان
والزمان.

أما مسألة التحوار بين الطرفين، حيث المراجعة في الكلام بينهما، هي مسألة أقرب إلى الساحة
الحسية منها إلى الساحة المعنوية، لذلك نرى وقوع هذه المسألة تحت ساحة علم الله تعالى المشاهد؛ لأن
هذا العلم هو علم مشاهدة مكانية زمانية في إطار مكان وزمان تجلي الحادثة.

9- لما كانت الصورة القرآنية (قد سمع الله قول التي تجادل في زوجها وتشتكي إلى الله) تصور من
منظار علم الله تعالى الكاشف ما سيكون من مجادلة للزوجة -في كل زمان ومكان- مع ما جاء به قمة
محور الرسالة والنبوة ولما كانت الزوجات في كل زمان ومكان على محور الرسالة والنبوة في درجات
دون قمة محور الرسالة والنبوة ومن ثم لن يتعدى تفاعلهن صورة الخطاب القرآني، لذلك نرى أن منظار
خطاب هذه الصورة القرآنية يأتي من منظار قمة محور الرسالة والنبوة⁽¹⁾.

10- ولما كانت العبارة القرآنية (والله يسمع تحاور كما إن الله سميع بصير، الذين يظهرون منكم من
نسائهم...) تصور حقيقة التحوار بين كل اثنين -في كل زمان ومكان- بالنسبة لهذه المسألة، وترسم
أحكاما بالنسبة لمسألة الظهار، ولما كانت إسقاطات هذه الأحكام -سواء في خشية الله تعالى أثناء
التحوار أم أثناء تطبيق هذه الأحكام- في نفوس البشر منها ما هو أعلى من صورة الخطاب القرآني (دون
القمة) ومنها ما هو أدنى وذلك حسب التزام المؤمنين، بمحتويات هذا الخطاب لذلك نرى أن هذا
الخطاب القرآني -بالنسبة لهذه العبارات- يأتي من منظار هو دون قمة محور الرسالة والنبوة.

وهكذا نرى -عبر الدلائل التي رأيناها- أن ما يربط الآية الأولى بما يليها من الآيات، هو ذاته ما
يربط علمي الله تعالى الكاشف والمشاهد لما سيكون من أحداث بحكمة وعدل وصلاحية الأحكام التي
ينزلها الله تعالى، والتي تخص هذه الأحداث.

فالآية الأولى تقول: إن أحكام مسألة الظهار التي أنزلها الله تعالى في الآيات التالية هي عادلة وحكيمة،
وصالحة لكل زمان ومكان؛ لأن علمي الله تعالى الكاشف والمشاهد يعيطان إحاطة مطلقة بما سيكون من
مجادلة وشكوى وتحوار في هذه المسألة (مسألة الظهار) فالله تعالى يقول -عبر هذه الآية- إنني أحيط
إحاطة مطلقة بما سيكون من مجادلة وشكوى وتحوار في هذه المسألة (مسألة الظهار) وأحكامي التي أنزلها
إليكم في الآيات التالية مبنية على إحاطتي هذه، ومن ثم فعدي وحكمي يعيطان بها ويجعلان منها صالحة
لكل زمان ومكان⁽²⁾.

1 - الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 205.

2 - المرجع نفسه: ص 206.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية

ولو عدنا إلى الآية الأولى من سورة المجادلة وقرأناها من جديد هي والآيات التي تليها وذلك من منظور مجرد عما نحمله من قيود تاريخية زمانية ومكانية تقيد هذه الآية لرأينا أن الآية الكريمة تحمل وجهها مطلقا مجردا عن التاريخ والزمان والمكان، وأن الإسقاط القصصي التاريخي الذي ذهب إليه جميع المفسرين بالنسبة لهذه الآية هو إسقاط واحد من إسقاطات هذه الآية التي لا تنتهي في كل زمان ومكان، وأن المنظار الأولى في النظر إلى كل آية في كتاب الله تعالى هو المنظار المجرد عن التاريخ والزمان والمكان، وذلك دون أن يلغي المناظير الأخرى التي يمكن النظر من خلالها بشكل مبرهن إلى هذه الآية. وهذه النظرية هي نداء لكل من يتفاعل مع القرآن الكريم ككتاب ينتمي لعالم الأمر ويتعلق بصفات الله تعالى العظيمة، وغير خاضع للزمان والمكان والتاريخ، بأن يقفز بفكره وتصوراته بالنسبة لما يحمله القرآن الكريم من معان ودلالات فوق قيود التاريخ وخارج إطار الزمان والمكان⁽¹⁾.

الإعجاز اللغوي في بعض آيات المتشابهات:

لا خلاف بين أهل العلم أن التعبير القرآني تعبير فريد في علوه وسموه وأنه أعلى كلام وأرفعه، وأنه بهر العرب فلم يستطيعوا مداناته والإتيان بمثله مع أنه تحداهم أكثر من مرة.

إن التعبير القرآني تعبير فني مقصود، بل كل حرف فيه وضع وضعا فنيا مقصودا، ولم تراع في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل روعي في هذا الوضع التعبير القرآني كله⁽¹⁾.

ولنقف قليلا عند آيات كريمة تتحدث عن عظمة القرآن الكريم:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽²⁾.

إن القسم دائما يأتي دليلا لإثبات صحة المقسم عليه، أي أن الذي خلق موضوع القسم ورتبه بهذه الحكمة وهذا التدبير، وهو هنا مواقع النجوم ومداراتها وحركاتها ليس بعاجز أن يكون المقسم عليه -وهو هنا القرآن الكريم- مرتبا بحكمة كما أن موضوع القسم بتلك الدقة والترتيب⁽³⁾.

ولننظر إلى العلاقة الوثيقة التي تربط القسم بالمقسم عليه، القسم هو مواقع النجوم وما تعنيه من دقة مداراتها، وحركاتها المرسومة لها بحكمة، لكي يؤدي كل نجم منها مهمته الموكلة إليه في الكون، وبشكل مكمل لمهمات باقي النجوم التي ينتمي إليها.

وبشكل مكمل لمهمات باقي النجوم في مجرته وفي الكون، ولو أن نجما خرج عن مداره وعن قانونه المرسوم له لحدثت كارثة كونية لا يعلم حدودها إلا الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾⁽⁴⁾.

هذا بيان أن هذا القسم عظيم، وإحساسنا بعظمته يتناسب مع علمنا الفلكي بهذه المواقع وهذه النظم والنواميس الكونية، وبمقدار وعينا لما تعنيه هذه القوانين من الدقة والحكمة والتدبير، هذا هو القسم. أما المقسم عليه فهو القرآن الكريم، وما يحويه من حروف وكلمات وحمل وآيات وسور.

ومن هنا يتضح لنا أن مسألة الترتيب، وحكمة وضع كل عنصر من عناصر القسم والمقسم عليه في مكانه، هي الرابط الذي يربط القسم بالمقسم عليه⁽⁵⁾، وأنه بمقدار ما تعلم من عظمة خلق هذا

1 - التعبير القرآني: فاضل صالح السامرائي، ص 10.

2 - سورة الواقعة: الآية 75-80.

3 - الكشاف: الزمخشري، ج 04، ص 456-457، وينظر المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 15.

4 - سورة الواقعة: الآية 76.

5 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: تفسير أبي السعود، ج 06، ص 194-195.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية الكون، بمقدار ما نعلم من عظمة هذا القسم، وبمقدار ما نؤمن بالله وبعظمته وبحكيمته، بمقدار ما نعلم من عظمة القرآن الكريم هذه هي ماهية الرابط بين القسم والمقسم عليه.

الكون بنجومه وكواكبه وما فيه من حكمة الترتيب والتدبير، والقرآن بحروفه وكلماته وجمله وآياته وسوره... وما فيها من حكمة الترتيب والتدبير.

فلو أخذنا أي حرف من القرآن الكريم، نجد أن وضعه في الكلمة التي ينتمي إليها وفي الجملة التي ينتمي إليها، وفي الآية التي ينتمي إليها وفي السورة التي ينتمي إليها وفي القرآن الكريم، إنما وضع بحكمة لا تقل عن الحكمة التي وضع بها النجم في موقعه ومداره⁽¹⁾ ضمن مجموعته، وضمن مجرته، وضمن ما هو أكبر من ذلك، ومن ثم فإن معجزة وضع الحرف في مكانه توازي معجزة وضع النجم في مداره، وأنه عند حذف حرف أو زيادة حرف أو استبدال حرف بحرف، سيختل توازن القرآن الكريم، كما أنه عندما يخرج نجم عن مداره أو عند حذف مادته، أو زيادة ذلك في الكون، فإن النظام الكوني سيختل وستحدث مشكلة فلكية لا يعلم حدودها إلا سبحانه وتعالى.

وبذلك نجد أنه لو اجتمع العالم على مدار الزمن، لكي يبدلوا أو يحدفوا أو يزيدوا حرفا واحدا في كتاب الله سبحانه وتعالى، مع الحفاظ على التوازن المذكور لما استطاعوا؛ لأن له من الارتباطات والتوازنات والمهام مالا يعلم حدوده إلا الله تعالى، وهذه المسألة عبارة عن نظرية شاملة تشمل جميع حروف وكلمات وجمل وآيات وسور القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾⁽²⁾.

ويتمثل نص هذه النظرية فيما يلي:

- 1- معجزة القرآن الكريم صفة من صفات الله تعالى، والقرآن الكريم كلام الله المنزل من اللوح المحفوظ برسم توقيفي، وبأمر من الله تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- ومنه إلى كتبه الوحي، وليس للبشر ولا جهادهم شيء في رسم كلماته.
- 2- إن مجموع ورود أي كلمة عبر القرآن الكريم هو سر مطابق تماما لحقيقة وجوهر المسألة التي تصفها وتسميها الكلمة.
- 3- إن مجموع كلمات أي نص قرآني هو سر يرتبط ارتباطا مطلقا بجوهر المسألة التي يعمل وصفها هذا النص.

1 - المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 16.

2 - سورة الحجر: الآية 09.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية

4- إن مجموع كلمات أي جملة قرآنية يرتبط مع غيره من مجاميع كلمات الجمل القرآنية الأخرى وفق معادلات مطابقة تماما للمسائل التي تصفها هذه الجمل⁽¹⁾.

5- إن رسم الكلمة في القرآن الكريم معجزة، ويأتي بشكل مطابق تماما لحقيقة المسألة التي تصفها وتسميها هذه الكلمة، وإن لغة القرآن الكريم أكبر وأشمل وأوسع من قواعد اللغة العربية الموجودة بين أيدينا.

6- إن مجموع حروف أي جملة قرآنية، يرتبط مع غيره من مجاميع حروف الجمل القرآنية الأخرى، وفق معادلات مطابقة تماما للمسائل التي تصورها هذه الجمل.

7- إن مجموع حروف أي نص قرآني هو سر يتعلق بجوهر المسألة التي يصورها هذا النص.

8- إن النص القرآني المصور لمسألة ما، موضوع بمكانه بحث يأتي مرتبطا وبشكل مطلق مع سياق الحديث الذي يحيط بهذا النص، ومع الحلقات الأخرى التي تصور المسألة نفسها في سور أخرى، وذلك بالنسبة لمجموع حروف وكلمات الجمل والآيات التي يتكون منها هذا النص.

9- إن البرهان على جميع عناصر هذه النظرية، هو برهان رياضي يعتمد على مجموع الحروف والكلمات المرسومة في القرآن الكريم، وبدراسة سهلة بحيث يستطيع أي إنسان أن يتحقق من صحة أي معلومة بسرعة وبشكل يقتنع به أي إنسان -سليم العقل- بغض النظر عن عقيدته ولغته... لأن الخيال البشري حينما لا يستند على قاعدة علمية ثابتة وبرهان مبين يكون بابا واسعا يدخل منه الشيطان إلى النفس البشرية متى شاء لذلك اعتمدت في برهان هذه النظرية على أسس ثابتة مجردة لا يختلف عليها اثنان للنظر إلى الحقيقة المجردة وللنظر إلى جزء بسيط جدا من صفات المنهج الإلهي السليم البعيد عن أيدي البشر⁽²⁾.

نحن نعلم أن وحدات الوصف والتسمية هي الكلمات ونعلم أيضا أن وحدات الكلام الأولى التي تتكون منها هذه الكلمات هي الحروف.

إن الكلمة هي صورة لشيء ما داخل ذاكرة الإنسان، ولا يوجد للكلمة معنى إذا لم ترسم في ذاكرة المستمع صورة لشيء ما⁽³⁾. وأول ما تعلمه آدم عليه السلام هو أسماء الأشياء لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾⁽⁴⁾.

1 - المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 17، ينظر الحق المطلق: عدنان الرفاعي، ص 14.

2 - المرجع نفسه: ص 18-19.

3 - دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص 303-309، وينظر الحق المطلق: عدنان الرفاعي، ص 19.

4 - سورة البقرة: الآية 31، وينظر في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 01، ص 57.

لأنه إذا لم تكن الكلمة التي يسمعهها صورة في ذاكرته فإنه لا يستطيع أن يفهم ما يقال ومن ثم لا يستطيع أن يملك متطلبات الخلافة التي خلق من أجلها.

إن الكلمات هي ألفاظ ترسم في خيال المستمع صوراً لظواهر حسية ومعنوية في مساحة ما يستطيع العقل تصوره وتخيله، وبشكل يرسم حدود العلاقة ما بين المكان والزمان الذي يحيط بهذه الظواهر، وتكون هذه الكلمات بعيدة أو قريبة من حقيقة الشيء الذي تريد وصفه وتصويره؛ بمقدار ما يكون القائل عالماً بهذا الشيء وبمقدار ما يملك من قدرة التعبير عن هذا الواقع.

فالذي يربط الكلمة بما تعنيه، هو رابط يتعلق بالقائل وبصفاته التي يتصف بها، ويعلمه حول الشيء الذي تصفه وتسميه هذه الكلمة، والذي يربط الكلمة بما تصوره في خيال المستمع، هو رابط يتعلق بما تحويه ذاكرة هذا المستمع من صور للشيء الذي تصفه وتسميه هذه الكلمة⁽¹⁾.

إن الكلمة القرآنية التي تصف وتسمي مسألة ما، ترسم وبشكل مطلق يتناسب وعظمة القائل سبحانه وتعالى، حقيقة هذه المسألة، وبجيث تنقل صورة هذه المسألة لجميع الأجيال بشكل مجرد عن الزمان، وبما أن هذه التسمية وهذا الوصف يكون مطلقاً في القرآن الكريم ومصوراً تماماً لحقيقة المسألة التي تصفها وتسميها هذه الكلمة، وبشكل مجرد من الزمن يعطي لكل جيل صورة لهذه المسألة تناسب علمه وحضارته، لذلك يطلق على هذه الكلمة واحدة وصف وتسمية.

وفي القرآن الكريم لا توجد كلمة مرادفة لكلمة أخرى بالمعنى الذي يتصوره البشر ربما توجد كلمة أو أكثر تصف وتسمي مسألة قريبة حسب تصور البشر من المسألة التي تصفها وتسميها هذه الكلمة، ولكن لكل كلمة من الكلمات القرآنية خاصيتها، لأنها تصف وتسمي مسألة لها خاصيتها، التي تميزها عن غيرها من المسائل.

وفي القرآن الكريم لا يمكن استبدال كلمة بكلمة من مرادفاتها، هذه المرادفات التي يتصورها جيل معين حسب ما يملك من علم وحضارة حول المسألة التي تصفها وتسميها هذه الكلمة؛ لأنه لا يمكن للمخلوقات أن تحيط بجميع معاني وصور وحقائق المسائل التي تحملها هذه الكلمة والأعظم من ذلك أن الكلمة القرآنية نفسها، تعطي في كل عبارة قرآنية تأتي بها صورة لها خاصيتها التي تميزها.

والأعظم من ذلك، أن هذه الكلمة ترسم في العبارة القرآنية الواحدة أكثر من صورة وتحمل أكثر من معنى؛ لأنها تخاطب أجيالاً عديدة لكل منها مفهومه الحضاري، وإرثه العلمي الخاص به، بل وتخاطب في الجيل نفسه جميع الناس على اختلاف مفاهيمهم وعلومهم⁽²⁾.

1 - المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 22.

2 - المرجع نفسه: ص 23.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية
ومن تخيل أن الكلمة القرآنية والعبارة القرآنية لا تحمل إلا صورة معنى واحد، وأن هذه الكلمة لا
تصف ولا تصور إلا هذا المعنى إنما تخيل ذلك؛ لأنه لا يدرك عظمة القرآن الكريم التي تتناسب مع عظمة
قائله سبحانه وتعالى، ولا يدرك أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى لجميع الأجيال وأنه صفة من صفاته
ومن ثم لا يحده زمان ولا مكان.

لننظر في الآية الكريمة التالية:

﴿ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ آخِرَةٍ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ وَوَجَّهْنَا لِيُسُوفَ أَعْيُنَهُمْ فَذَنَّبُوا
وَلَيْدَخُلُوا أَلْمَسَاجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَيُتَبَّرُوا مَا عَلَوُا تَتْبِيرًا ۗ ﴾⁽¹⁾.

إن من يتصور أن كلمة الآخرة في هذه الآية الكريمة، تحمل معنى محددًا هو الإفساد الثانية،
يتخيل أن كلمة ثانيهما من الممكن أن تنوب عن كلمة الآخرة ولا فارق عنده في ذلك؛ لأنه تخيلها بهذا
المعنى المحدد.

وخصوصًا أنه في الآيات الكريمة التي تسبق هذه الآية والتي تصور الإفساد الأولى، جاءت كلمة
أولاهما لتصف لنا الإفساد الأولى المناظرة تمامًا لهذه الإفساد.

ومن تصور أن كلمة الآخرة في هذه الآية الكريمة تحمل معنى محددًا، وصورة محددة وهي أنها
آخرة إفساد لبني إسرائيل في الأرض، يتخيل أن كلمة النهاية أو الأخيرة، تنوب عن كلمة الآخرة في
هذه العبارة القرآنية ولا فارق عند ذلك.

ومن تصور أن كلمة الآخرة في هذه الآية تعني اقتراب الساعة يتخيل أن كلمة الساعة تنوب
مكان كلمة الآخرة في هذه العبارة القرآنية، ولا فارق عنده في ذلك⁽²⁾.

والواقع أنه لا توجد كلمة تنوب عن كلمة الآخرة في هذه الآية الكريمة، لأنها تحمل -ضمن
هذه العبارة القرآنية- معاني وصورًا لا يعلم حدودها إلا الله تعالى ومنها الصور الثلاث التي رأيناها.

ولا يمكن استبدال الكلمة بكلمة أخرى؛ لأن عدد حروف هذه الكلمة -الآخرة- يدخل في
معادلات التصوير المطلق المتعلقة بمجموع العبارات القرآنية.

ولا يمكن استبدال هذه الكلمة بكلمة أخرى؛ لأن مجموع هذه الكلمة عبر القرآن الكريم معدودة
بحكمة ووفق معادلة توازن مطلق.

وهكذا نرى أن الكلمة في القرآن الكريم، تحمل الكثير من المعاني والصور وأنه يستحيل استبدال
كلمة بأخرى وأن للكلمة في كل عبارة قرآنية، خصوصيتها المستقلة التي تصور معاني هذه العبارة وفوق

1 - سورة الإسراء: الآية 07.

2 - المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 24، وينظر في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 15، ص 2214.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية
ذلك إن مجموع ورود هذه الكلمة - بخصوصية الرسم القرآني الذي جاءت به - عبر القرآن الكريم، هو
معجزة ومحسوب بدقة، وبحيث يصور هذا المجموع جوهر وحقيقة الشيء الذي تسميه وتصفه هذه
الكلمة، تصويراً مطلقاً مطابقاً تماماً لحقيقة وجوده في هذا الكون⁽¹⁾.

لننظر في الآية الكريمة التالية:

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأْرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾⁽²⁾.

لا بد في هذه الآية من التعرض لمسألة الأمية⁽³⁾، وعلاقتها بالقراءة والكتابة؛ لأن ذلك يخص
الرسول - صلى الله عليه وسلم - النبي الأمي الذي لم يتعلم قواعد القراءة والكتابة على يد أحد من البشر
ولم يتل أي كتاب قبل نزول الوحي ولم يخطه يمينه، وهو الذي نزل عليه القرآن الكريم من السماء وأمر
كتابة الوحي بكتابه على وجه مخصوص يوافق إملاء السماء فكيف يكون ذلك؟!!

حتى نعلم ما تعنيه الأمية وما هي الصورة والحقيقة التي تصفها وتسميها هذه الكلمة، علينا أن
ننظر في الصور التي ترسمها هذه الكلمة ومشتقاتها في القرآن الكريم.

إن جذر هذه الكلمة هو كلمة "أم"⁽⁴⁾، وإن الصور التي ترسمها هذه الكلمة في القرآن الكريم
تدور حول محور واحد، هو الأصل والذات والأساس، فأم الشيء تعني أصله وذاته ومرجعه لقوله تعالى:

﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرٌ مُّشَابِهَاتٌ ﴾⁽⁵⁾.

وقوله تعالى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾⁽⁶⁾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾⁽⁷⁾.

إن كلمة أم في الآيات الكريمة السابقة تعني أصل وأساس ومرجع الكتاب.

ولننظر في الآيات الكريمة التالية:

﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾⁽⁸⁾.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا ﴾⁽⁹⁾.

1 - المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 25.

2 - سورة العنكبوت: الآية 48.

3 - الكشاف: الرغشري، ج 03، ص 443، وينظر تفسير أبي السعود، ج 05، ص 175.

4 - المصدر نفسه: ج 01، ص 332، وينظر المصدر نفسه، ج 01، ص 336، وينظر المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 97.

5 - سورة آل عمران: الآية 07.

6 - سورة الرعد: الآية 39.

7 - سورة الزخرف: الآية 04.

8 - سورة الأنعام: الآية 92، ينظر في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 07، ص 1148.

9 - سورة القصص: الآية 59.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية
﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾⁽¹⁾.

إن كلمة أم هنا تعني مرجعية القرى، والمنبع الفكري والعقائدي لها، فأم القرى لا تستمد خصائصها الفكرية والعقائدية والحضارية من غيرها من القرى، بل إن القرى التي حولها تستمد ذلك منها، وهذا ما أعطاهها صفة الأم، لأنها المرجع والأساس لمن حولها من القرى.

وأم الإنسان هي التي يخلق في بطنها خلقاً من بعد خلق، وتحمله حتى ولادته، لذلك هي السبب والمرجع الأساسي لرعايته ووجوده ومجيئه إلى الدنيا: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾⁽²⁾.

ولننظر إلى الآيات الكريمة التالية:

﴿ وَأُمًّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ، نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾⁽³⁾.

إن كلمة أمه تعني أساسه ومآله ومرجعه وذاته، وهي تدور ضمن الإطار الذي تصفه وتسميه هذه الكلمات.

ومن هنا جاءت أمة، وهي تطلق على المجموعة التي تحمل صفات خاصة تميزها، صفات غير مكتسبة من غيرها من الأمم، ومرجعية وأصل وأساس هذه الصفات هو ذات هذه الأمة وروحها التي تميزها والتي كانت سببا في إعطاء هذه المجموعة اسم أمة مستقلة عن غيرها من الأمم.

لقوله تعالى: ﴿ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ﴾⁽⁵⁾.

وقوله تعالى: ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾⁽⁶⁾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾⁽⁷⁾.

وقوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾⁽⁸⁾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾⁽⁹⁾.

1 - سورة الشورى: الآية 07.

2 - سورة الزمر: الآية 06.

3 - سورة الفارعة: الآيات 08-11، وينظر المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 98.

4 - سورة آل عمران: الآية 104، وينظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج 01، ص 594-595.

5 - سورة آل عمران: الآية 113.

6 - سورة المائدة: الآية 66.

7 - سورة الأعراف: الآية 159.

8 - سورة الحج: الآية 67.

9 - سورة القصص: الآية 23.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾⁽¹⁾.

إننا نرى من خلال الآيات الكريمة السابقة أن كلمة أمة تعبر عن صفات خاصة لمجموعة من البشر، صفات متعلقة بذاتهم وروحهم، ولذلك أطلق عليهم اسم أمة، وينتهي أجل الأمة، بفقدانها لهذه الصفات التي تميزها، ومن ثم موت ذاتها وعقيدتها وروحها المتعلقة بهذه الصفات التي أعطتها اسم أمة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾⁽²⁾.

وكل أمة تدعي يوم القيامة إلى كتابها المرتبط بعقيدتها وبذاتها ومنهجها الخاص بها. ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾⁽³⁾.

لقد وصف إبراهيم عليه السلام بأن أمة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽⁴⁾.

إن الفطرة السليمة والعقيدة الصافية والفكر النير الذي حمله عليه السلام أعطاه استقلالية خاصة عن مجتمعه الذي يحيط به، ولم يتأثر بعقيدة وفكر ثقافة هذا المجتمع الوثني: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيه وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾⁽⁵⁾.

فبحته عن الحقيقة - قبل نزول الوحي عليه - لم يكن مكتسبا أو متأثرا بهذا المجتمع وإنما كان عبر فطرته السليمة التي حافظ عليها منذ ولدته أمه بعيدا عن تأثير مجتمعه الوثني.

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ، فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽⁶⁾.

وهكذا نرى أن عقيدته وروحه لم تذب في المجتمع الذي يحيط به، وقد بقيت ذاته، ومرجع عقيدته وأساس تفكيره، بعيدا عن تأثير ما حوله من البشر وعقائدهم، ولذلك وصفه الله تعالى بالأمة؛

1 - سورة الزخرف: الآية 22.

2 - سورة الأعراف: الآية 34.

3 - سورة الجاثية: الآية 28.

4 - سورة النحل: الآية 120، وينظر المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 99.

5 - سورة الزخرف: الآية 26.

6 - سورة الأنعام: الآيات 75-79.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية لأنه كان يحمل صفات خاصة متميزة وفكراً ومنهجاً خاصاً متعلقاً بذاته وفطرته السليمة التي لم تتأثر بالأفكار وثقافة الأمة الوثنية التي تحيط به.

إن الرسول -صلى الله عليه وسلم- سار بالطريق نفسه محافظاً على سلامة فطرته، وصفاء عقيدته منذ ولدته أمه، بعيداً عن أفكار وعقائد من حوله من الناس، فقد رفض الشرك وعبادة الأصنام والتقاليد السيئة التي سادت مجتمعه ولم يتأثر بها، ولم يأخذ منها أي ثقافة أو علم أو فكر يؤثر على نقاء روحه -صلى الله عليه وسلم- (1).

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ (2).

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (3).

والرسول -صلى الله عليه وسلم- لم يتعلم على يد أحد من البشر، ولم يتل أي كتاب قبل نزول الوحي عليه ولم يحظ أي كتاب يمينه ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنَّكَ الْمَبْطُلُونَ﴾ (4).

ولذلك وصفه الله تعالى بالأمي لمحافظة على ذاته وسلامة فطرته وصفاء عقيدته ونقاء فكره منذ ولدته أمه، بعيداً عن عقائد وأفكار الوجود الذي حوله.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ (5).

﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيَّ﴾ (6).

ومن هنا يمكننا أن نعرف الأمي بأنه الذي لم يتأثر أساس عقيدته ومرجعية ذاته المتعلقة بروحه التي تميزه بثقافة الوجود الذي حوله، ويبقى بفطرته وبروحه وبفكره بعيداً عن تأثيرات ثقافة الوجود الذي يحيط به، منذ ولدته أمه، ولم يكتسب من ذلك شيئاً.

هذا هو تعريف الأمية بشكل عام، ولكن عندما تصف هذه الكلمة مسألة مقترنة بها كأن تصف إنساناً أو مجموعة من البشر بهذه الصفة، فهذا يعني أنهم لا يملكون أي علم أو فكر أو ثقافة تجاه

1 - المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 100.

2 - سورة آل عمران: الآية 68.

3 - سورة النحل: الآية 123.

4 - سورة العنكبوت: الآية 48.

5 - سورة الأعراف: الآية 157.

6 - سورة الأعراف: الآية 158.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية
هذا المسألة، ولم يكتسبوا من ثقافة الوجود الذي يحيط بهم أي شيء من ذلك وبقوا بالنسبة لهذه المسألة
كما ولدتهم أمهاتهم⁽¹⁾.

لننظر إلى الآية الكريمة التالية :

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسَلَّمْتُمْ فَإِنِ اسَلَّمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾⁽²⁾.

إن الأمر بتبليغ الرسالة هو لجميع البشر، وهؤلاء البشر بالنسبة لهذه المسألة نوعان⁽³⁾.

1- الذين يعلمون الكتاب: وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى وهؤلاء يملكون علما بالنسبة لهذه
المسألة، فقد سبق أن أنزل عليهم منهج سماوي صحيح أنهم قاموا بتحريفه، ولكنهم يملكون علما بالنسبة
لهذه المسألة.

2- الذين لا يعلمون الكتاب: وهم الذين لا يملكون عقيدة وعلما وثقافة تجاه هذه المسألة ولذلك
وصفهم الله تعالى بالأميين بالنسبة لهذه المسألة.

ولننظر إلى الآية الكريمة التالية:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾⁽⁴⁾.

إن كلمة الأميين في الآية الكريمة وصفت أمة من أهل الكتاب، وهم الذين أنزل عليهم الكتاب
ورغم ذلك يصفهم الله تعالى بالأميين؛ لأنهم لا يحملون علما بالنسبة للكتاب وهكذا نرى أن عدم
علمهم بهذه المسألة جعلهم أميين بالنسبة لها.

ومن هنا عد المجتمع الذي ولد به الرسول -صلى الله عليه وسلم- مجتمعا أميا ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ
فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾⁽⁵⁾.

لقد وصفوا بالأمية؛ لأنهم لا يحملون علما وثقافة بالنسبة لمسألة الرسالة السماوية والكتاب
السماوي، وهم في غفلة بالنسبة لهذه المسألة ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾⁽⁶⁾.

1 - المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 101.

2 - سورة آل عمران: الآية 20، وينظر في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 03، ص 381.

3 - الكشاف: الزمخشري، ج 01، ص 341-342، وينظر تفسير أبي السعود، ج 01، ص 349.

4 - سورة البقرة: الآية 78، وينظر في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 01، ص 85.

5 - سورة الجمعة: الآية 02.

6 - سورة يس: الآية 06، وينظر المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 102.

الفصل الأول نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية
ومما سبق نستنتج أن الأمية، مسألة عامة، وعندما تقترن بمسألة خاصة ينعكس تعريفها على هذه
المسألة، فالأمية بالنسبة لمسألة القراءة والكتابة تعني عدم امتلاك علم وثقافة هذه المسألة، هذا هو تعريف
الأمية كما يصفه ويصوره القرآن الكريم.

ولنعد إلى جوهر المسألة وانعكاس ذلك على علم الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالقراءة
والكتابة، ومعرفة -صلى الله عليه وسلم- بالحروف التي تكون الكلمات:

إن أول كلمة نزل بها جبريل عليه السلام من السماء على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هي كلمة
أقرأ ورد الرسول -صلى الله عليه وسلم-: ما أنا بقارئ... وتكرر ذلك ثلاث مرات.

إن عبارة (ما أنا بقارئ) تعني لم أتعلم قواعد القراءة والكتابة، فالكلمة أقرأ غير كلمة اتل، فلو
حملت معنى كلمة اتل، لما شق على الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولتلا من أول مرة أو لقال ماذا أقرأ
ولم يقل ما أنا بقارئ، فالجملة ما أنا بقارئ، تعني لم أتعلم قواعد القراءة والكتابة، وهذا بعيد عن
التلاوة، وإن تلاوة الشيء تعني إظهاره وتبينه واتباعه لقوله تعالى:

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾⁽¹⁾

﴿فَأَلْتَالِيَاتٍ ذِكْرًا، إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾⁽²⁾

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾⁽³⁾

وتلاوة الكلام هو النطق به وإظهاره وإسماعه ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ

فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأَنَا مَيَّتٌ لِنَفْسِي﴾⁽⁴⁾

﴿وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلِيٰ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾⁽⁵⁾

﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾⁽⁶⁾

أما القراءة فهي تخص الكلام والمكتوب حصراً وتحتاج إلى كتاب⁽⁷⁾

﴿فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَأَوْلَسْكَ يَقرؤون كِتَابَهُمْ﴾⁽⁸⁾

1 - سورة هود: الآية 17.

2 - سورة الصافات: الآيتان 03-04.

3 - سورة الشمس: الآيتان 01-02.

4 - سورة النمل: الآيتان 91-92.

5 - سورة لقمان: الآية 07.

6 - سورة الحائية: الآية 08.

7 - المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 103.

8 - سورة الإسراء: الآية 71.

﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُبِّكَ حَتَّى تُنزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾⁽¹⁾.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَذَا مَا أقرأُ كِتَابِيهِ﴾⁽²⁾.

إن قراءة جبريل عليه السلام للآيات الكريمة الأولى التي نزلت من السماء على الرسول -صلى الله عليه وسلم- ﴿أقرأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، أقرأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾⁽³⁾.

وعدم اعتراض الرسول -صلى الله عليه وسلم- على ذلك، كما فعل في المرات الثلاث الأولى، يدل على أنه -صلى الله عليه وسلم- استحباب فقراً، وإلا لأعاد عليه جبريل -عليه السلام- تكرار ذلك كما فعل في المرات الثلاث الأولى، ولكن كيف قرأ الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهو الذي لم يتعلم أسباب ذلك، ولم يتل أي كتاب حتى اللحظة التي نزل عليه جبريل -عليه السلام- بها؟!.

إن الجواب على هذا السؤال موجود في الآيات الكريمة الأولى التي نزلت عليه صلى الله عليه وسلم ﴿أقرأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، أقرأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

فالأمر الإلهي اقرأ، لا يحتاج تنفيذه إلى الأسباب، كتلك التي يأخذ البشر لتعلم هذه المسألة وإنما كان مباشرة بقدرة الله تعالى، دون أسباب ويشكل مماثل لما يحدث في الآخرة⁽⁴⁾.

﴿فَمَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأَوْلِعْكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ﴾⁽⁵⁾.

إن هؤلاء الذين يقرؤون كتابهم في الآخرة، لم يتعلم جميعهم أسباب وقواعد القراءة والكتابة في الحياة الدنيا هذا إن كان ما سيقروونه مماثلاً لما تعلموه في الحياة الدنيا، ولكنهم جميعاً يقرؤون كتابهم ويكون ذلك بقدرة الله سبحانه وتعالى وبإلهام منه بعيداً عن الأسباب التي ندرکها نحن في الحياة الدنيا.

هكذا قرأ الرسول -صلى الله عليه وسلم- الآيات التي نزلت من السماء مع جبريل -عليه السلام- بعيداً عن الأسباب التي يأخذ بها البشر، وعن قواعد القراءة والكتابة التي يأخذون بها.

صحيح أن القرآن الكريم نزل باللغة العربية ويفهمه -دون الحاجة لترجم- كل من تكلم العربية ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾⁽⁶⁾.

1 - سورة الإسراء: الآية 93.

2 - سورة الحاقة: الآية 19.

3 - سورة العلق: الآيات 01-05، ينظر في ظلال القرآن: سيد قطب، ج30، ص 3938.

4 - المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 104.

5 - سورة الإسراء: الآية 71.

6 - سورة يوسف: الآية 02.

ولكنه نزل يرسم السماء ورسم القرآن الكريم أشمل وأكبر وأوسع من أن تحيط به قواعد اللغة العربية، حتى تلك التي حاول العلماء استنباطها من القرآن الكريم.

لذلك نرى أن تعلمه -صلى الله عليه وسلم- قراءة القرآن الكريم، ومعرفته بحروفه، وأمره -صلى الله عليه وسلم- لكتاب الوحي بكتابته على وجه مخصوص حسب إملاء السماء، كان بقدره الله تعالى وبأمره بعيدا عن قواعد القراءة والكتابة التي يأخذ بها البشر، وبفيض من كرم الله تعالى (اقرأ وربك الأكرم) ومن أسرار النبوة الشريفة وهذا ما تشير إليه الآيات الكريمة الأولى التي نزلت عليه -صلى الله عليه وسلم-.

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾⁽¹⁾.

وهكذا بقي -صلى الله عليه وسلم- أميا على الرغم من علمه بهذه المسألة، لأنه لم يأخذ هذا العلم من غيره من البشر وإن ما تعلمه -صلى الله عليه وسلم- هو لغة وإملاء السماء، وإلهام من الله عز وجل حتى يستطيع نقل ذلك إلى كتبة الوحي، لكي يرسموا القرآن الكريم، كما هو تماما في اللوح المحفوظ واللوح كما نعلم يستعمل للكتابة حصرا.

﴿ وَكُنْتُمْ لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً ﴾⁽²⁾.

﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾⁽³⁾.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي... ﴾⁽⁴⁾.

بل إن قواعد اللغة العربية لا تفيد في ذلك؛ لأنها لا تطابق تماما إملاء السماء ومن ثم لا تطابق تماما رسم القرآن الكريم، المطابق تماما لإملاء السماء، ولرسم الكلمات في اللوح المحفوظ ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾⁽⁵⁾.

فالمسألة مسألة وحي وليست مسألة اجتهاد واقتباس، ومن ثم لا تحتاج إلى علوم القراءة والكتابة التي يأخذ بها البشر.

1 - سورة العلق: الآية 01-05، ينظر المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 105.

2 - سورة الأعراف: الآية 145.

3 - سورة الأعراف: الآية 150.

4 - سورة الأعراف: الآية 154.

5 - سورة العروج: الآيات 21-22.

الإعجاز العلمي في بعض آيات المحكمات

1 - قال تعالى: ﴿وَتِيَابِكُمْ فَطَهِّرْ﴾⁽¹⁾.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁽²⁾.

إن التأمل في آيات القرآن الكريم سوف يجد أن أول سورة نزلت كانت تنادي بالعلم، وثاني سورة نزلت تنادي بالنظافة، فقد جاء في السورة الأولى قوله تعالى (اقرأ) وجاء في السورة الثانية قوله تعالى (وتيابك فطهر).

والتاريخ يثبت أن الإسلام هو أول نظام علمي عرفته الإنسانية يأمر بالتعقيم ويحارب التلوث ألم يطلق الإسلام على كلمة التعقيم اصطلاح الطهارة؟ والمقصود بها خلو الشيء من الميكروبات. كما أطلق على الشيء الملوث، أو الحامل للميكروبات كلمة النجاسة.. ثم لم يترك الإسلام كلمة النجاسة مطلقة دون تعريف أو تحديد.. بل لقد اتبع الأسلوب العلمي فحددها بثلاث عشر مادة⁽³⁾.

وهذه المواد هي ما يعرف في عصرنا الحديث بالمواد الوسيطة أو الناقله للميكروبات ومن هذه المواد: القيح؛ أي الصديد، والبراز، والدم المسفوح، والبول، والقيء، ولعاب الكلب، وجسم الخنزير، وكل شيء عفن كبقايا الحيوان الميت، وقد أثبت العلم الحديث أن جميع هذه المواد هي وسط صالح لنمو الميكروبات وتكاثرها.

ومن حكمة التشريع الإسلامي أن يقرر أن أية مادة من هذه المواد إذا أصابت أي شيء: مثل ثوب الإنسان أو جسمه أو طعامه أو شرابه، أو المكان الذي يجلس فيه أو يسير عليه، هذا الشيء قد تنجس، ولا بد من أن يتطهر بإزالة النجاسة.

1 - سورة المدثر: الآية 04.

2 - سورة المائدة: الآية 06، ينظر في ظلال القرآن: سيد قطب، ج06، ص 850.

3 - وفي بعض الآراء الأخرى، بأربع عشر مادة.

ويشترط الإسلام للتأكد من إزالة هذه النجاسة أن تزيل لون النجاسة ورائحتها أيضا وبذلك يكون الإسلام أول من نبه إلى أن تغير لون الطعام أو رائحته أو طعمه دليل على وجود ميكروب حتى يتفاعل، وهذا يكون نجسا في نظر الدين، يعني ملوثا في نظر الطب الحديث، وكثيرا ما يشير القرآن الكريم إلى النجاسة والميكروب بكلمة الرجس والشيطان كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَيْرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾⁽¹⁾.

ويشير إلى الطهارة أي التخلص من الميكروب بالغسيل بالماء الجاري كما في قوله تعالى: ﴿وَيُنزَلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءٌ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾⁽²⁾.

من هنا كان الإسلام هو أول نظام عرفته الإنسانية، يشير إشارة واضحة وصريحة إلى الميكروبات والطفيليات التي تصيب الإنسان بالمرض وذلك قبل أن يكتشف الميكروسكوب هذا بإثني عشر قرنا. كما أن الإسلام هو أول من أوضح أن النظافة هي الوقاية الرئيسية من هذه الجراثيم، من ذلك كانت حكمة الوضوء في الآيات التي تناولها. والتي تقررها الأبحاث العلمية وتظهر لنا علاقتها بالطب، ولا سيما الطب الوقائي للإنسان من الأمراض الجلدية التي يتعرض لها إذا لم ينظف أعضاء جسمه، وبخاصة المعرضة للعوامل الجوية وما فيها من أتربة حاملة للجراثيم أو غازات ضارة⁽³⁾.

ولاشك أن الوجه والأيدي والأقدام هي أكثر أجزاء الجسم تعرضا للتلوث والتأثر بهذه الميكروبات، وهي تعد بملايين الملايين في كل سنتيمتر مكعب من الهواء. وأن الوضوء خمس مرات في اليوم لا يترك مطلقا أي درن على الجسم يخشى منه الضرر ومن ثم كان الوضوء هو ترجمة لقاعدة علمية تقول "إن الوقاية خير من العلاج"⁽⁴⁾، حيث أن النظافة خير سبيل لاتقاء الأمراض التي تتطلب علاجا.

1 - سورة الأنعام: الآية 145.

2 - سورة الأنفال: الآية 11.

3 - القرآن وإعجازه العلمي: محمد إسماعيل إبراهيم، ص 111، دار الفكر العربي، 1981م.

4 - المرجع نفسه: ص 112.

فعلى سبيل المثال يذكر الدكتور مصطفى شحاتة في بحثه -الذي قدمه إلى مؤتمر الإعجاز الطبي في القرآن والسنة، الذي عقد في القاهرة- أهمية غسل الأنف بالماء أثناء الوضوء للصلاة فيقول: "إن تجفيف الأنف يعتبر من الأماكن التي يتكاثر فيها العديد من الميكروبات بما لها من خاصية بيولوجية تشجع على تكاثر الميكروبات بها.

ثم يذكر البحث في موضع آخر إنه قد أجريت دراسة ميدانية على أشخاص يؤدون الصلاة بصفة دائمة، وآخرين لا يؤدونها.. وبدراسة وفحص تجفيف الأنف في المجموعتين وجد أن غسل تجفيف الأنف بالماء خمس مرات يوميا أثناء الوضوء، يؤدي إلى حماية هذا التجفيف من الالتهابات، وتقل فيه نسبة الإصابة بالميكروبات مما ينعكس على الجسم ككل، ويحميه من إصابة الأعضاء الأخرى بهذه الميكروبات نتيجة تكاثرها بتجفيف الأنف"⁽¹⁾.

ومع تطور البحث العلمي في القرن العشرين.. أظهرت الأبحاث والدراسات العلمية.. أن أنف الإنسان.. وهو أعلى عضو في الجهاز التنفسي، يقوم بعملية ترشيح مستمرة لهواء التنفس.. ويعزل فيه كل ما يعلق بالهواء من ميكروبات وأتربة.. ولذلك يمتلئ بتجفيف الأنف بالعديد من الميكروبات تظهر بالأنف بعد الولادة مباشرة.

وعندما تفحص هذه الميكروبات⁽²⁾ تحت الميكروسكوب المكي.. نجد فيها جميع أنواع الميكروبات.. وبذلك يصبح الأنف مخزنا لجميع الميكروبات والبكتيريا.. التي تنتقل منه إلى باقي أعضاء الجهاز التنفسي.. والجيوب الأنفية، والأذن الوسطى، وكذلك إلى سطح الجلد.. بل وإلى الهواء الخارجي.. ولقد أظهرت الدراسات العديدة أن هذه الميكروبات هي السبب المباشر للعديد من الأمراض... وأنه ما إن يتم تنظيف الأنف وتطهيره حتى يختفي كثير من الأمراض وتقل حدتها.

وقد أودع الله سبحانه وتعالى في أنف الإنسان خطوطا دفاعية قوية، وتحصينات متينة تقاوم الميكروب وتدفع أضراره فنجد عند مدخل الأنف شعرا كثيفا يعزل هذه الميكروبات من الهواء الداخل للتنفس، ومادة دهنية يفرزها الجلد تقاوم تجمع هذه الميكروبات، ومادة مخاطية تقتل العديد من الجراثيم، ولكن كل هذه الدفاعات لا تستطيع أن تتعامل مع الملايين من البكتيريا الضارة التي تظهر في الأنف يوميا وتتجدد وتتكاثر طول النهار.

1 - من بحوث المؤتمر الإسلامي الدولي للإعجاز الطبي في القرآن الكريم والسنة المطهرة نشرته مجلة الإرشاد اليمنية في عددها الصادر في أكتوبر، نوفمبر، سنة 1985م.

2 - الكروية والسبحية والعصوية وغير ذلك من أجناس البكتيريا.

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية
ولذلك يكون الأنف في حاجة إلى وسيلة صحية مناسبة لتنظيفه وتطهيره ودفع أضرار الجراثيم
عنه ويعرف الأطباء كثيرا من الوسائل الصحية الوقائية لتجنب تلوث الأنف بالميكروبات، وبعض هذه
الوسائل عملية إيجابية، وتشمل الغسيل المتكرر لها أو تنظيفها بالمواد الطبية المطهرة أو تناول المضادات
الحوية مع خطورتها على المدى الطويل.

وهناك وسائل أخرى مثل وضع قناع من القماش على الأنف حتى لا تنتقل العدوى أو ما شابه
ذلك من وسائل، إلا أنه باستعراض هذه الوسائل جميعها تبين أن غسل الأنف المتكرر خمس مرات في
اليوم أثناء الوضوء هو أبسطها وأسهلها ومن هذه الوسيلة خطر على بال مجموعة من أطباء كلية طب
جامعة الإسكندرية دراسة فكرة الوضوء التي يقوم بها المسلمون قبل كل صلاة، والتي تبدأ بغسل اليدين
ثم المضمضة ثم استنشاق الماء في الأنف واستنثاره ثلاث مرات إلى آخر أركان الوضوء، والبحث عما
وراء الوضوء من قيم علمية وفوائد صحية فكان أن بدعوا دراسة بحثية⁽¹⁾ بحثية عميقة استغرقت عامين
على عدد كبير من المسلمين المنتظمين في الصلاة، والذين يتوضؤون خمس مرات في اليوم وذلك للكشف
عن أهمية هذه الفريضة الدينية.

ومن هذا المنطلق الديني بدأ علماء جامعة الإسكندرية البحث بالكشف الطبي الدقيق على المئات
من المواطنين الأصحاء الذين لا يتوضؤون ومن ثم لا يصلون، ثم أخذت منهم مسحة طبية من داخل
الأنف لعمل مزرعة ميكروبية لفحص ما يظهر داخل الأنف من ميكروبات.

ثم أخذ عدد مساو لهم من المنتظمين في الوضوء والصلاة وفحصت أنوفهم، وأخذ منها مسحات
طبية لعمل المزرعة والفحص والتحليل، وتكرر هذا العمل يوميا ولشهور طويلة، وعلى أعداد كبيرة من
كلا الجنسين، ومن جميع الأعمار وتجمعت لدى الأطباء الباحثين نتائج كثيرة، وبيانات عديدة قاموا
بتحليلها ودراستها، فظهرت أمامهم حقائق مذهلة قاموا بتسجيلها بالأرقام والصور والمستندات،
ونشرت في الأوساط العلمية داخل وخارج جمهورية مصر وكان لها رد فعل علمي كبير.

فقد ظهر الأنف عند من لا يتوضؤون باهت اللون، دهني الملمس، يعلو مدخله بعض الأتربة
والقشور، كما وجدت فتحة الأنف لزجة السطح عامقة اللون يتساقط منها الشعر وظهر الشعر السميك
الذي يحمي تجويف الأنف متلاصقا متربا تعلقه بعض القشور الخفيفة.

1 - هذه الدراسة غير سابقتها التي ذكرها الدكتور مصطفى شحاتة في بحثه الذي قدمه للمؤتمر الإسلامي الذي أشرنا إليه سابقا، وقد أوردناها
على سبيل بيان الإعجاز العلمي في الوضوء فهي دراسة قامت بها جامعة الإسكندرية من خلال مجموعة كبيرة من علمائها، وقد أشارت إلى ذلك
جريدة الأمة الإسلامية في عددها الصادر في غرة ربيع الأول سنة 1406هـ، نوفمبر، سنة 1985م (بتصرف).

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية
أما عند المنتظمين في الوضوء فقد كانت هذه الصورة مختلفة تماماً فظهر سطح الأنف لامعا نظيف
الملمس يخلو من القشور والأترية، ويظهر شعره نظيفا أملس خاليا من المتعلقات والإفرازات.
وهذه جزئية من الوضوء كوسيلة للنظافة لا يكتفي الإسلام بها بل يأمر بالغسل أي الاستحمام في
كل مناسبة، حتى لقد أحصى علماء الفقه الأسباب الداعية للاستحمام في الإسلام؛ بأنها سبعة موجبة
وستة عشر مستحبة أي؛ ألما ثلاثة وعشرون سببا ويكفي أن نذكرها هنا أن أول خطوة للدخول في
الإسلام هي الغسل أي الاستحمام حتى قبل شهادة أن لا إله إلا الله⁽¹⁾.

كما أثبت العلماء في عصر العلم الحالي أن سقوط الضوء على رذاذ الماء يولد شحنات
كهرومغناطسية تسبب الاسترخاء العضلي ومن ثم تزيل الآلام العضلية الناتجة من الشد العضلي، وكذلك
تسبب استرخاء نفسيا أيضا ونتيجة لذلك يزول ما يكون في نفس الإنسان من غضب وما يكون في بدنه
من ألم⁽²⁾.

ونجد ذلك في الحديث النبوي الشريف، فقد روى الإمام أحمد أن رجلا دخل على عروة بن
محمد فكلمه بكلام أغضبه، فقام ثم عاد وقد توشأ فلما سئل عن ذلك قال: حدثني أبي عن جدي أن
رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار، وإنما
تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ"⁽³⁾.

من ذلك تتجلى لنا عظمة الإسلام في حرصه على النظافة التي هي السبيل الأول لاتقاء من كثير
من الأمراض وكأنه يطبق النظرية العلمية "الوقاية خير من العلاج" التي جاء بها البحث العلمي في القرن
العشرين.

الوضوء والوقاية من بعض أمراض السرطان قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ
الْمُتَطَهِّرِينَ﴾⁽⁴⁾.

أثبت العلم الحديث أن الوضوء يقلل من حدوث الأورام السرطانية التي تسببها المواد الكيماوية؛
لأن الوضوء يكفل إزالتها قبل أن تتراكم بكميات تمكنها من النفاذ والتسرب من الجلد إلى داخل الجسم

1 - الطب الوقائي في الإسلام: أحمد شوقي الفنجري. <http://daralansar.com/qalamdetails.asp?id=68>

2 - المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي: أحمد شوقي، ص 234، ط01، دار الفكر العربي، القاهرة، 1423هـ، 2002م.

3 - رواه أحمد في مسنده، ج04، ص226، وضعه محمد ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، مجلد 02، ص 51،

ط05، مكتبة المعارف، الرياض، 1412هـ-1992م.

4 - سورة البقرة، الآية 222.

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية
فعلى سبيل المثال، العاملون في صناعة البترول والكيماويات، يكون أكثر عرضة للإصابة بسرطان الجلد
والوقاية منه تكون بإزالة تراكم الكيماويات من فوق سطح الجلد ولا سيما الأجزاء الظاهرة من جسم
الإنسان والتي تتعرض للتلوث.

من هنا تظهر حكمة الوضوء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا
فَاطَّهَّرُوا﴾⁽¹⁾.

فالوضوء خمس مرات في اليوم يكفل إزالة الكيماويات من فوق سطح الجلد ويمنع من تراكمها
مما يقلل من تأثير هذه المواد على خلايا الجلد، الذي يؤدي على المدى الطويل إلى حدوث تغيرات
سرطانية⁽²⁾.

كما ثبت أن تأثير أشعة الشمس، ولاسيما الأشعة فوق البنفسجية في إحداث سرطان الجلد، لا
يصيب إلا الأماكن الظاهرة المعرضة لهذه الأشعة، ومن هنا كانت فائدة الوضوء وتكراره الذي يكفل
ترطيب سطح الجلد بالماء وخاصة الجزء المعرض للأشعة، مما يتيح لخلايا الطبقة الداخلية للجلد أن تحتمي
من الآثار الضارة للتعرض لأشعة الشمس.

هذا وتدلل الإحصائيات على أن سرطان الجلد هو أكثر أنواع السرطان شيوعاً بين الرجال في
المجتمع الغربي والولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا في حين لا يشيع ذلك في البلاد التي تدين بالإسلام،
برغم قوة الأشعة الشمسية فيها⁽³⁾.

وهذا ما يؤكد فضل الوضوء كسلاح يحتمي به المسلم من موبقات هذا المرض الخطير وغيره من
الأمراض، يقول أحد الخبراء في مجال الطب الوقائي: "إن الجلد يؤدي للجسم وظيفة هامة جداً، وهي
إفراز العرق الذي يحتوي على مواد دهنية وأملاح، فإذا تبخر الماء بقيت الأملاح وتراكمت على الجلد
وانسدت مسام الغدد العرقية، مما يسبب عدم أداء عملية العرق كما يجب، ووجود القذارة على الجلد مما
يؤدي إلى أمراض جلدية، ولذا كانت أهمية الوضوء من غسل الوجه واليدين عدة مرات في اليوم، ونظافة
الفم وغير ذلك من الأعضاء الظاهرة للجسم والمعرضة للأتربة"⁽⁴⁾.

1 - سورة المائدة: الآية 06.

2 - الإعجاز العلمي في الإسلام (القرآن الكريم): محمد كامل عبد الصمد، ص 293، ط06، الدار المصرية اللبنانية، 2004م.

3 - الإسلام والوقاية من بعض أمراض السرطان: حلمي حبيب الخولي (المجلة العربية، يناير، سنة 1985م، بتصرف).

4 - الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، ص 294.

يضاف إلى ذلك ما كشف عنه الطب الحديث من أن للوضوء آثار طبية في الوقاية من أمراض الأسنان واللثة، فنظافة الفم والمضمضة والغرغرة بالماء أهم ما يوصي به الأطباء لتجنب العدوى من الأمراض التي تنتشر عن طريق الجهاز التنفسي كالالتهاب السحائي وأمراض الشعب التنفسية.. من ذلك تتحلى لنا عظمة الإسلام في حرصه على فريضة الوضوء الذي هو تحضير للصلاة التي هي عماد الدين، لذلك ما أن يدخل الإنسان الصلاة حتى يكون هادئ الأعصاب مستريح النفس.

2- الصلاة (الطب الوقائي في الصلاة).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾⁽²⁾.

قال تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾⁽³⁾.

قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾⁽⁴⁾.

من أهم ما ينصح به علم الصحة الوقائية، التمرينات الرياضية التي أصبحت تمارس بشكل منتظم لمدى أهميتها في بناء الجسم السليم الذي لا بد منه لوجود العقل السليم وإن في أداء الصلاة خمس مرات كل يوم خير وسيلة لجني فوائد التمرينات الرياضية؛ لأن أوقاتها هي أنسب الأوقات التي يوصى فيها بأداء التمارين فتكون قبل شروق الشمس حيث الجو النقي المنعش الذي يعث الحيوية في الجسم. وفي الظهر حيث يحل بالجسم تعب العمل، وتطلب إعادة توازن القوى الحيوية فيه وفي العصر حيث قارب يوم العمل على الانتهاء وتطلب الأمر إعادة النشاط في الجسم وفي الغروب حيث يبدأ الإنسان الاستعداد لنشاط جديد في المساء وفي العشاء حيث يتطلب الجسم شيئاً من الحيوية بعد يوم حافل بالعمل والكد، فهذه هي أنسب الأوقات التي لا بد منها للنمرء لتعويض جسمه ما فقد من حيوية وقد قرر العلماء أن حركات الصلاة من قيام وقعود وسجود عدة مرات في كل يوم خير وسيلة لتنشيط الدورة الدموية التي تنشط بدورها كافة الأجهزة الحيوية في الجسم وقد ثبت علمياً أن الركوع والقيام والسجود يقوي عضلات الظهر والمعدة.. ويزيل ما قد يتكون على جدران المعدة من دهون وشحوم.

1 - سورة النساء: الآية 103.

2 - سورة طه: الآية 132..

3 - سورة إبراهيم: الآية 31.

4 - سورة البقرة: الآية 238.

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية

أما السجود فإنه يقوي عضلات الفخذيين والساقين، ويساعد على وصول الدم إلى أطراف الجسم، كما أنه يقوي جدار المعدة، وينبه حركات الأمعاء، وأن السجود يعتبر وقاية من أعراض مرض تمدد المعدة بما يسببه من تقلص عضلاتها وتحريك الحجاب الحاجز.

من هنا تعتبر الصلاة أفضل رياضة بدنية يستفيد منها الجسم إذ أنها تحرك الأطراف التي تصل حركتها إلى كافة العضلات والمفاصل والعظام.

ولا تقتصر فوائد الصلاة العضوية على ذلك فقد أثبت الطب الحديث أن الصلاة تعمل على خفض الدم العالي وأن مرضى الضغط العالي لو حافظوا على أداء الصلاة وأقاموها على مهل وتؤدة لأفادت فائدة محققة⁽¹⁾، وقرر العلماء أن أداء الصلاة قبل الأكل يعتبر عاملاً هاماً في وقاية الإنسان من أمراض المعدة لاسيما قرحة المعدة.

إذ ينصحون دائماً كل إنسان بالأكل يتناول طعامه وهو مجهد أو مرهق أو نائراً الأعصاب بل لا بد من فترة هدوء وراحة تسبق الطعام، كما ثبت علمياً أن للصلاة تأثيراً مباشراً على الجهاز العصبي؛ إذ أنها تزيل توتره وتهدئ من ثورته وتشفيه من اضطرابه كما تعتبر علاجاً ناجحاً للأرق الناتج عن الإضطراب العصبي.

يقول الدكتور توماس هايسلوب: "إن من أهم مقومات النوم التي عرفتها في خلال سنين طويلة من الخبرة والتجريب، الصلاة.. وأنا ألقى هذا القول بوصفي طبيباً فإن الصلاة هي أهم وسيلة عرفت إلى الآن لبث الطمأنينة في النفوس، وبث الهدوء في الأعصاب"⁽²⁾.

ويقول الدكتور "أدوين فردريك"⁽³⁾ أستاذ الأمراض العصبية بالولايات المتحدة الأمريكية: "...هناك ألوف الحالات التي لم يجد فيها أشهر الأطباء وأكثرهم فطنة أدنى بارقة أمل، ومع ذلك تم

1 - الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، ص 296.

2 - قيمة هذا القول أنه من شخص غير مسلم لا يقرر ذلك عن عقيدة فيها محاباة وإنما من منطلق علمي بحث .

http://www.khayma.com/ashab/taab_alabadat_malafat/alsslaa-fwuaed.htm

3 - الدكتور أدوين فردريك (أستاذ الأمراض العصبية بالولايات المتحدة الأمريكية 1801-1850.

<http://www.animesclub.com/vb/showthread.php?p=35123&mode=linear>

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية
شفاؤها واستعادتها لصحتها من خلال معجزة تسمى الصلاة"، أما الدكتور "أليكسيس كاريل"⁽¹⁾ الحائز
على جائزة نوبل في الطب ورئيس قسم البحوث في مؤسسة روكفلر بأمريكا فيقول عن الصلاة: "إنها
تحدث بعض النشاط في أجهزة الجسم وأعضائه بل هي أعظم مولد للنشاط عرف إلى يومنا هذا وقد
رأيت -بوصفي طبيبا- كثيرا من المرضى أخفقت العقاقير في علاجهم، فلما رفع الطب يديه عجزا
وتسليما تدخلت الصلاة فأبرأهم من علةهم.. إن الصلاة كمعدن الراديوم مصدر للإشعاع ومولد ذاتي
للنشاط فقد شاهدنا تأثير الصلاة في الحالات الباثولوجية؛ إذ برئ كثير من المرضى من أمراض مختلفة
متعددة كالتدرن البريتوني، والتهاب العظام والجروح المتقيحة والسرطان وغيره..".

وبعد هذه الآراء من علماء لا يعرفون محابة للدين الإسلامي وشعائره، هل يمكن لأحد أن يغالط
في قيمة الصلاة كإجراء وقائي وعلاجي من الأمراض؟!!

وقد ذهب بعض أساتذة الرياضة في مصر إلى أن الحركات المعروفة "بالسويدية" قد أسست على
مشاهدة الصلاة الإسلامية بما فيها من حركات رياضية ومن دقة في نظام أدائها، بالقيام ثم بالانتقال منه
إلى الركوع، ثم في الرفع من الركوع والاستواء بعده للانتقال إلى السجود، وفي الرفع من السجود
وإعادة السجود ثانية، ثم في الاستواء وتكرار ذلك في الركعة الأولى والثانية ثم الجلوس للشهادة.. ثم في
إعادة الحركات ذاتها لإتمام الصلاة⁽²⁾.

ففي الإصطاف للصلاة يؤلف المصلون خطوطا متوازية متساوية مستقبلين القبلة، فيقف المصلي
منتصب القائمة، وبين قدميه مسافة أربع أصابع -أو مقدار شبر- وهما متوازيان وقد قرر الخبراء أن

1 - <http://www.abdelaziz-benabdallah.org/tassaouf.htmlhgmsds>

, chirurgieDocteur en médecine de la faculté de Lyon, il s'orienta dès l'internat vers la recherche en
sur la compatibilité des tissus et les sutures. Catholique militant, il défendit la thèse d'un miracle
et rencontra l'hostilité des milieux laïques. Il choisit alors de s'expatrier aux Lourdes survenu à
de 1901 à 1939, où il fut un chercheur renommé au sein de l'Université de Chicago et de États-Unis
de physiologie et de médecine en prix Nobel (1908-1939). Il obtint le Fondation Rockefeller la
. Il développa de tissus grâce à ses travaux sur la chirurgie thoracique et sur la culture de 1912
d'organes.transplantationnouvelles techniques de sutures vasculaires, et fut un pionnier de la

http://fr.wikipedia.org/wiki/Alexis_Carrel

2 - الحركات الرياضية: واصل الحلواني، <http://www.science4islam.com/index.aspx?act=da&cid=396>

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية

الوقوف مع إفراج ما بين القدمين يساعد على حفظ التوازن حين التزول إلى السجود والنهوض منه وإنه يقوي الأعصاب فضلا عن ذلك⁽¹⁾.

من ذلك كله يتبين لنا أن الصلاة رياضة جسدية بما يقوم به المصلي من حركات تشمل كافة أجزاء الجسم، فتبعث فيه النشاط والحركة وتمنع عنه الخمول وتزيل عنه التعب فضلا عن أنها رياضة روحية يتجه فيها المرء بروحه إلى خالقه ويستجديه ويسترضيه.

والصلاة من أساليب العلاج النفسي المسلكي في الطب الحديث، ما يسمى بالعلاج بالاسترخاء النفسي والعضلي، وما يسمى بتقليل الحساسية الانفعالية.

والعلاج بالاسترخاء العضلي والنفسي يتعلمه الإنسان بالتدريب سواء تحت إشراف طبيب نفسي، أو يتعلمه الإنسان ويمارسه بنفسه، وهو أن يسترخي عضليا تماما ولا يفكر في أي شيء لمدة ربع ساعة عدة مرات في اليوم.

وهذه الجلسات تريح الإنسان بدنا ونفسا، أما الأسلوب المسلكي الآخر وهو ما يسمى بتقليل الحساسية الانفعالية، وهذا الأسلوب من العلاج يتدرب عليه الإنسان تحت إشراف طبيب نفسي، فيذكره الطبيب بالمواقف التي تثير غضبه فيثور حينئذ يأمره الطبيب بأن ينساها تماما ويعاود الاسترخاء النفسي والعضلي وراحة البال، ثم يعود الطبيب فيذكره بالمواقف التي تثيره فيثور ولكن إلى درجة أقل من ثورته الأولى فيأمره الطبيب بالاسترخاء العضلي والنفسي ويكرر ذلك مرات عديدة في جلسات كثيرة، حتى إذا ما تذكر الإنسان المواقف التي تثيره فلا يغضب لها ولا ينفعل، ويسمى هذا النوع من العلاج النفسي (العلاج الاسترخائي أو العلاج بتقليل الحساسية الانفعالية) أو الكف المتبادل ولاشك أن الصلاة بجميع أساليب العلاج النفسي المسلكي جميعا فيكون فيها الشفاء للإنسان المصلي⁽²⁾.

إن الإنسان يقف في الصلاة في خضوع وخشوع وتسليم بين يدي الله عز وجل وينصرف عن كل شيء في الدنيا ولا يفكر في شيء إلا في الله تعالى ووحدانيته ورحمته وإذا وقف وقف طويلا وإذا ركع ركع طويلا كذلك وإذا سجد أطل في السجود وكل عضلات جسمه في استرخاء وكل ما في نفسه منصرف لخالقه عز وجل.

ويقول علماء النفس: إن الصلاة أهم شيء في حياة الإنسان يبيث الطمأنينة في نفسه والهدوء في أعصابه والاسترخاء في عضلات جسمه، وكل هذه من أساليب العلاج النفسي المسلكي المستعملة في

1 - معجزات في الطب للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم -، محمد سعيد السيوطي، عن الإعجاز العلمي في الإسلام، محمد كامل عبد الصمد، ص 297.

2 - المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي: أحمد شوقي إبراهيم، ص 234.

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية
الطب النفسي الحديث، وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يشير إلى بلال ليؤذن الصلاة
ويقول: "أرحنا بها يا بلال" وفي السنة المشرفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حز به أمر
فزع إلى الصلاة أي أسرع إلى الصلاة.

وفي العلاج بالاسترخاء العضلي وتقليل الحساسية الانفعالية يتكرر اقتران حالة الاسترخاء العضلي
والاطمئنان النفسي بالمواقف المثيرة للقلق، إما بمواجهتها في الحياة أو بتذكرها.. كل ذلك يؤدي إلى
تكوين ارتباطات شرطية بين تلك المواقف المتضادة فيحدث ما يسمى (الانطفاء) التدريجي للقلق
والانفعال النفسي وتقليل حساسية الإنسان الانفعالية لما كان يثيره من مواقف من قبل.

ويُخذ هذا النوع من العلاج يمارس بالصلاة في المسجد خمس مرات في اليوم فيكون الإنسان في
حياته اليومية حيث الضغوط النفسية والأحداث المثيرة للغضب والانفعال ثم يتوضأ ويدخل المسجد
فيزول كل ما به من إثارة وانفعال أو غضب وهذا هو نفس الأسلوب الذي على أساسه يعالج الأطباء
النفسيون مرضاهم من حالات القلق والتوتر والانفعال⁽¹⁾.

ولصلاة الجماعة في المسجد أثر علاجي نفسي عظيم لأسباب كثيرة منها ما يلي:

أولاً: روح الاندماج في المجتمع الذي يعيش الإنسان فيه وذلك بروح الحب والألفة.

ثانياً: تنمية حب الغير في النفس وعدم الاستعلاء عليهم وإزالة كل أثر للكراهية للغير.

ثالثاً: إزالة شعور الوحدة والعزلة الذي يشكو منه الكثير من المرضى النفسيين.

فالصلاة شفاء نفسي وقائي وعلاجي لذلك أمر الله تعالى الناس بالاستعانة بالصبر والصلاة في

قول الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾⁽²⁾.

وروى الإمام ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "قم

فصل فإن في الصلاة شفاء"⁽³⁾. وهذا كله ما قرره العلم الحديث بعد أربعة عشر قرناً.

3- قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁽⁴⁾.

أثبتت الدراسات الطبية التي قام بها كبار العلماء من كل جنس ودين أن أخطر ما يصيب الإنسان

في حياته هو إسرافه في طعامه، وأنه مهما حدد واختصر في كمياتها فإنها تزيد عن حاجته يقينا، الأمر

الذي لا بد أن يصيب الإنسان بالمرض بداية من إرهاق أجهزة الهضم، إلى زيادة الجهود على القلب

1 - المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي: أحمد شوقي إبراهيم، ص 235.

2 - سورة البقرة: الآية 153.

3 - المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي: أحمد شوقي إبراهيم، ص 235.

4 - سورة البقرة: الآية 184.

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية
والشرايين وارتفاع ضغط الدم، والإصابة بالبؤرات الصديدية، ثم زيادة الوزن التي يصاحبها مرض
السكر.

وأنة لا سبيل إلى الوقاية من هذه الأمراض وعلاجها إلا بمنع أسبابها وفرض الجوع المؤقت على
الجسم بحيث تتحرك الأجهزة الداخلية نحو استهلاك الخلايا الضعيفة لمواجهة الجوع، ثم يعود الجسم ليبنى
بعد ذلك الخلايا السليمة القوية.

فليس غريبا أن الدراسات العلمية في الغرب والشرق أصبحت تؤكد وبشكل قاطع أن الصوم
وقاية وعلاج من أخطر أمراض العصر، فضلا عن أنه يجدد الأنسجة ويؤدي إلى تآكل المواد الضارة
الزائدة عن حاجة الجسم⁽¹⁾.

كما أن الصيام فرصة للمعدة والأمعاء أن تظل خالية من أي طعام.. وبهذا تهدأ حركات
وإفرازات المعدة والأمعاء، ويمكن أن تكون هذه هي الفرصة الملائمة التي تشفى فيها القروح والجروح
بالأغشية المخاطية، وأبضا يتوقف الامتصاص من الأمعاء فلا يصل إلى الكبد أحماض أمينية أو جلوكوز
أو أملاح.

وعلى هذا فإن الخلايا الكبدية لا تستطيع أن تقوم بتكوين مركبات جليكوجين أو بروتينات، أو
كولسترول لعدم وصول مكونات هذه المركبات.. وذلك نتيجة لخلو الأمعاء من أي طعام وبالتالي توقف
الامتصاص⁽²⁾.

كذلك يتيح الصيام الفرصة للخلايا الكبدية للتخلص مما قد يكون قد ترسب في داخلها من
دهنيات.

وثبت أيضا أن: الصيام يفيد في علاج مرض السكر، حيث تبين أن معدل السكر في الدم
ينخفض أثناء الصيام، وفي أمريكا تمخضت الأبحاث العلمية عن قدرة الصوم على الوقاية ومعالجة المرء من
مرض السكر.

وفي ألمانيا أقيمت دور للصحة والعلاج تتبع في معالجتها للمرضى وحتى الأصحاء على السواء،
الصوم الذي تفرضه على النزير لفترة تزيد على عشر ساعات، وتقل عن العشرين ساعة يوميا، ثم
بتناول الوجبات الخفيفة جدا، ويطبق هذا النظام لمدة متتابة ومتوالية لا تقل عن ثلاثة أسابيع، ولا تزيد
عن أربعة أي بما يتمشى تماما مع نظام الصوم الإسلامي⁽³⁾.

1 - الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، ص 298.

2 - الطب الإسلامي: محمود نجيب، عن الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، ص 299.

3 - علم وبيان من آيات القرآن: عبد الرزاق نوفل (مجلة الوعي الإسلامي في عددها الصادر) يونيو، 1984.

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية

وروسيا التي لا تعترف بالديانات السماوية وتهاجم الإسلام وتعاليمه ومنها الصوم تعترف أخيرا بما للصوم من فوائد صحية للإنسان فنشرت مجلة الأغذية الروسية ما ترجم حرفيا:
"وأخيرا يحق التذكرة بكتاب البروفيسور نيكولايف ونيلوف "الجوع من أجل الصحة" والذي حزم فيه بأنه لكي يتمتع كل مواطن في المدن الكبرى بالصحة يجب عليه تخليص الجسم من النفايات والمواد السامة بأن يقوم وبصفة دورية بجوع تام بالامتناع عن الطعام لمدة لا تقل عن ثلاثة أسابيع ولا تزيد عن أربعة"⁽¹⁾.

ولعل أشهر مصحة في العالم -الآن- هي مصحة الدكتور هنريج لاهمان في سكسونيا حيث يقوم العلاج فيها بالصوم.. وقد أنشئت مصحات أخرى على غرارها⁽²⁾.
وأساس العلاج في هذه المصحات هو التخلص من الفضلات الزائدة عن حاجة الجسم التي ترهق الأعضاء على اختلافها وإتاحة الفرصة للأعضاء الهاضمة المرهقة من الأطعمة بأن تستريح قليلا ويكون ذلك غالبا فيه الشفاء من اضطراب الهضم والبدانة وأمراض القلب وغيره.

ويقرر الطب الحديث أن الصيام يفيد الأمراض الجلدية حيث إن الامتناع عن الغذاء والشراب مدة ما تقلل من الماء في الجسم والدم، وهذا بدوره يدعو إلى قلته في الجلد، حينئذ تزداد مقاومة الجلد للأمراض المعدية والميكروبية حيث إن قلة الماء في الجلد تقلل من حدة الأمراض الجلدية الالتهابية الحادة والمنتشرة بمساحات كبيرة في الجسم.

ولذا فقد تبين أن أفضل علاج لهذه الحالات هو الامتناع عن الطعام والشراب لفترة ما، ولا يسمح إلا بالقليل من السوائل البسيطة، كما أن الطب الحديث يؤكد أن الصوم فيه وقاية كثير من الأمراض فنقص المواد الدهنية بالصيام يؤدي إلى نقص مادة الكوليسترول، وهي مادة تترسب على جدار الشرايين وتسبب تصلبها، كما تسبب تجلط الدم في شرايين القلب والمخ، وهكذا فإن الصيام يفيد القلب من هذه الزاوية كما يفيد من زاوية أخرى حين التخلص من السممة فهبوط كمية الدهن والشحم الموجودة حول القلب يجعله يعمل بنشاط أكثر.

وثبت علميا أن الصيام له قدرة عجيبة في إزالة أورام صغيرة في أول تكونها ويمنع تكوين الحصوات والرواسب الجيرية؛ إذ يجللها أولا فأولا وفي ذلك يقول الدكتور "روبرت بارتولو": "لاشك

1 - مجلة الأغذية الروسية، ص 19، العدد الأول، الصادر من موسكو، سنة 1976.

2 - الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، ص 299.

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية
في أن الصوم من الوسائل الفعالة في التخلص من الميكروبات وبينها ميكروب الزهري؛ لما يتضمنه من
إتلاف للخلايا ثم إعادة بنائها من جديد". ويذهب الدكتور بيلر شرنبر إلى أن "الصوم لشهر في السنة هو
أساس الحياة وأساس الشباب، هذا فضلا عن الفوائد النفسية التي تقي المرء من كثير من الأمراض
العضوية.. فالصوم خير في مجموعه"⁽¹⁾. وهكذا بينت الآية لفظ "الخير" عاما لا يمكن لأي باحث علمي
أن يحيط بقدره ومقدار حجمه وحدوده..

وثبت لدى علماء النفس⁽²⁾. أن للصيام أثرا شفائيا للنفس البشرية، فإذا كان الصوم يحرم الجسم
من الطعام والشراب فإنه يغذي النفس والروح ويقويهما ويزكيهما، كما أن للصوم دعم إيجابي للنفس
البشرية يقبها الرغبة في إشباع شهوات الجسم في غير ما حلل الله عز وجل كما يطهر النفس من كل ما
فيها من سوء؛ لذلك يمنع صوم الإنسان من الانزلاق إلى ارتكاب المعاصي، والصوم يدرّب النفس على
السيطرة على رغبات غرائزه، مما ينعكس على سلوكه العام في الحياة، بوازع من ضميره دون رقابة أحد
عليه إلا الله عز وجل، ومن هنا كان الإعجاز العلمي في الصيام وآياته والذي كشفت عنه البحوث
والدراسات العلمية الآن..

القادر للعلوم الإسلامية

1 - علم وبيان من آيات القرآن: عبد الرزاق نوفل، مجلة الوعي الإسلامي في عدتها الصادر، يونيو، 1984م.
2 - المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي: أحمد شوقي إبراهيم، ص 236-237.

الإعجاز العلمي في بعض آيات التشابهات

نبدأ بأمثلة تحققت في عصر النهضة من بعض نماذج هذا الإعجاز، ثم نتدرج تاريخياً حتى عصرنا الحالي ثم نستعرض بعض ما قد يظهر من إعجاز قرآني في المستقبل. - أعلن العالم الفرنسي برنارد باليسي⁽¹⁾ عام 1580م أول تصور علمي صحيح لدورة الماء في الطبيعة رغم الخرافات التي كانت سائدة عن هذا الموضوع مؤكداً أهمية الشمس في تبخير مياه البحار والمحيطات كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا، وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾⁽²⁾.

ودورة الرياح في نزول الأمطار كما في قوله:

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾⁽³⁾.

ودورة الأمطار في تكوين المياه الجوفية تماماً كما في قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾⁽⁴⁾.

2- أعلن كير نيكوس⁽⁵⁾ عام 1543م وأيده جاليليو⁽⁶⁾ ونيوتن⁽⁷⁾، أن الأرض ليست ساكنة ولكنها تدور حول نفسها بسرعة تم قياسها حديثاً وفقدتها 1000 ميل/ ساعة عند خط الاستواء كما أشار القرآن الكريم في قوله تعالى:

1 - BERNARD PALISSY. L'HOMME Agen 1510; paris, 1582 ou 1590.

Issu d'une famille modeste, il fut, tour; potier; emailleur; peintre, verrier, ecrivain et savant francais, il appartient a l'ecole francaise de la renaissance : ([http://fr.wiki.pedia.Org/w/index.Php?title=special:cite&page=bernard palissy & i d = 5726605](http://fr.wiki.pedia.Org/w/index.Php?title=special:cite&page=bernard%20palissy&i.d=5726605)).

2 - سورة النبا: الآيات 13-14، ينظر القرآن الكريم والتوراة والإنجيل العلم: موريس بوكاي، ص 206-207.

3 - سورة الحجر: الآية 22.

4 - سورة الزمر: الآية 21.

5 - Nicolas Copernic (de son nom latin *Nicolaus Copernikus*), fut à la fois chanoine, médecin et un astronome polonais d'une origine allemande, né le 19 février 1473 à Torun, mort le 24 mai 1543 à Frombork.

http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Special:Cite&page=Nicolas_Copernic&id=5890223

6- Galilée ou Galileo Galilei (né à Pise le 15 février 1564 et décédé à Florence le 8 janvier 1642) est un physicien et astronome italien, célèbre pour avoir jeté les fondements des sciences mécaniques ainsi que pour sa défense opiniâtre de la conception copernicienne de l'univers.

http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Special:Cite&page=Galileo_Galilei&id=5899650

7 - Isaac Newton (4 janvier 1643, au manoir de Woolsthorpe à Grantham - 31 mars 1727, Kensington) est un philosophe, mathématicien, physicien et astronome anglais.

http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Special:Cite&page=Isaac_Newton&id=5747875

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية

﴿يَكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ (1).

وتدور الأرض حول الشمس بسرعة 67000 ميل/ ساعة، كما ثبت ذلك علمياً في القرن العشرين ولقد أشار القرآن الكريم إلى حركة الأرض في قوله تعالى:

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ (2).

3- ثبت علمياً 1917م أن الشمس ومعها كواكبها تدور حول مركز مجرة سكة التبانة بسرعة 497000 ميل/ ساعة أي أن الشمس لها فلك خاص بها علاوة على فلك الأرض (الليل والنهار) حول الشمس وفلك القمر حول الأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (3).

كما ثبت حديثاً أن الشمس تجري في الفضاء الكوني بسرعة 43000 ميل/ ساعة نحو نجم فيجاء، لمستقر لها كما في قوله تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (4).

4- أعلن اللورد هاتون (5) 1800م أن الحاضر مفتاح للماضي في علم الجيولوجيا؛ لأن البحث عن الحفريات في الصخور في قشرة الأرض تحت القارات والمحيطات سيؤدي إلى التعرف على توزيع العصور الجيولوجية وبداية الخلق كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (6).

5- تم حديثاً تعيين التركيب الداخلي لباطن الأرض عن طريق دراسة الزلازل التي كشفت عن وجود الحديد في باطن الأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (7).

ووجود جذور للجبال التي ثبت أنها تغوص في قشرة الأرض إلى أعماق أكبر من ارتفاع الجبل وكأنها أوتاد تثبت القشرة الأرضية من الانزلاق كما في قوله تعالى:

- 1 - سورة الزمر: الآية 05، ينظر من روائع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: عاطف المليحي، ص 85-88، ط 04، 2004م.
- 2 - سورة النمل: الآية 88، وينظر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: زكريا هميمي، ص 46-47، ط 01، مكتبة مدبولي، 2002م.
- 3 - سورة الأنبياء: الآية 33، ينظر من روائع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: عاطف المليحي، ص 77-78.
- 4 - سورة الواقعة: الأيتان 75-76، وينظر من روائع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: عاطف المليحي، ص 73، وينظر القرآن وإعجازه العلمي: محمد إسماعيل إبراهيم، ص 62.

5 - مبدأ الجيولوجي هاتون الذي قرر في القرن الثاني عشر أن :

"الحاضر مفتاح الماضي". لأن البحث في صخور الأرض يمكننا من عمل نتيجة زمنية تبين مقياس الحقب الجيولوجية القديمة، وحصل هاتون على لقب لورد لإعلانه هذا المبدأ العلمي الذي أشارت إليه آية العنكبوت 20، قبل نشأة الجيولوجيا بأكثر من ألف عام.

<http://www.ya3mri.com/a3jaaz/a67.htm>

- 6 - سورة العنكبوت: الآية 20، ينظر المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم: عبد العليم عبد الرحمان خضر، ص 309-310، ط 01، السعودية، جدة، 1404هـ-1984م.

7 - سورة الحديد: الآية 25، ينظر من روائع الإعجاز العلمي: عاطف المليحي، ص 94.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾⁽¹⁾

6- أشار القرآن الكريم إلى أول انتصار علمي في القرن العشرين بانقسام الذرة إلى ما هو أصغر منها كما في قوله تعالى ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾⁽²⁾.

7- تم حديثا إثبات أن البرق ينشأ من التفريغ الكهربائي بين السحاب الركامي (المرتفع كالجبال) نتيجة الكهربائية المتولدة بواسطة البرد كما في قوله تعالى: ﴿وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَآ بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾⁽³⁾.

8- تنبأ القرآن باحتمال وجودنا في السماء كما تم ذلك فعلا في رحلاتنا إلى القمر واستكشاف الفضاء منذ عام 1962 وحتى الآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾⁽⁴⁾.

9- تم حديثا التعرف على تركيب الغلاف الجوي وانعدام الأكسجين تقريبا على ارتفاع 30 كم من سطح الأرض بما يؤدي لضيق الصدر والحناق والهيبوكسيا كما في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرْحًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾⁽⁵⁾.

10- كما تحقق لرواد الفضاء بعد عام 1960م رؤية ظلام الفضاء الكوني بسواد حالك لانعدام التشتت الضوئي عند هذا الارتفاع فصاعدا كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾⁽⁶⁾.

1 - سورة النبأ: الآيتان 6-7، ينظر من روائع الإعجاز العلمي: عاطف المليجي، ص 97، وينظر القرآن وإعجازه العلمي: محمد إسماعيل إبراهيم، ص 65، وينظر المفهوم العلمي للجبال في القرآن: زغلول النجار، ص 38، ط07، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 1425هـ-2004.

2 - سورة سبأ: الآية 03، ينظر الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، ص 356.

3 - سورة النور: الآية 43، ينظر القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم: موريس بوكاي، ص 216.

4 - العنكبوت: الآية 22، ينظر من روائع الإعجاز العلمي: عاطف المليجي، ص 135-137، وينظر القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم: موريس بوكاي، ص 200.

5 - سورة الأنعام: الآية 125، ينظر من آيات الإعجاز العلمي في القرآن: زغلول النجار، ص 75، تقدم أحمد فراج، ط09، مكتبة الشروق، القاهرة، 1426هـ-2005م.

6 - سورة الحجر: الآيتان 14-15، ينظر من روائع الإعجاز العلمي: عاطف المليجي، ص 61-68، وينظر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: زكريا هيمي، ص 69.

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية

وتنبأ القرآن بركوب الإنسان مركبات تمثل بيوتاً فضائية معدنية تعرج به في السماء كما في قوله تعالى :
﴿لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾⁽¹⁾.

وهذه البيوت تعددت أبوابها (طرقها) حديثاً فتطورت إلى مكوك الفضاء متعدد الرحلات ويتوقع العلماء التغلب على انعدام الوزن في القرن القادم حتى يستطيع الرواد الاتكاء على السرر أي النوم من دون الربط بالأحزمة كما في قوله تعالى: ﴿وَلِيُوتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبُونَ﴾⁽²⁾.

وتنبأ القرآن بصناعة سفن الفضاء التي تشبه الفلك المشحون كما في وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾⁽³⁾.

11- كما تنبأ القرآن الكريم بكل وسائل المواصلات في المستقبل كما في عبارة (ويخلق ما لا تعلمون) في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽⁴⁾.

12- تنبأ القرآن الكريم بتكنولوجيا الاتصال عن بعد أي قذف الغيب المكاني بإرساله بالصوت والصورة (تقريباً من لا زمن) بسرعة الضوء في قوله تعالى: ﴿وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾⁽⁵⁾.

ويؤكد هذا المعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان وتطوى الأرض طياً". «نداء من السماء يعم أهل الأرض ويسمع كل ذي لغة لغته».

وهذه أحاديث تشير إلى سرعة الإرسال والإستقبال الراديوي والتلفزيوني الذي يطوى الأرض بسرعة الضوء وإلى نداء السماء بواسطة الأقمار الصناعية بلغاتها المختلفة بنفس السرعة العظمى⁽⁶⁾.

13- تمت عدة رحلات للمركبات الفضائية التي تحمل البشر طبقاً عن طبق أي مركبة بعد مركبة للوصول إلى القمر كما تحقق ذلك فعلاً كأعظم انتصار تكنولوجي في القرن العشرين في رحلات أبوللو (أرقام من 11 إلى 17) عام (1969-1972) كما في قوله تعالى ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا آتَسَقَ، لَتَرْمِكُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ، فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ﴾⁽⁷⁾.

1 - سورة الزخرف: الآية 33.

2 - سورة الزخرف: الآية 34.

3 - سورة يس: الآيتان 41-42.

4 - سورة النحل: الآية 08، وينظر الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، ص 355، وينظر الكون والإعجاز العلمي في القرآن: منصور حسب النبي، ص 244، ط03، دار الفكر العربي، القاهرة، 1996م.

5 - سورة سبأ: الآية 53.

6 - الآيات الكونية في ضوء العلم الحديث: منصور محمد حسب النبي، ص 90، دار المعارف، 2003م.

7 - سورة الإنشقاق: الآيتان 18-21.

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية

14- لقد توصل العلم حديثا إلى إثبات قرآني لأهم حقيقة كونية لنسبية أينشتين⁽¹⁾ التي تنص على أن سرعة الضوء في الفراغ وقدرها 299792.5 كم/ ثانية هي الثابت المطلق الوحيد في الكون وتمثل الحد الأقصى للسرعة الكونية كما في المعادلة القرآنية التالية والتفسير الجديد لقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾⁽²⁾.

وقوله تعالى مؤكدا هذه الحقيقة ومشيرا إلى نسبية الزمن.

﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾⁽³⁾.

15- بدأ ظهور التلوث البيئي على مستوى الكرة الأرضية كما في قوله تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾⁽⁴⁾.

16- ويشير القرآن الكريم إلى تطور الجنين في رحم الأم مؤكدا ما وصل إليه العلم الحديث في علم الأجنة كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾⁽⁵⁾.

وهناك أمثلة طبية عديدة لا يتسع المجال لذكرها

17- ويشير القرآن الكريم إلى دورة الحياة والموت التي تتم عمليا بواسطة التمثيل الضوئي للشجر الأخضر في الدنيا لإثبات البعث في الآخرة كما في قوله تعالى:

﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾⁽⁶⁾.

1 - Albert Einstein (14 mars 1879 à Ulm, Allemagne - 18 avril 1955 à Princeton, New Jersey, États-Unis) physicien allemand, puis apatride (1896), suisse (1899), et enfin suisse-américain (1940). http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Special:Cite&page=Albert_Einstein&id=5889471

2 - سورة السجدة: الآية 05، ينظر الآيات الكونية في ضوء العلم الحديث: منصور حسب النبي، ص 90، وينظر معجزات الخلق والخالق: رجب البناء، ص 134، دار المعارف، 2001م.

3 - سورة الحج: الآية 47، وينظر الكون والإعجاز العلمي في القرآن: فصل المعجزة القرآنية في حساب السرعة الضوئية: منصور حسب النبي، ص 389.

4 - سورة الروم: الآية 41، ينظر أسرار الكون في القرآن: داود سليمان السعدي، ص 284، ط02، دار الحرف العربي، بيروت، 1420هـ-1999م

5 - سورة المؤمنون: الآية 14، ينظر القرآن والعلم الحديث: عبد الرزاق نوفل، ص 130، دار الكتاب العربي، بيروت، وينظر العلوم المعاصرة في خدمة الداعية الإسلامي: محمد جميل الحبال، ص 41، ط01، دار المنهاج القوم، دمشق، 1427هـ-2006م.

6 - سورة يس: الآيات 78-80، ينظر الإسلام في عصر العلم: أحمد الغمراوي، ص 343، 350، تقدم عبد الحليم محمود، ط04، دار الإنسان، القاهرة، 1411هـ-1991م.

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية

كما يعطينا الله سبحانه مثالا يصف الناس يوم القيامة في عالم الغيب بالفراش المبتوث الذي يتطور أمام أعيننا في عالم الشهادة من دودة إلى شرنقة إلى فراشة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾⁽¹⁾.

فالدودة تمثل الدنيا بمرورها والشرنقة تمثل القبور بسكونها والفراشة تمثل البعث بانطلاقها من قبرها.

18- يشير القرآن الكريم إلى ظاهرة تمدد (توسع) الكون التي تم قياسها حديثا بالإزاحة الحمراء للمجرات كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾⁽²⁾.

الإشارات القرآنية للقضايا الكونية المستقبلية:

هناك إشارات كثيرة لم يتعرف عليها العلم بعد أذكر منها ما يلي:

1- بداية الكون بانفجار عظيم ونهايته بانسحاق عظيم:

يشير القرآن الكريم إلى الانفجار العظيم أو ما يسمى البيج بانج وتوسع الكون لحظة بداية من الزمن والخلق كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾⁽³⁾.

ويشير إلى توقف هذا التمدد مستقبلا ثم الإنكماش الكوني وحدث الإنسحاق العظيم عند نهاية الزمن يوم القيامة كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾⁽⁵⁾.

والعلماء مازالوا يبحثون في موضوع نشأة الكون بالبينج بانج BIG BANG وتوسع الكون EXPANDING UNIVERSE ثم انكماشه مستقبلا وانسحاقه أخيرا يوم القيامة فيما يسمى علميا BIG GRUNSH وهذا دخل العلم حديثا في الأمور الغيبية التي تنبأ بها القرآن الكريم.

2- خلق الكون من العدم:

ما زال البحث جاريا عن نظرية الخلق من العدم، ويشير القرآن الكريم إلى قدرة الله على ذلك بمخاطبة الشيء قبل وجوده كما في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ

1 - سورة القارعة: الآية 04.

2 - سورة الناريات: الآية 47، ينظر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: سعيد صلاح الفيومي، ص 11-12، ط01، مكتبة الفليس، القاهرة، 1425هـ، 2004م، وينظر القرآن الكريم، والثورة والإنجيل والعلم: موريس بوكاي، ص 199، وينظر الكون والإعجاز العلمي في القرآن: منصور حسب النوي، ص 308.

3 - سورة الأنبياء: الآية 30، ينظر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: صلاح الفيومي، ص 06-07.

4 - سورة الأنبياء: الآية 104، ينظر الكون والإعجاز العلمي في القرآن: منصور حسب النوي، ص 341.

5 - سورة الفجر: الآية 21.

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ⁽¹⁾.

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم في وصف بداية الكون مؤيدا الخلق من العدم: "كان الله ولم يكن شيء غيره"⁽²⁾.

3- عمر الكون:

يفصل القرآن الكريم مراحل الخلق بوصف الأيام الستة (كمراحل ست بخلاف ما نعهده من أيام) كمراحل زمنية متساوية عددها ستة لخلق السموات والأرض وما بينهما مع إعطاء العمر الجيولوجي للأرض بما يعادل يومين أي ما يعادل ثلث الأيام الستة كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ، ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ⁽³⁾﴾.

وبهذا يكون عمر الكون حسب تفسير العلماء لهذه الآيات

= العمر الجيولوجي المقاس حاليا للأرض منذ تصلبت القشرة وحتى الآن x 03

= 4.6 مليار سنة x 03 = 13.8 مليار سنة ... والله أعلم

والأمر ما زال مطروحا للبحث العلمي الذي يقدر هذا العمر الكلي للكون في المدى من 13-15 مليار سنة منذ الانفجار العظيم حتى الآن.

4- المبدأ الإنساني:

أعلن ستيفن هوكنج⁽⁴⁾ عالم الفيزياء المشهور حديثا المبدأ الإنساني الذي ينص على أن الإنسان هو الهدف والغاية النهائية لنشأة الكون وتطوره بالدليل العلمي الذي يؤكد تسخير الكون كله (بالقصد الإلهي وليس بالصدفة) لقدم الإنسان وهيئة الظروف الطبيعية اللازمة لحياة بقدرته الله سبحانه كما في

1 - سورة البقرة: الآية 117، ينظر الكون والإعجاز العلمي في القرآن: منصور حسب النبي، ص 332.

2 - ينظر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: صلاح الفيومي، ص 07-09.

3 - سورة فصلت: الآيات 9-12، ينظر القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم: موريس بوكاي، ص 165، وينظر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: زكريا هيمي، ص 53-54.

4 - ولد ستيفن هوكنج (Stephen Hawking) في أكسفورد في المملكة المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية وكان والده يعيشان في لندن، غير أن اتفاقا كان قد أبرم بين ألمانيا النازية وبريطانيا حول عدم قصف أكسفورد وكيمبردج، ولهذا السبب ذهبت والدته إلى أكسفورد لتضعه في أمان. وعاش طفولته أثناء وبعد الحرب في إحدى ضواحي لندن، حيث كان يقيم العلماء والأكاديميون الإنجليز. وكانت المدرسة التي درس فيها تتبنى منهاجا تعليميا خاصا منحصر عنه أن ستيفن لم يتعلم القراءة قبل الثامنة من العمر.

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية
قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ﴾ (1).

5- توحيد قوى الطبيعة:

يلهث العلماء حاليا وراء توحيد القوى الفيزيائية الكونية المتعددة في نظرية التوحيد الكبرى
(Grand unified theory Gut) وهذا يتمشى مع وحدانية الخالق وقوله تعالى: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا﴾ (2).

6- الهندسة الوراثية:

أشار القرآن الكريم إلى تطبيقات الهندسة الوراثية وحذر من استغلالها طبقا لوساوس الشيطان لتغيير
خلق الله كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأْمُرْتَهُمْ فَلْيَتَكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَأْمُرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ
الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ (3).

7- تعدد الأرضين:

يؤكد القرآن الكريم تعدد الأرضين بأن لكل سماء أرضها وأنا لسنا وحدنا في الكون كما في
قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (4). علاوة على تكرار لفظ العالمين (بالجمع) في
القرآن الكريم عدة مرات كما في قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (5)، وأن الحياة منتشرة في
الكون طبقا للتماثل وللتشابه السائد نظرا لوحداية الخالق، ويؤكد القرآن الكريم أن هناك حياة مماثلة في
أرضين أخرى وأن الله قادر على الجمع، بين هذه المخلوقات بإحداث لقاء بين دواب هذا الأرضين كما
في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ
قَدِيرٌ﴾ (6).

- 1 - سورة الجاثية: الآية 13، وينظر الآيات الكونية في ضوء العلم الحديث: منصور حسب النبي، ص 93، وينظر علم الإيمان: عبد المجيد الزنداني، ص 291، دار المنابع، الجزائر، 2002م، وينظر الكون والإعجاز العلمي في القرآن: منصور حسب النبي، ص 326.
- 2 - سورة البقرة: الآية 165، ينظر الآيات الكونية في ضوء العلم الحديث: منصور حسب النبي، ص 94.
- 3 - سورة النساء: الآية 119.
- 4 - سورة الطلاق: الآية 12، ينظر العلوم في القرآن (منهاج تربوي للدراسة والتطبيق): محمد جميل الحبال ومقعد الجوارى، ص 57-59، ط01، دار النفائس، بيروت، 1998م.
- 5 - سورة الفاتحة: الآية 02، ينظر المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم: سعد الدين السيد صالح، ص 208، ط02، دار المعارف، القاهرة، 1993.
- 6 - سورة الشورى: الآية 29، ينظر من روائع الإعجاز العلمي في القرآن: عاطف المليحي، ص 138-141.

وبهذا فإن هناك كائنات تدب وتتحرك في السماء وهذه الكائنات عاقلة وذكية وعابدة وليس قاصرة على الملائكة بدليل التمييز بينها في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾⁽¹⁾.

وقد يعترض أحد على حرف (ما) الذي يستخدم في اللغة لما لا يعقل كالذباب ولكننا نجد آيات أخرى في القرآن وقد استبدلت (ما) ب (من) التي تشير إلى الجماعة العاقلة بصفة أساسية كما في قوله تعالى:

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾⁽²⁾.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لُحْيَةٍ قَاتُونَ﴾⁽³⁾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾⁽⁴⁾.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾⁽⁵⁾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالذُّبَابُ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾⁽⁶⁾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾⁽⁷⁾.

وحيث أن الكلام أو اللغة هو الحد الفاصل بين العاقل وغير العاقل فقد وردت آية كريمة تلفت النظر إلى أن الله عليم بما يتحدث به أهل السماء وأهل الأرض وهو خبير بما يقوله هؤلاء وهؤلاء "قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"⁽⁸⁾.

كما أن أهل السماء محتاجون إلى الله تماما كأهل الأرض وذلك بصفة مستديمة ومتغيرة حسب طلباتهم، فالمخلوق يسأل الله الصحة عند المرض والغنى عند الفقر والقوة عند الضعف والمغفرة عند الندم

1 - سورة النحل: الآية 49.

2 - سورة الإسراء: الآية 55.

3 - سورة الروم: الآية 26.

4 - سورة الرعد: الآية 15.

5 - سورة الإسراء: الآية 44.

6 - سورة الحج: الآية 18.

7 - سورة النور: الآية 41.

8 - سورة الأنبياء: الآية 04.

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية

والعفو عند التوبة وغير ذلك من حاجات الكائنات العاقلة في مختلف شؤونهم التي تتغير كل يوم كما تشير الآية الكريمة ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾⁽¹⁾.

وقد يقصد القرآن بآية الشورى حدوث الالتقاء أثناء الحياة الدنيا أو في الآخرة ولكن هناك آيات أخرى خاصة بالالتقاء يوم القيامة حيث سيحشر أهل السماوات والأرض عبيدا لله سبحانه وتعالى الذي استطاع بقدرته وعظمته إحصاء عددهم الوفير في أرجاء الكون كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾⁽²⁾.

وهكذا يقرر القرآن في نصوص صريحة وآيات بليغة واضحة أن السماء تفيض بالحياة وتردحم بالكائنات العاقلة ليؤكد لنا منذ أربع عشر قرنا حقيقة علمية كونية هامة.

والعلم الحديث ما زال وسيظل يبحث عن الحياة، أي يبحث عن الماء في الكواكب الأخرى وعن وسيلة اللقاء بين مخلوقات هذه العوالم، وسوف تظهر هذه المعجزة القرآنية إن شاء الله في المستقبل، ومهما يكشف العلم إنما يحقق معجزة علمية للقرآن الكريم تتجدد بها الحجة وتزداد الأدلة بما دليلا على أن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى.

8- أخطار النفاذ من أقطار الأرض:

نحن ما زلنا في أقطار الأرض حتى بعد الوصول إلى القمر أما إذا سافرنا مستقبلا إلى المريخ فإن هذا سيكون نفاذا من أقطار الأرض كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ، فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾⁽³⁾.

والآية الأخيرة تحذر من كوارث فضائية قد تحدث في المستقبل ولا بد من اتخاذ الاحتياطات عند غمام النفاذ من أقطار الأرض، أما النفاذ من أقطار السموات فهو للجن فقط (أو لمعراج النبي صلى الله عليه وسلم) كما يبدو بين سياق الآية وأصول بلاغة القرآن الكريم.

9- توقع اصطدام مذنب بكوكب الأرض في المستقبل:

يتوقع الخبراء اصطدام مذنب بجزء من كوكب الأرض في القرن القادم في عام 2126 والله أعلم. ويشير القرآن الكريم إلى مثل هذا الحدث في كارثة الدخان المستقبلية بقوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ

1 - سورة الرحمن: الآية 29.

2 - سورة مريم: الآيات 93-94.

3 - سورة الرحمن: الآيات 30-35.

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية

تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ، أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْلُ نَحْنُونَ، إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ، يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ⁽¹⁾.

10- انشقاق القمر في المستقبل:

أشار الفلكي الأمريكي جون براندت⁽²⁾ أن القمر في طريقه للإنشقاق في المستقبل وهذه الظاهرة مذكورة في القرآن الكريم كإحدى علامات اقتراب الساعة كما في قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ⁽³⁾﴾.

11- شيخوخة الشمس وتحولها إلى عملاق أحمر قبل الوفاة:

يتحدث العلم الآن عن شيخوخة الشمس ووفاتها في المستقبل عند تحولها إلى عملاق أحمر يتكور أي بانتفاخ سطحها تدريجياً فتبلغ كواكبها التي تتحول على الترتيب إلى غازات وأبخرة وعندئذ يصبح لون السماء أحمر ووردياً ودرجة الحرارة فوق رؤوسنا حوالي 3000 درجة مئوية وتبتلع الشمس القمر الذي سيختفي بدوره ويتبخر في هذه الحالة في غلاف العملاق الذي سيقرب من الأرض فتشتعل البحار لتحلل ماءها بالحرارة إلى أيديروجين يشتعل وأكسجين يساعد على الإشتعال. وكل هذه التوقعات العلمية واردة نصاً بالقرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ⁽⁴⁾﴾. ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ⁽⁵⁾﴾.

أي تصبح السماء وردية اللون أي حمراء كالزيت المغلي إشارة للعملاق الأحمر كما يتضح ابتلاع الشمس للقمر في هذه المرحلة أيضاً في الآية التالية:

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ، كَلَّا لَا وَزَرَ، إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ⁽⁶⁾﴾.

1 - سورة الدخان: الآيات 10-16، ينظر المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم: سعد الدين السيد صالح، ص 198.

2 - جون براندت، ستيفن ماران " أفاق جديدة في علم الملك " 1979 مترجم بعنوان (أفاق جديدة في علم الفلك). جون براندت وستيفان ماران، مكتبة الوعي العربي (ص 421)، القاهرة 1972م.

http://www.55a.net/firas/arabic/index.php?page=show_det&id=720&select_page=17

3 - سورة القمر: الآية 01، ينظر الآيات الكونية في ضوء العلم الحديث: منصور حسب النبي، ص 96.

4 - سورة التكويد: الآية 01.

5 - سورة الرحمن: الآية 37.

6 - سورة القيامة: الآيات 7-12.

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية

وتسخين مياه البحار من هول حرارة العملاق المقرب من سطح الأرض مما يؤدي إلى اشتعال (تسجير) البحار كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾⁽¹⁾ ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾⁽²⁾. وهنا أمر حتمي لارتفاع الحرارة عند سطح الأرض في مرحلة العملاق إلى أكثر من 3000⁰م الأمر الذي يؤدي إلى تحليل المياه إلى أيديروجين يشتعل وأكسجين يساعد على الاشتعال وذلك في فرقة كبرى تفجر البحار.

12- علم الميتافيزيقا⁽³⁾:

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾⁽⁴⁾. وقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾⁽⁵⁾.

وقال: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾⁽⁶⁾.

قررت الدراسات العلمية التجريبية العميقة أنها لم تتوصل إلى اكتشاف الروح وأن العلماء قد اجتهدوا وتبحروا في العلم وأكثروا من التأمل والتفكير في الكون فعجزوا عن أن يقطعوا برأي حاسم في حقيقة الروح أو التعرف على أي شيء من ماهيتها.

هذا بالرغم من أن نتائج البحوث التي تتناول أسرار الخلايا والمخلوقات مثلا تبدو كحصىلة هائلة ولكن الراسخين في العلوم يقولون: "وبرغم ذلك الطوفان الدافع من البحوث فإنه ليس إلا بمثابة قطرة في بحر من بحور المعرفة وقد اختلف العلماء في معنى الروح الإنسانية وكيفية تعلقها بالبدن وبسريانها فيه أو في تجردها عنه وأشهر الآراء في ذلك قولان:

أولهما: أنها ليست جسما ولا عرضا بل هي جوهر مجرد قائم بنفسه، وليس حالا في بدن الإنسان ولا متعلق به تعلقا يسهل زواله.

ثانيهما: أنها جسم نوراني سرى في الأعضاء سريان الماء في النبات والنار في الفحم لا يتبدل ولا يتحلل وهو جسم معنوي. إلا أن العلماء برغم ذلك لم يستطيعوا أن يحلوا لغز الروح ويكشفوا عن سرها

1 - سورة التكويد: الآية 06.

2 - سورة الانفطار: الآية 03.

3 - يبحث هذا العلم -الذي يسمى بعلم ما وراء الطبيعة- فيما وراء هذه الحياة من أسرار وما يشاهد الإنسان من غرائب كالإحساس بما سيقع وقراءة الأفكار.

4 - سورة الإسراء: الآية 85.

5 - سورة ص: الآيات 71-72.

6 - سورة القدر: الآية 04.

الفصل الثاني نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية
فحاموا حولها وأكثروا من التأمل والتفكير في أمرها ولكنهم لم يصلوا إلى شيء يكشف عن جوهرها..
ولم يجدوا خيرا مما قاله في القرآن الكريم ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾⁽¹⁾.
وهنا تتجلى لنا عظمة الإعجاز العلمي وتحديه لجميع البحوث والدراسات العلمية.

ولا يتسع المجال لذكر كل نماذج الإعجاز؛ لأن هذا الموضوع ذكر بالتفصيل في كتب أخرى
ولكننا نريد أن نؤكد أن إسلامية العلم والمعرفة بديل حضاري عالمي وتجديد للفكر الإسلامي لتصحيح
آثار الفكر الغربي، ومشروع هام لازم لكل البشرية كمنهج ثقافي حضاري يجمع بين العلم والدين،
يؤكد لنا صدق القرآن وصدق نبوة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- وعالمية رسالة الإسلام كما
في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾⁽²⁾.

وقوله سبحانه مخاطبا رسول الله للناس جميعا أي النبي محمدا صلى الله عليه وسلم لتأكيد هذه الحقيقة:
﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾⁽³⁾.
وقوله سبحانه مشيرا إلى خلود القرآن لكل العالمين وتجدد إعجازه لكل زمان:
﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾⁽⁴⁾.

نستنتج مما سبق أن هذا الوجه من أوجه الإعجاز القرآني قد تجلّى من خلال إشارات قرآنية تلمح
إلى حقائق علمية كثيرة دون أن تناولها بالتفصيل من جميع جوانبها.
هذه الحقائق تم الكشف عنها مؤخرا لتصبح شاهدا على أن القرآن الكريم هو وحي من الله وهو
الرسالة الخاتمة للبشرية جمعاء.

وهذا بيان الإعجاز بالسبق وذلك في إشارة بنصوص القرآن إلى حقائق علمية ثبتت في العصر
الحديث أو ما زال العلم يلهث وراء إثباتها.

1 - الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، ص 348.

2 - سورة آل عمران: الآية 19.

3 - سورة الأعراف: الآية 158.

4 - سورة ص: الآية 88، ينظر الآيات الكونية في ضوء العلم الحديث: منصور حسب النبي، ص 97.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية

الإعجاز اللغوي والعلمي في بعض آيات المحكمات:

إن اكتشاف الحقائق العلمية، ورؤية حمل القرآن الكريم لها جيلا بعد جيل هو تبيان تصاعدي نحو الشهادة على أن القرآن الكريم حق من عند الله تعالى ومن ثم ترى الأجيال اللاحقة من هذه الحقائق ومن حمل القرآن الكريم لها ما لا تراه الأجيال السابقة.

إن هناك من المناظير والأعماق والرؤى التي يمكن من خلالها رؤية حقائق أخرى يحملها القرآن الكريم الكثير الكثير ومن ثم هناك الكثير الكثير من الحقائق التي يحملها القرآن الكريم بين سطوره ولكننا لا نراها؛ لأننا لا نبحث عن مفاتيح هذه العلوم والحقائق التي يحملها القرآن الكريم، فكون القرآن الكريم يحمل تبياننا لكل شيء لا بد لرؤية كل تبيان من الدخول إلى القرآن الكريم من الباب الخاص بهذا التبيان⁽¹⁾.

إن الجزم بأنه لا يمكن فهم الأحكام والتشريعات الإسلامية أكثر مما فهمها الأوائل مقولة صحيحة فقط بالنسبة للأحكام المتعلقة بالمسائل الثابتة التي بينها الرسول صلى الله عليه وسلم والمجردة عن تعلقها التاريخي كأحكام الصلاة والزكاة و... وهذه المقولة غير صحيحة إطلاقا بالنسبة لمسألة تفسير القرآن الكريم وتدبير آياته.

إن استمرارية الالتزام بمنهج الإسلام من جيل لجيل، تقتضي أن يعي الجيل اللاحق حقيقة تفسير القرآن الكريم⁽²⁾، وعيا أكثر عمقا مما سبقه من أجيال؛ لأن بين يديه كل ما قاله السابقون، في الوقت الذي لا يعلم فيه السابقون الإكتشافات المستجدة بين يدي هذا الجيل، هذه الحقيقة تبينها لنا الآية القرآنية التالية: ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾⁽³⁾.

حتى نكون سائرين في منهج الله تعالى سيرا سليما، علينا أولا فهم ما يريد الله تعالى فهما سليما، ومن ثم العمل وفق ما فهمناه عملا صادقا خالصا لله تعالى حين ذلك نستطيع القول بأننا سائرون في صراط الله تعالى.

1- الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 16.

2- والتفسير في الاصطلاح هو بيان كلام الله تعالى، أو هو المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها، أو أنه علم يبحث عن مراد الله تعالى في كتابه بقدر الطاقة البشرية، ينظر تفسير آيات الأحكام: الشيخ محمد علي السابيس، ج 01، ص 05، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة الأزهرية للتراث.

3- سورة فصلت: الآية 53.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية وهكذا فالخطوة الأولى نحو الحق هي فهم مراد الله (الحق)، وتأتي الخطوة الثانية تطبيقاً عملياً لهذا المراد⁽¹⁾.

فكون القرآن الكريم قول الله تعالى ومن ثم صياغة لغوية من الله تعالى يقتضي أن تحمل هذه الصياغة لكل جيل من المعاني والحكم والعبير والأدلة والبراهين ما يناسب علم وحضارة هذا الجيل، دون أن يناقض ذلك الأدلة والمعاني التي تحملها الصياغة ذاتها للأجيال السابق واللاحقة لهذا الجيل. فالقرآن الكريم بكل ما يحمله من صور صالح لكل زمان ومكان، ولا يمكن تأطير أي عبارة قرآنية في إطار محدد من الزمان والمكان⁽²⁾. ولنقف عند النص القرآني التالي:

1- قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا، حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَالَاتُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنْ أَلَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾⁽³⁾.

آيات المحارم

أولاً: عند المفسرين:

عذبة الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب، وما يتبعه من الرضاع والمحارم بالصهر⁽⁴⁾. فالآية القرآنية تنص على تحريم الزواج من الأمهات والبنات والأخوات والعمات والحالات وبنات الإخوة وبنات الأخوات هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فهي تنص أيضاً على تحريم الزواج من الأم التي أرضعتك وليس أمك التي ولدتك ومن الأخت التي رضعت معك من ثدي نفس المرأة. والمقصود بالرضاع هنا هو التغذية بلبن الأم في فترة الطفولة ومن ناحية ثانية فهناك عدد من المحرمات في الزواج لأسباب اجتماعية، وهي في بقية الآية القرآنية.

ومعنى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ تحريم نكاحهن لقوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ولأن تحريم نكاحهن هو الذي يفهم من تحريمهن، كما يفهم من تحريم الخمر تحريم شربها، ومن تحريم لحم الخنزير تحريم أكله.

1- الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ص 17.

2- المرجع نفسه: ص 21.

3- سورة النساء: الآيات 22-23.

4- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير ج 1، ص 703.

وقرئ " وَبَنَاتُ الْأَخْتِ " بتخفيف الهمزة.

وقد نزل الله الرضاعة منزلة النسب، حتى سمي المرضعة أما للرضيع، والمراضعة أختا وكذلك زوج المرضعة أبوه، وأبواه جداه، وأخته عمته، وكل ولد ولد له من غير المرضعة قبل الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه.

وأم المرضعة جدته وأختها حالته، وكل من ولد لها من هذا الزوج فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه، ومن ولد لها من غيره فهم إخوته وأخواته لأمه، ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب"⁽¹⁾.

وهو حكم كلي جار على عمومته⁽²⁾ وقالوا: تحريم الرضاع كتحريم النسب إلا في مسألتين:

إحدهما: أنه لا يجوز للرجل أن يتزوج أخت ابنه من النسب ويجوز أن يتزوج أخت ابنه من الرضاع، لأن المانع في النسب وطؤه أمها، وهذا المعنى غير موجود في الرضاع.

والثانية: لا يجوز أن يتزوج أم أخيه من النسب، ويجوز في الرضاع؛ لأن المانع في النسب وطء الأب إياها، وهذا المعنى غير موجود في الرضاع.

"من نسائكم" متعلق بربائبكم ومعناه أن الربيبة من المرأة الدخول بها محرمة على الرجل حلال له إذ لم يدخل بها.

فإن قلت: هل يصح أن يتعلق بقوله "وأمهات نسائكم"؟

قلت: لا يخلو إما أن يتعلق بهن وبالربائب، فتكون حرمتهم وحرمة الربائب غير مبهمتين جميعا، وإما أن يتعلق بهن دون الربائب، فتكون حرمتهم غير مبهمة وحرمة الربائب مبهمة فلا يجوز الأول، لأن معنى "من" مع أحد المتعلقين، خلاف معناه مع الآخر.

ألا تراك أنك إذا قلت: وأمّهات نسائكم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فقد جعلت "من" لبيان النساء، وتمييز المدخول بهن من غير المدخول بهن.

وإذا قلت وربائبكم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإنك جاعل "من" لابتداء الغاية كما تقول: بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم من خديجة⁽³⁾.

المعالجة العلمية:

منع زواج المحارم من النسب ومن الرضاع

1- متفق عليه من حديث عائشة وبن عباس، ينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: تفسير أبي السعود، ج 02، ص 117.

2- تفسير آيات الأحكام: الشيخ محمد علي السامس، ج 02، ص 66-75.

3- الكشاف: الزمخشري، ج 01، ص 484.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية

يتألف جسم الإنسان من ملايين الخلايا المتنوعة، لكنها عموماً تتركب شكلياً من قسمين هما: النواة والسيتوبلازم. والنواة هي مركز الخلية من حيث التحكم وإدارة الأعمال المختلفة، بل هي مخزن النسخة الأصلية للمعلومات الحيوية المتوارثة من الأجيال السابقة⁽¹⁾.

وتتألف النواة من خيوط رفيعة دقيقة، لا يمكن أن نراها بالمجهر (الميكروسكوب) إلا في مراحل انقسام الخلية، وهذه الخيوط تسمى (الصبغيات) (CHROMOSOMES)، وعليها تنتشر كميات محددة تسمى المورثات أي الجينات (GENES).

ومن الناحية الكيميائية فإن الصبغي يتكون من جزئ واحد طويل من الحامض النووي منقوص الأكسجين دنا (DEOXY RIBONUCLEIE ACID (DNA)، ويوجد في كل خلية من خلايا جسم الإنسان ما عدا الخلايا التناسلية (46) صبغياً مترتبة، في شكل أزواج متماثلة أي أن الخلية تحتوي نواتها 23 زوجاً من الصبغيات المتماثلة التي تظهر في خلايا جسم الإنسان نتيجة قدوم نصف هذا العدد من الأب وقدوم النصف الآخر من الأم، وفي هذه الأزواج الثلاثة والعشرين يوجد زوج واحد فقط هو الذي يلعب الدور الأعظم في تحديد جنس الوليد، لذلك يسمى الصبغي الشقي (صبغي الجنس) (CHROMOSOME SEX) وهذا الزوج متماثل في الخلية الأنثوية وهو من النوع السيني (X)، أي يكون زوج الأنثى هو (XX)، أما الخلية الذكرية فيكون زوجها هو (XY) ويعني هذا أن شقا من هذا الزوج يوصف بأنه X والشق الآخر يوصف بأنه Y وهو أصغر حجماً من الشق السيني المرافق له⁽²⁾.

والخلايا التناسلية في الأنثى هي البويضات (OVA) وتسمى نطفة الأنثى، وفي الذكر هي الحيوانات المنوية أي الحيمنات (SPERMATOZOA) وتسمى نطفة الذكر، وتحتوي البويضة في نواتها 23 فرداً (أو شقاً) صبغياً تسمى "صبغيات" «CHROMATIDS» وكلها من النوع Y.

أما حيمنات الذكر فتحتوي أنويتها 23 شقاً أيضاً، ولكن بعض الحيمنات تكون صبغياتها كلها من النوع X، والبعض الآخر تحتوي أنويته صبغيات تتميز بوجود 22 منها من النوع X والفرد الثالث والعشرون من النوع Y.

كيف تتوارث الأجيال صفاتها؟⁽³⁾.

1 - ينظر القرآن والعلم الحديث: عبد الرزاق نوفل، ص 112، وما بعدها.

2 - الإشارات العلمية في القرآن الكريم: كارم السيد غنيم، ص 334، ط 1 دار الفكر العربي، القاهرة، 1415 هـ-1995 م، وينظر الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، ص 199، وينظر الإعجاز العلمي في القرآن: حسن حطيط، ص 28-29، ط 01، دار الهلال، بيروت، 2005 م.

3 - الإشارات العلمية في القرآن الكريم: كارم السيد غنيم، ص 335.

يكتسب الإنسان صفاته عن طريقين هما الآباء والأجداد، وكذلك البيئة المحيطة به، أي أن مصدر الصفات التي تظهر في الشخص أحدهما وراثي والآخر بيئي.

وكل صفة وراثية (طبيعية مثل لون العين أو لون الجلد ومكونات الدم ولون الشعر، أو مرضية كبعض الأمراض والعيوب الوراثية) تتكون لدى الشخص بأثنين من المورثات إحداهما آتية من الأب، والأخرى آتية من الأم.

فإذا كانت المورثتان متشابهتين فإن صفات الطفل الناتج تصبح مماثلة لصفات الأب والأم معا. أما إذا اختلفت المورثتان، فإن إحداهما تسود على الأخرى، ومن ثم تظهر على الطفل صفة المورثة السائدة (أو المسيطرة DOMINANT) بينما تختفي صفة المورثة المغلوبة (أو المتنحية RECESSIVE) رغم وجود هذه المورثة (GENE) في التركيب الوراثي (GENETIC MAKEUP) للطفل، وهذا يعني أن الطفل يحمل المورثة المتنحية رغم عدم ظهور الصفة المسئولة عن ظهورها⁽¹⁾.

ولنأخذ لون العين في الإنسان مثالا يوضح ما أوردناه، ففي الإنسان تتغلب المورثة المسئولة عن اللون البني على المورثة المسئولة عن اللون الأزرق، يعني أن مورثة اللون البني سائدة ومورثة اللون الأزرق متنحية، فإذا التقى زوج لون عيون أزرق وتوجد في كيانه الوراثي مورثتي اللون الأزرق مع زوجة لون عيونها بني، وتوجد في كيانها الوراثي مورثتي اللون البني، فإن الطفل الناتج يتميز بعيون لونها بني؛ أي لو كان الحيمن يحتوي مورثة اللون الأزرق والبويضة تحتوي مورثة اللون البني، فإن الجنين يظهر بعيون بنية اللون رغم احتوائه لمورثة اللون الأزرق المقهورة السجينة.

وإذا تزوج الأبناء والبنات الذين يحملون أزواج المورثات اللونية، بحيث يكون أحد الشقين في كل زوج مسؤولا عن اللون البني، والشق الآخر مسؤولا عن اللون الأزرق فإن الحيمن في هذا الجيل قد يحمل مورثة اللون البني وقد يحمل مورثة اللون الأزرق.

وهكذا الحال بالنسبة لبويضة الأنثى وتتلخص احتمالات لون العيون في الجيل الثاني كما يلي:

- 1- حيمن به مورثة البني × بويضة بها مورثة البني ← جنين بعيون بنية
- 2- حيمن به مورثة البني × بويضة بها مورثة الأزرق ← جنين بعيون بنية
- 3- حيمن به مورثة الأزرق × بويضة بها مورثة البني ← جنين بعيون بنية
- 4- حيمن به مورثة الأزرق × بويضة بها مورثة الأزرق ← جنين بعيون زرقاء⁽²⁾

1 - ينظر العلوم المعاصرة في خدمة الداعية الإسلامي: محمد جميل الحبال، ص 61-62.

2- العلامة × تعني التقاء الحيمن (الحيوان المنوي) من الذكر بالبويضة من الأنثى. والعلامة ← تعني إنتاج.

معنى هذا أن إنتاج الأطفال بعيون زرق يكون في هذا الجيل بنسبة الربع فقط

ويوضح هذا المثال كيف أن هناك صفات (طبيعية أو مرضية) يختفي وجودها في جيل رغم أن أفراده يحملون المورثات المسببة لها، لكنها في حالة كامنة أو سجينة، فإذا ما اجتمعت هذه المورثة المتنحية مع مورثة شبيهة في جيل ما، فإن هذه الصفة المختفية تظهر⁽¹⁾.

أهم الأمراض والعاهات المنقولة وراثيا:

هناك أمراض وعاهات تنتقل إلى الأجيال وراثيا ويكون المسؤول عن ظهورها هو اجتماع المورثتين المتنحيتين في شخص، وقد يكون المسؤول عن ظهورها هو وجود مورثة واحدة لكنها سائدة أي مسيطرة، مع العلم أن كلا من المورثتين (السائدة والمتنحية) مريضتان.

أ- أهم الأمراض التي تظهر باجتماع المورثتين المتنحيتين: من هذه الأمراض توجد الاضطرابات النفسية سواء البسيطة أو الشديدة، وكذلك ضمور الجهاز العصبي، ومن التشوهات توجد الشفة الأرنبية وشق الحلق وانسداد المرئ أو المعدة أو الأمعاء، ومن العيوب الوظيفية يوجد الفشل في هضم أو تمثيل المواد السكرية الموجودة في اللبن مما يؤدي إلى حدوث الإسهال المزمن، وكذلك توجد تشوهات الرئتين والاضطرابات الوظيفية في الغدد الصم كالغدة الدرقية (THYROID GLAND) فيؤدي هذا إلى تأخر نمو الجسم والمخ، والغدة فوق الكلوية (ADRENAL GLAND)، فيؤدي هذا إلى احتلال توازن السوائل والأملاح في الجسم أو احتلال المبيض والخصية، ومن التشوهات أيضا ما يحدث للأيدي والأرجل وكذلك للقلب... وعلى الرغم من احتواء أجسامها لمورثات مشوهة (أو شريرة) يتراوح عددها ما بين 8.4 فإنها تكون من النوع المتنحي، ولذلك تبدو أصحاء لعدم مقدرة مورثة واحدة على إحداث المرض فإذا اجتمعت المورثتان (واحدة من الأب والأخرى من الأم) فإن المرض يظهر.

ب- تظهر هذه الأمراض سواء أكانت هذه المورثة السائدة منفردة أو مجتمعة مع نظيراتها القادمة من أحد الأبوين، وهناك بعض الأمراض التي تظهر في الذكور دون الإناث سببها هو وجود المورثات السائدة منها مثلا سيولة الدم (HAEMOPHILIA) وعدو الشمس (ALBIMISM) وعوز الدم (ANEMIA) وتورث هذه الأمراض عن طريق الأم، وتظهر في الأبناء الذكور بنسبة 50% بينما الإناث لا يحملن أعراض المرض⁽²⁾.

ويذكر في هذا الصدد أن (القزامة) من الأمراض الوراثية التي تظهر لوجود المورثة السائدة في الطفل القزم، فإذا أراد قزم أن يتزوج من امرأة سوية أو أراد رجل سوى أن يتزوج من قزما، فإن نسبة

1 - الإشارات العلمية في القرآن الكريم: كارم السيد غنيم، ص 336.

2 - المصدر نفسه: ص 337، وينظر المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي: أحمد شوقي إبراهيم، ص 174-176.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية
ظهور أطفال أقرام هو 50% سواء كانوا ذكورا أم إناثا ويذكر أيضا أن نسبة $\frac{7}{8}$ من هؤلاء الأقرام
قد يولدون رغم أن آبائهم وأمهاتهم أسوياء، والسبب في ذلك هو ظهور صفة القزامة فجأة عن طريق
الطفرة (MUTATION).

زواج الأقارب والمجتمعات المتغلقة:

تنتشر في بعض العائلات أمراض معينة، فتجد عائلة ينتشر فيها مرض السكري، وأخرى مصابة
بموت أفرادها مبكرا، وثالثة يشيع مرض السرطان بين أفرادها، ورابعة ينتشر العمى أو البكم أو الصمم
بين أبنائها، وخامسة يلاحظ تعدد حالات الإجهاض في نساؤها... وهي أمراض وعاهات يفسرها
العلماء باجتماع المورثات المرضية المتنحية من الآباء مع مكملاتها (مورثات مرضية متنحية) من
الأمهات⁽¹⁾.

وتزداد نسبة اجتماع المورثات المرضية مع بعضها بازدياد حالات الزواج من القريبات وكذلك
بازدياد القرابة بين الزوجين... فالإخوة الأشقاء يشتركون مع بعضهم البعض في نصف عدد المورثات،
وكذلك يشترك كل منهم مع كل من أبويه في نصف عدد مورثاته ويشترك الطفل مع أعمامه أو عماته
أو خالاته في ربع عدد مورثاته، ومع أولاد العم أو العمة أو الخال في ثمن عدد المورثات وكلما بعد
الأفراد عن بعضهم في القرابة قل عدد المورثات المشتركة بين الزوجين.

وتبلغ معدلات وفاة الأطفال حديثي الولادة وصغار السن لزواج الأبعد نحو 09% وفي أطفال
زواج أبناء العمومة والخؤولة من الدرجة الثانية تصل نحو 11%.
وفي أطفال زواج أبناء العمومة والخؤولة من الدرجة الأولى تصل إلى نحو 15%⁽²⁾.

وعموما فإذا كان احتمال ولادة طفل مصاب بمرض وراثي نتيجة زواج أبناء العمومة أو الخؤولة
يبلغ 6-8% فإن احتمال ظهورها في المجتمع عموما هو 3-4% فقط وعلى أية حال، فإن الأمراض
الوراثية المنتشرة يصل عددها إلى نحو 3000 مرض فاضطراب هنجتون العصبي HUNGTON'S
disease (الذي يؤدي إلى الجنون والعجز عن النطق) ومرض التليف الحوصلي (CYCTIC
FIBROSIS) الذي يؤدي إلى إصابة الرئة المزمنة وسوء امتصاص الغذاء).

1 - انظر العلوم المعاصرة في خدمة الداعية الإسلامي: محمد جميل الحبال، ص 65-66.

2 - الإشارات العلمية في القرآن الكريم: كرام السيد غنيم، ص 338.

ومرض تاي ساخس (TAY- SACH' S DISEASE) الذي ينتشر بين اليهود⁽¹⁾.
ومرض أنيميا الخلايا المنجلية (SICHE CELLANEMIA) الذي ينتشر بين سكان حوض البحر المتوسط والأفارقة و.... الخ.

كلها أمراض تنتقل إلى الأطفال من الآباء والأمهات، هذا إلى جانب أمراض وراثية أخرى كارتفاع الضغط HYPERTENTION ، وأمراض القلب والسرطان والسكري والتخلف العقلي وانفصام الشخصية وبعض الأمراض الجلدية.

وتختلف الرغبة في زواج الأقارب (Comsanguinity) بين الشعوب والأمم المختلفة، فبينما لا تتعدى حالات هذا الزواج واحد في الألف من الزيجات في الولايات المتحدة الأمريكية، تجده يحدث بنسبة 04% في اليابان، ويرتفع ليصل إلى 25% في بعض الدول العربية كليبيا مثلا !! بل يزيد كثيرا عن ذلك في المجتمعات التي توصف بأنها (مجتمعات منغلقة) (CLOSED SOCIETIES)⁽²⁾.

ولعل مجتمعات اليهود في أنحاء العالم أشهر أمثلة تضرب لهذا النوع من المجتمعات البشرية، فاليهود عادة يقيمون في مجتمعات تمنع الزواج من غير الأهل والأقارب؛ ولذلك توصل الباحثون إلى رصد أمراض تنتشر بينهم كمرض «رايلي» الذي يصيب الجهاز العصبي في الأطفال ويؤدي إلى الشلل وينتهي بالوفاة⁽³⁾.

وهناك أيضا مرض (الخلب الأعمى) وهو الذي يصيب الجهاز العصبي ويؤدي إلى الجنون ثم الوفاة في سن مبكرة.

وكذلك مرض بلوم (Bloom's Syndrome) الذي ينتشر بين أفراد بعض الطوائف اليهودية حيث يكون المصاب به قزما لا يحتمل التعرض للضوء ويؤدي إلى ظهور السرطان ثم الوفاة.

وهناك في إسرائيل طائفة (الخبانيين) اليهودية التي نزلت من جنوب الجزيرة العربية عام 1950م وعاشت في قرية واحدة، هؤلاء يعيشون من قرون عديدة في مجتمع مغلق عليهم، ولا يتزوجون إلا فيما بينهم فقط؛ ولذلك تنتشر بينهم أمراض وراثية يندر شيوعها في المجتمعات العادية، ومنها قصر القامة الواضح، مع طول الوجه والتخلف العقلي...

وفي كندا يقطن خمسة ملايين نسمة في مقاطعة كويك، وهم من أصل فرنسي نزحوا إلى هذه المقاطعة من فرنسا عام 1650، ويعيشون محافظين على اللغة الفرنسية والمذهب المسيحي الذي يدينون

1 - ينظر الإعجاز العلمي في الإسلام (القرآن الكريم): محمد كامل عبد الصمد، ص 223.

2 - المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي: أحمد شوقي إبراهيم، ص 177-178.

3 - الإشارات العلمية في القرآن الكريم: كارم السيد غنيم، ص 339.

..... نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية به، ويتزوجون فيما بينهم فشاعت بينهم أمراض وراثية من أشهرها (تيرو سينيميا) الذي يصيب الكبد بالتليف وينتهي بالوفاة في سن مبكرة عادة⁽¹⁾.

التدابير الوقائية من الإصابة بالأمراض الوراثية:

نسوق في هذه الجزئية من موضوعنا آية قرآنية وحديثا نبويا وقولا عربيا مأثورا.

أما الآية القرآنية فهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَحْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا⁽²⁾﴾.

وأما الحديث الذي روي عن رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فهو قوله: "تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس" وأما القول العربي المأثور فهو قول أحدهم: "اغتربوا، لا تضوروا"⁽³⁾.

وإذا كانت الآية القرآنية قد شرحت خطورة إشاعة الزواج من الأقارب وأن الأمراض الوراثية تزداد نسبة وجودها فيما بين نسل العائلات التي يشيع فيها هذا النوع من الزواج، ويزداد احتمال ظهور المرض بازدياد صلة القرى، فما بالك بالأُم والأخت والعمة والحالة وبنات الأخ؟ إن هذه هي أقرب درجات القرابة، ومن ثم تكون درجة احتمال ظهور الأمراض الوراثية في نسل هذه الزوجات كبيرة جدا وقد كان الزواج من هاتين القرابتين موجودا عند بعض الشعوب قديما⁽⁴⁾.

وجاء حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ليوضح أن الصفات (العرق) تنتقل من جيل إلى جيل (دساس)، وهذا القول خرج من فم الرسول في القرن السابع الميلادي قبل أن يعرف العلم الحديث عن قوانين الوراثة شيئا.

نعم إن الصفات الوراثية تنتقل عبر مورثات من جيل إلى جيل، حتى وإن اختلفت مظهرها في جيل فإنها تظهر في الجيل اللاحق له، المهم أن مورثتها موجودة، وإن كانت كامنة متسحبة في ذلك الجيل السابق، وكذلك يأتي القول العربي المأثور ليبين أن زواج الأبعاد يؤدي إلى إنتاج نسل قوي ذكي.

1 - الإشارات العلمية في القرآن الكريم: كارم السيد غنيم، ص 340.

2- سورة النساء: الآية 23.

3- يظن بعض الناس أن هذا القول حديثا نبويا، ولكن التحقيق العلمي والتحريج أثبتنا أنه قولا مأثورا وغير مرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

4 - انظر المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي: أحمد شوقي إبراهيم، ص 180.

ويذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينصح رعاة الأغنام بالتزاوج بين الأبيض والأحمر أو بين الأبيض والأسود، لإنتاج نسل قوي من الأغنام، وقد توصل الباحثون إلى أهمية هذا الصنيع في القرن الحالي بعد أن لاحظ مربو المواشي ومدربو الحيوانات في حدائق الحيوان أن نسل الحيوان الواحد إذا ترك يتكاثر مع بعضه أنتج نسلا ضعيفا وقليلًا في العدد.

ولكن قد يقول قائل أن هناك عائلات شاع فيها زواج الأقارب ورغم ذلك جاء نسلها⁽¹⁾ قويا ذكيا، ونقول له أن هذا الزواج كان يتم خارج نطاق الدرجة الأولى (الأم والإبنة والأخت) والدرجة الثانية (بنت الأخت وبنت الأخ)، وهذا النوع من الزواج الذي تضرب عائلات "هاريسون" "باخ" كمبل" أمثلة له، يقول فيه "كارل جورج" (KARL GEORGE)⁽²⁾ عالم الوراثة الأمريكي. «إن زواج الأقارب في ذاته ليس عاملا على اضعاف أو تشويبهه بالأمراض والعاهات، ولكن بشرط أن تكون السلالة نفسها قوية وخالية من العيوب الوراثية، وهنا فقط لا تمنع مطلقا أن تظل قوية نقية على مدى الأجيال...»⁽³⁾.

لكنه يوضح أن زواج الأقارب يؤدي إلى عزل السلالات ذات الصفات الوراثية، وفي هذا حير؛ لأن الأبوين إذا كانا يتمتعان بصفات جيدة، ستظهر صفاتها بالضرورة في الأبناء، بل وتكون على درجة عالية من الوضوح الذي لم يحظ به أحد الأبوين، ولكن ذلك العالم الأمريكي يستدرك بأن التاريخ يثبت ندرة هذه الحالات التي تظل فيها الأسر صحيحة قوية؛ أي أنها حالات نادرة، معنى ذلك أن الحالات الواضحة الشائعة هي إضعاف النسل بتكرار زواج الأقارب فتصبح الأجيال ضعيفة هزيلة مريضة بالأمراض، ومصابة بالعاهات الجسدية والعقلية والنفسية.

بقيت لنا وقفة سريعة عند المجموعة الثانية من المحرمات في الزواج كما وردت في الآية القرآنية وهي (المحرمات من الرضاع)⁽⁴⁾، ومعنى هذا أنه يحرم عليك أن تتزوج من الأم التي أرضعتك (وهي ليست أمك التي ولدتك) ويحرم عليك أن تتزوج من الأخت التي رضعت معك من ثدي امرأة واحدة.

1 - لقد أثبتت البحوث العلمية المتأنية الحديثة أنه إذا كان تاريخ العائلة خاليا من الجينات الوراثية المرصية أي أنهم "أنقاء وراثيا" وهؤلاء هم الكثرة، فلا ضرر مطلقا من زواج الأقارب وحتى لأجيال عديدة... انظر المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي: أحمد شوقي إبراهيم ص 178-188.

2 - جورج كارل -حائزة نوبل للطب 1934 - <http://ar.wikipedia.org/wiki>

3 - الإشارات العلمية في القرآن الكريم: كارم السيد غنيم، ص 341، وما بعدها.

4 - الطب في القرآن: محمد جميل الحجال، ومبيض العمري، ص 93، ط 01، دار النفائس، بيروت، 1997م.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية

ونقول في البداية إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تنص شريعته على تحريم الزواج من الرضاع، ويأتي العلم الحديث وخاصة في القرن العشرين الميلادي ليثبت بالتجربة والمشاهدة والدليل العلمي أن زواج الأخوات من الرضاع يؤدي إلى نقل صفات وراثية إلى الرضيع⁽¹⁾.

قام العالم الإنجليزي (آي جي براون) سنة 1941 بتجربة على فئران المعمل حيث أتى بخمس مجموعات من الفئران الحوامل ليدرس استعدادها للإصابة بمرض السرطان، ونحن لن نشرح خطوات عمله، لكننا نوجز نتائجه في أن الفئران التي رضعت من الأم كان لديها الاستعداد للإصابة بالسرطان، ويزداد هذا الاستعداد بتعدد مرات الرضاعة....⁽²⁾.

ثم يأتي العقد السابع من القرن الحالي فيقوم فريق بحث أمريكي متخصص في دراسة الأورام ويذهب إلى الهند لإحصاء حالات سرطان الثدي في مدينة (بومباي) حيث توجد قبيلة (البارسي) الهندوسية، وهي القبيلة التي ينتشر بين أفرادها زواج الأخوات من الرضاع، وتعتبر هذه القبيلة مجتمعاً مغلقاً.

وجد العلماء سرطان الثدي يمثل 50% من حالات السرطان بين الإناث، في حين أن الإصابة به بين النساء المسلمات في نفس المدينة كان منخفضاً جداً؛ لأن هذا النوع من الزواج محرم بينهم. ويتضح من هذه الدراسة التي أجريت على مجتمع مغلق بتزواج أفرادهم مع بعضهم منذ مئات السنين، ويشيع فيهم الزواج من الأخوات في الرضاع، كما كان ولا يزال الحكم القرآني العظيم بتحريم هذا النوع من الزواج رائعاً....⁽³⁾.

إن الطفل الذي يرضع من ثدي امرأة يتغذى بلبنها، وتنتقل إليه مكونات لا يمكن أن توجد في لبن صناعي، وقد يكون من بين هذه المكونات سبب مرضي يدخل جسمه ويكمن، فإذا رضعت معه طفلة حدث لها ما حدث له، وإذا كبر ثم تزوج؛ فإن نسلهما ستظهر فيه الأضرار الناجمة عن اجتماع مسيبي المرض في شخص واحد.

وهكذا الأمر بالنسبة للمرأة المرضعة ذاتها، التي تغذي الطفل بهذه المكونات وتنتقل إليه هذه المبيات، فإذا كبر الطفل وشب وتزوج منها؛ حدث في النسل القادم منهما ما يحدث في نسل الإخوة من الدم....⁽⁴⁾.

1 - الطب في القرآن: محمد جميل الحيال، وميض العمري، ص 94-100.

2 - الإشارات العلمية في القرآن الكريم: كارم السيد غنيم، ص 342.

3 - الطب الإسلامي: شفاء بالهدى القرآني، محمود نجيب (بتصرف)، عن الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، ص 224.

4 - الإشارات العلمية في القرآن الكريم: كارم السيد غنيم، ص 343.

وفي الأخير لاحظ جيدا أن هذه التنظيمات الطبية وهذه التعاليم الوقائية وهذه الإرشادات الوراثية ظهرت في القرن السابع الميلادي في بيئة صحراوية حين نزل القرآن الكريم من عند الله، ونطق به لسان رجل أمي هو محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم- أبعد هذا يمكن أن يصدق إنسان أن القرآن الكريم كلام بشري المصدر أي من تأليف بشر !!!.

إن هذا مناف لصحة العقل وحرية التفكير؛ لأن هذا القرآن كتاب منزل من عند إله واحد قادر عليم حكيم... هو الله سبحانه وتعالى..

وهكذا يبدو واضحا مدى الإعجاز الذي تحتويه هاتان الآيتان القرآنيتان إعجاز علمي جاءتا به قبل 14 قرنا من الزمان، ولم يتوصل العلماء إلى معرفة جوانبه أو بعض جوانبه إلا في عشرات السنين القليلة الماضية.

وكما نقول دائما إن هذا الدليل واضح لكل صاحب عقل حر وفكر محايد دون ضاغط أو هاجس يفسد عليه نقاء التفكير يقتنع بما لا يدع مجالا للشك في أن القرآن الكريم كلام الله الذي نزل على خاتم رسله وهو محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي عاش في بيئة صحراوية لا علاقة لها بالسواحل أو حياة البحار، فيكون ما جاء به هو من عند الله وليس من وضعه أو تأليفه إنه هو الوحي الذي نزل عليه وأمر بإبلاغه للناس، وقد بلغه -صلى الله عليه وسلم- وأمرنا بإبلاغه لكافة شعوب العالم.

2- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِتِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾⁽¹⁾.

في هذه الآية الكريمة يأمر الله جل ثناؤه عباده بأن يتمتعوا في هذه الحياة بما أحله لهم من الكسب الحلال، والرزق الطيب والمتاع النافع، وأن يأكلوا من لذائد المأكلات التي أباحها لهم ورزقهم إياها بشرط، أن تكون من الحلال الطيب وأن يشكروا الله على نعمه التي أسبغها عليهم إن كانوا حقا صادقين في دعوى الإيمان عابدين لله متقادين لحكمه مطيعين لأمره، لا يعبدون الأهواء والشهوات.

ثم بين تعالى ما حرمه عليهم من الخبائث المستكرهة التي تنفر منها الطباع السليمة أو مما فيه ضرر واضح للبدن، فذكر تعالى أنه إنما حرم عليهم الميتة والدم ولحم الخنزير وسائر الخبائث، كما حرم عليهم كل ذبيحة ذبحت للأصنام أو لأهنتهم المزعومة وكل ما ذكر عليه اسم غير الله لكن إذا اضطر الإنسان وألجأته الحاجة إلى أكل شيء من هذه المحرمات غير باغ بأكله ما حرم الله عليه فليس عليه ذنب أو مخالفة ولا

متجاوز قدر الضرورة؛ لأن الله غفور رحيم يغفر للمضطر ما صدر منه من غير إرادة رحيم بالعباد لا يشرع لهم ما فيه الضيق والحرَج⁽¹⁾.

لطائف التفسير:

اللطفية الأولى: المراد من الطيبات الرزق الحلال، فكل ما أحله الله فهو طيب وكل ما حرمه فهو خبيث قال عمر بن عبد العزيز: المراد (طيب الكسب لا طيب الطعام)، ويؤيده الحديث الشريف (إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له⁽²⁾.

فهذا هو بيان الطيب من الرزق ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم ولا عطر بعد عروس.

اللطفية الثانية: قال أبو حيان (لما أباح تعالى لعباده أكل ما في الأرض من الحلال الطيب وكانت وجوه الحلال كثيرة بين لهم ما حرم عليهم لكونه أقل، فلما بين ما حرم بقى ما سوى ذلك على التحليل حتى يرد منع آخر، وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم لما سئل عما يلبس المحرم فقال: (لا يلبس القميص ولا السروال) فعدل عن ذكر المباح إلى ذكر المحظور لكثرة المباح وقلة المحظور، وهذا من الإنجاز البليغ⁽³⁾.

اللطفية الثالثة: في قوله تعالى: ﴿واشكروا لله﴾ التفات من ضمير المتكلم إلى الغيبة⁽⁴⁾.

إذ لو جرى على الأسلوب الأول لقال: (واشكرونا) وفائدة هذا الالتفات تربية المهابة والروعة في القلوب.

اللطفية الرابعة: قوله تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ﴾ هو على حذف مضاف أي أكل الميتة وأكل لحم الخنزير مثل قوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ أي أهل القرية.

قال الألويسي "وإضافة الحرمة إلى العين مع أن الحرمة من الأحكام الشرعية، وليست مما تتعلق بالأعيان إشارة إلى حرمة التصرف في الميتة من جميع الوجوه بأخصر طريق وأؤكد⁽⁵⁾.

وقال أبو السعود "وإنما خص لحم الخنزير مع أن سائر أجزائه أيضاً في حكمه؛ لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان، وسائر أجزائه بمنزلة التابع له"⁽⁶⁾.

1 - روائع البيان في تفسير آيات الأحكام: محمد علي الصابوي، ص 156، ط 01، مكتبة رحاب 1410 هـ - 1990 م.

2 - رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

3 - تفسير البحر المحيط: أبو حيان، ج 01، ص 484.

4 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: تفسير أبي السعود، ج 01، ص 232.

5 - روح المعاني: الألويسي، ج 02، ص 41.

6 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: تفسير أبي السعود، ج 01، ص 232.

حكمة التشريع:

أباح الباري جل وعلا لعباده المؤمنين تناول الطيبات وحرّم عليهم الخبائث كالميتة والدم والحمل والخنزير، ونهاهم عن تعذيب النفس وحرمانها من اللذائذ الدنيوية فإنّ المشركين وأهل الكتاب حرّموا على أنفسهم أشياء لم يحرمها الله تعالى كالبحيرة والسائبة.

وكان المذهب الشائع عند النصارى أن أقرب ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى، تعذيب النفس واحتقارها، وحرمانها من جميع الطيبات المستلذة، واعتقاد أنه لا حياة (للروح) إلا بتعذيب الجسد، وكل هذه الأحكام والشرائع قد وضعها الرؤساء، وليس لها أثر في شريعة الله، وقد تفضل الله على هذه الأمة يجعلها أمة وسطاً، تعطي الجسد حقه والروح حقه، فأحل لنا الطيبات وحرّم علينا الخبائث، وأمرنا بالشكر عليها ولم يجعلنا (جثمانين) خلصاً كالأنعام ولا (روحانيين) خلصاً كالملائكة بل جعلنا أناسي كملة بهذه الشريعة المعتدلة⁽¹⁾.

وأما الحكمة من تحريم الميتة فلما فيها من الضرر، لأنها إما أن تكون ماتت لمرض وعلة قد أفسد بدنها وجعلها غير صالحة للبقاء والحياة، وإما أن يكون الموت لسبب طارئ، فأما الأولى فقد حث لحمها وتلوث بجراثيم المرض، فيخشى من عدواها، ونقل مرضها إلى الآكلين.

وأما الثانية فلأن الموت الفجائي يقتضي بقاء المواد الضارة في جسمها وأما الدم المسفوح فلقدراته وضرره أيضاً وقد أثبت الطب الحديث أن الدم ضار كالميتة وأنه تتجمع فيه (الميكروبات) والمواد الضارة. وأما لحم الخنزير: فلأن غذاءه من القاذورات، والتجاسات فيقدر لذلك؛ ولأن فيه ضرراً فقد اكتشف الأطباء أن لحم الخنزير يحمل جراثيم شديدة الفتك كما أن المتغذي من لحم الخنزير يكتسب من طباع ما يأكله، والخنزير فيه كثير من الطباع الخبيثة وأشهرها عدم الغيرة والعفة⁽²⁾.

يقول شهيد الإسلام (سيد قطب) "والخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم، ومع هذا فقد حرّمه الله ومنذ ذلك الأمد الطويل، ليكشف علم الناس منذ قليل أن في لحمه ودمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة (الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة).

ويقول الآن قوم: إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت، فلم تعد هذه الديدان وبويضاتها مصدر خطر؛ لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية التي توفرها وسائل الطهو الحديثة وينسى هؤلاء الناس أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة فمن ذا الذي يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى في لحم

1 - روائع البيان في تفسير آيات الأحكام: محمد علي الصابوني، ص 166.

2 - المرجع نفسه: ص 167، وينظر تفسير آيات الأحكام: محمد علي السامس، ج 01، ص 48-53.

الختير لم يكشف بعد عنها؟ أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم البشري بعشرات القرون أن نتق بها.

وندع كلمة الفصل لها ونحرم ما حرمت، ونحلل ما حللت، وهي من لدن حكيم خبير؟!!

أما ما أهل به لغير الله فهو محرم لا لعله فيه، ولكن للتوجه به لغير الله محرم لعله روحية لسلامة القلب وطهارة الروح وخلوص الضمير، فهو ملحق بالنجاسة المادية والقذارة الحقيقية، وقد حرص الإسلام على أن يكون التوجه لله وحده بلا شريك⁽¹⁾.

ولقد كشف لنا العلم في عصرنا هذا عن بعض أسباب الفائدة في الطعام، وعن بعض أسباب الضرر فيه، فليس كل ما يؤكل يفيد الجسم، فبعض الطعام طيب وخال من أسباب المرض فيزيد آكله صحة وقوة ونشاطا، وبعضها الآخر يحتوي على سموم أو جراثيم ضارة تسبب لآكلها المرض والضعف ويحد كل هذه المعاني في قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِنَاءً تَعْبُدُونَ﴾ ثم نزلت بعد ذلك آية تحريم بعض أنواع الطعام والشراب في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾⁽²⁾.

1- تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير:

نزل تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله، في أربع سور هي بترتيب النزول الأنعام، النحل، البقرة، المائدة⁽³⁾.

نزل التحريم أولا في قول الله عز وجل ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَيْزِرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾⁽⁴⁾.

وتقدير المعنى في الآية الكريمة: قل لا أجد فيما أوحى إلي محرما مما كنتم تستخيثونه وتجتنبونه، إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير.

وتنبه الآية الكريمة على أن التحريم إنما يكون بوحي إلهي لا بهوى النفس قال الله تعالى: "فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به" (فسقا) عطف على المنصوب قبله، وقد يكون مفعولا له من (أهل) أي (أهل لغير

1- في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 02، ص 157.

2- سورة البقرة: الآيات 172-173، ونظر المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي: أحمد شوقي إبراهيم، ص 09-10.

3- الإفتان في علوم القرآن: السيوطي، ج 01، ص 26.

4- سورة الأنعام: الآية 145.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية
الله به فسقا) وسمي ما أهل به لغير الله فسقا لتوغله في باب الفسق، كما قال تعالى: "ولا تأكلوا مما لم يذكر
اسم الله عليه وإنه لفسق".

وجاء النهي في السنة النبوية المشرفة عن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن أكل كل ذي مخلب
من الطير، كما نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل لحوم الحمر الأهلية عام خيبر.

ثم نزلت سورة النحل في مكة المكرمة قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا
نِعْمَةَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ لِعَيْاهُ تَعْبُدُونَ، إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ
أَضْطَرَّ بِغَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا
حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾⁽¹⁾.

أي إن النهي يكون من الله تعالى ورسوله وليس عن هوى أحد من الناس كذبا وزورا وروى الإمام
ابن ماجه عن أبي عثمان النهدي -رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الحلال ما أحله
الله في كتابه والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه" والحديث الشريف تفسير إجمالي
للآية الكريمة⁽²⁾.

ثم نزلت سورة البقرة. قال الله عز وجل فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ
إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ، إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ بِغَيْرِ بَاغٍ
وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽³⁾.

فصل الله تعالى في هذه الآية الكريمة بين الحلال والحرام قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ولم يقل
(يا أيها الناس)، لأن الله تعالى يخاطب المؤمنين بالصفة التي تربطهم به تعالى: ﴿يا أيها الذين صدقوا الله
ورسوله وأذعنوا له بالطاعة، إنه أنسب نداء لمخاطبتهم للإيحاء إليهم أنهم إنما يتلقون الأوامر من الله تعالى
الذي آمنوا به وأقروا له بالعبودية، ويأخذون عنه الحلال والحرام، وليس عن غيره من الناس في مجتمعهم،
وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ (إنما) كلمة تفيد الحصر
تتضمن النفي، والإثبات، فثبت ما تناوله الخطاب وتنفي ما عداه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ
سُبْحَانَهُ﴾⁽⁴⁾، أي ما هو إلا إله واحد وفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية الكريمة.

1- سورة النحل: الآية 115.

2- المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي: أحمد شوقي، ص 11.

3- سورة البقرة: الأيتان 172-173، وينظر في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 02، ص 156.

4- سورة النساء: الآية 171.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية

فيما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين" فقال: "يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم".

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾

ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يده إلى السماء يقول يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له؟⁽¹⁾

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي أظعموا من الرزق الذي أحللنا لكم مما كنتم تحرمونه أنتم وسبب ذلك أن العرب في الجاهلية كانوا يحرمون من البحائر والسوائب، فنهى الإسلام عن ذلك التحريم كما قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾⁽²⁾.

فكان الرجل في الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد أو برأ من علة يقول: ناقتي سائبة أي تسبب فلا ينتفع بظهرها ولا تمتع من كلاً أو ماء ولا تحلب، وكان الكثيرون في الجاهلية يسيبون الإبل لأهنتهم كما قال الشاعر:

محرمة لا يطعم الناس لحمها

ولا نحن في شيء كذاك البحائر

والبحيرة: هي صغير الناقة الأخير، والحام: من الإبل، والوصيلة: من الغنم وكان تحريمهم للسوائب والبحائر في الجاهلية طاعة منهم للشيطان، وإتباعاً لأهل الكفر من الآباء والأجداد، فبين الله تعالى لهم ما حرم عليهم مفصلاً ومفسراً من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله.

ثم نزلت بعد ذلك قول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾⁽³⁾.

نزلت سورة المائدة تعدد أنواع الميتة، فبعد التعميم في سورة البقرة، جاء التفصيل في سورة المائدة.

1- رواه أحمد ومسلم والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

2- سورة المائدة: الآية 103، ينظر المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي: أحمد شوقي إبراهيم، ص 12.

3- سورة المائدة: الآية 03، ينظر المرجع نفسه، ص 13.

أ- تحريم أكل الميتة على ضوء العلم الحديث

حرم الله تعالى أكل الميتة إجمالاً في سورة البقرة، ثم نزل قوله تعالى في سورة المائدة فحرم أكل الميتة تفصيلاً، وبين أنواعها كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، أي ما افترسه كل ذي ناب من الوحش.

وكل هذه الأنواع، تجتمع في صفة واحدة، وهي أنها ميتة أي ماتت من دون ذبح وفيها حياة أيا كان نوع الإصابة، ولسنا نتحدث هنا عن الحكمة في تحريمها، فقد يصل الإنسان إلى ذلك أولاً يصل، فيكفي أن الله تعالى حرمها.

فإنه عز وجل لا يحرم إلا الخبائث التي تضر بالإنسان، سواء علم الإنسان بالعلة أم لم يعلم.

لقد ثبت علمياً أن جسم الميتة يمتص في الدم بكل رواسبه وسمومه، وقد يتخلل الدم جميع الأنسجة اللحمية، وتعمل السموم عملها، فيبدأ جسم الميتة يكتسب اللون الداكن، وتمتلئ الأوردة السطحية بالدماء، وتتوقف الدورة الدموية دون أن يتسرب شيء ولو ضئيل من الدم إلى خارج الجسم.. وبذلك تصبح الميتة كلها بؤرة فاسدة للأمراض، ومجمعا خبيثا للميكروبات، ويبدأ التعفن يعمل عمله في جسم الميتة، فيعم أثره لحمها من ناحية اللون والطعم والرائحة جميعاً⁽¹⁾.

كما أن الميتة يفقد لحمها كل قيمة غذائية نتيجة أن "أنزيمات التحلل" تبدأ عملها في الخلايا فتفقدتها كل قيمة غذائية وبذلك تجمع الميتة بين الحستين:

(أ) لا فائدة ترجى من وراء تناولها.

(ب) لا يمكن اتقاء السموم، ولا عدوى الأمراض القابضة في دمانها.

فالكائن الحي إذا مات، فإنما يموت بواسطة ميكروبات وجدت فيه فتغلبت عليه فهو متسمم بالجراثيم المرضية التي أدت به إلى الموت أو حامل للسموم التي يفرزها الجسم فيه، حيث تبدأ بكتيريا التعفن تنشط، حتى إن كل جزء منه يحوي مئات الألوف من أصناف البكتيريا⁽²⁾.

ومن خلال التقدم العلمي استطعنا أن ندرك بعض أسباب تحريم أكل لحم الميتة، وكيف أن أكل الميتة يؤدي إلى أخطار كثيرة بصحة الإنسان، ولم يكن للناس قبل عصر العلم الحالي يدركون أسرار الأخطار الصحية في أكل لحم الميتة.

1 - الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل الصمد، ص 260.

2 - المرجع نفسه: ص 261.

وكان خطر أكل لحم الميتة في فهمهم منحصرًا في سوء طعمه ورائحته مما تعافه النفس أما في عصر العلم الحالي فقد تبين لنا بعض أوجه العلم في قول الله عز وجل: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ)⁽¹⁾. لقد حرم الله تعالى أكل لحم الميتة، وقد يصل الإنسان إلى المغزى العلمي في ذلك وقد لا يصل وما كان الناس قديما يدركون العلة في التحريم، ولا السبب العلمي في ذلك إلا أن التقدم وضع لنا الأسباب لتحريم أكل الميتة، والإعجاز العلمي في الآيات الكريمة⁽²⁾.

ومن المعلوم أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف هما من مصدر واحد وهو الوحي الإلهي ونزل الوحي الإلهي للناس في كل زمان ومكان وإلى يوم القيامة، كل عصر يفهم من الحقائق العلمية التي ذكرها القرآن والحديث النبوي على قدر علمه وطاقة فهمه، ويأتي بعده عصر ارتقى فيه العلم فيصل الناس فيه إلى فهم وجه آخر من وجوه العلم في الآية أو الحديث، لم يكن السابقون على علم به، أما علم الله تعالى فهو علم لا نهاية له، ولا يعد علم الإنسان بجانبه شيئًا مذكورًا.

وحدثنا جدا في عام 1997م ظهرت لنا حكمة علمية أخرى في تحريم أكل لحم الميتة مما يضيف إلى الآيات التي نزلت بتحريمه إعجازًا فوق إعجاز، وذلك في موضوع جنون البقر الذي حدث في بريطانيا⁽³⁾. والموضوع في إيجاز شديد أن المربين للبقر هناك كانوا يجففون لحم الميتة من البقر والماتية ويستخدمونها علفًا للبقر في مزارع التربية والتسمين، وحدث أن أكل لحم هذه الأبقار سبب مرضًا للناس الذين أكلوها، كما سبب للبقر الذي تناولها علفًا أيضًا مرضًا بالملح سبب أمراضًا عصبية، أطلق عليها اسم مرض جنون البقر.

واكتشف حديثًا جدا أن سبب حدوث المرض ليس بسبب الجراثيم والسموم، ولكنه بسبب تغير كيميائي حدث في لحم الميتة نتجت عنه مواد عضوية في اللحم أكثر تأثيرًا من السموم، فهي تسبب مرضًا خطيرًا بالخلايا العصبية في الجهاز العصبي المركزي وتدمرها فيصير المخ كالإسفنج، وما يحدث للبقر الذي يأكل لحم الميتة، يحدث للإنسان الذي يأكل من لحم ذلك البقر⁽⁴⁾.

1 - المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي: أحمد شوقي إبراهيم، ص 13.

2 - المرجع نفسه: ص 17.

3 - انظر العلم يقول: القرآن هو الحق: حسن يوسف، ص 78، دار الشعب، القاهرة، 1424هـ-2004م.

4 - المرجع نفسه: ص 79

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية
 أما الحديث النبوي الشريف فقد علم الناس أن الخطر يكمن في أكل لحم الميتة وأن الخطر الأكبر يكمن في شحومها عن بن عباس - رضي الله عنهما - عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال "قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فحملوها وباعوها".
 وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ودكه"⁽¹⁾

الودك دسم اللحم ودهنه. وجاء في تفسير الحديث الشريف : حرمت عليهم الشحوم أي أكلها، وإذا كان التحريم لليهود في أكل الشحوم في البقر والغنم فإن في ذلك إشارة للمسلمين بأن في الشحوم سببا ينبغي اجتنابه وقد حرمت عليهم الميتة جاء ذلك في قول الله عز وجل ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبِعْثِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾⁽²⁾ وبذلك يكون الوحي الإلهي في القرآن الكريم والسنة قد حرم أكل الميتة لحما وشحما وترك الحكمة العلمية في ذلك التحريم لاجتهاد الناس عبر العصور إذ لو أخرجهم بالسر العلمي ما صدقوه ولأثر ذلك على تصديق الرسالة ككل، فترك البحث عن السبب للناس عبر العصور وقد ذكر لهم الحكم وأمرهم بإتباعه ، ويظل القرآن والحديث النبوي رسالة متجددة من الله عز وجل ورسوله إلى الناس جميعا من عصر النبوة إلى يوم القيامة .
 ب: تحريم الدم على ضوء العلم الحديث:

علمنا أن الجراثيم تتكاثر في الدم في حالة المرض ، فضلا عن أنه يحتوي على نواتج عمليات الأيض، وهي مواد ضارة يحملها الدم إلى الكبد والكلية، وهناك يتخلص منها الجسم فالدم مزرعة تتكاثر فيها الجراثيم في جسم الميتة، فالدم على أية حال لا يصلح طعاما للإنسان؛ لأنه يحمل ضررا لذلك فهو حرام.
 كما أنه أيضا يحمل مخلفات الجسم التي تنتج عن الفعل الهدمي (CATABOLISM) في الأنسجة المختلفة⁽³⁾.

1 - صحيح البخاري: ج02، ص 88، تحقيق عبد العزيز بن باز، إخراج فواد عبد الباقي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية.

2- سورة الأنعام: الآية 146، ينظر المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي: أحمد شوقي إبراهيم، ص 18.

3- الإسلام يدعو إلى العلم: محمد شهوان: عن الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، ص 261.

كما أن شرب الدم المسفوح قد يؤدي إما إلى ارتفاع البولينا بالدم مما يهدد بحدوث فشل كلوي أو ارتفاع نسبة الأمونيا في الدم وحدوث غيبوبة كبدية، ويحتوي الدم على مواد تدعي أنتيجينات وبتكرار شرب الدم قد تحدث حالة حساسية شديدة من تفاعل الأنتيجنات مع الأجسام المضادة.

ويحتوي الدم إلى جانب ذلك على الكثير من المواد السامة التي يعمل الكبد على تخليص الجسم منها ويحتوي أيضا على جراثيم في كثير من الأحيان، مما يحدث بالمعدة والأمعاء تهيجا في أغشيتها مما يسبب أخطر الأمراض: لذلك كان للتشريع القرآني نظرة علمية في تحريمه لتناول الدم⁽¹⁾.

ومن هنا تتبين حكمة التشريع الإسلامي في تحريمه لشرب الدم ويقول به علم البكتريولوجيا في العصر الحديث، مما يدل على الإعجاز العلمي في الآية الكريمة.

ج- تحريم أكل لحم الخنزير على ضوء العلم الحديث:

نزل الوحي الإلهي بتحريم أكل لحم الخنزير في أربع آيات هي سور الأنعام والنحل والبقرة والمائدة كما تحدثنا من قبل، ولم يكشف العلم بعض الأضرار التي يسببها أكل لحم الخنزير إلا منذ مطلع القرن الحالي، أما قبل ذلك فكانت كل أضرار لحم الخنزير مجهولة للإنسان تماما، ومن ثم لم تكن الأسباب العلمية في التحريم معروفة قط، وشيئا فشيئا كشف العلم عن الوجه القبيح في لحم الخنزير⁽²⁾.

وأن نحن إذ نتحدث عن ضرر أكل لحم الخنزير إنما نتحدث لبيان الإعجاز العلمي في آي القرآن العظيم والحديث النبوي الشريف، وكيف أن التقدم العلمي في عصر العلم الحالي قد أظهر لنا بعض أسباب التحريم.

فاكتشف أول ما اكتشف أن أكثر الطفيليات التي تصيب الإنسان بالأمراض الطفيلية تجد لها في جسد الخنزير مرتعا خصيبا، وذلك أمر منطقي فإن الخنزير لا يقبل إلا على القاذورات والقمامة ولا يتناول من الطعام إلا ما كان قدرا ومنتنا، ولحم بني من مثل هذا الغذاء لا يمكن أن يكون نقيًا نقاء لحوم الحيوانات الأخرى التي تأكل الخضروات الطازجة غير الملوثة وعادات الخنزير القدرة في تناول طعامه جعل الكثير من الطفيليات تسكن فيه، وتتخذ من جسمه طورًا من أطوار دورة حياته، ولحم كهذا تعافه النفس السوية السليمة⁽³⁾.

1 - الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، ص 262، وينظر الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة: حسن ياسين عبد القادر، ص 67-68، ط 01، مكتبة وهبة، 1417هـ-1997م، وينظر الإسلام يتحدى: وحيد الدين خان، ص 151.

2 - المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي: أحمد شوقي إبراهيم، ص 19.

3 - المرجع نفسه: ص 20، وينظر العلم بقول: القرآن هو الحق: حسن يوسف، ص 79-80.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية

وإذا تحدثنا عن الأمراض التي ينقلها الخنزير إلى الإنسان، فسوف نتحدث طويلا فهي نحو خمسين مرضا ولكننا نذكر منها ما هو شائع لنبين الهدف من الدراسة وهو الإعجاز العلمي في القرآن العظيم فقد حرم أكل لحم الخنزير، ولم يذكر السبب في ذلك وتركه لتفكير العلماء وبجتهم عبر العصور حتى إذا جاء عصر العلم الحالي، وجد الأسباب الصحية التي تحتم تحريم أكل لحم الخنزير.

لحم الخنزير الذي يختلف الكثيرون في علة تحريمه، يثبت العلم الحديث إثباتا قاطعا أن الخنزير يتسبب في إصابة الإنسان بكثير من الأمراض منها:

- **مرض الشعيرية الحلزونية أو الترخينية:** وتسيبه ديدان تعيش في لحم الخنزير، وهذه الديدان تستقر في عضلات أكل لحم الخنزير، وعلى الأحص عضلات التنفس كذلك تستقر تلك الديدان في الأعضاء الحيوية في الجسم، كالخ والعين والقلب والرئة والكبد، فإذا كانت في المخ أحدثت الجنون أو الشلل واضطراب الشخصية وإذا وصلت إلى العين أصابها بالعمى، وإذا وصلت إلى جدار القلب أحدثت هبوطا في القلب، أو ذبحة قلبية... وعدد المصابين بهذا المرض في أمريكا 47 مليونا وتبلغ نسبة الموت بهذا المرض 30%.

- **مرض الإصابة بالديدان الشريطية المسماة تيناسوليوم:** وتعيش هذه الديدان في الأمعاء الدقيقة للإنسان، ويبلغ طولها ثمانية أمتار، مكونة من رأس بها ما بين 22-32 خطافا تثبت بها في جدار الأمعاء، وتهرب يرفاقها إلى مجرى الدم لتستقر في أي عضو من أعضاء الجسم، مثل الكبد والقلب، والعين والعضلات وتحوصل بها، فإذا استقرت في المخ وهو مكانها المفضل فإنها تتسبب في حدوث مرض الصرع.

- **الالتهاب السحائي المخي** وتسمم الدم الناتج عن الإصابة بالميكروب السبحي الخنزيري فقد أعقب اكتشاف هذا الميكروب سنة 1968م تفسير السبب وراء حالات الوفيات الغامضة التي حدثت في هولندا والدانمرك.

وتبين أن هذا الميكروب الخنزيري متعطش لإصابة الإنسان والفتك به ويتسبب في حدوث التهاب في الأغشية الملاصقة للمخ، وبإفراز سموم معينة في دم المصاب تؤدي إلى الموت.. والذين يفلتون من الموت بعد علاج مركز يصابون بصمم دائم وفقدان التوازن "الترنح"⁽¹⁾ وغيرها من الأمراض الخنزيرية⁽²⁾

1 - تحريم الخنزير في الإسلام: فاروق مساهل. عن الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، ص 257، وما بعدها.

2 - للمزيد من المعرفة ارجع إلى كتاب "تحريم الخنزير في الإسلام فاروق مساهل.

<http://forum.amrkhaled.net/showthread.php?t=15508>

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية
وذكرت الأبحاث العلمية أن لحم الخنزير يحتوي على كميات كبيرة من حامض البولييك، ولا يفرز
منه إلا القليل بنسبة لا تتعدو ثلاثة في المائة (3%) في حين يفرز الإنسان من حامض البولييك هذا نحو
تسعين في المائة منه (90%).

ونظرا لاحتواء لحم الخنزير على هذه النسبة المرتفعة من حامض البولييك نتيجة كثرة موارده وقلة
إفرازه لوحظ أن الذين يتناولون لحم الخنزير، يشكون من آلام روماتيزمية، والتهابات المفاصل المختلفة
فضلا عن أن أليافه الغليظة تسبب عسرا في الهضم، وارتباكا في الأمعاء.

«كما ثبت بالتحليل أن دهن الخنزير يحتوي على نسبة كبيرة من الأحماض الدهنية المعقدة منها تريجلسريدز
TRIGLYCERIDES وأن نسبة الكولسترول في لحم الخنزير خمسة عشر ضعفا لما في البقر، ولهذا
الحقيقة أهمية خطيرة؛ لأن هذه الدهون تزيد مادة الكولسترول CHOLESTEROL في دم الإنسان،
وهذه المادة عندما تزيد عن المعدل الطبيعي تترسب في الشرايين، ولا سيما شرايين القلب وتسبب تصلب
الشرايين وارتفاع الضغط، وهو السبب الرئيسي في معظم حالات الذبحة القلبية»⁽¹⁾.

والحقيقة أن الأبحاث العلمية قررت الأضرار البالغة لأكل لحم الخنزير وهذا ما تكفل الإسلام بالتنبيه
عنه منذ خمسة عشر قرنا من الزمان، حينما حرم أكل لحم الخنزير تاركا للعلم عبر القرون أن يؤكد ويثبت
صدق رؤية الإسلام وأسبقته...

علما بأن ما تم كشفه من بلايا الخنزير حتى الآن قام بها غير المسلمين، وهذا ما يكفي للتدليل على
الإعجاز في تعاليم الإسلام.

والحقيقة المطلقة هي أن ما يكشفه العلماء من حقائق علمية في أي عصر من العصور إلا ويجدونها
مذكورة في القرآن الكريم أو السنة المشرفة أو هما معا، إما تفصيلا وتوضيحا وإما إشارة وتلميحا مما بعد
إعجازا مطلقا عظيما.

وسيطل القرآن العظيم والحديث النبوي الشريف رسالة من الوحي الإلهي للبشر جميعا متجددة على
مر العصور وإلى يوم القيامة، لذلك يجد الناس في كل عصر من العصور في الوحي الإلهي في القرآن والسنة
علما جديدا، وفهما جديدا ونورا على نور.

1 - الطب الوقائي في الإسلام: أحمد شوفى الفنجري، عن الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، ص 260.

الإعجاز اللغوي والعلمي في بعض آيات المتشابهات:

نحن كمخلوقات وكبشر نعيش في عالم المادة، وضمن نظام كوني محدد، نرى أن الزمن⁽¹⁾ يسير وفق سرعة محددة، وقد يخيل لبعض الناس أن سيلاان الزمن هذا، إنما هو قانون ثابت ينسحب على كل أجزاء هذا الكون، وهو مستقل عن المادة وحركتها.

ولكن عند النظر في حقيقة الزمن، وارتباطه بالمادة وحركتها، نظرة علمية تعتمد على ثوابت العلم والمنطق، وعلى سلامة العقل والإدراك، عندها نجد أن الأمر مختلف تماما، فهل يتصور أحد أن فكرة الزمان والمكان موجودة لو تلاشت جميع الأشياء التي ننظر إليها من منظار الزمان والمكان بل التي نرى من خلالها أبعاد المكان وسيلاان الزمان؟!.

إن الزمن لا يمكن تصوره مستقلا عن حركة الأشياء وسكونها، وإن كل عالم له أبعاده المكانية وحركته الخاصة به في هذا الكون، له زمانه المحلي الخاص به؛ لأن الضوء هو الوسيلة الوحيدة لنقل ظواهر الكون من مكان لآخر، ونحن نعلم أن سرعته ثابتة (300.000 كلم/ثا).

ومن ثم فإن نقله لظواهر هذا الكون من مكان لآخر يستغرق وقتا، ومن ثم فإن رؤية حادثة ما نسير صورتها في هذا الكون بسرعة الضوء، ستكون حسب البعد المكاني الفاصل عن موقع هذه الحادثة⁽²⁾.

إن الإحساس بالزمن شأنه شأن الحواس الأخرى، فهو صورة من صور الإدراك الحسي، فكما أننا لا ندرك صفات المادة إلا من خلال الأعضاء الحسية التي تملكها، والتي تنقل للدماغ هذه الصفات فكذلك لا يمكن أن ندرك الزمن إلا من خلال الحوادث التي وقعت في هذا الزمن.

والتي تعطيه مدلولاته المادية التي تميزه، تلك الحوادث التي نحس بها، من خلال منافذنا الحسية التي نظل من خلالها على عالم المادة، الذي تتفاعل معه.

إن رؤيتنا للماضي والحاضر والمستقبل هي في حقيقتها لا تتعدى وضع وترتيب الأحداث وحركتها، فالماضي هو الحالة التي كانت عليها الأحداث قبل وضعها الحالي، والمستقبل هو الهيئة التي ستكون فيها الأحداث بعد وضعها الحالي، أما الآن فهي مسألة تسير بسرعة هذه الأحداث إنها حلقة تمر من خلالها الأحداث المستقبلية لتخرج منها أحداثا ماضية⁽³⁾.

1 - إشارة القرآن إلى انكماش الزمن ونسبية الشعور به قبل النسبية الخاصة (عام 1905م) لأينشتاين بثلاثة عشر قرنا، ينظر معجزات الخلق والخالق، رجب البناء، ص 132، وينظر من روائع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: عاطف المليحي، ص 142، وينظر الكون والإعجاز العلمي في القرآن: منصور حسب النبي، ص 116.

2 - المعجزة: نظرية في الإعجاز القرآني: عدنان الرفاعي، ص 251، ط03، دار الفكر، سوريا، 1421هـ-2000م.

3 - المرجع نفسه: ص 252.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية
فمسألة الماضي والحاضر والمستقبل هي مسألة تتوقف على وجود المشاهد وبعده من مكان الحادثة
إن الإحساس بالزمن يتعلق بالتركيب الفيزيولوجي والجسدي والنفسي فهو يرتبط مباشرة بالمادة وماهيتها،
ونسبية حركتها وسكونها، إنه مخلوق يتولد تبعاً لذلك، ونحس بانسيابه نتيجة تأثير ذلك على الجانب المادي
للنفس.

هذا هو الزمن بالنسبة لنا، كمخلوقات مادية لها أبعادها المادية المحددة، ولها سرعتها المحددة في هذا
الكون، هذا هو الزمن بالنسبة لنا كمخلوقات يحكمها قانون الزمان والمكان، ولكن لو نظرنا إلى هذه
المسألة، بالنسبة لخالق الكون سبحانه وتعالى، الذي ليس كمثلته شيء وهو أسمى من أن يشبه بأي شيء من
مخلوقاته، وهو أسمى من أن يحكمه مخلوق من مخلوقاته كالزمن⁽¹⁾.

بالنسبة لله سبحانه وتعالى، هل هناك فارق بين الماضي والمستقبل؟ وهل علمه بأحد هذه العناصر
الثلاثة أقل من الآخر؟.

ما دامت الأسباب كلها بيده عز وجل، المادة هو خالقها، وحركة المادة والتي تولد لنا مفهوم الزمن
بيده إن مصير أي شيء ونهايته، يعلمه الله سبحانه وتعالى قبل أن يخلقه ولذلك من الطبيعي أن يكون الفارق
بين كلامه عز وجل وبين كلامنا نحن البشر، يوازي الفارق بين إحساسنا بالزمن، وبين علم الله سبحانه
وتعالى بعناصر هذا الزمن.

إننا نجد في القرآن الكريم كلمات تصف لنا يوم القيامة، وتنقل لنا صوراً لحوادث هي بالنسبة لنا
ولمفهومنا ولانصياعنا لقانون الزمن، لم تأت بعد، أما بالنسبة لله عز وجل فإنه يصورها في كتابه الكريم كما
تحدث تماماً بواقعها، فهو يراها ويعلمها، قبل أن يخلق العناصر المكونة لهذه المشاهد.
وهذا طبيعي؛ لأن الزمن الذي يفصلنا عن هذه الحوادث، ويمنعنا من رؤيتها، هو مخلوق من
مخلوقات الله سبحانه وتعالى.

لذلك كثيراً ما نجد في القرآن الكريم، كلمات تصف لنا حواراً أو حديثاً أو أي مسألة، بصيغة مجردة
من الزمن، فالقرآن يخاطب كل الأجيال على مدار الزمن، وكل جيل يحس أن هذه الكلمات تخاطبه هو،
وموجهة إليه بالذات وتعالج مشاكله وأمراضه بالذات، وحتى في الجليل نفسه، نجد أن المنهج الإلهي، هو
دواء لكل مشاكل وأمراض المجتمعات على اختلافها⁽²⁾.

إن القرآن الكريم رفع شأن العلم والعلماء ووجه الإنسان إلى النظر في الكون وكل ما فيه، فهذا
الكون هو كتاب الله المفتوح وهو المعجزة الكبرى التي ستظل البشرية في محاولات لمعرفة أسرارها إلى يوم

1 - المعجزة: نظرية في الإعجاز القرآني: عدنان الرفاعي، ص 253، بتصرف.

2 - المرجع نفسه: ص 254.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية
القيامة.. وجاء في القرآن أكثر من 800 آية⁽¹⁾ تشير إلى حقائق كونية لم يكشف العلم عنها إلا في
السنوات الأخيرة بعد وصول الإنسان للقمر ومعرفة تكوين الذرة والنسبية والجاذبية وكروية الأرض وتعدد
الشموس والأقمار وحركة الأرض ونشأة الكون وتمدده وانشقاق القمر وتكور الشمس، حقائق مذهلة لم
تكن تخطر على بال أحد في العصر الذي نزل فيه القرآن..

والحقيقة المطلقة هي أن القرآن لم ينزل على أنه كتاب جيولوجيا أو فلك أو غيرها من العلوم وإنما
هو كتاب هداية وإرشاد للبشرية الحائرة ودستور أو نظام حياة للإنسانية: «يجب علينا أن لا ننسى الوظيفة
الأساسية التي جاء من أجلها، ألا وهي هداية البشر ورسم المنهاج القويم، فلا يجوز لنا بعد أن نتحرف عن
الوظيفة الأساسية لكتاب الله، وتحميل الآيات مالا تطبيق من المعاني العلمية التي لم تسق الآية من أجلها ولا
نزلت ليأتها، وإنما هي من أوهام القارئ، وربما انقلبت إلى ضرب من التأويل الباطني الباطل، كما لا يجوز
لنا في نفس الوقت، أن نحمد على معارفنا القديمة الضيقة وتفسيراتنا الجزئية المحدودة المبنية على تلك
المعلومات القديمة... مما يؤدي في النتيجة إلى فهم القرآن فهما غير سليم في ضوء المعارف الحديثة، وفي
الآيات التي لها مساس بالعلوم»⁽²⁾.

فالحكمة ضالة المؤمن، أبقاها التقطها.. والقرآن أنزل معجزة لكل زمان وجيل ومكان ولم
يكن إعجازه قاصرا على الجيل الأول، ولذلك كان لا بد لهذا الجيل المعاصر أن يجد في القرآن المعجزة ولن
فاته الوقوف عليها عن طريق اللغة، فلن يفوته الوقوف عليها عن طريق العلوم المعاصرة.

وإذا ما أخذنا نماذج تطبيقية، فإننا سنرى مقدار وضوح الإعجاز القرآني اللغوي والعلمي في
الآيات القرآنية التالية:

- قال الله تعالى ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽³⁾.

إن الكلمة القرآنية بمجموع حروفها هي واحدة وصف وتسمية⁽⁴⁾، تصف المسمى وصفا مطلقا
يرتبط بعلم الله تعالى المطلق غير المحكوم لقوانين المكان والزمان.. لذلك فالكلمة القرآنية التي تصف الشيء،
تعطي لكل جيل ما يناسب علمه وحضارته حول ماهية الشيء الذي تصفه دون أن يناقض ذلك المفاهيم
التي تعطيها هذه الكلمة لغيره من الأجيال⁽⁵⁾.

- 1 - بلغ عدد الآيات القرآنية الكريمة التي تحتوي على إشارات علمية حوالي 1200 آية أي نسبة 20% تقريبا من المجموع الكلي لعدد آيات
القرآن الكريم والبالغ (6236) آية، ينظر العلوم في القرآن الكريم: محمد جميل الخيال ومقلاد مرعي الخوارزمي، ص 09.
- 2 - المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو ص 150.
- 3 - سورة النازيات: الآية 49، وينظر المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 09.
- 4 - المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 22.
- 5 - الحق المطلق نظرية في الروح القرآنية: عدنان الرفاعي، ص 75.

فالكلمة القرآنية ترتبط ارتباطا تاما، بجذورها اللغوية التي تفرعت عنها، وهذا يعني أنه يوجد للجذر اللغوي في القرآن الكريم معنى عند الله تعالى، فهو وصف مطلق لحقيقة وماهية المسألة التي يصفها، وجميع مشتقات هذا الجذر تدور ضمن إطار الوصف الذي يحمله هذا الجذر... وإن عدم إدراكنا نحن المخلوقات -أحيانا- للرباط بين المسألة التي يصفها الجذر اللغوي وبين المسائل التي تصفها مشتقاته اللغوية ناتج عن عدم إدراكنا لماهية المسائل الموصوفة بهذه الكلمات... فنحن موجودون في عالم مخلوق له ماهيته الخاصة به ونتفاعل مع المسائل التي تصفها الكلمات القرآنية وفق قوانين هذا العالم المخلوق.. بينما تحمل الكلمات القرآنية وصفا للمسائل يرتبط بصفات الله تعالى المطلقة المحيطة إحاطة مطلقة بماهية المسائل الموصوفة.

وهذا لا يعني أن نذهب بعيدا في تأويل مشتقات الجذر تأويلا نخرج به عن الحق والصواب إن ما نعبه هو الاستفادة -أثناء بحثنا- من باقي مشتقات الجذر الذي تفرعت عنه الكلمة المدروسة، من أجل الوصول إلى إدراك حقائق يقرها القرآن الكريم، ولا نخرج عن الأحاديث الصحيحة التي بينها لنا الرسول صلى الله عليه وسلم، والتي أتت تفسيرا لكليات المسائل التي يحملها القرآن الكريم⁽¹⁾.

وهكذا فإن ارتباط الكلمة القرآنية بمعنى جذرها اللغوي، هو ارتباط الفرع بالأصل، وإدراك الحقيقة النهائية المحيطة بذلك، لا بد من علم مطلق بماهية وجود المسائل، ولا بد من صفات مطلقة تحيط بالقول الذي يصف هذه المسائل، وهذا لا يكون إلا الله تعالى.. فالله تعالى العالم عندما مطلقا بماهية المسائل التي هي آثار صفاته العظيمة في هذا العالم المخلوق، هو ذاته جل وعلا قائل القرآن الكريم، فهو ذاته مسميها (المسائل الموصوفة والمسماة بالكلمات القرآنية) وصفا وتسمية مطلقين يتناسبان مع علمه وجميع صفاته المطلقة⁽²⁾.

وكلما تقدم علمنا كلما ارتقينا في إدراك الرباط الذي يربط المسميات القرآنية للأشياء بماهية هذه الأشياء، وبروح المعنى للجذر اللغوي الذي تفرعت عنه هذه المسميات القرآنية.

وستعرض الآن لهذه الآية الكريمة لنلقي الضوء على هذه الحقيقة ولنرى كيف أن الكلمة القرآنية لا تخرج عن روح المعنى الذي يحمله جذرها اللغوي، وأن جميع مشتقات الجذر الواحد تدور ضمن إطار المعنى الذي يحمله هذا الجذر، ولنرى أيضا كيف أنه لا ينوب جذر لغوي مكان جذر آخر، فلا توجد كلمة قرآنية مرادفة لكلمة أخرى تنتمي لجذر آخر، بالمعنى المطلق الذي يتخينه بعض البشر.

لقد تكرر ذكر خلق الأزواج في القرآن الكريم من أوله إلى آخره، مرات كثيرة، وفي جوانب متعددة من جوانب الحياة، بل نصت بعض الآيات على أن كل شيء خلق في هذا الكون خلق على قانون الزوجية.

1 - الحق المطلق نظرية في الروح القرآنية: عدنان الرفاعي، ص 78، بتصرف.

2 - المرجع نفسه: ص 79.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية

فقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾⁽¹⁾.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْنَا فِيهَا زَوْجَيْنِ﴾⁽²⁾.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾⁽³⁾.

وقال جل وعلا ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽⁴⁾.

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾⁽⁵⁾.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾⁽⁶⁾.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽⁷⁾.

إلى آيات كثيرة في القرآن الكريم تتكلم عن الأزواج، وعن خلقها، وأن هذه الأزواج موجودة في جميع معالم الكون والحياة ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

إذن فالزوجية لا بد أن تكون موجودة في كل شيء يمكن للإنسان أن يضع يده عليه، وليست مقصورة على ما يكون من الذكر والأنثى في النبات أو الحيوان أو على ما يمكن أن يتصف بالذكورة والأنوثة ولو مجازاً؛ لأن الصيغة التي وردت من أبلغ صيغ العموم، وأكملها ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽⁸⁾.

وحينما نستعرض رأي علماء السلف وأقوالهم في الزوجين نجد أن فهمهم لهذه الآية كان ضمن طاقاتهم وإمكاناتهم ومعارفهم، فيما وضعوا عليه أيديهم من معالم الكون والحياة. حيث فسرها الطبري عن مجاهد، بأنها بمعنى الكفر والإيمان والشقاوة والسعادة والهدى والضلالة والليل والنهار والسماء والأرض والإنس والجن، وروى عن الحسن البصري أنه قال في هذه الآية: الزوجان هما الشمس والقمر

1 - سورة الحج: الآية 05.

2 - سورة الرعد: الآية 03.

3 - سورة الشعراء: الآية 07.

4 - سورة الناريات: الآية 49.

5 - سورة النجم: الآية 45.

6 - سورة الزخرف: الآية 12.

4- سورة يس: الآية 36.

8 - ينظر المعجزة: عدنان الرفاعي، ص 65.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية
وروي عن ابن زيد أنه قال فيها: هما الذكر والأنثى.. ثم قال الطبري "وأولى الأقوال في ذلك قول
بجاهد، وهو أن الله تبارك وتعالى خلق لكل ما خلق من خلقه ثانيا له مخالفا في معناه فكل واحد منهما زوج
للآخر ولذلك قيل زوجين.

وإنما نبه جل ثناؤه خلقه على قدرته على خلق ما يشاء خلقه من شيء، وأنه ليس كالأشياء التي
شأنها فعل نوع واحد دون خلافه، إذ كل ما صنعه فعل نوع واحد دون ما عداه، كالنار التي شأنها
التسخين ولا تصلح للتبريد، وكالثلج الذي شأنه التبريد ولا يصلح للتسخين، فلا يجوز أن يوصف بالكمال
وإنما كمال المدح للقادر على فعل كل ما يشاء من الأشياء المختلفة والمتفقة...»⁽¹⁾.

وذكر الرمخشري ما نصه: " (ومن كل شيء) أي من كل شيء من الحيوان (خلقنا زوجين) ذكرا
وأنثى وعن الحسن: السماء والأرض والليل والنهار، والشمس والقمر والبر والبحر، والموت والحياة فعدد
أشياء وقال: كل اثنين منها زوج، والله تعالى فرد لا مثل له (لعلكم تذكرون) أي فعلنا ذلك كله من بناء
السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدون" ⁽²⁾.

وذكر ابن كثير ما مختصرة: "ومن كل شيء خلقنا زوجين" أي جميع المخلوقات أزواج سماء
وأرض، ليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر وضياء (نور) وظلام وإيمان وكفر وموت وحياة وشقاء
وسعادة، وجنة ونار حتى الحيوانات والنباتات ولهذا قال تعالى (لعلكم تذكرون) أي لتعلموا أن الخالق واحد
لا شريك له...." ⁽³⁾.

وجاء في تفسير القاضي أبي السعود ما نصه: (ومن كل شيء) أي من الأجناس (خلقنا زوجين) أي
نوعين ذكرا وأنثى، وقيل متقابلين: السماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر ونحو ذلك
(لعلكم تذكرون) أي فعلنا ذلك كله كي تتذكروا فتعرفوا أنه خالق الكل ورازقه وأنه المستحق للعبادة،
وأنه قادر على إعادة الجميع فعملوا بمقتضاه» ⁽⁴⁾.

وجاء في تفسير الجلالين ما مختصره: «ومن كل شيء» يتعلق بقوله خلقنا (خلقنا زوجين) صنفين
كالذكر والأنثى، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والسهل والجبل، والصيف والشتاء والحلو والحامض

1 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري، ج27، ص 08 .

2 - الكشاف: الرمخشري، ج04، ص 394.

3 - تفسير القرآن العظيم: ابن كثير ج04، ص 2723.

4 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: تفسير أبي السعود، ج06، ص 140.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية
والنور والظلمة (لعلكم تذكرون) بحذف إحدى التاءين من الأصل (تذكرون) فتعلمون أن خالق الأزواج
فرد فتعبّدونه»⁽¹⁾.

وذكر صاحب الظلال ما نصه: "وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض
وربما في هذا الكون إذ أن التعبير لا يخص الأرض بقاعدة الزوجية في الخلق، وهي ظاهرة في الأحياء
"ولكن كلمة (شيء) تشمل غير الأحياء أيضا والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس
الزوجية".

"وحيث نتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنا، وأن فكرة عموم الزوجية حتى في
الأحياء لم تكن معروفة حينذاك، فضلا عن عموم الزوجية في كل شيء.. حيث نتذكر هذا نجد أننا أمام
أمر عجيب عظيم.. وهذا يطلّعنا على الحقائق الكونية في هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير!"⁽²⁾.
"كما أن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الحديثة السائرة في طريق الوصول إلى الحقيقة،
وهي تكاد تقرر أن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء، موجب
وسالب! فقد تكون تلك البحوث إذن على طريق الحقيقة في ضوء هذا النص العجيب".

"وفي ظل هذه اللمسات القصيرة العبارة المائلة المدى، في أجواء السماء وفي آماذ الأرض، وفي
أعماق الخلائق، يهتف بالبشر ليفروا إلى خالق السماء والأرض والخلائق، متحدرين من كل ما يثقل
أرواحهم ويقيدها.. موحدين الله الذي خلق هذا الكون وحده بلا شريك"⁽³⁾.
وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ما نصه: "زوجين" نوعين متقابلين كالليل والنهار والسماء
والأرض، والهدى والضلال إلى غير ذلك"⁽⁴⁾.

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ما نصه: "ومن كل شيء خلقنا صنفين مزدوجين
لعلكم تذكرون فتؤمنوا بقدرتنا"⁽⁵⁾.

وجاء في صفوة التفاسير ما نصه: "(ومن كل شيء خلقنا زوجين) أي ومن كل شيء خلقنا صنفين
ونوعين مختلفين ذكرا وأنثى وحلوا وحامضا ونحو ذلك (لعلكم تذكرون) أي كي تتذكروا عظمة الله
فتؤمنوا به ولتعلموا أن خالق الأزواج واحد أحد"⁽⁶⁾.

1 - تفسير الجلالين: ص 639، ط 01، دار الكتاب العربي، بيروت، 1404هـ-1984م.

2 - في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 27، ص 3385.

3 - المصدر نفسه: ج 27 ص 3386.

4 - صفوة البيان لمعاني القرآن: حسين محمد مخلوف، ج 02، ص 357، ط 01، دار الفكر، بيروت، لبنان.

5 - المنتخب في تفسير القرآن الكريم لجنة القرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر.

6 - صفوة التفاسير: محمد بن علي الصابوني، ج 17، ص 13، دار القرآن الكريم، 1401هـ-1981م.

لقد تبعنا بعض كتب المفسرين على اختلاف مناهجهم من السلف والخلف إلى عصر النهضة العلمية وجدناها متفقة تقريبا على هذا الذي قاله الإمام الطبري - رحمه الله تعالى - مع توسع بعضهم في تعداد الأنواع التي لها ضد أو نقيض، أو ند أو شبيه واختصار بعضهم الآخر واكتفائه بذكر الذكر والأنثى، وهذا هو الذي كانوا يشاهدونه أو يعلمونه - رضي الله عنهم -.

ولكن هل هذا الذي ذكره هو كل ما نستفيدة من هذه الآيات التي تتحدث عن خلق الزوجين؟ الجواب وبكل تأكيد: لا، وهذا الذي يشير إليه تعالى في سورة يس ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾.

إذن فليس الأمر في خلق الزوجين مقصورا على ما كان معروفا للناس في القدم. وإنما هناك أشياء أخرى خلقها الله زوجين زوجين، مما لم يعرفه الإنسان القدم وكشفت عنه العلوم الحديثة بوسائلها العلمية الدقيقة المذهلة المعاصرة التي أعطت الإنسان من القدرة على الإدراك أضعاف ما كان يملكه الإنسان القدم آلاف المرات، من المجاهر الإلكترونية والمقاييس الدقيقة الحساسة وسفن الفضاء، والقوانين العلمية.

فلقد توصل العلماء في العصر الحديث إلى إدراك الكثير والكثير من خلق الأزواج مما كان مجهولا في الماضي، ومما نفهم به معنى حديثا في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ بل لنفهم من هذه الآية وما في معناها أنها يستحيل أن تكون من قول البشر وإنما هي من قول خالق الأرض والسماء، وعالم السر والعلن، إذ أخبرت عن الزوجية في أشياء لم يكن أهل العصر الأول يعرفونها، وإنما هي من معارف هذا العصر.

كما أخبرت الآيات التي في معناها بأن الزوجية في كل شيء يمكن للإنسان أن يضع يده عليه فإن أدرك الزوجية به، فبها ونعمت وإلا فسيذكرها الجيل أو الأجيال القادمة، بما يمكن أن يتوصلوا إليه من معارف ووسائل، ولذلك فإنه يجب عليه أن يتابع البحث عنها⁽²⁾.

لقد كشفت العلوم المعاصرة التي لم تكن معروفة للإنسان القدم عن معان ودلالات جديدة حول الزوجية في بعض الأشياء وليس كل الأشياء تأكيدا على قاعدة الزوجية المطلقة في خلق كل شيء من الأحياء والجمادات بمعنى أن الله تعالى خلق كل شيء في زوجية حقيقية وأن هذه الزوجية ظاهرة عامة في كل المخلوقات، وعلى جميع المستويات: "من اللبنة الأولية للمادة إلى الإنسان وإلى مختلف وحدات الكون، وأنها سمة من سمات التناسق والتناغم والتوافق في الخلق وشاهدة ناطقة بالوحدانية المطلقة للخالق

1 - سورة يس: الآية 36.

2 - المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 240.

..... نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية سبحانه وتعالى تلك الوجدانية المطلقة التي تؤكد أن الخالق سبحانه وتعالى فوق جميع خلقه⁽¹⁾. وهو الذي وصف ذاته العلية بقوله الحق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾⁽²⁾.

كما وصف هذه الذات العلية بأمره الواضح الصريح إلى خاتم أنبيائه ورسله -صلى الله عليه وسلم- ومن ثم إلى كل مؤمن بالله أن يردد في كل وقت وفي كل حين ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾⁽³⁾.

إن كلمة "شيء" في آية الذاريات فيها شمول مطلق للزوجية في الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وهذه الزوجية في الخلق الناطقة بوجدانية الخالق سبحانه وتعالى حقيقة قرآنية ظهر إعجازها وشمولها في كل شيء:

- 1- الزوجية من ذكر وأنتى في الكائنات الحية من الإنسان إلى كل من الحيوان والنبات وفي الخلايا الجسدية لكل جنس.
- 2- الزوجية في الخلايا التناسلية بنوعيتها: الذكرية والأنثوية.
- 3- الزوجية في النطفة الذكرية التي قد تحمل صبغي التذكير (Y) أو صبغي التأنيث (X).
- 4- الزوجية في أعداد الصبغيات الموجودة في نواة الخلية الحية.
- 5- الزوجية في حاملات الوراثة -المورثات أو الناسلات أو الجينات- الموجودة على كل صبغي من الصبغيات.
- 6- الزوجية في بناء جزئ الحمض النووي 18.6 بليون قاعدة كيميائية في جدارين متقابلين تفصلهما سلميات متتابعة تتكون كل سلمية منها من زوج من القواعد النيتروجينية.
- 7- الزوجية في ترابط كل قاعدتين من القواعد النيتروجينية الأربعة البانية لسلميات الحمض النووي (DNA) وتعرف بالرموز (A.,T.C.G).
- 8- الزوجية في ترابط جزئ سكر الريبوز، -وهو جزئ عضوي- مع جزئ الفوسفات -وهو جزئ غير عضوي- لتكوين جدار جزئ الحمض النووي (DNA)⁽⁴⁾.
- 9- الزوجية في بناء كل من الأحماض الأمينية والبروتينات المجتمعة منها في صورها اليمينية واليسارية.

1 - النبات في القرآن: زغلول النجار، ج04، ص 158، ط02، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، سنة 2005.

2 - سورة الشورى: الآية 11.

3 - سورة الإخلاص: الآيات 1-2-3.

4 - النبات في القرآن الكريم: زغلول النجار، ج04، ص 159.

- 10- الزوجية في بناء البروتينات وأضدادها (PROTEINES AND ANTIPROTEINS) ⁽¹⁾.
- 11- الزوجية في بناء الجزئ الكيميائي للمادة بشقيه: الموجب والسالب (CATION AND ANION).
- 12- الزوجية في الذرة بنواتها التي تحمل شحنة موجبة وإلكتروناتها التي تحمل شحنة سالبة (ELEMENTARY PARTICLES AND THEIR COUNTERS).
- 13- الزوجية في الجسيمات الأولية للمادة وأضدادها.
- 14- الزوجية في اللينات المكونة للجسيمات الأولية للمادة وأضدادها.
- 15- الزوجية في المادة ونقيض المادة (MATTER AND ANTI MATTER).
- 16- الزوجية في شحنات الطاقة الموجبة والسالبة.
- 17- الزوجية في كل من المادة والطاقة وهما وجهان لعملة واحدة ولجوهر واحد يشير إلى وحدانية الخالق العظيم ⁽²⁾.
- ويستطيع المتأمل في الكون أن يستمر في هذا السياق إلى ما لا نهاية، ليؤكد على حقيقة الزوجية المطلقة في كل من أمر من أمور هذا الكون: دق أم عظم، وليكون في ذلك شهادة بأن الوحدانية المطلقة هي لله الخالق وحده، لا يشاركه فيها شريك ولا ينازعه عليها منازع فهي من صفات الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وكل صورة من صور الزوجية تلك تحتاج إلى تفصيل، ولذلك فسوف أختار هنا بعض النماذج منها فقط في السطور التالية:
- 1- الزوجية في الكائنات الحية:
- تتكاثر الكائنات الحية من الإنسان والحيوان بالتزاوج بين ذكر وأنثى ويعرف ذلك باسم «التكاثر الجنسي» الذي تأتي فيه نصف الصفات الوراثية للجنين من الأب وخط الأب إلى أبينا آدم -عليه السلام- والنصف الآخر من الأم وخط الأم إلى أمنا حواء -عليها السلام-.
- فالتركيب الوراثي للخلية الجسدية في الإنسان على سبيل المثال تحمل نفس عدد الصبغيات في كل من الذكر والأنثى ويختلفان في الصبغيات المحددة للجنس فقط.
- فخلية الذكر الجسدية تحمل (46) صبغياً منها صبغيان جنسيان أحدهما مذكر (Y) والآخر مؤنث (X) بينما تحمل الخلية الجسدية في الأنثى نفس عدد الصبغيات (46) منها صبغيان أنثويان (XX) أما الخلايا التناسلية فتحمل نصف عدد الصبغيات الموجودة في الخلية الجسدية فالحيوان المنوي يحمل 23

1 - النبات في القرآن: زعلول النجار، ج4، ص 159.

2 - المعجزة القرآنية: محمد حسن هينو ص 237-250.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية

صيفيا، وكذلك البويضة، وفي الحيوان المنوي يكون أحد الصبغيات محمدا للصفات الجنسية ويكون إما مذكرا (Y) (22 + Y) وإما مؤنثا (X) (22+X) وعلى ذلك فإن طبيعة الحيوان المنوي (22 + Y) أو (22 + X) هي التي تحدد بتقدير مسبق من الله تعالى جنس الجنين ذكرا أو أنثى⁽¹⁾.

وفي معظم حالات الحيوان والنبات تكون الذكور والإناث منفصلة عن بعضها البعض وفي بعض الحيوانات البسيطة توجد الخلايا الذكرية والأنثوية في جسد الفرد الواحد الذي يقايس خلاياه الذكرية مع فرد آخر، وفي التكاثر الجنسي قد يتم الإخصاب في داخل الجسم أو في خارجه.

أما الكائنات الحيوانية الأكثر بساطة فتتكاثر بالانشطار، أو بالتبرعم أو التجزؤ أو بالتجدد أي التراكم أو بالتوالد العذري أي من دون إخصاب، ويعرف كل ذلك بـ: «التكاثر غير الجنسي»

وقد يتبادل الحيوان الواحد كلا النوعين من التكاثر في دورة حياته التي تعرف باسم "دورة تبادل الأجيال" ومن معرفتنا بالزوجية في كل من اللبنة والجسيمات الأولية للمادة، نستطيع أن نجزم بأن صورة من صور الزوجية تتم في حالات التكاثر غير الجنسي.

وفي النبات تتضح الزوجية بشكل بين في الأنواع المنتجة للأزهار والمعروفة باسم -النبات المزهرة- والتي يزيد عددها على الربع مليون نوع، وأزهارها التي تنتج عن تفتح براعمها تحمل أعضاء التكاثر من الخلايا الذكرية والأنثوية التي قد توجد في زهرة واحدة، أو في زهرتين مختلفتين على نبات واحد، وقد يكون من النبات الواحد الذكر والأنثى.

وتؤدي عملية الإخصاب في النباتات المزهرة، إلى إنتاج البذور، وتحتوي كل بذرة على جنين النبتة الجديدة، ومخزون من الطعام قدره الخالق المبدع لهذا الجنين حتى ينمو إلى نبتة الكاملة والقادرة على تجهيز غذائها بما وفر الله تعالى لها من قدرات، وتحفظ البذور عادة في الثمرة أو قد تكون هي الثمرة⁽²⁾.

أما النباتات غير المزهرة فتتكاثر بالنوعين الجنسي وغير الجنسي على مرحلتين في دورة واحدة تعرف باسم "دورة تبادل الأجيال"، في المرحلة الأولى منها ينتج النبات كلا من الخلايا الجنسية الذكرية والأنثوية، وتنفصل الخلايا الذكرية وتتحرك في الأوساط المائية للوصول إلى خلية أنثوية من نبات آخر من نفس النوع والقيام بتلقيحها وإخصابها بالاتحاد معها، وفي الدورة الثانية ينتج النبات خلايا تناسلية اسمها "الأبواغ" تتناثر عن النبات الحامل لها عند نضجها، وتنمو في الأوساط المناسبة لها نباتا جديدا⁽³⁾.

1 - المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 255-257، وينظر أسرار الكون في القرآن: داوود سليمان السعدي، ص 241، ط02، دار الحرف العربي، بيروت، 1420هـ-1990م.

2 - النبات في القرآن الكريم: زغلول النجار، ج04، ص 161.

3 - المرجع نفسه: ج04، ص 162.

2- الزوجية في الخلايا التناسلية الذكورية والأنثوية :

أعطى الخالق سبحانه وتعالى لجسم الذكر البالغ القدرة على إنتاج خلايا جنسية ذكورية تعرف باسم «الحيوان المنوي أو الحيمن» كما أعطى لجسم الأنثى القدرة على إنتاج خلايا جنسية أنثوية تعرف باسم البويضة أو "البيضة" -تصغير بيضة-.

وهذان الزوجان من الخلايا التناسلية إذا اتحدا فإنهما يكونان معا نطفة مختلطة⁽¹⁾ -نطفة أمشاج- تبدأ في الإنقسام المطرد حتى تتكون التوبئة التي تنغرس في جدار الرحم وتتغذى الأم، وتنمو بالتدرج في مراحل محددة ومتعاقبة حتى يتم تخليق مولود جديد بإذن الله تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾⁽²⁾.

3- الزوجية في النطفة الذكرية ذاتها:

كما سبق وأن أشرنا فإنه بالإضافة إلى الصبغيات الجسدية فإنه يوجد في كل حيوان منوي صبغي جنسي واحد إما (X) ويعني الأنوثة أو (Y) ويعني الذكورة، وتحتوي البيضة (البويضة) على نفس عدد الصبغيات الجسدية الموجودة في الخلية الذكرية بالإضافة إلى الصبغيات الأنثوية (X) بينما الحيوانات المنوية إما أن تحمل الصبغيات المذكر أو المؤنث، فإذا كان الحيوان المنوي الذي أحصب البيضة مما يحمل صبغيات الذكر جاء الجنين ذكرا بإذن الله، وإذا كان مما يحمل صبغيات الأنثى جاء المولود أنثى بإذن الله، وتؤكد هذه الآية الكريمة ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾⁽³⁾.

أي فجعل من نطفة الرجل الذكر والأنثى وتفسيره الآية الأخرى ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾⁽⁴⁾. فالآية صريحة في أن الذكر والأنثى من نطفة الرجل ومنيه، وأن هذا المنى يحمل الذكور

1 - لم يكن الناس في الماضي يعرفون شيئا عن حقيقة بداية خلق الإنسان وتكوينه في رحم أمه ففي عام 1839 قدم "شليدن" و "شوان" نظريتهما المتعلقة بالخلية. وفي عام 1859 عرف العلماء أن الحيوان المنوي ليس إلا خلية حية وكذلك البويضة، وفي عام 1875 تمكن "هيرنوج" من اكتشاف تلقيح الحيوان المنوي للبويضة وأن الجنين يتكون منهما. وفي عام 1883 تمكن "باندن" من إثبات اكتشاف سابقه "هيرنوج" وأن كلا من البويضة والحيوان المنوي يساهمان بالتساوي في تكوين البويضة الملقحة كما أثبت "بوقري" عام 1909 الكروموسومات وانقسامها وخصائصها. وفي عام 1912 تمكن "مورجان" من اكتشاف الجينات وعملها، وهكذا بقي العالم يتخبط قرونا طويلة في أمر الجنين وتكوينه إلى أوائل القرن العشرين، حيث تمكن العلماء من اكتشاف الخلية الأولى المتكونة من البويضة الملقحة بالحيوان المنوي حيث تختلط فيها الكروموسومات مكونة الخلية الأمشاج، ينظر المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 277.

2 - سورة الإنسان: الآية 02، وينظر الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، ص 197.

3 - سورة القيامة: الآيات 36-39.

4 - سورة النجم: الآيات 45-46، ينظر الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، ص 199.

إلى جانب الإناث أزواجاً أزواجاً⁽¹⁾.

4- الزوجية في الصبغيات نفسها:

توجد الصبغيات في نواة الخلية الحية على هيئة خيوط متشابكة من مادة تسمى باسم المادة المصبوغة أو كروماتين (CHROMATIN) تعطي للنواة مظهراً شبكياً أو حبيبياً وتتكون هذه الصبغيات إلى حد كبير من الحمض النووي المعروف باسم الحمض النووي الريبي المنقوص الأكسجيني أو الحامض الرايبوزي غير الأكسجيني (DEOXYRIBONUCLEIC ACID OR DNA) الذي تكتب به الشفرة الوراثية للخلية، بالإضافة إلى كم من البروتينات بنسب متساوية تقريباً.

وكل واحد من هذه الصبغيات -التي يعتبر عددها من العوامل المحددة للنوع- يتكون من شريطين متصلين ببعضهما بجزء دقيق يعرف باسم شريط اللحمة المركزية أو القطعة المركزية (CENTRO MERE) له مكان محدد على كل صبغي، يكون أحياناً قريباً من وسط الصبغين، وغالباً ما يقع قرب أحد طرفيهما، وهذه صورة من صور الزوجية المبهرة في الخلق⁽²⁾.

وهكذا نرى أن هذا الأمر قد فاق التصور، وتجاوز حدود الخيال، وكأنها كلمة السر فيه وهي التي حيرت المفكرين والعباقرة وعلماء الحياة.

فما هو سر هذه الشرائط التي سجلت عليها ملايين الصفات، والتي جاءت أزواجاً، وما هي حقيقتها وهل هي أيضاً احتوت على سر آخر من الأزواج في تركيبها جاء وراء ظهورها أزواجاً؟
الجواب: نعم، وبكل تأكيد طبقاً لقانون الله الأزلي⁽³⁾ «وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»⁽⁴⁾

5- الزوجية في وحدات الوراثة (المورثات أو الناسلات أو الجينات)

تتوزع وحدات الوراثة على طول كل واحد من الصبغيات على هيئة قطع منفصلة من الحمض النووي الريبي المنقوص الأكسجين (DNA) في زوجية واحدة؛ لأن أحد هذه المورثات يأتي إلى الجنين من جهة الأب والآخر يأتيه من جهة الأم.

6- الزوجية في بناء جزئ الحمض النووي، وفي بناء كل من سلمياته وجداريه:

بالدراسة اتضح أن كل جزئ من جزئيات الحمض النووي الريبي المنقوص الأكسجين (DNA) يبني على هيئة سلم حلبي مفتول، أو ما يعرف باسم «اللولب المزدوج» (DOUBLE HELIX) تتضح

1 - المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 251-254 بتصرف.

2 - النيات في القرآن الكريم: زغلول النجار، ج 04، ص 163، وينظر الإعجاز العلمي في القرآن: حسن حطيط، ص 28-29.

3 - المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 266-267.

4 - سورة النازيات: الآية 49.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية
فيه الزوجية في جانيه المصنوعين من جزئيات سكر الريبوز المنقوص الأكسجين وجزئيات من الفوسفات،
كما تتضح الزوجية في درجات هذا السلم الجلي المفتول والتي تتكون كل درجة من درجاته من زوج من
قواعد نيروجينية⁽¹⁾ أربع هي:

الأدينين (ADENINE=A) والثيامين (THYAMINE=T) والجوانين (GUANINE=G) والسيتوسين (CYTOSINE=C) على أن يرتبط الأولان في زوجية واضحة معا (A.T) وأن يرتبط
الأخيران كذلك معا (G.C) ومعا فقط في زوجية واضحة كذلك، ليشكل كل زوج منهما درجة من
سلميات جزئ الحمض النووي الربي المنقوص الأكسجين (DNA) على شكل نويدتين (TWO
NUCLEOTIDES) تتكون كل منهما من قاعدة نيروجينية (NITROGENOUS BASE) مستندة
إلى زوج من السكر والفوسفات تأكيدا على الزوجية في الخلق من أدق الدقائق إلى أكبر الوحدات⁽²⁾.

7 - الزوجية في بناء كل من الأحماض الأمينية والبروتينات:

تعد الأحماض الأمينية (AMINO ACIDS) الوحدة البنائية الأساسية لمختلف جزئيات المواد
البروتينية (PROTEIN MOLECULES) التي تبني منها أحساد الكائنات الحية.
والأحماض الأمينية من الأحماض الدهنية، التي تذوب في الماء بسهولة في أغلب الأحيان، ولها في
حالتها المتبلورة نشاط ضوئي ملحوظ بسبب احتواء جزئياتها على ذرة كربون محاطة بأربع مجموعات
مختلفة هي:

مجموعة الأمين (NH₂)

مجموعة الكربوكسيل (COOH)

مجموعة الحمض (R)

ذرة أيدروجين (H)

ولذلك فالجزء غير متماثل، وتتحرك هذه المجموعات لتتبادل الأوضاع حول ذرة الكربون فقد
توجد مجموعة الأمين (NH₂) في مواضع مختلفة بالنسبة لمجموعة الكربوكسيل.
ونظرا لعدم تماثل جزئ الحمض الأميني فإن كل واحد من الأحماض الأمينية يمكن أن يوجد في
شكلين أحدهما يدير مستوى الضوء المستقطب إلى اليمين ويعرف باسم (الشكل اليميني) (RIGHT

1 - لقد أثبت العالمان (جيمس وانسون) المتخصص في علم البيولوجيا و (فرنسيس كريك) المتخصص في علم الفيزياء الكيميائية وتمكنا عام
1952، من اكتشاف حقيقة الأشرطة - التي تتكون منها الحية - التي تحفظ أسرار الحياة والصفات الخاصة للكائن الحي، أنها تتكون من عناصر

الأرض، وذلك لأن الإنسان خلق منها. ينظر المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، 268-269.

2 - المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 270.

(HANDED ISOMER) والشكل الآخر يديره إلى اليسار ويعرف باسم (الشكل اليساري) (LEFT HANDED ISOMER) (1).

وقد ثبت أن الأحماض الأمينية في أجساد جميع الكائنات الحية -الباتية والحيوانية والإنسية- هي من الأشكال المرتبة ترتيبا يساريا، فإذا ما مات الكائن الحي فإن الأحماض الأمينية اليسارية الترتيب في بقايا جسده تبدأ بإعادة ترتيب الذرات في داخل جزئياتها من الترتيب اليساري إلى الترتيب اليميني بمعدلات ثابتة حتى يتساوى الشكلان، ويعرف هذا الخليط باسم «الخليط الراسيمي (MIXTURE RACEMIC) وهو خليط لا يمكنه تحريك مستوى الضوء المستقطب، ولكنه يمثل صورة من صور الزوجية في أضيق صورها. ويمكن استخدام نسبة الشكلين اليميني واليساري للحمض الأميني الواحد في بقايا؛ أي من النبات أو الحيوان أو الإنسان في تحديد لحظة وفاته بدقة بالغة نظرا لثبات معدلات التحول من الشكل اليساري إلى الشكل اليميني.

ويعرف العلماء من الأحماض الأمينية الباتية للبروتينات عشرين نوعا كل منها يمثل زوجية واضحة، وبتحاد هذه الأحماض الأمينية العشرين يمكن بناء أكثر من مليوني نوع من أنواع البروتينات.

والحلية الحية في جسم الإنسان قد أعطاهما الله تعالى القدرة على إنتاج مائتي ألف نوع من أنواع هذه البروتينات، وبالمثل فإن كل جزئ من جزئيات البروتينات العديدة يمكن أن يكون له شكل يميني وأحمر يساري، وهي في أجساد جميع الكائنات الحية من الشكل اليساري. وكذلك النويدات (NUCLEOTIDES) على الصبغيات وهي أصغر وحدات الحمض النووي الريبسي والريبي المراسل (DNA MRNA) فإن منها اليميني واليساري، وكلها في أجساد الكائنات الحية من الشكل اليميني.

وفوق ذلك فإن هناك (الشفيرات GODONS) التي تتكون الواحدة منها من ثلاث نويدات وهناك "السيسترونات (CISTRONS) التي تتكون من عدة مئات إلى عدة ألوف من النويدات وهي الوحدات الوراثية الوظيفية في حاملات الوراثة (أو الجينات)، وكل واحد من هذه الوحدات الوراثية له نظيره، وكل واحد من البروتينات المعرفة له ضده PROTEINS ANTI PROTEINS وكل جسم من الأجسام المكونة من البروتينات له ضده. BODIES AND ANTIBODIES بالإضافة إلى أن من البروتينات بروتينات بانية وأخرى هادمة CONSTRUCTIVE PROTEINS AND (DESTRUCTIVONES) (2).

1 - النبات في القرآن الكريم: زغلول النحار، ج 04، ص 164.

2 - المرجع نفسه: ج 04، ص 165.

8- الزوجية في المادة وفي مركباتها:

الزوجية في الخلق، حقيقة قرآنية ظهر إعجازها وشمولها بعد اكتشاف المادة المضادة⁽¹⁾ فالزوجية لا بد أن تكون موجودة، في كل شيء يمكن للإنسان أن يضع يده عليه، وليست مقصورة على ما يكون من الذكر والأنثى في النبات والحيوان، أو على ما يمكن أن يتصف بالذكورة والأنوثة ولو مجازاً؛ لأن الصيغة التي وردت من أبلغ صيغ العموم وأكملها ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽²⁾.

وتتضح الزوجية في مركبات المادة في سياقها الموجب (CATION)، والسالب (ANION) كما تتضح في تركيب الذرة بنواتها التي تحمل شحنة موجبة والكترونات التي تدور حول النواة حاملة شحنة سالبة مكافئة.

وقد ثبت أن للمادة قرابة الثلاثين نوعاً من أنواع اللبنة الأولية، وكل واحدة منها لها نقيضها، كما أن الجسيمات الأولية للمادة لها لكل جسيم نقيضه، وأن المادة ككل لها نقيض المادة، وإذا التقت النقااض فإن كل واحد منها يفنى نظيره؛ لأنهما يتخليا عن طبيعتهما المادية، ويتحولان إلى طاقة تعلن عن فناء المادة.

ومن هنا كان الوجود والعدم، وكانت إمكانية الإيجاد من العدم أي الخلق على غير مثال سابق، وإمكانية الإفناء إلى العدم، ولا يقدر على ذلك أحد غير الإله الخالق سبحانه وتعالى⁽³⁾.

9- الزوجية في الإلكترون:

إن الإنسان أو أي كائن حي آخر، يتكون من أعضاء وهذه الأعضاء تتكون من أنسجة والأنسجة تتكون من خلايا، والخلايا تتكون من جزيئات، والجزيئات تتكون من ذرات والذرات تتكون من جسيمات وهذه الجسيمات تعتبر أصغر وحدة من وحدات المادة.

فجسيمات الذرة الأولية هي: البروتون، والنيوترون والإلكترون، أو بمعنى الموجب والمتعادل والسالب، ولقد كنا نسمع من أساتذتنا أن الله خلق من كل شيء زوجين، حتى الذرة خلقها الله من زوجين هما النواة والإلكترون الذي يدور حولها، أو هما السالب والموجب فيهما إلا أن هذه المعارف أصبحت بديهية وبدائية، وليست هي مما أريد الكلام عنه، وإنما هو أمر وراء الذرة، إنه أمر تكوين جسيماتها، في أصل خلقه الأول، لنضع أيدينا على سر جديد من أسرار الإعجاز الإلهي في خلقه وآياته⁽⁴⁾.

1 - من روائع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: عاطف المليجي ص 56..

2 - سورة الناريات: الآية 49.

3 - النبات في القرآن الكريم: زغلول النجاز، ج04، ص 166.

4 - المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 242، وينظر القدر: عدنان الرفاعي، ص 25-39.

وفي عام 1928 خرج العالم الرياضي الشاب بول ديراك⁽¹⁾ الإنجليزي، خرج على الملأ بنياً غريب مضمونه معادلة رياضية أصلية تتناول طبيعة الكون.

تنبأت هذه المعادلة بأن خلق الإلكترون لن يتأتى إلا عن طريق خلق الزوجين، وهو ما يعرف بالأوساط العلمية الفيزيائية، بهذا المعنى أيضا (PROCREATION) أي خلق الأزواج أو الزوجين. ولم يكن المراد بهذا أن الخلق يكون عن طريق إعطاء الإلكترونين أو بروتونين أو نيوترونين وإنما كان بمعنى خلق الإلكترون والإلكترون النقيض، علما أن هذه النقااض المادية لا يمكن أن يجتمع بعضها لا في الزمان ولا في المكان.

فبمجرد خلق الزوجين في عالمنا لا بد أن يهلك أحدهما الآخر ويفنيه حين التقائه إياه هذه هي المعادلة التي أتى بها بول ديراك، والتي تحمل هذا النبأ الغريب، مما جعل الناس لا يلقون لها بالا، إذ لم تكن عقولهم تهيأت لهذا بعد.

ولكن هل تحقق ما تنبأ به ديراك؟

لقد كان العلماء في الماضي يطلقون إلى الجو أجهزة علمية داخل بالونات لتسجيل سر الأشعة الكونية التي تأتي من السماء، وفي عام 1923م استقبل أحد العلماء الأمريكيين المهتمين بدراسة الأشعة الكونية، وهو كارل أندرسون⁽²⁾ استقبل مسارات هذه الأشعة على ألواح حساسة، وهذه المسارات بمثابة البصمات عند الإنسان، تحدد للعلماء صفات تلك الأشعة وطبيعتها وشحنتها وشخصيتها.

لقد لفت نظره من بين المسارات الكثيرة المسجلة مسيرة غريبة، ففي لحظة واحدة خاطفة ظهر على لوحه الحساس ولادة جسمين من نقطة واحدة، انطلق أحدهما إلى جهة اليمين وانطلق الآخر إلى جهة

1 - بول أدريان ديراك **Paul Adrien Maurice Dirac** ولد في 8 أغسطس من سنة 1902 في بريستول و توفي في 20 أكتوبر 1984 في تالاهاسي و هو فيزيائي بريطاني و أحد مؤسسي الفيزياء الكوانتية. قام بتطوير نظرية فيزيائية أعم تشمل في صلبها نظريات هايزنبرغ و شرودنجر كحالات خاصة. إعتد على أعمال باولي لإشفاق معادلة ديراك. تنبى بوجود البوزيترونات، الشيء الذي تم تأكيده سنة 1932. سنة 1933 تحصل مع شرودنجر على جائزة نوبل للفيزياء. في الرياضيات كان له أعمال كثيرة منها دالة ديراك أو ما يسمى ب دالة دلتا

<http://ar.wikipedia.org/w/index.php?title>

2 - **Carl David Anderson** est né le 3 septembre 1905 à New York et mort le 11 janvier 1991.

Il a reçu en 1936 le prix Nobel de physique pour la mise en évidence du positron, prédit par Paul Dirac

http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Special:Cite&page=Carl_David_Anderson&id=5593705

..... نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية
اليسار، مما جعل أندرسون حائرا في هذا المشهد إذ أن المسارين إلكترونيين يقينا، ولكن ما هو السبب الذي
جعلهما يتعدان ويفترقان أحدهما عن الآخر وكان أحدهما عدو لقرينه؟⁽¹⁾.

لم يتمكن أندرسون من معرفة السبب وذلك لأنه لم يكن قد اطلع، وقت مشاهدته لهذه الظاهرة
على معادلة ديراك الرياضية التي أشرنا إليها، والتي كان قد نشرها قبل ثلاث سنوات في إحدى المجلات
العلمية البريطانية، إذ لو كان قد اطلع عليها لما تحير تلك الحيرة فيما رأى وشاهد.
وجاء بعد أندرسون الأمريكي عالمان بريطانيان عرفا ما توصل إليه أندرسون عمليا بألواح
الحساسة، كما عرفا المعادلة التي أشار إليها ديراك قبله نظريا، وبجمعهما، بين نتيجة أندرسون العلمية
ومعادلة ديراك الرياضية النظرية، أدركا السر العظيم في مسار الإلكترونين، وأشار إلى أن معادلة ديراك التي
تنبأت بخلق الزوجين صحيحة تماما على ما أثبتته أندرسون بألواحه.

لقد كان ذلك اليوم الذي توصل فيه العلماء إلى تسجيل بداية خلق أصغر وأبسط زوجين في العالم،
كان يوما مشهودا في تاريخ العلم.

ومن أجل هذا الإكتشاف المثير الذي توصل إليه ديراك، من خلال معادلته العلمية الرياضية حصل
على جائزة نوبل في العام التالي لتحقيق ما تنبأت به معادلته، وهو بالنسبة لنا نحن المسلمين يعتبر يوما
مشهودا، إذ أثبت فيه العلم الحديث في أدق مباحثه وأبدع اكتشافاته، ما أخبر به القرآن الذي سبقت آياته
معادلة ديراك بأربعة عشر قرنا إذ قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽²⁾،
وقال ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثَبِّتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽³⁾.
نعم... إنه ليوم مشهود لنا نحن المسلمين، إذ ثبت للعالم أجمع أن هذا القرآن لم يكن من صنع البشر،
وإنما هو الآية القاطعة الناطقة بأنه من صنع خالق الكون والإنسان والحياة، والعالم بكل صغيرة وكبيرة، مما
خلق على أبداع نظام وأتم تقدير⁽⁴⁾.

10- الزوجية في الطاقة:

وكما تتضح الزوجية في المادة فإنها تتضح كذلك في الطاقة، فإن لكل صورة من صورها ما هو
ضدها، فالكهرباء فيها الموجب والسالب، والمغناطيسية فيها العادي والمقلوب (المعكوس) حتى الضوء له
زوجية واضحة، لأنه يتحرك أحيانا على هيئة أمواج وأحيانا أخرى على هيئة جسيمات.

1 - المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 243

2 - سورة الناريات، الآية 49.

3 - سورة يس، الآية 36.

4 - المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 244.

كذلك فقد ثبت أن المادة والطاقة وجهان لعملة واحدة، وصورتان لجوهر واحد. يشير إلى وحدانية الخالق سبحانه وتعالى، وخلق اللبنة الأولية للمادة على هيئة أزواج من الطاقة وتحويلها إلى طاقة على هيئة زوجية أيضاً، وإمكانية رد الطاقة إلى حالة مادية كما خلقت أول مرة، كل ذلك تأكيد على حقيقة بدء الخلق من العدم وعلى إمكانية إفناؤه إلى العدم!!

ونحن نرى الزوجية في كل صورة من صور الخلق: من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته حتى يبقى الخالق سبحانه وتعالى منفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وترى كذلك وحدة البناء في الخلق تجسيدا لوحدانية الخالق سبحانه وتعالى.

فلكل جسم في الذرة جسيم نقيض... وهذه الجسيمات ونقائضها تكون المادة والمادة النقيضة. وفي النقائض توجد كل الصفات معكوسة من الشحنات الكهربائية إلى المجالات المغناطيسية إلى اتجاهات الدوران، وعلى ذلك فلا يمكن لمثل تلك النقائض أن تجتمع في مكان واحد وإلا أفنى بعضها بعضاً!! وهل هذا كل ما في الأمر بالنسبة للأزواج؟ ... الجواب لا...

لم يقف الأمر عند هذا الحد الذي ذكرناه وذلك؛ لأنه وضع أيدينا على سر جديد وهو أن هذا الكون في أرضه وسماؤه وجزئياته وذراته، ليس في الحقيقة إلا طاقة اتخذت صورة المادة نجسيمانها ودراهما. وأن هذه الجسيمات حينما تجسدت على شكل زوجين ولم تتشكل مفردة، فمولد أو خلق الزوجين اللذين ظهرنا على لوح أندرسون لم يظهرنا من عدم، بل كان من وراء تخليقهما طاقة أو ومضة ضوئية، وهذه الومضة تنطلق على هيئة موجة، وتجري في الكون بسرعة الضوء 186 ألف ميل في الثانية.

والواقع أن هذا الكون -على قدر ما نعرفه الآن- له مظهران، فهو أحيانا تدركه أو يظهر لنا على شكل موجة، وهذه الموجة لا زمان لها ولا مكان؛ أي في المقاييس الرياضية الحسية وأحيانا أخرى قد تتخلى الموجة أو الطاقة عن صفتها الطليقة المتحررة، وتتجسد على هيئة مادة كجسيمات ذرية، وهي في هذه الحالة تأتي على قانون الله الأزلي في الخلق زوجين زوجين.

وفي المفاعلات النووية الجبارة يعيش العلماء مع خلق الأزواج ليل نهار، وفيها يسجلون تجسيد الطاقات أو الموجات على هيئة جسيمات كثيرة وعلى الألواح الحساسة، أو في غرف الغيوم -التي توضح بداية خلق الأزواج- يسجل العلماء مولد الإلكترون ونقيضه أو البروتون ونقيضه، أو النيوترون ونقيضه، ثم إن هناك جسيمات ذرية أخرى كثيرة، وهي غير الجسيمات الأساسية الأولية الثلاثة، التي ذكرناها، فما من جسيم منها يتجسد -صغر شأنه أو كبر- إلا ويظهر معه في نفس اللحظة نقيضه، ثم إنه في كل حالة من

1 - النبات في القرآن الكريم: زغلول النجار، ج04، ص166، وينظر الكون والإعجاز العلمي في القرآن: منصور حسب النبي، ص78-

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية
هذه الحالات يظهر الزوجان ويتخلقان أمام أعين العلماء، لكن الشيء المثير هو أن النقيض لا يمكن أن
يعيش في مكان واحد مع نقيضه⁽¹⁾.

فإذا تقابل إلكترون مع إلكترون نقيض، فلا بد أن يزولا ويتخليا عن تجسدهما المادي ويعودا إلى
سيرتهما الأولى، أي إلى موجات متحررة، والشيء الذي يعتبر أكثر إثارة ودهشة أن لكل شيء في هذا
الكون نقيضا ما عدا شيئا واحدا ألا وهو الطاقة أو الموجة المتحررة أو النور، فلا نقيض له، وإنما تظهر
النقائص فقط عندما تتجسد هذه الموجة أو هذا النور أو تلك الطاقة، ويؤدي إلى خلق زوجين⁽²⁾.

لماذا وكيف..؟ لا أحد يلدي

فطبيعة الكون تضع أمامنا حقائق الوجود بصورة مثيرة فبداية الخلق أزواج والأزواج جسيمات، أو
هي تجسيد لطاقة أو ومضة أو نور، خذ منها ما تشاء، فلا أحد يستطيع هنا أن يؤكد أمرا أو يحدد شيئا،
كما يقول الدكتور عبد الحسن صالح في بحثه عن الأزواج، وكلما تعمقنا في طبائع الأشياء، وطينا أننا قد
وصلنا فيها إلى قرار أشاحت الحقيقة بوجهها وتجلت لنا أكثر إثارة ووضعنا في مأزق فكرية جديدة.

إن الذي نعرفه حقا أن المادة تجسد لطاقة أو قوة، وهذه الطاقة وراء حدود العقل والخيال، وأن هذه
الطاقة المتجسدة تتجسد أمام أعيننا أزواجا أزواجا ولكن ماذا يعني هذا...؟ إنه يعني، وبكل ثقة، ما أخبر
الله عنه قبل قرون طويلة مما يدل على عظمته وعلمه وقدرته، ومما يدلنا دلالة قاطعة على أن هذا القرآن
كلامه ووحيه إنه يعني قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽³⁾.

كما يعني قوله سبحانه ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا
يَعْلَمُونَ﴾⁽⁴⁾.

ولكن هل هذا كل ما في الأمر... وهل اقتصرَت المكنشفات العلمية على اكتشاف الزوجين في
الجسيمات الذرية من الإلكترون ونقيضه أو البروتون ونقيضه أو النيوترون ونقيضه، أم أنهم وضعوا أيديهم
على أمور أخرى ربما كانت أكثر إثارة ودهشة في هذا الكون...؟

لاشك أن ما ذكرناه لم يكن كل ما في الأمر مما يتعلق بالآية، فقد قال الله تعالى ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ
خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، إذن فلا بد أن تكون هناك أمور أخرى عرفها الإنسان المعاصر مما لم يكن يعلمه الناس

1 - المعجزة القرآنية: محمد حسن هينو، ص 245.

2 - المرجع نفسه: ص 246.

3 - سورة الفاريات: الآية 49.

4 - سورة يس: الآية 36.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية
قديمًا، وفيه من الإثارة والدهشة مما يذهل عقل الإنسان، ومما يدل دلالة قاطعة على إعجاز
القرآن⁽¹⁾.

11- الكون والكون النقيض:

لقد سيطرت فكرة الخلق أزواجًا، بعد معادلة ديراك وألواح أندرسون وتجارب العلماء في
المعامل الذرية الضخمة، لقد سيطرت فكرة الخلق أزواجًا على عقول العلماء، وصار من البديهية اليقينية
عندهم أنه من تمام انتظام الكون وتعادله وتوازنه أن يكون الخلق في كل شيء على طريقة الأزواج، وكأنهم
اتخذوا من قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ كأنهم اتخذوا من هذه الآية دستورًا
لمباحثهم العلمية، فكل شيء في هذا الكون يجب أن يكون على نظام الزوجية فخلق الإلكترون لا بد أن
يصاحبه خلق الإلكترون النقيض، أو البوزيترون، كما بيناه في الفقرة السابقة، وخلق النيوترون لا بد أن
يصاحبه خلق النيوترون النقيض... هكذا...

ولكن صفات الإلكترون تخالف وتناقض تماما صفات البوزيترون أو الإلكترون النقيض فإذا دار
الإلكترون حول نفسه من اليمين إلى اليسار دار الإلكترون النقيض من اليسار إلى اليمين⁽²⁾، وإذا حمل
الإلكترون شحنة كهربائية سالبة حمل البوزيترون شحنة موجبة وإذا كان المجال المغناطيسي للإلكترون
يتجه إلى الأعلى، كان المجال لنقيضه يتجه إلى الأسفل، من أجل هذا كان من المستحيل أن يجتمعا، فإذا ما
قدر اجتماعهما كان لا بد أن يفني أحدهما الآخر، وهذا الصراع العنيف الذي يؤدي إلى الفناء يشهده
العلماء في معاملهم وفي طبقات الجو العليا وفي الفضاء الخارجي، إذ كثيرا ما تتجسد الطاقة وعند ذلك
تظهر الجسيمات الذرية أزواجًا، فأما الذي في عالمنا فيبقى، وأما الذي جاء نقيضا لجسيمات عالمنا فلا بد أن
يتخلى عن تجسده ويفنى، ويعود ومضة سائحة في هذا الكون الرهيب⁽³⁾.

وبهذه الحقائق اليقينية التي وضع العلماء أيديهم عليها وآمنوا بها أصبحوا يتساءلون: ما دام الأمر
كذلك، فهل يمكن أن يكون هناك ذرة وذرة نقيض لها، أو مادة ومادة نقيض لها، أو كون وكون نقيض له،
إذ لا بد لكل شيء أن يكون زوجين...؟

وعموالة البحث توصل العلماء إلى تخليق ذرة هيدروجين نقيضة إلا أن تخليقها لم يدم لأكثر من
لحظة واحدة خاطفة، إذ جاء كل ما فيها معاكسا لذرة الهيدروجين المعروفة ولا يمكن أن تعيش إلا في عالم

1 - المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 246، وينظر الكون والإعجاز العلمي في القرآن الكريم: منصور حسب النبي، ص 96-103.

2 - المرجع نفسه: ص 247.

3 - المرجع نفسه: ص 248.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية

آخر غير عالمنا، وهذا الأمر مستحيل في عالمنا، إذ لا بد لها أن تصطدم في لحظة خاطفة، يجزيء من جزيئات الهواء، أو أي شيء فيه نقيضها لتحطمه ويحطمها، وتعود إلى طاقة سابحة في هذا الكون⁽¹⁾.

بعد هذه التجربة وهذا الإكتشاف تطورت معارف العلماء وأصبحوا يوقنون أن فكرة خلق الأزواج ليست قاصرة على الجسيمات الذرية، بل تعدتها إلى أنه لكل ذرة في هذا الكون ذرة نقيضة لها، وهذا يعني أن خلق الأزواج لا بد أن يمتد إلى جزيئات الخلية بل إلى الكون بأسره من الأرض والنجوم والكواكب والمجرات، إذ لا بد لها أن تكون أزواجا ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾⁽²⁾.

وهذا يعني أيضا أن بناء الكون النقيض في ذراته لا بد أن يكون معكوسا أو نقيضا لبناء عالمنا الذري، بما فيه من شمس وأقمار وكواكب، ونحن لا يمكننا أن ندرك هذا ولا يمكننا أن نفرق مثلا بين النجم ونقيضه لأننا نراهما بواسطة الضوء الواصل إلينا منهما، وقد ذكرنا أن النور لا نقيض له، وإنما يظهر الزوج أو الجسم ونقيضه عند تجسد النور أو الطاقة، ولكننا أن ندرك النجم ونقيضه مثلا عندما يقترب أحدهما من الآخر ويتلاحمان، ويبدأ كل منهما بإفناء الآخر وتحويله إلى موجات ضوئية.

لا قبل للعقل بتصورها، بل لا قبل للخيال بذلك، وذلك كما يقول العلماء، لو تقابل مثلا إنسان من عالمنا مع إنسان من العالم النقيض سيتحولان في لحظة خاطفة إلى طاقة ناتجة عن انفجار كوني جبار لا يقل عن الطاقة المتحررة، من تفجير مئة ألف قنبلة من القنابل الهيدروجينية، فكيف لو تقابل نجمان أو مجرتان... إنه لا يمكن للعقل أن يتصور ماذا سيحدث.

ومن أجل هذا كان هذا التباعد الهائل في الفضاء بين المجرات وعوالم هذا الكون الرهيب الرهيب، فالمسافة بين المجرات لا تقاس بالأميال ولا بملايين الأميال وإنما بملايين السنين الضوئية.

إن الذي دفع العلماء إلى هذا التفكير المثير في خلق الكون والكون النقيض إنما هو الواقع الذي رأوه في تجسيد الإلكترون والإلكترون النقيض وما قاموا به من تخليق ذرة الهيدروجين النقيضة، وما إلى ذلك مما ذكرنا، مع ما أصبح يقينا عندهم من الوحدة في الخلق على كل المستويات، والتي تستلزم وجود المادة والمادة النقيضة، أو بعبارة أخرى أوضح في موضوعنا ألا وهي أنها تستلزم وجود الخلق أزواجا⁽³⁾.

1 - المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 248.

2 - سورة الملك: الآية 03.

3 - المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 249.

لقد عكف العالم السويدي الشهير "أوسكار كلاين"⁽¹⁾ سنوات طويلة على دراسة هذا الموضوع وخرج برأي يقول: "إن المادة والمادة النقيضة لا بد أن تكونا قد ظهرتنا في وقت واحد ولا بد أن تتساويا تماما، بمعنى أن نصف الأجرام السماوية، قد جاء وظهر من مادة عادية ونصفها الآخر قد خلق من مادة نقيضة".

وذهب عالم البلازما النووية "هانز ألفين"⁽²⁾ إلى أبعد من هذا فنشر بحثا بعنوان "نقيض المادة والكون" شرح فيه فكرة ظهور الكون والكون النقيض وكيف ظهرا ثم كيف بوعد بينهما وعزلا حتى أمكن أن يعيشا إلى اليوم المعلوم".

ولا يسعنا نحن الناظرين إلى هذه النتائج العلمية التي لا تحتاج إلى تعليق، إلا أن نردد قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽³⁾.

كما أننا لنتمايل طربا ونهتز نشوة عندما نعرف أن العالم الحديث، بعلومه ومعارفه وفي أدق مباحثه ونظرياته، قد اتخذ من آيات القرآن دستورا له يبني عليه حضارته وتطلعاته وطموحاته، ويردد كما يردد كل مؤمن ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽⁴⁾.

أيها المتدبر للقرآن الكريم: قل لي بربك... من الذي علم ذلك الأمي في شعاب مكة وأوديتها، من الذي علمه أسرار الكون والحياة والذرة والخلية مما لم يكن الإنسان يعلمه لا بعقله الظاهر ولا بعقله الباطن، ومما لم يصل إليه ولا حام حوله...!؟

لاشك أنه الله، الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى، وإني لعلى يقين بأنه ما من منصف يقع نظره على هذه الآية وهذه النتائج العلمية المذهلة إلا ويجد نفسه مضطرا لأن يحني رأسه تواضعا للحقيقة، وتعظيما للخالق واعترافا بأن هذا الكتاب المعجز ليس من قول البشر⁽⁵⁾.

1 - **Oskar Klein** (15 septembre 1894 - 5 février 1977) fut un physicien théoricien suédois.

On lui attribue l'invention de l'idée que les dimensions supplémentaires peuvent exister entre université de Stockholm physiquement mais sont enroulées et très petites. Il était professeur à l' . 1959 en médaille Max Planck. Oskar Klein a reçu la 1962 et 1931
http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Special:Cite&page=Oskar_Klein&id=4341536

2 - هانز ألفين، عالم فيزياء سويدي، له دراسات حول الأوساط المؤينة والتفريع 1995-4619

www.aljarodiah.org/vb/printthread.php?t=18931

3 - سورة يس: الآية 36.

4 - سورة الذاريات: الآية 49.

5 - المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ص 250.

الفصل الثالث نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية
وهكذا تبقى المعجزة الخاصة الفردية للرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- تتحدث لهذا العصر
المغرور بمعلوماته وتكنولوجيته وفرضياته العلمية بمنطق الخارقة التي لا تصل إلى حافاتها أي قدرة إنسانية
مهما وصلت في التقدم العلمي ومهما تطورت وسائل مواصلاتها وانتقالها، وهذا يعني أن عصرنا له معجزته
أيضا، وله إعجازه، وأن خاتم النبيين لم يمض ويدع العالم عند حدود معجزاته في زمانه بل لا يزال يتحدث
إليهم داعيا إلى الله بمعجزاته، وسيبقى ما دام لا نبي بعده برهان ودليل الخلق إلى الله حتى قيام الساعة.

جمعية الأمير عبد القادر للقادر للعلوم الإسلامية

- يحمل بي وقد انتهيت من دراستي حول: الآية القرآنية بين الإعجاز اللغوي والعلمي أن أبرز أهم النتائج التي توصلت إليها والتي أوجزها فيما يأتي:
- 1- إن لنظرية إعجاز الآية القرآنية أثرا بالغا في الفكر العربي الإسلامي؛ فقد أثارت قضية الإعجاز جدلا واسعا بين المتكلمين على اختلاف فرقهم، وعرض لها المفسرون في ثنايا تفسيرهم للقرآن الكريم، وأفاد منها اللغويون والأدباء والبلاغيون والنقاد...
 - 2- سيطرت الآية القرآنية على الملكات الأدبية فأولتها اهتماما وقام العلماء بدراسة ألفاظها وتراكيبها، وأساليبها، فكانت الأساس الذي قامت عليه علوم اللغة والأدب والنقد والبلاغة وهي الآن تسيطر على الملكات العلمية في شتى المجالات والباحث الرئيس الموجه لها والمتأمل للدراسات العلمية يجدها جميعا قد خضعت للنهج القرآني الذي أظهرته دراسات الإعجاز.
 - 3- توصل البحث إلى أن الوجه الأمثل في الإعجاز القرآني هو الوجه اللغوي بمفهومه الأشمل والأوسع، لأنه يوجد في كل سور القرآن الكريم وفي كل آية من آياتها، أما سائر الأوجه الأخرى التي ذكرها العلماء فلا تعدو إلا أن تكون من دلائل وبراهين كون القرآن من عند الله تعالى وهذا موقف من مواقف التحدي.
 - 4- بيان بلاغة الآية القرآنية واتساع معانيها لمخاطبة الأولين والآخرين بألفاظ معجزة يدرك كل منهم لونا من إعجازها حسب قدرته وإمكانياته.
 - 5- تصحيح مسار العلم التجريبي في العالم فالبشرية بحاجة إلى الدين الحق الذي يجمع بين الدين والعلم وبين المادة والروح وبين عالم الشهادة والغيب وبين الدنيا والآخرة فيما نسميه إسلامية المعرفة.
 - 6- تنشيط المسلمين للاكتشافات الكونية وحفزهم بالأخذ بالعلم بدافع من الحوافز الإيمانية لعلها تعبر بهم فترة التخلف الحالية التي يمرون بها وعاشوها للأسف فترة من الزمن وسيجد الباحثون المسلمون في كلام الله أسرار مخلوقاته أدلة تهديهم وتقرب لهم النتائج وتوفر لهم الجهود.
 - 7- بيان الإعجاز بالسبق؛ وذلك في إشارة بنصوص الآية القرآنية إلى حقائق علمية ثبتت في العصر الحديث أو ما زال العلم يلهث وراء إثباتها.
 - 8- استمالة غير المسلمين إلى الإسلام عن طريق التفسير العلمي للآيات الكونية مصداقا لقوله تعالى: ﴿سُتْرِبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾.

9- أثبت منهج التفسير العلمي للقرآن أن البشرية كلما ازدادت نضجا وتقدما في العلم والمعرفة فإنها تزداد إدراكا لمعجزات الخلق والخالق في الكون وفي الجماد والنبات والحيوان والإنسان، فتزداد إيمانا بالله وبقينا بكتابه وإذا لم يكن هذا المنهج في التفسير العلمي للآية القرآنية موضع اتفاق من الجميع فهو على الأقل ليس موضع رفض من الجميع والله يهدي من يشاء.

10- أن القرآن الكريم هو الآية العظمى والمعجزة الكبرى والتفسير الوحيد، واليقين المطلق لكل شيء حيث قدم جميع حقائق العلم، قبل أن تثبت في معارك العلاقات بين الوعي البشري وبين مادة الكون.

وبعد: فقد حاولت قدر المستطاع أن ألم بأطراف الموضوع، والاتجاه دائما نحو الهدف المرسوم، فإن أك قد أصبت المحز، ورميت الهدف، وصح اجتهادي فله الحمد والمنة وإن تكن الأخرى فإن ما يشفع لي حسن النية والإخلاص لكتاب الله عز وجل.

وإني لأرفع يدي في خاتمة هذا البحث إلى الله تعالى داعيا مستغفرا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

• القرآن الكريم برواية حفص عن قراءة عاصم.

- 1- أساس البلاغة: الزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت.
- 2- أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق، محمد عبده، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- 3- أسرار التكرار في القرآن: محمود بن حمزة الكرمانى، ط02، دار الاعتصام، 1369هـ-1976م.
- 4- أسرار الكون في القرآن: داود سليمان السعدي، ط02، دار الحرف العربي، بيروت، 1420هـ-1990م.
- 5- أسرار اللسان العربي: جعفر دك الباب، مطبعة الأهالي، 1990.
- 6- أخبار النحويين البصريين: أبو سعيد السيرافي، تحقيق محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1955م.
- 7- أصول الفقه: عبد الوهاب خلال، ط01، الزهراء، الجزائر، 1990م.
- 8- أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم: عبد الله شحاتة، الهيئة المصرية، 1986.
- 9- الأساس في التفسير: سعيد حوى، ط03، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة.
- 10- الأسلوب: أحمد الشايب، ط04، مطبعة النهضة المصرية، 1956.
- 11- الأصول في علوم القرآن: محمود القيعي، ط04، القاهرة، 1996م.
- 12- الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية: محمد الخالد، دار الفكر، عمان، 1984م.
- 13- الأصول: تمام حسان، الهيئة العامة للكتاب، 1982م.
- 14- آفاق جديدة في علم الفلك: جون براندت وستيفان ماران، مكتبة الوعي، القاهرة، 1972م.
- 15- آيات القسم في القرآن: أحمد كمال المهدي، جامعة الأزهر، 1968م.
- 16- الآيات الكونية في ضوء العلم الحديث: منصور حسب النبي، دار المعارف، 2003م.
- 17- إحدى الكبير: معجزة 19، عدنان الرفاعي، دار الفكر، دمشق،
- 18- إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي، تقدم طه عبد الرؤوف، ط01، مكتبة الصفاء، القاهرة، 1423هـ-2003م.
- 19- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1419هـ-1999م.

- 20- إعمال العقل من النظرة التحزيبية إلى الرؤيا التكاملية: لؤي صافي، ط01، دار الفكر، دمشق، 1419هـ-1998م.
- 21- إعجاز الرقم 19 في القرآن الكريم: بسام نهاد جرار، ط02، درا النفائس، بيروت، 1414هـ-1994م.
- 22- إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني: صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمان، 1421هـ-2001م.
- 23- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، مكتبة رحاب.
- 24- إعجاز القرآن وعلم المعاني: عمر الملاحويش، ط01، مكتبة الفلاح، الكويت، 1407هـ-1986م.
- 25- إعجاز القرآن: أبو بكر الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، ط01، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1411هـ.
- 26- إعجاز القرآن: أبو سليمان الخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق محمد حنف الله ومحمد زغلول سلام، ط04، دار المعارف.
- 27- إمعان في أقسام القرآن: عبد الحميد الفراهي، المطبع السلفية، 1349هـ.
- 28- إيجاز البيان في سور القرآن: محمد علي الصابوني، مكتبة رحاب، الجزائر.
- 29- اتجاه التفسير في العصر الحديث منذ عهد الإمام محمد عبده، إلى مشروع التفسير في العصر الوسيط، مصطفى محمد الحديدي الطير، سلسلة البحوث الإسلامية، السنة السابعة، العدد 80، ربيع الأول، 1395هـ-1975.
- 30- اتجاهات التفسير في العصر الحديث: عفت الشرفاوي، نشر مطبعة عين شمس، 1972.
- 31- اتجاهات التفسير في العصر الراهن: عبد المجيد المحتسب، ط03، مكتبة النهضة الإسلامية، 1402هـ-1982م.
- 32- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري: فهد الرومي، ط02، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1414هـ.
- 33- الإتيان في علوم القرآن: جلال الدين عبد الرحمان السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت، 1973.
- 34- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: عائشة عبد الرحمان، دار المعارف، مصر، 1977م.

- 35- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، حسن حطيط، ط01، دار الهلال، بيروت، 2005م.
- 36- الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة: حسن ياسين عبد القادر، ط01، مكتبة وهبة، 1417هـ-1997م.
- 37- الإعجاز العلمي في الإسلام (القرآن الكريم): محمد كامل عبد الصمد، ط06، الدار المصرية اللبنانية، 2004م.
- 38- الإعجاز العلمي في القرآن (تأصيل فكري ومنهج): سامي أحمد الموصلي، ط01، دار النفائس، بيروت، 1422هـ-2001م.
- 39- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: حسين نصار، العدد 592، دار الهلال، 2000م.
- 40- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: زكريا هميمي، ط01، مطبعة مدبولي، 2002م.
- 41- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: سعيد صلاح الفيومي، ط01، مكتبة القدس، القاهرة، 1425هـ-2004م.
- 42- الإعجاز القرآني: عباس أمين، دار أسامة، الأردن.
- 43- الإعجاز في دراسة السابقين: عبد الكريم خطيب، دار الفكر العربي، 1974م.
- 44- الإيضاح والتبيين: عبد العزيز، مطبعة الفجر الجديد، القاهرة.
- 45- الإيضاح: الخطيب القزويني، مطبعة المتنبي، بغداد.
- 46- الإيمان في القرآن: مصطفى عبد الواحد، دار الرائد العربي، بيروت، 1986م.
- 47- الإنسان في الكون بين العلم والقرآن: عبد العليم عبد الرحمان خضر، عالم المعرفة السعودية، 1983هـ.
- 48- الإنصاف في مسائل الخلاف: أبو البركات الأنباري، تحقيق كوثولد فائل ليدن، 1913م.
- 49- الإنصاف: ابن السيد البطليوسي، تحقيق محمد رضا الداية، دار الفكر، 1983.
- 50- الإسلام في عصر العلم: أحمد الغمراوي، تقديم عبد الحليم محمود، ط04، دار الإنسان، القاهرة، 1411هـ-1991م.
- 51- الإسلام يتحدى: وحيد الدين خان، تحقيق عبد الصبور شاهين، ط07، دار البحوث العلمية 1401هـ-1981م.
- 52- الإشارات العلمية في القرآن الكريم: كارم السيد غنيم، ط01، دار الفكر العربي، القاهرة، 1415هـ-1995م.

- 53- الإشارة إلى الإعجاز في بعض أنواع المجاز: ابن عبد السلام، ط01، المطبعة العامرة، الآستانة، 1313هـ.
- 54- براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور: محمد بدري عبد الجليل، ط02، المكتب الإسلامي، بيروت، 1405هـ-1984م.
- 55- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروز آبادي، المكتبة العلمية، لبنان.
- 56- بين البلاغة والأسلوبية: محمد عبد المطلب، مكتبة الحرية الحديثة، جامعة عين شمس.
- 57- الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن: عبد الرؤوف مخلوف، مكتبة الحياة، لبنان، 1978م.
- 58- البحر المحيط: أبو حيان محمد بن يوسف: ط02، دار الفكر، بيروت.
- 59- البرهان في ترتيب سور القرآن: ابن الزبير محمد ابن عبدوس الغرناطي، تحقيق محمد شعبان، وزارة الأوقاف المغربية، 1990م.
- 60- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، تقدم مصطفى عبد القادر عطا، ط01، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1408هـ-1988م.
- 61- البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري: رابح دوب، دار الفجر، القاهرة، 1999م.
- 62- البيان في أقسام القرآن: ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، لبنان، 1402هـ-1982م.
- 63- البيان في روائع القرآن: تمام حسان، ط01، عالم الكتب، 1413هـ-1993م.
- 64- تاج العروس: محمد مرتضى الزبيدي: دار لبيب، ابن غازي،
- 65- تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1373هـ-1954.
- 66- تطور الفكر النحوي: حسن عون، القاهرة، 19970م.
- 67- تفسير أسرار القرآن: عبد العزيز جاويز، مطبعة الهداية الإسلامية، الآستانة، 1331هـ.
- 68- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء ابن كثير، ط01، ابن حزم، بيروت، لبنان، 1423هـ-2002م.
- 69- تفسير القرآن العظيم: محمود شلتوت، ط04، دار الفلم، القاهرة، 1966م.
- 70- تفسير المفسرون: محمد حسن الذهبي، ط08، مكتبة وهبة، القاهرة، 1424هـ-2003م.
- 71- تفسير مفردات القرآن: سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1984م.
- 72- تقويم الفكر النحوي: علي أبو المكارم، دار الثقافة، بيروت، 1980م.

- 73- تفسير المنار: محمد رشيد رضا: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972م.
- 74- تفسير الجلالين، الإمامين جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، ط01، دار الكتاب العربي، بيروت، 1404هـ-1984م.
- 75- تناسق الدرر في تناسب السور: جلال الدين السيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية.
- 76- تهافت العلمانية: عماد الدين خليل، ط02، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1975م.
- 77- التاج الجامع للأصول: منصور علي ناصف، دار إحياء التراث العربي، 1962م.
- 78- التبيان في علم البيان المطلاع على إعجاز القرآن: ابن الزملكاني، تحقيق أحمد مطلوب، وخبذة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، 1964م.
- 79- التسهيل في علوم التزويل: أحمد ابن جزى الكلبي، ط01، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1355هـ.
- 80- التفسير الكبير، شيخ الإسلام بن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1988م.
- 81- التعبير القرآن: فاضل صالح السامرائي، جامعة بغداد.
- 82- التفسير القيم: ابن القيم: جمعه محمد أويس الندوي، لجنة التراث العربي، بيروت.
- 83- التفسير الكبير (مفتاح الغيب): الفخر الرازي، بيروت، لبنان، 1414هـ-1993م.
- 84- جامع البيان في تفسير القرآن: ابن جرير الطبري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1400هـ-1980م.
- 85- جمال القراء وكال الإقراء: علي ابن محمد علم الدين السخاوي، تحقيق علي التواب، ط01، مكتبة التراث، مكة المكرمة، 1408هـ.
- 86- جواهر البيان في تناسب سور القرآن: عبد الله صديق الغماري، ط02، عالم الكتب، بيروت، 1986م.
- 87- جواهر القرآن ودرره: أبو حامد الغزالي، تحقيق رضوان جامع، ط01، دار الحرم للتراث، القاهرة، 2004م.
- 88- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب المصرية، مصر.
- 89- الجملة العربية والمعنى: فاضل صالح السامرائي، ط01، دار ابن حزم، 1421هـ-2000م.

- 90- حاشية الباجوري: علي السلم، مصر، 1306هـ.
- 91- حديث عن القرآن: عبد الصبور شاهين، دار أخبار اليوم، 2000م.
- 92- الحق المطلق نظرية قرآنية في الروح القرآنية: عدنان الرفاعي، ط01، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2000م.
- 93- الحكمة المطلقة: عدنان الرفاعي، ط01، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2001م.
- 94- خزنة الأدب البغدادي: مطبعة بولاق.
- 95- خصائص القرآن الكريم، فهد بن عبد الرحمان، ط07، دار طيبة، الرياض، 1411هـ.
- 96- الخصائص: ابن حبي، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، ط02، دار الكتب العلمية، 1424هـ-2003م.
- 97- الخلاف النحوي: محمد خير الحلاواني، دار القلم العربي، حلب، سوريا.
- 98- الخواطر السوانح في أسرار الفواتح: ابن أبي الإصبع، تحقيق حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، مصر، 1960.
- 99- دراسات في التفسير الموضوعي: زاهر بن عوض الألماعي، مطبعة الفرزدق، جدة، 1405هـ.
- 100- دراسات في علوم القرآن: فهد بن عبد الرحمان الرومي، ط09، مكتبة التوبة، الرياض، 1421هـ-2000م.
- 101- دراسات في علوم القرآن: فهد بن عبد الرحمان بن سليمان الرومي، ط09، مكتبة التوبة، الرياض، 1421هـ-2000م.
- 102- دراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل، ط02، دار المنار، القاهرة، 1419هـ-1999م.
- 103- دراسات وبحوث إسلامية: محمد إبراهيم عن الرحمان، ط01، دار الوفاء، الإسكندرية، 2004.
- 104- دراسات وبحوث إسلامية: محمد عبد الرحمان، ط0، دار الوفاء، الإسكندرية، 2004م.
- 105- دقائق التفسير: ابن تيمية، جمع وتحقيق محمد السيد الجليلند، دار الأنصار، القاهرة.
- 106- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، شرح وتعليق محمد التونجي، ط03، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1420هـ-1999م.

- 107 - الدراسات اللغوية للقرآن الكريم في أوائل القرن الثالث الهجري: عيسى شحاتة، دار قباء، 2001م.
- 108 - رحلة الإيمان في جسم الإنسان: حامد أحمد حامد، دار القلم، دمشق، 1991م.
- 109 - رحمة من الرحمان في تفسير إشارات القرآن: ابن عربي، جمعه محمود الغراب، مطبعة نصر، دمشق.
- 110 - روائع البيان تفسير الأحكام: محمد علي الصابوني، ط01، مكتبة رحاب، 1410هـ-1990م.
- 111 - زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.
- 112 - سورة المائدة: دراسة أسلوبية فقهية مقارنة، إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1421هـ-200م.
- 113 - سورة طه: دراسة لغوية مقارنة، دار النهضة العربي، 1416هـ-1995م.
- 114 - سورة يوسف: دراسة أسلوبية فنية مقارنة، دار النهضة العربية، 1424-1993م.
- 115 - السيرة النبوية، بن هشام، تحقيق مصطفى السقا، ط02، مصطفى الباي الحلبي، 1375ع-1955م.
- 116 - شرح المفصل: ابن يعيش، مكتبة المتنبي، القاهرة، 1940م.
- 117 - شواهد في الإعجاز القرآني: خليل أبو عودة، ط01، دار عمان، 1419هـ-1998م.
- 118 - الشفا بتعريف حقوق المصطفى: القاضي عياض، تحقيق محمد أمين قره علي وآخرون، ط01، دمشق.
- 119 - صحيح مسلم: تحقيق وتصحيح وترقيم، محمد فؤاد عبد الباقي في رئاسة إدارات البحوث العلمي والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، 1400هـ.
- 120 - صفوة البيان لمعاني القرآن: حسين محمد مخلوف، ط01، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- 121 - صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ط01، دار القرآن الكريم، بيروت، 1401هـ-1981م.
- 122 - صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز، إخراج فؤاد عبد الباقي المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية.
- 123 - الصناعتين: أبو هلال العسكري، ط01، الآستانة.

- 124 - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: الجوهري إسماعيل بن حماد، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العربي، القاهرة، 1956م.
- 125 - طريقة جديدة في دراسة تصريف الأفعال في العربية: جعفر دك الباب، ط01، مطبعة الأهالي، دمشق، سوريا، 1991م.
- 126 - ظاهرة التكرار في القرآن الكريم: عبد المنعم السيد حسن، ط01، دار المطبوعات الدولية، مصر، 1400هـ-1980م.
- 127 - علاقة المنطق باللغة عند الفلاسفة المسلمين: حسن بشر صالح، ط01، دار قباء، الإسكندرية، 2003م.
- 128 - علم الإيمان: عبد المجيد الزنداني، دار المنابع، الجزائر، 2002م.
- 129 - علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: صبحي إبراهيم الفقي، ط01، دار قباء، القاهرة، 1421هـ-2001م.
- 130 - علوم القرآن: أحمد عادل كمال، مصر، 1951م.
- 131 - علوم القرآن: نور الدين عتر، ط06، مطبعة الصباح، دمشق، 1416هـ-1996م.
- 132 - العقائد الإسلامية: سيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- 133 - العلوم المعاصرة في خدمة الداعية الإسلامي: محمد جميل الخبال، ط01، دار المنهاج القومي، دمشق 1427هـ-2006م.
- 134 - العلوم في القرآن (منهاج تربوي للدراسة والتطبيق): محمد جميل الخبال ومقداد الجوارى، ط01، دار النفائس، بيروت، 1998م.
- 135 - العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق عبد الحيد الهنداوي، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ-2003م.
- 136 - فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، أخرجه فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، المطبعة السلفية.
- 137 - فتح القدير: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1415هـ-1994م.
- 138 - فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، ط02، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1400هـ-1980م.

- 139- فلسفة المعرفة في القرآن الكريم: علي عبد العظيم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1973م.
- 140- فواتح السور: حسين نصار، ط01، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2002م.
- 141- في تاريخ البلاغة العربية: عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.
- 142- في ظلال القرآن: سيد قطب، ط35، دار الشروق، القاهرة، 1425هـ-2005.
- 143- في علم اللغة: غازي مختار طليمات، ط02، دار طلاس، دمشق، 2000.
- 144- في مسيرة الإعجاز العلمي في القرآن: محمد بن عبد الرؤوف القاسم، ط01، دار الأعلام، عمان، 1421هـ-2000م.
- 145- الفهرست القرآني: أشرف عبد الغني الهراس، دار الكتب، 2002م.
- 146- الفهرست: ابن النديم، تحقيق محمد أحمد، المكتبة التوقيفية، مصر.
- 147- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن: ابن القيم، دار الكتب العلمية.
- 148- الفواتح المحجائية وإعجاز القرآن في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة: السيد عبد المقصود جعفر، ط01، درا الطباعة الإسلامية، القاهرة، 1412هـ-1992م.
- 149- قصص الأنبياء: عبد الوهاب النجار، ط02، دار الكتاب العربي.
- 150- قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم: سناء حميد البياتي، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، 2003.
- 151- القدر: عدنان الرفاعي، ط02، دار الفكر، دمشق، 1999م.
- 152- القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلمي: موريس بوكاي، ط02، مكتبة مدبولي، 2004م.
- 153- القرآن تفسير الكون والحياة: محمد العفيفي، ذات السلاسل، الكويت، 1986م.
- 154- القرآن معجزة ومنهج: محمد متولي الشعراوي، دار الندوة، بيروت، 1984م.
- 155- القرآن والعلم الحديث: عبد الرزاق نوفل، دار الكتاب العربي، بيروت.
- 156- القرآن ونصوصه: عدنان زررور، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، 1400هـ-1980م.
- 157- القصص القرآني: فضل حسن عباس، ط01، دار الفرقان، عمان، 1987م.
- 158- كيف نقرأ تراثنا البلاغي: محمد بركات حمد أبو علي، ط01، دار وائل، 1999-2000م.

- 159- الكون والإعجاز العلمي في القرآن، منصور حسب النبي، ط03، دار الفكر العربي، القاهرة، 1996م.
- 160- الكتاب: سيويه، تحقيق عبد السلام هارون، المطبعة الأميرية، بولاق، الحلبي، 1316هـ/1973م.
- 161- الكشاف: الزمخشري، ترتيب محمد عبد السلام شاهين، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1415هـ-1995م.
- 162- لسان العرب: ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، لبنان.
- 163- اللسانيات النشأة والتطور: أحمد مومن، ط02، ديوان المطبوعات الجامعية، 2005م.
- 164- مجاز القرآن، أبو عبيدة، تحقيق محمد فؤاد سزكين، ط02، بيروت، 1981م.
- 165- معالم الشريعة، صبحي الصالح، ط03، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م.
- 166- معجزة الخلق والخالق، راجب البناء، دار المعارف، 2001م.
- 167- مجموع فتاوى شيخ الإسلام، بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمان بن قاسم القاسمي، الرياض.
- 168- مباحث في إعجاز القرآن: أحمد جمال العمري، مكتبة الشهاب، مصر، 1980م.
- 169- مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، ط22، دار الملايين، بيروت، لبنان، 1999م.
- 170- مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ط12، مطبعة المدني، 1423هـ-2002م.
- 171- مجمع البيان في تفسير القرآن: الطبرسي، دار إحياء التراث.
- 172- مدخل إعجاز القرآن: محمود محمد شاكر، ط01، مطبعة المدني، القاهرة، 1423هـ-2002م.
- 173- مدخل إلى ظلال القرآن: صلاح عبد الفتاح الخالدي، ط03، دار عمان، الأردن، 1421هـ-2000م.
- 174- مدخل إلى علم الأسلوب: شكري محمد عباد، ط04، نشر أصدقاء الكتاب، القاهرة، 1998م.
- 175- من روائع الإعجاز العلمي، عاطف المليحي، ط04، 2004م.
- 176- مدرسة الكوفة: مهدي المخزومي، إصدارات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1423هـ-2003م.

- 177- مراتب النحويين: أبو الطيب اللغوي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، طبعة نهضة مصر، 1955م.
- 178- معالم الترتيل: البغوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- 179- معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، ط03، عالم الكتب، بيروت، 1403هـ، 1983م.
- 180- معترك الأقران في إعجاز القرآن: جلال الدين السيوطي، دار الفكر العربي، القاهرة.
- 181- معجزة القرآن الجديدة بنية الآيات والسور: عمر الجندي، دار ابن قتيبة.
- 182- معجزة القرآن: محمد متولي الشعراوي: تقدم ناصر إسماعيل محمد، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.
- 183- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، دار الفكر، بيروت.
- 184- معجم متن اللغة: الشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1958م.
- 185- مفتاح العلوم: السكاكي أبو يوسف بكر محمد بن علي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 186- مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس هجري: أحمد جمال العمري، دار المعارف.
- 187- مفهوم النص دراسة في علوم القرآن: نصر حامد أبو زيد، الهيئة العامة للكتاب، 1990م.
- 188- من آيات الإعجاز العلمي في القرآن: زغلول النجار، تقدم أحمد فراج، ط09، مكتبة الشروق، القاهرة، 1426هـ-2005م.
- 189- من روائع القرآن: محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفرابي للمعارف، دمشق، سوريا، 1422هـ-2002م.
- 190- مناهل العرفان: عبد العظيم الزرقاني، تحقيق أحمد زمري، ط04، دار الكتاب، بيروت، 2002.
- 191- منهج ابن القيم في التفسير: محمد أحمد السنباطي، طبعة مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة.
- 192- منهج البحث البلاغي: عائشة حسين فريد، ط01، دار فباء، القاهرة، 1977م.
- 193- المحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي: أحمد شوقي إبراهيم، ط01، دار الفكر العربي، القاهرة، 1423هـ-2002م.
- 194- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية، عبد الحق بن غالب، تحقيق المجلس العلمي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1395هـ.

- 195- المحكم في نقط المصاحف: أبو عمر الداني، تحقيق عزة حسن، ط02، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1418هـ-1997م.
- 196- المدارس النحوية: شوقي ضيف، ط03، دار المعارف، مصر، 1976م.
- 197- المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: فهد بن عبد الرحمان، ط04، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1414هـ.
- 198- المستدرك: الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية.
- 199- المعجزة القرآنية: محمد حسن هيتو، ط01، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1409هـ-1989م.
- 200- المعجزة الكبرى: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1418هـ-1998م.
- 201- المعجزة والإعجاز في القرآن: سعد الدين صالح، ط02، دار المعارف، القاهرة، 1993م.
- 202- المعجزة: نظرية في الإعجاز القرآني، عدنان الرفاعي، ط03، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1421هـ-2000م.
- 203- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد الباقي، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- 204- المفردات في غريب اللغة: الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- 205- المفهوم العلمي للحبال في القرآن: زغلول النجار، ط07، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 1425هـ-2004م.
- 206- المقاييس: أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979م.
- 207- المناسبات في ترتيب آيات القرآن وسوره: أحمد يوسف القاسم، مكتبة كلية أصول الدين، جامعة الأزهر.
- 208- المنتخب في تفسير القرآن الكريم: لجنة القرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر.
- 209- المنجد في اللغة والأعلام: دار الشروق، بيروت.
- 210- المنهج البلاغي لتفسير القرآني: الطوير، حسن مسعود، ط01، بيروت.
- 211- المهلوي وجهوده في التفسير والقراءات: سعيد الفلاح، الكلية التونسية، تونس.
- 212- الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، 1423هـ-2003م.

- 213- الموجز في تاريخ البلاغة: مازن المبارك، دار الفكر.
- 214- الموجز في شرح دلائل الإعجاز: جعفر دك الباب، ط01، مطبعة الجليل، دمشق، 1980م.
- 215- نحو نظرة جديدة في فقه اللغة: جعفر دك الباب، ط01، مطبعة الأهالي، دمشق، سوريا، 1989م.
- 216- نزهة الألباء في طبقة الأدباء: ابن الأنباري، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة المدني، 1967م.
- 217- نظرات استشرافية في الإسلام: محمد غلاب، دار الكتاب العربي للمؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، وزارة الثقافة.
- 218- نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم: أحمد السيد عمار، ط01، دار الفكر، دمشق، 1421هـ-2000م.
- 219- نظم الدرر في تناسب الآي والسور: برهان الدين بن عمر البقاعي، ط02، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- 220- نكت الانتصار: أبو بكر الباقلاني، تحقيق محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- 221- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: الفخر الرازي، تحقيق إبراهيم السامرائي وبركات حمدي، دار الفكر، عمان، 1985م.
- 222- نهج البلاغة: الإمام علي بن أبي طالب، ط02، الكتاب اللبناني، 1908م.
- 223- النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ط07، دار القلم، الكويت، 1413هـ-1993م.
- 224- النبات في القرآن: زغلول النجار، ط02، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2005م.
- 225- هدى الفرقان في علوم القرآن: غازي عناية، مكتبة الشهاب، باتنة، 1988م.
- 226- هذا هو الإسلام: محمد متولي الشعراوي، الدار المصرية للنشر، مصر، 1987م.
- 227- الهيروغليفيّة، تفسير القرآن الكريم: سعد عبد المطلب العدل، ط01، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2002م.
- 228- وظيفة الألسن وديناميتها: أندريه مارتينييه، ترجمة نادر سراج، ط01، دار المنتخب، لبنان، 1416هـ-1996م.

229- وفيات الأعيان: أبو العباس أبو الخلكان، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية.

230- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: محمد محمود حجازي، ط02، دار التفسير، الرقازيق، 1424هـ-2004م.

الرسائل الجامعية:

231- الاتجاه العلمي لتفسير القرآن الكريم في العصور الحديثة، عبد الرحمان بوكعباش، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، القاهرة، 1989م.

232- دراسة لغوية لمفهوم الآية في القرآن الكريم: محمد العيد رتيمة، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 1993م.

الدوريات والمجلات:

- مجلة رسالة الإسلام: العدد 02، السنة 1379هـ-1960م.
- مجلة دراسات في الشريعة والقانون: العدد 01، 1424هـ-2003م.
- مجلة جامع الإمام، العدد 04.
- مجلة كلية أصول الدين، العدد 02.
- مجلة الإرشاد اليمنية، عدد سنة 1985م.
- مجلة المعرفة السورية: العدد 222-223، دمشق، 1980م.
- مجلة الوعي الإسلامي: عدد سنة 1984م.
- مجلة الأغذية الروسية: عدد 01، سنة 1976م.
- مجلة رسالة الإسلام، العدد 02، 1379هـ-1960م.
- المجلة العربية: عدد سنة 1985م.
- المعجزة العلمية للقرآن والسنة: عبد المجيد الزنداني، بحوث المؤتمر العلمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة: إسلام آباد، باكستان، 1408هـ-1987م.
- حوليات جامعة الجزائر: العدد 07، 1993م.

- * http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Special:Cite&page=Oskar_Klein&id=4341536
- * http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Special:Cite&page=Isaac_Newton&id=5747875
- * http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Special:Cite&page=Bernard_Palissy&id=5726605
- * <http://ar.wikipedia.org/w/index.php?title>
- * http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Special:Cite&page=Carl_David_Anderson&id=5593705
- * <http://library.thinkquest.org/C005775/Arabic/History/dirac.html>
- * <http://www.arabworldbooks.com/Readers2003/articles/hawkingA.htm#top>
- * http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Special:Cite&page=Albert_Einstein&id=5889471
- * http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Special:Cite&page=Galileo_Galilei&id=5899650
- * http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Special:Cite&page=Nicolas_Copernic&id=5890223
- * http://www.khayma.com/ashab/taab_alabadat_malafat/alsslaa-fwuaed.htm
- * <http://www.animesclub.com/vb/showthread.php?p=35123&mode=linear>
- * <http://www.abdelaziz-benabdallah.org/tassaouf.htmlhgmsds>
- * http://fr.wikipedia.org/wiki/Alexis_Carrel
- * <http://www.ebaa.net/sehha-hiyat/018/018.htm>
- * <http://daralansar.com/qalamdetails.asp?id=68>
- * <http://www.science4islam.com/index.aspx?act=da&id=396>
- * www.aljarodiah.org/vb/printthread.php?t=18931
- * <http://ar.wikipedia.org/wiki>
- * <http://forum.amrkhaled.net/showthread.php?t=15508>

جامعة الأمير عبد القادر
الملاحي
مركز الدراسات الإسلامية

إذا كانت الآية القرآنية معجزة إلهية مطلقة عرفها الإنسان منذ القدم فإن هذه الدراسة ستتناول هذه الآية بصفاتها مصطلحا قرآنيا له ارتباط وثيق بواقع الآفاق والأنفس..

ومن هنا تبرز أهمية هذه الدراسة التي لا تقف عند ما تحمله هذه الآية من إعجاز لغوي مقرون بالتحدي، بل تتعداها إلى إبراز الإعجاز العلمي الذي هو توسيع مدلول الآية القرآنية، وتعميق معانيها في الوجدان والفكر الإنساني بالانتفاع بالكشوف العلمية المعاصرة، في توسيع هذا المدلول وتعميق هذه المعاني عن طريق الاستئناس بالموافقات الدقيقة، والمقارنات العميقة الملحوظة للعلماء المتخصصين والخبراء الباحثين في مجالات الكون والحياة في شتى علومها ومعارفها؛ لأن الحقيقة العلمية لا تتعارض مع الحقيقة القرآنية المطلقة، وهي الدليل والبرهان الإعجازي على كون القرآن من عند الله تعالى بصرف النظر عن موضوع هذا الدليل لغويا كان أم علميا...؛ لأن جوهر الإعجاز القرآني يكمن في جانبين لغويين متلازمين هما:

ثبات اللفظ القرآني، وتجدد حركة المحتوي

ومن هذا المنطلق ينبغي أن ننظر إلى الآية الكبرى والمعجزة العظمى نظرة تدبر على أنها المادة المعرفية الجامعة للعلم بكل شيء والداعية إلى تعلم ذلك العلم..

ومن خلال هذه الدراسة سعينا -قدر المستطاع- إلى محاولة الربط بين بلاغة الآية وحقيقتها المعرفية.. من أجل الكشف والإيضاح والإظهار لما في الآفاق وما في الأنفس ممثلا بالتيان القرآني الذي فسر نظام الكون بأسره، ودعا إلى الكشف عن العلل الأولى لجميع الموجودات قبل أن تثبت في معارك العلاقات بين الوعي البشري وبين مادة الكون.

وتشتمل هذه الدراسة على: مدخل وباين:

- المدخل وعنوانه: النظام اللغوي العربي في ضوء الدراسات القرآنية

وقد حاولنا فيه تحديد تاريخ أبحاث اللسان العربي المبين، وبيننا أنها نشأت مرتبطة منذ البداية بالقرآن الكريم، وتطرقنا إلى المراحل التي مرت بها، وركزنا على مرحلة الوظيفة الإبلاغية للغة العربية عن طريق ربط النحو بالبلاغة لما لها من أثر في فهم الوظيفة الإبلاغية للآية القرآنية.

- الباب الأول وعنوانه: مفهوم الآية في الدراسات اللغوية والقرآنية

وقد اشتمل على ثلاث فصول:

- الفصل الأول: الآية في الدراسات اللغوية

وحاولنا خلاله تحديد مفهوم الآية، وبيننا مدلولها العام والخاص لغويا واصطلاحا وتطرقنا إلى العلاقة الوطيدة بين المعنى اللغوي والقرآني، وركزنا على أن أي كلمة قرآنية تحمل معنى يدور في إطار المعنى الذي يحمله جذرها اللغوي، ولا توجد كلمة قرآنية رديفة لأخرى بالمعنى المطلق الذي يتصوره بعض الدارسين.

- الفصل الثاني: الأنواع التركيبية للآية القرآنية

وتحدثنا فيه عن أنواع الآية القرآنية، كما أوردها العلماء في مؤلفاتهم من حيث تأليف حروفها وتركيبها اللغوي وتنقسم إلى قسمين:

1 آيات الحروف المقطعة (فواتح السور)

2 الآية المرکبة

- الفصل الثالث: الآية في الدراسات القرآنية

وقد حاولنا فيه تحديد مفهوم السورة، وبيننا مدلولها العام والخاص لغويا واصطلاحا وتطرقنا إلى فكرة التحدي والإعجاز بالسورة القرآنية مسترشداً بالقرآن نفسه في توضيح ذلك من خلال الفرق بين آيات التحدي. ثم ركزنا على أقوال الدارسين قدمائهم ومحدثهم في الكشف عن سر إعجازها "بعلم المناسبة". كما ركزنا أيضا على أوضح وجوه الإعجاز المتعلقة بمحتوى الآية العظمى والمعجزة الكبرى (القرآن الكريم) وأولها بالقبول هو الإعجاز اللغوي بمفهومه الأوسع والأشمل من خلال وضع شرح مفصل لمنهج الإعجاز القرآني في ضوء الجهود العلمية المعاصرة، كما عرضنا لقضية التفسير العلمي للقرآن الكريم، وذكرنا آراء المؤيدين والمعارضين واتبعنا ذلك برأي صائب في هذا الموضوع.

- الباب الثاني وعنوانه: الآية القرآنية بين ثبات اللفظ وتجدد حركة المحتوى

وقد صدرته بتمهيد عن الصلة الوثيقة بين الإعجاز اللغوي والعلمي وما أفادته الدراسات اللغوية والعلمية لقرآن الكريم من نظرية الإعجاز القرآني.

وقد اشتمل على ثلاثة فصول أيضا:

- الفصل الأول: نماذج من الإعجاز اللغوي للآية القرآنية

تحدثنا فيه عن بعض أسرار الإعجاز اللغوي في بعض آيات المحكمات والمتشابهات وركزنا على أن الآية القرآنية مطلقة لا يحيط بها تاريخ ولا زمان ولا مكان، وتستمد إطلاقها من تعلقها بصفات الله تعالى التي هي فوق التاريخ والزمان، وهي روح تفيض بالحياة، تعطي كل جيل في كل زمان ومكان صور

للظاهرة التي تصفها وتسميها بما يناسب مدارك هذا الجيل.. ومن ثم تعطي تصورا يتطور مع تطور العلم والمعرفة.

- الفصل الثاني: نماذج من الإعجاز العلمي للآية القرآنية:

تحدثنا فيه عن بعض أسرار الإعجاز العلمي في بعض آيات المحكمات والمتشابهات.. وركزنا على أحد معاني الإعجاز القرآني وهو الإخبار عن المستقبل، إن في مجال الإعجاز العلمي الطي للكشف عن أسرار الحلال والحرام في العبادات والمعاملات أو في مجال الإعجاز بالسبق وذلك في إشارة بنصوص الآية القرآنية إلى حقائق علمية ثبتت في العصر الحديث أو ما زال العلم يلهث وراء إثباتها.

- الفصل الثالث: نماذج من الإعجاز اللغوي والعلمي للآية القرآنية

وتحدثنا فيه عن بعض أسرار الإعجاز اللغوي والعلمي في بعض آيات المحكمات والمتشابهات وركزنا على أن أحكام الآية القرآنية متكاملة ومتعاضة في وصف وتصوير المسائل ولا اختلاف ولا تصادم بينها وهي كل لا يتجزأ وأن الحديث النبوي الشريف يبين معناها ويفهم ضمن إطارها وأن ألفاظ دلالاتها تتطور مع مرور الزمن تتوسع كبير بحيث لا يكاد يحصيها دارس والدليل على ذلك أن كل ما يكشفه العلم من حقائق في أي عصر من العصور إلا ويجدونها مذكورة في الآية القرآنية أو السنة النبوية أو هما معا مما يدل أيضا على أن الإعجاز العلمي هو الآخر موقف من مواقف التحدي كإعجاز اللغوي، والمتحدى لا بد أن يكون واقفا على أرضية صلبة ولذلك لا يجوز أن يوظف في الإعجاز العلمي إلا الحقائق العلمية المطابقة للحقيقة القرآنية كما أوضحنا في النماذج السابقة، كل ذلك شاهد على أمر نجد فيه كل يوم جديد ألا وهو الإعجاز المتجدد للقرآن العظيم.

وختمنا الدراسة بملخص لأهم النتائج المتوصل إليها

وأخيرا يمكننا القول: إن موضوع الآية القرآنية يدور داخل إطار الدليل والمعجزة والبرهان فكل آية في القرآن الكريم تشير إلى الدليل والبرهان الإعجازي الذي يدركه أصحاب العقول السليمة في موجودات هذا الكون. والقرآن الكريم كل آية فيه تتعلق بصفات الله تعالى وهو كلام الله تعالى المطلق فوق عالم المادة والمكان والزمان وقراءتنا لكل آية منه هي انعكاس في هذا العالم المادي المخلوق لما قاله الله تعالى في عالم ما فوق المادة والمكان والزمان، ومن ثم ينبغي على العلماء المخلصين، أن يفسروا القرآن تفسيرا منهجيا معتمدا على فهم الآية القرآنية فهما عقليا صحيحا وعلى تفعيل العقل تفعيلا علميا منهجيا ضمن إطار هذه الآية المعجزة المطلقة.

REPUBLIC OF ALGERIA AND DEMOCRATIC
Ministry of High Education and Scientific Research
Emir -Abdul- El Kader University
Of Islamic Sciences- Constantine

Faculty of Arts & Human Sciences

Department of Arabic Languages and Quoranic Studies

The Quoranic Vocabulary
between
Lexicography and scientific lexicography
(study of description and functional)

Thesis presented to obtain doctorat in Arabic Language

Presented by:

SALAH GHERIBI

Directed by :

Prof. Rabeh Dob

Year :

2005/2006

A. Summary (English Translation)

If the Quoranic verse is an absolute miracle known by mankind for a long time, this study will take this verse as a Quoranic demonstration which has a strong link with the reality of the horizons and the souls.

from now the importance of this study appear which doesn't stop in front of This verse that takes a lexicography eloquence connected by challenge but it passes to show the scientific eloquence wich is the largest significante of the Quoranic verse and deepen its suppressions in man's conscience and thought and profit by modern scientific in enlarging this significante and seen these suppressions through the social life with the precised agreements and deeply comparisons of the specialist learned and the experts and the researches in the universe and life in different parts of scientific and knowledge because the scientific reality doesn't oppose with the absolute Quoranic reality and it is the eloquence and proof as the Quoran is from GOD without looking this proof is lexicography or scientific. because the important thing of miracle Quoranic placed in two lexicography sides are: the steadiness of the Quoranic utterance, and the renewal the action of contents and from this point of view we must observe deeply to big verse and the great miracle as it is a subject of the whole knowledge for any thing and the causes to learn that science.

with this study we tried to link between eloquence of verse and reality of knowledge.. for clarifying and to reveal witch exists in the horizon and in souls which is presented by the eloquence Quoranic demonstration which clarify the organization of the universe and showing the primary problems for all the existence before even in battles of relationship between human conscious and the subject of universe. This study consists of one entrance and two doors .

- The entrance and its title: the organization of the Arab lexicography in the Quoranic studies.

We've tried to limit the date of the researches clearly of the Arab tongue and its birth is related from the beginning with the Quoran and we mentioned the different steps through it passage and we insisted on the eloquence function of the

Arabic languages through a scientific eloquence which has a great effect to understand the eloquence function of Quoranic verse.

- **The first door and its title :** the meaning of the verse in the study of lexicography and Quoranic, which is consists of three chapter.
- **Chapter one:** the verse of the study in the lexicography; we have tried through this, to definite the meaning of the verse and we've shown its general and particular indications lexicography and terminology, then we've mentioned the relationship between the meaning of lexicography and Quoranic. we insisted that more each Quoranic word takes a meaning surrounding in the form of the meaning which take the lexicography root, which there is not to Quoranic word similar to another with a complete meaning as it is imagined by some researches.
- **Chapter two:** the composed types of the Quoranic verse we've mentioned the different kinds of the Quoranic verse as it was established by some learned in their books from composing its letters and its lexicography composition, which is divided into two parts:

1/ Verses of cutting letters(first verses)

2/ The composed verse.

- **Chapter three:** the verse in Quoranic studies

We tried to limit the definition of the sorah and we shown its general and particular definition lexicography and terminology then we have mentioned the idea of challenge and the miracle by sorah of the Quoran, guided by the Quoran it self in clarifying that from the difference between the verse of challenge, then we insisted on the learners ideas the early and the recent ones in discovering the secret of its miracle (the knowledge of the analogue)

As we've also insisted on the types of the miracle concerning the content of a strong verse and the strong miracle. (The Quoran), first acceptance is the lexicography miracle with its large and vast definition from illustrating a detailed explanation of the Quoranic miracle in the frame of the recent scientific efforts. Fore this reason we have proposed in the scientific explanation of (The Noble Quoran) and we

mentioned the point of view of those who agree and those who disagree, and we followed that with a correct view in this subject.

The second door and its title: The Quoranic verse between the stability of pronunciation and the renovation of the movement of the content and I proceeded it by an introduction on the relationship between the lexicography and scientific miracle and on what the lexicography and scientific studies have proved to the noble Quoran, from the theory of the Quoranic miracle, which is composed of three others chapter.

- 1st chapter: Types of lexicography miracle for the Koranic verse. We talked about some secrets of lexicography miracle in some similar verse and we concentrated on that the Quoranic verse is absolute is not limited by a date or a place but with its relations with the GODs' character, which is upon the history, place and time, and it is a soul full of life gives to every generation in each time and place a picture of capacities of conscious of this generation and then it proposes an imagination that developed with the development of science and Knowledge.
- 2nd chapter: Types of scientific miracle of the Quoranic verse. We've talked about some secrets of scientific miracle in verse and similar verse and we've insisted on one meaning of the Quoranic miracle which is the information of the future; especially in medical fields to show the secrets of the lawful and the forbidden in the worships and dealings in the miracle fields by Showing texts of Quoranic verse to scientific facts proved in recent time or the science still runs behind its proof.
- 3rd chapter: Types of lexicography and scientific miracle of the Quoranic verse. We talked about some secrets of lexicography and scientific miracle in some miracles and similar verse and we insisted on that the rules of the Quoranic verse is complete and solid in describing and drawing the functions without difference and contradiction between them. It is a whole not divided and the Hadith of the Prophet Mohamed's (peace be upon him) showed it's meaning and comprehension in its frame and the pronunciation of the verse develop by epoch

and as a proof by a large development which it can not be counted by any study the proof to all actual scientific discovery of reality at any moment, where it is mentioned in Quoranic verse or (Sunna) or together, which is indicated also the scientific miracle is also a deli or challenge as the lexicography miracle. the challenger must be solid and important so it is not permitted to employ in the scientific miracle only for the scientific facts similar to reality Quoranic, as we classified in these previous types all of these are witnesses on the matter we find in every day, so it is the miracle of the Noble Quoran which is renewal.

We've concluded the study by a summary for important realized results.

Finally, we can said: that the object of the Quoranic verse surrounds in the frame of the proof and the miracle whereas each verse in the Noble Quoran indicates to the miracle proof which is understood by intellectuals in this universe.

Each verse in Noble Quoran has a relationship with the GODs'

Character is an absolute speech of the GOD above the material world, place and time. Our read to each verse is a contradiction of this material world which is created as GOD says in the world above material, place and time. And from that the sincerely learned must explain the Quoran methodical based on a correct understanding of the Quoranic verse, with a logic and real comprehension and performing the mind a scientific and real methodical in the frame of the absolute miracle verse.